النمل 19 فاستحسن الحاضرون جوابه ومثل هذا أيضا ما حكاه ابن رشيق القيرواني في كتاب الأنموذج وهو أن عبد الله بن إبراهيم بن المثنى الطوسي المعروف بابن المؤدب المهدوي الأصل القيرواني البلد الشاعر المشهور كان مغرى بالسياحة وطلب الكيمياء والأحجار وكان محروما مقترا عليه متلافا إذا أفاد شيئا فخرج مرة يريد جزيرة صقلية فأسره الروم في البحر وأقام مدة طويلة إلى أن هادن ثقة الدولة يوسف بن عبد الله بن محمد بن أبي الحسين القضاعي صاحب صقلية الروم وبعث إليه بالأسرى فكان عبد الله المذكور فيمن بعث فامتدح عبد الله المذكور ثقة

158 الدولة بقصيدة شكره فيها على صنعه ورجا صلته فلم يصله بشيء أرضاه وكانت فيه رغبة فتكلم وطلب طلبا شديدا وهو مستخف عند بعض من يعرف من أهل صناعته وطالت المدة فخرج سكران يشتري نقلا فما شعر إلا وقد أخذ وحمله صاحب الشرطة حتى أدخله على ثقة الدولة فقال له ما الذي بلغني يا بائس قال المحال أيد الله سيدنا الأمير قال ومن هو الذي يقول في شعره (فالحر ممتحن بأولاد الزنا *) قال هو الذي يقول (وعداوة الشعراء بئس المقتنى *) فتنمر ساعة ثم أمر له بمائة رباعي وأخرجه من المدينة كراهية أن تقوم عليه نفسه فيعاقبه بعد أن عفا عنه فخرج منها وهذا المستشهد به عجزا

بيتين من شــعر المتنبي في قصــيدته النونية التي يمدح بها بدر بن عمار وأولها (الحب ما منع الكلام الألسنا * وألذ شــكوى عاشــق ما أعلنا) وهي من مشــاهير قصــائده وأول العجز الأول (وأنه المشــير عليك في بضــــلة * فالحر ممتحن بأولاد الزنا) وأول العجز الثاني (ومكايد السفهاء واقعة بهم * وعداوة الشعراء بئس المقتنى)

159 وإذ قد ذكرنا ثقة الدولة المذكور فنذكر قصيدة أبي محمد عبد الله بن محمد التنوخي المعروف بابن قاضــــي ميلة التي مدحه بها في عيد النحر وهي قصــــيدة بديعة لا توجد بكمالها في أيدي الناس ولقد ظفرت بها في ظهر كتاب ولم يكن عندي منها ســـوى البعض ولا ســـمعت أحدا يروي منها إلا ذلك القدر فأحببت إثباتها لحســـنها وغرابتها وهي هذه (يذيل الهوى دمعي وقلبي المعنف * وتجني جفوني الوجد وهو المكلف) (وإني ليدعوني إلى ما شـــنفته * وفارقت مغناه الأغن المشـــنف) (وأحور ســـاجي الطرف أما وشــاحه * فصــفر وأما وقفه فموقف) (يطيب أجاج الماء من نحو أرضـــه * يحيي ويندى ريحه وهو حرجف) (وأيأســني من وصــله أن دونه * متالف تســري الريح فيها فتتلف) (وغيران يجفو النوم كي لا يرى لنا * إذا نام شملا في الكرى يتألف) (يظل على ما كان من قرب دارنا * وغفلته عما مضــى يتأسف) (وجون بمزن الرعد يستن ودقه *

يرى برقه كالحية الصــل تطرف) (كأني إذا ما لاح
والرعد معول * وجفن السحاب الجون بالماء يذرف)
(سليم وصـوت الرعد راق وودقه * كنفث الرقى من
ســوء ما أتكلف) (ذكرت به ريا وما كنت ناســيا *
فأذكر لكن لوعة تتضـــعف) (ولما التقينا محرمين
وســـيرنا * بلبيك ربا والركائب تعســـف) (نظرت
إليها والمطي كأنما * غواربها منها معاطس رعف)
(فقالت أما منكن من يعرف الفتى * فقد رابني من
طول ما يتشــوف) (أراه إذا ســرنا يســير حذاءنا *
ونوقف أخفاف المطي فيوقف)
160 (فقلت لتربيها ابلغاها بأنني * بها مستهام
قالتا نتلطف) (وقولا لها يا أم عمرو أليس ذا * منى
والمنى في خيفه ليس يخلف) (تفاءلت في أن تبذلي
طارف الوفا * بأن عن لي منك البنان المطرف) (
وفي عرفات ما يخبر أنني * بعارفة من عطف قلبك
أســـعف) (وأما دماء الهدي فهي هدى لنا * يدوم
ورأي في الهوى يتألف) (وتقبيل ركن البيت إقبال
دولة * لنا وزمان بالمودة يعطف) (فأوصلتا ما قلته
فتبسمت * وقالت أحاديث العيافة زخرف) (بعيشي
ألم أخبركما أنه فتى * على لفظه برد الكلام المفوف)
(فلا تأمنا ما اسطعتما كيد نطقه * وقولا ستدري أينا
اليوم أعيف) (إذا كنت ترجو في منى الفوز بالمنى
* ففي الخيف من إعراضـــنا تتخوف) (وقد أنذر
الإحرام أن وصالنا * حرام وأنا عن مزارك نصدف)

(وهذا وقذفي بالحصى لك مخبر * بأن النوى بي عن ديارك تقذف) (وحاذر نفارى ليلة النفر إنه * سريع فقل من بالعيافة أعرف) (فلم أر مثلينا خليلي مودة * لكل لسان ذو غرارين مرهف) (أما إنه لولا أغن مهفهف * وأشنف براق وأحور أوطف) (لراجع مشتاق ونام مسهد * وأيقن مرتاب وأقصر مدنف) (وعاذلة في بذل ما ملكت يدي * لراج رجاني دون صحبي تعنف) (تقول إذا أفنيت مالك كله * وأحوجت من يعطيكه قلت يوسف) (أغر قضاعي يكاد نواله * لكثرة ما يدعو إلى الشكر يجحف) (إذا نحن أخلفنا مخايل ديمة * وجدنا حيا معروفه ليس يخلف) (سعى وسعى الأملاك في طلب العلا * ففاز وأكدوا إذ أخف وأقطفوا)

161 (ويقظان شاب البطش باللين والتقى * بكفيه ما يرجى وما يتخوف) (حسام على من ناصب الدين مصلت * وستر على من راقب الله مغدف) (يسايره جيشان رأي وفيلق * ويصحبه سيفان عزم ومرهف) (مطل على من شاءه فكأنما * على حكمه صرف الردى يتصرف) (يرى رأيه ما لا ترى عين غيره * ويفري به ما ليس يفري المثقف) (رعى الله من ترعى حمى الدين عينه * ويحمي حمى الإسلام والليل أغضف) (ومن وعده في مسرح الحمد مطلق * وإيعاده في ذمة الحلم موقف) (ومن يضرب الأعداء هبرا فينثني * صناديدهم

والبيض بالهام تقذف) (رماهم بمجر ضـــعضـــع الأرض رزه * كأن الروابي منه بالنبل تدلف) (كأن الردينيات في رونق الضحى * أراقم في طام من الآل تزحف) (يعود الدجى من بيضـــه وهو أبيض * ويبدو الضـــحى من نقعه وهو أكلف) (ويحجب نور الشمس بالنقع عنهم * ففعل الظبا في هامهم لا يكيف) (لهم كل عام منك جاءوك فيلق * يســـائل عنهم بالعوالي فيلحف) (إذا ما طووا كشـــحا على قرح عامهم * وبلوا من الآلام أنشـــأت تقرف) (فكم من أغم الوجه غاو تركته * وهاديه من عثنون لحييه أكثف) (هوى المقضـــب الماضـــي بمهواه فانثنى * صريعا تراه حبترا وهو أسقف) (لعمري لقد عاديت في الله طالبا * رضـــاه وقد أبليت ما الله يعرف) (أطالبتهم في الأهل حتى تركتهم * فرادى وفي الأديان حتى تحنفوا) (فيا ثقة الملك الذي الملك ســـهمه * يراش لأكباد الأعادي ويرصـــف) (هنيئا لك العيد الذي منك حسنه * يروق ومن أوصافك الغر يوصف) (بدا معلم الأرجاء يزهى كأنما * على عطفه وشي العراق المشفف) (أتى بعد حول زائرا عن تشوق * وقد كان ذا طرف للقياك يطرف)
162 (فطوقته عزا وشنفته به * فلاح لنا وهو المحلى المشنف) (وقابله بالسعد نجلك جعفر * فيا لك من عيد بملكين تتحف) (فلا زلت تســـتجدى فتولي وترتجى * فتكفي وتستدعى لخطب فتكشف)

نجزت القصـــيدة (314) وكان لثقة الدولة المذكور ولد يدعى تاج الدولة جعفر بن ثقة الدولة وكان أديبا شـاعرا وله الأبيات السـائرة في غلامين على أحدهما ثوب ديباج أحمر وعلى الآخر ثوب ديباج أسـود وهي (أرى بدرين قد طلعا * على غصـنين في نسـق) (وفي ثوبين قد صـبغا * صـباغ الخد والحدق) (فهذا الشمس في شفق * وهذا البدر في غسق) وكان عمله لهذه الأبيات في سنة سبع وعشرين وخمسمائة ولما توجه المأمون إلى مصـر وذلك في سـنة سـبع عشـرة ومائتين دخلها لعشـــر خلون من المحرم وخرج منها سلخ صـفر من السنة كان معه القاضـي يحيى بن أكثم فولاه قضـــاء مصـــر وحكم بها ثلاثة أيام ثم خرج مع المأمون وعده ابن زولاق في جملة قضـاة مصـر لذلك وروي عن يحيى بن أكثم أنـه قـال اختصــــم إلي في الرصــافة الجد الخامس يطلب ميراث ابن ابن ابن ابنه وكان عبد الصــمد بن أبي مروة بن المعذل بن غيلان بن المحارب بن البحتري

163 العبدي البصـري الشـاعر المشـهور يلازم الترداد إلى القاضـي يحيى المذكور ويغشـى مجلسـه وكان بعض الأحيان لا يقدر على الوصول إليه إلا بعد مشـــقة ومذلة يقاســيها فانقطع عنه فلامته زوجته في ذلك مرارا فأنشــدها (تكلفني إذلال نفســي لعزها * وهان عليها أن أهان لتكرما) (تقول سـل المعروف يحيى بن أكثم * فقلت سليه رب يحيى بن أكثما) ولم

تزل الأحوال تختلف عليه وتتقلب به إلى أيام المتوكل على الله فلما عزل القاضي محمد بن القاضي أحمد بن أبي داود عن القضاء فوض الولاية إلى القاضي يحيى وخلع عليه خمس خلع ثم عزله في سنة أربعين ومائتين وأخذ أمواله وولى في رتبته جعفر بن عبد الواحد بن جعفر بن سليمان بن علي ابن عبد الله بن العباس الهاشمي فجاء كاتبه إلى القاضي يحيى فقال له سلم الديوان فأبى فقال شاهدان عدلان على أمير المؤمنين أنه أمرني بذلك فأخذ منه الديوان قهرا وغضب عليه المتوكل فأمر بقبض أملاكه وألزم منزله ثم حج وحمل أخته معه وعزم على أن يجاور فلما اتصل به رجوع المتوكل له بدا له في المجاورة ورجع يريد العراق فلما وصل إلى الربذة توفي بها يوم الجمعة منتصف ذي الحجة سنة اثنتين وأربعين ومائتين وقيل غرة سنة ثلاث وأربعين ودفن هناك رحمه الله تعالى وعمره ثلاث وثمانون سنة وأكثم بفتح الهمزة وسكون الكاف وفتح الثاء المثلثة وبعدها ميم وهو العظيم البطن والشبعان أيضا يقال بالثاء المثلثة والتاء المثناة من فوقها ومعناهما واحد ذكره في كتاب المحكم وحكى أبو عبد الله الحسين بن عبد الله بن سعيد قال كان يحيى بن أكثم القاضي صديقا لي وكان يودني وأوده فمات يحيى فكنت أشتهي أن أراه في المنام فأقول ما فعل الله بك فرأيته ليلة في المنام فقلت ما فعل الله بك

164 قال غفر لي إلا أنه وبخني ثم قال لي يا يحيى خلطت علي في الدنيا فقلت يا رب اتكلت على حديث حدثني به أبو معاوية الضرير عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله إنك قلت إني لأستحيي أن أعذب ذا شيبة بالنار فقال قد عفوت عنك يا يحيى وصدق نبيي إلا أنك خلطت علي في دار الدنيا هكذا ذكره أبو القاسم القشيري في الرسالة وقطن بفتح القاف والطاء المهملة وبعدها نون وسمعان بفتح السين المهملة ومشنج كشفت عنه كثيرا من الكتب وأرباب هذه الصناعة فلم أقف منه على حقيقة ثم وجدت في نسخة من تاريخ بغداد للخطيب وهي صحيحة مسموعة وقد قيد هذا الاسم بضم الميم وفتح الشين المعجمة وفتح النون المشددة وفي آخره جيم هذا أقصى ما قدرت عليه والله أعلم بالصواب ثم وجدته في المختلف والمؤتلف لعبد الغني بن سعيد كما قيل هاهنا الأسيدي بضم الهمزة وفتح السين المهملة وكسر الياء المثناة من تحتها وتشديدها وبعدها دال مهملة هذه النسبة إلى أسيد وهو بطن من تميم يقال له أسيد بن عمرو بن تميم وقد تقدم الكلام على التميمي والمروزي والربذة بفتح الراء والباء الموحدة والذال المعجمة وبعدها هاء ساكنة وهي قرية من قرى المدينة على طريق الحاج ينزلونها عند عبورهم عليها وهي التي

نفى عثمان بن عفان أبا ذر الغفاري رضـــي الله عنهما إليها وأقام بها حتى
165 مات وقبره ظاهر هناك يزار وميلة بكسر الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح اللام وبعدها هاء ســـاكنة وهي بليدة من أعمال إفريقية (315) وتوفي جعفر بن عبد الواحد القاضـــي المذكور ويكنى أبا عبد الله سنة ثمان وخمسين ومائتين وقيل سنة ثمان وستين وقيل سنة تسع وستين بطرسوس رحمه الله تعالى 794 يحيى بن معاذ الواعظ أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازي الواعظ أحد رجال الطريقة ذكره أبو القاسم القشيري في الرسالة وعده من جملة المشايخ وقال في حقه نسيج وحده في وقته له لسان في الرجاء خصوصا وكلام في المعرفة خرج إلى بلخ وأقام بها مدة ورجع إلى نيســابور ومات بها ومن كلامه كيف يكون زاهدا من لا ورع له تورع عما ليس لك ثم ازهد فيما لك وكان يقول الجوع للمريدين رياضة وللتائبين تجربة وللزهاد ســـياســـة وللعارفين مكرمة والوحدة جليس الصـــديقين والفوت أشـــد من الموت لأن الفوت انقطاع عن الحق والموت انقطاع عن الخلق والزهد ثلاثة أشـــياء القلة والخلوة والجوع ومن خان الله في السر هتك ستره في العلانية
166 وسمع إسحاق بن سليمان الرازي ومكي بن إبراهيم البلخي وعلي بن محمد الطنافســـي وروى عنه الغرباء من أهل الري وهمذان وخراسان أحاديث

مسندة قليلة وذكره الخطيب في تاريخ بغداد فقال قدم بغداد واجتمع إليه بها مشايخ الصوفية والنساك ونصبوا له منصة وأقعدوه عليها وقعدوا بين يديه يتحاورون فتكلم الجنيد فقال له يحيى اسكت يا خروف ما لك والكلام إذا تكلم الناس وكان له إشارات وعبارات حسنة فمن كلامه الكلام الحسن حسن وأحسن من الكلام معناه وأحسن من معناه استعماله وأحسن من استعماله ثوابه وأحسن من ثوابه رضا من يعمل له ومن كلامه حقيقة المحبة أن لا تزيد بالبر ولا تنقص بالجفاء وكان يقول من لم يكن ظاهره مع العوام فضة ومع المريدين ذهبا ومع العارفين المقربين درا وياقوتا فليس من حكماء الله المريدين وكان يقول أحسن شيء كلام صحيح من لسان فصيح في وجه صبيح كلام دقيق يستخرج من بحر عميق على لسان رجل رفيق وكان يقول إلهي كيف أنساك وليس لي رب سواك إلهي لا أقول لا أعود لأني أعرف من نفسي نقض العهود ولكني أقول لا أعود لا أعود لعلي أموت قبل أن أعود ومن دعائه اللهم إن كان ذنبي قد أخافني فإن حسن ظني بك قد أجارني اللهم سترت علي في الدنيا ذنوبا أنا إلى سترها في القيامة أحوج وقد أحسنت بي إذ لم تظهرها لعصابة من المسلمين فلا تفضحني في ذلك اليوم على رؤوس العالمين يا أرحم الراحمين

167 ودخل على علوي ببلخ زائرا له ومسلما عليه فقال له العلوي أيد الله الأستاذ ما تقول فينا أهل البيت قال ما أقول في طين عجن بماء الوحي وغرس بماء الرسالة فهل يفوح منهما إلا مسك الهدى وعنبر التقى فحشا العلوي فاه بالدر ثم زاره من الغد فقال يحيى بن معاذ إن زرتنا فبفضلك وإن زرناك فلفضلك فلك الفضل زائرا ومزورا ومن كلامه ما بعد طريق إلى صديق ولا استوحش في طريق من سلك فيه إلى حبيب ومن كلامه مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة وقال ما صحت إرادة أحد قط فمات حتى حن إلى الموت واشتهاه اشتهاء الجائع إلى الطعام لارتداف الآفات واستيحاشه من الأهل والإخوان ووقوعه فيما يتحير فيه صريح عقله وقال من لم ينظر في الدقيق من الورع لم يتصل إلى الجليل من العطاء وقال ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال إن لم تنفعه فلا تضره وإن لم تسره فلا تغمه وإن لم تمدحه فلا تذمه وقال عمل كالسراب وقلب من التقوى خراب وذنوب بعدد الرمل والتراب ثم تطمع في الكواعب الأتراب هيهات أنت سكران بغير شراب ما أكملك لو بادرت أملك ما أجلك لو بادرت أجلك ما أقواك لو خالفت هواك وله في هذا الباب كل كلام مليح وتوفي سنة ثمان وخمسين ومائتين بنيسابور رحمه الله تعالى وقال

168 محمد بن عبد الله قرأت على اللوح في قبر يحيى بن معاذ الرازي مات حكيم الزمان يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالى وبيض وجهه وألحقه بنبيه محمد يوم الاثنين لست عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ثمان وخمسين ومائتين 795 يحيى بن منده أبو زكريا يحيى بن عبد الوهاب ابن الإمام أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده بن الوليد بن منده بن بطه بن استندار بن جهار بخت ابن فيرزان واسم منده إبراهيم ومنده لقب وقيل إن اسم الفيرزان استندار والله أعلم العبدي كان من الحفاظ المشهورين وأحد أصحاب الحديث المبرزين وقد سبق ذكر جده أبي عبد الله محمد في حرف الميم وهو أبو زكريا بن أبي عمرو بن أبي عبد الله بن أبي محمد بن أبي يعقوب من أهل أصبهان وهو محدث ابن محدث ابن محدث ابن محدث ابن محدث وكان جليل القدر وافر الفضل واسع الرواية ثقة حافظا فاضلا مكثرا صدوقا

169 كثير التصانيف حسن السيرة بعيد التكلف أوحد بيته في عصره خرج التخاريج لنفسه ولجماعة من الشيوخ الأصبهانيين وسمع أبا بكر محمد بن عبد الله بن زيد الضبي وأبا طاهر محمد بن أحمد ابن محمد بن عبد الرحيم الكاتب وأبا منصور محمد بن عبد الله بن فضلويه الأصبهاني وأباه أبا عمرو وعميه أبا الحسن عبيد الله وأبا القاسم عبد الرحمن وأبا

العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن النعمان القضاعي وأبا عبد الله محمد ابن علي بن محمد الجصاص وأبا بكر محمد بن علي بن الحسين الجوزداني وأبا طاهر أحمد بن محمود الثقفي ورحل إلى نيسابور وسمع بها أبا بكر أحمد بن منصور بن خلف المقرىء وأبا بكر أحمد بن الحسين البيهقي وبهمذان أبا بكر محمد بن عبد الرحمن بن محمد النهاوندي وبالبصرة أبا القاسم إبراهيم بن محمد بن أحمد الشاهد وعبد الله بن الحسين السعداني وجماعة كثيرة سواهم وصنف تاريخ أصبهان وغيره من الجموع ودخل بغداد حاجا وحدث بها وأملى بجامع المنصور وكتب عنه الشيوخ منهم أبو الفضل محمد بن ناصر وعبد القادر بن أبي صالح الجيلي وأبو محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد بن الخشاب النحوي في خلق كثير لشهرته وبيته وروى عنه أبو البركات عبد الوهاب بن المبارك الأنماطي الحافظ وأبو الحسن علي بن أبي تراب الزيكوني الخياط البغدادي وأبو طاهر يحيى بن عبد الغفار بن الصباغ وأبو الفضل محمد بن هبة الله بن العلاء الحافظ وجماعة كثيرة وذكره الحافظ ابن السمعاني في كتاب الذيل وقال كتب لي الإجازة بجميع مسموعاته ثم قال سألت عنه أبا القاسم إسماعيل بن محمد الحافظ فأثنى عليه ووصفه بالحفظ والمعرفة والدراية ثم قال سمعت أبا بكر محمد

170 ابن أبي نصـــر بن محمد اللفتواني الحافظ يقول بيت ابن منده بدىء بيحيى وختم بيحيى يريد في معرفة الحديث والعلم والفضـــل وذكره الحافظ عبد الغافر بن إســماعيل بن عبد الغافر الفارســـي المقدم ذكره في مساق تاريخ نيسابور فقال أبو زكريا يحيى بن عبد الوهاب ابن منده رجل فاضـــل من بيت العلم والحديث المشـــهور في الدنيا ســافر وأدرك المشـايخ وســمع منهم وصــنف على الصــحيحين وكان يروي بإســناده المتصـــل إلى بعض العلماء أنه قال كثرة الضـــحك أمارة الحمق والعجلة من ضـــعف العقل وضـــعف العقل من قلة الرأي وقلة الرأي من ســـوء الأدب وســـوء الأدب يورث المهانة والمجون طرف من الجنون والحســـد داء لا دواء له والنمائم تورث الضغائن وكان يروي بالإسناد المتصل إلى الأصمعي أنه قال دخلت في البادية إلى مسجد فقام الإمام يصلي فقرأ (^ إنا أرســـلنا نوحا إلى قومه) نوح 1 وأرتج عليه فجعل يرددها ويقول (^ إنا أرســـلنا نوحا إلى قومه) فقال أعرابي من ورائه وهو قائم يصلي يا هذا إن لم يذهب نوح فأرســـل غيره وكان يحيى المذكور كثيرا ما ينشـــد لبعضـــهم (عجبت لمبتاع الضـــلالة بالهدى * وللمشـتري دنياه بالدين أعجب) (وأعجب من هذين من باع دينه * بدنيا سواه فهو من ذين أخيب) وكانت ولادته في غداة يوم الثلاثاء تاســـع عشـــر شـــوال ســـنة أربع وثلاثين وأربعمائة وتوفي يوم عيد

النحر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة بأصبهان ومولده
بها أيضا رحمه الله تعالى ولم يخلف في بيت ابن منده
بعده مثله وقال ابن نقطة في كتابه إكمال الإكمال
توفي يوم السبت ثاني عشر ذي الحجة من سنة إحدى
عشرة وخمسمائة وذكر أن مولد أبيه عبد الوهاب
171 سنة ست وثمانين وثلثمائة وتوفي في
جمادى الآخرة من سنة خمس وسبعين وأربعمائة
رحمه الله تعالى وقد سبق الكلام على ضبط أسماء
أجداده في ترجمة جده أبي عبد الله محمد رحمه الله
تعالى 796 ابن سعدون القرطبي أبو بكر يحيى بن
سعدون بن تمام بن محمد الأزدي القرطبي الملقب
سابق الدين أحد الأئمة المتأخرين في القراءات وعلوم
القرآن الكريم والحديث والنحو واللغة وغير ذلك
خرج من الأندلس في عنفوان شبابه وقدم ديار مصر
فسمع بالإسكندرية أبا عبد الله محمد بن أحمد بن
إبراهيم الرازي وبمصر أبا صادق مرشد بن يحيى
ابن القاسم المدني المصري وأبا طاهر أحمد بن محمد
الأصبهاني المعروف بالسلفي وغيرهم ودخل بغداد
سنة سبع عشرة وخمسمائة وقرأ بها القرآن الكريم
على الشيخ أبي محمد عبد الله بن علي المقرىء
المعروف بابن بنت الشيخ أبي منصور الخياط وسمع
عليه كتبا كثيرة منها كتاب سيبويه وقرأ الحديث على
أبي بكر محمد بن عبد الباقي البزار المعروف بقاضي
المارستان وأبي القاسم ابن الحصين وأبي العز ابن

كادش وغيرهم وكان دينا ورعا عليه وقار وهيبة وسكينة وكان ثقة صدوقا ثبتا نبيلا
172 قليل الكلام كثير الخير مفيدا أقام بدمشق مدة واستوطن الموصل ورحل عنها إلى أصبهان ثم عاد إلى الموصل وأخذ عنه شيوخ ذلك العصر وذكره الحافظ ابن السمعاني في كتاب الذيل وقال إنه اجتمع به بدمشق وسمع منه مشيخة أبي عبد الله الرازي وانتخب عليه أجزاء وسأله عن مولده فقال ولدت في سنة ست وثمانين وأربعمائة بمدينة قرطبة من ديار الأندلس ورأيت في بعض الكتب أن مولده سنة سبع وثمانين والأول أصح وكان شيخنا القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد قاضي حلب رحمه الله تعالى يفتخر برؤيته وقراءته عليه وسيأتي ذلك في ترجمته إن شاء الله تعالى وقال كنا نقرأ عليه بالموصل ونأخذ عنه وكنا نرى رجلا يأتي إليه كل يوم فيسلم عليه وهو قائم ثم يمد يده إلى الشيخ بشيء ملفوف فيأخذه الشيخ من يده ولا نعلم ما هو ويتركه ذلك الرجل ويذهب ثم تقفينا ذلك فعلمنا أنها دجاجة مسموطة كانت برسم الشيخ في كل يوم يبتاعها له ذلك الرجل ويسمطها ويحضرها وإذا دخل الشيخ إلى منزله تولى طبخها بيده وذكر في كتابه الذي سماه دلائل الأحكام أنه لازم القراءة عليه إحدى عشرة سنة آخرها سنة سبع وستين وخمسمائة وكان الشيخ أبو بكر القرطبي المذكور

كثيرا ما ينشد مسندا إلى أبي الخير الكاتب الواسطي رواهما بالإسناد المتصل إليه أنهما له (جرى قلم القضاء بما يكون * فسيان التحرك والسكون) (جنون منك أن تسعى لرزق * ويرزق في غشاوته الجنين) وقال أنشدنا أبو الوفاء عبد الباقي بن وهب بن حسان قال أنشدنا أبو عبد الله محمد بن منيع بمصر لنفسه (لي حيلة فيمن ينم * وليس في الكذاب حيله)
173 (من كان يخلق ما يقول * فحيلتي فيه قليله) وتوفي الشيخ أبو بكر المذكور بالموصل في يوم عيد الفطر من سنة سبع وستين وخمسمائة رحمه الله تعالى 797 يحيى بن يعمر النحوي أبو سليمان وقيل أبو سعيد يحيى بن يعمر العدواني الوشقي النحوي البصري كان تابعيا لقي عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم ولقي غيرهما وروى عنه قتادة بن دعامة السدوسي وإسحاق بن سويد العدوي وهو أحد قراء البصرة وعنه أخذ عبد الله بن أبي إسحاق القراءة وانتقل إلى خراسان وتولى القضاء بمرو وكان عالما بالقرآن الكريم والنحو ولغات العرب وأخذ النحو عن أبي الأسود الدؤلي المقدم ذكره يقال إن أبا الأسود لما وضع باب الفاعل والمفعول به زاد فيه رجل من بني ليث أبوابا ثم نظر فإذا في كلام العرب ما لا يدخل فيه فأقصر عنه فيمكن أن يكون هو يحيى بن يعمر المذكور إذ كان عداده في بني ليث لأنه حليف لهم وكان شيعيا من الشيعة

الأولى القائلين بتفضــــيل أهل البيت من غير تنقيص لذي فضل من غيرهم

174 حكى عاصــــم بن أبي النجود المقرىء المقدم ذكره أن الحجاج بن يوســـف الثقفي بلغه أن يحيى بن يعمر يقول إن الحسـن والحسـين رضـي الله عنهما من ذرية رسول الله وكان يحيى يومئذ بخراسان فكتب الحجاج إلى قتيبة بن مسـلم والي خراسـان وقد تقدم ذكره أيضا أن ابعث إلي بيحيى بن يعمر فبعث به إليه فقام بين يديه فقال أنت الذي تزعم أن الحســن والحسين من ذرية رسـول الله والله لألقين الأكثر منك شـعرا أو لتخرجن من ذلك قال فهو أماني إن خرجت قال نعم قال فإن الله جل ثناؤه يقول (^ ووهبنا لـه إسـحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسـنين وزكريا ويحيى وعيسـى) الآية الأنعام 85 قال وما بين عيسـى وإبراهيم أكثر مما بين الحسـن والحسـين ومحمد صـلوات الله عليه وسـلامه فقال له الحجاج ما أراك إلا قد خرجت والله لقد قرأتها وما علمت بها قط وهذا من الاسـتنباطات البديعة الغريبة العجيبة فلله دره ما أحسن ما استخرج وأدق ما استنبط قال عاصم ثم إن الحجاج قال له أين ولدت فقال بالبصرة قال أين نشأت قال بخراسان قال فهذه العربية أنى هي لك قال رزق قال خبرني عني هل ألحن فسكت فقال أقسمت عليك فقال أما إذ سألتني

أيها الأمير فإنك ترفع ما يوضـع وتضـع ما يرفع فقال ذلك والله اللحن السيء قال ثم كتب إلى قتيبة إذا جاءك كتابي هذا فاجعل يحيى بن يعمر على قضائك والسلام وروى ابن سلام عن يونس بن حبيب قال قال الحجاج ليحيى بن يعمر أتسـمعني ألحن قال في حرف واحد قال في أي قال في القرآن قال ذلك أشـنع ثم قال له ما هو قال تقول (^ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم إلى قوله أحب إليكم) التوبة 24 فتقرؤها بالرفع

175 قال ابن سلام كأنه لما طال الكلام نسي ما ابتدأ به فقال الحجاج لا جرم لا تسـمع لي لحنا قال يونس فألحقه بخراسان وعليها يزيد بن المهلب بن أبي صـفرة والله أعلم أي ذلك كان قال ابن الجوزي في كتاب شذور العقود في سنة أربع وثمانين للهجرة نفى الحجاج يحيى بن يعمر لأنه قال له هل ألحن فقال تلحن لحنا خفيا فقال أجلتك ثلاثا فإن وجدتك بعد بأرض العراق قتلتك فخرج وحكى أبو عمرو نصـر بن علي عن نوح بن قيس قال حدثنا عثمان بن محصن قال خطب أمير بالبصـرة فقال اتقوا الله فإنه من يتق الله فلا هورات عليه فلم يدروا ما قال الأمير فسـألوا يحيى بن يعمر فقال الهورات الضـياع يقول من اتقى الله فليس عليه ضـياع قال القزاز في كتاب الجامع الهورات المهالك واحدها هورة قال الراوي فحدثت بهذا الحديث الأصمعي فقال هذا شيء لم أسمع به قط حتى كان الساعة منك ثم قال إن كلام العرب لواسع لم

أسمع بذا قط وحكى الأصمعي قال حدثنا أبي قال
كتب يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وهو بخراسان
إلى الحجاج بن يوسف كتابا يقول فيه إنا لقينا العدو
فاضطررناهم إلى عرعرة الجبل ونحن بالحضيض
فقال الحجاج ما لابن المهلب ولهذا الكلام فقيل له إن
ابن يعمر عنده فقال فذاك إذا وكان يحيى بن يعمر
يعمل الشعر وهو القائل (أبى الأقوام إلا بغض قومي
* قديما أبغض الناس السمينا) وقال خالد الحذاء كان
لابن سيرين مصحف منقوط نقطه يحيى بن يعمر
وكان ينطق بالعربية المحضة واللغة الفصحى طبيعة
فيه غير متكلف وأخباره ونوادره كثيرة وتوفي سنة
تسع وعشرين ومائة رحمه الله تعالى ويعمر بفتح
الياء المثناة من تحتها والميم وبينهما عين مهملة وفي
الأخير
176 راء وقيل بضم الميم والأول أصح وأشهر
ويعمر بفتح الميم مضارع قولهم عمر الرجل بفتح
العين وكسر الميم إذا عاش زمنا طويلا وإنما سمي
بذلك تفاؤلا بطول العمر كما سمي يحيى بذلك أيضا
والعدواني بفتح العين المهملة والواو وبينهما دال
مهملة ساكنة وبعد الألف نون هذه النسبة إلى عدوان
واسمه الحارث بن عمرو بن قيس عيلان وإنما قيل له
عدوان لأنه عدا على أخيه فهم فقتله والوشقي بفتح
الواو وسكون الشين المعجمة وبعدها قاف هذه النسبة
إلى وشقة بن عوف بن بكر بن يشكر بن عدوان

المذكور 798 أبو زكريا الفراء أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسلمي المعروف بالفراء الديلمي الكوفي مولى بني أســـد وقيل مولى بني منقر كــان أبرع الكوفيين وأعلمهم بــالنحو واللغــة وفنون الأدب حكي عن أبي العباس ثعلب أنه قال لولا الفراء لما كانت عربية لأنه خلصـــها وضـــبطها ولولا الفراء لســــقطت العربية لأنها كانت تتنازع ويدعيها كل من أراد ويتكلم الناس فيها على مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب وأخذ النحو عن أبي الحســــن الكســــائي وهو والأحمر المقدم ذكره من

177 أشـــهر أصـــحابه وأخصـــهم به ولما عزم الفراء على الاتصــــال بالمأمون كان يتردد إلى الباب فبينما هو ذات يوم على الباب إذ جاء أبو بشــــر ثمامة بن الأشــــرس النميري المعتزلي وكان خصـــيصــــا بالمأمون قال ثمامة فرأيت أبهة أديب فجلســـت إليه ففاتشـــته عن اللغة فوجدته بحرا وفاتشـــته عن النحو فشــاهدته نســيج وحده وعن الفقه فوجدته رجلا فقيها عارفا باختلاف القوم وبالنجوم ماهرا وبالطب خبيرا وبأيام العرب وأشــعارها حاذقا فقلت له من تكون وما أظنك إلا الفراء فقال أنا هو فدخلت فأعلمت أمير المؤمنين المأمون فأمر بإحضــاره لوقته وكان ســبب اتصاله به وقال قطرب دخل الفراء على الرشيد فتكلم بكلام لحن فيه مرات فقال جعفر بن يحيى البرمكي إنه قد لحن يا أمير المؤمنين فقال الرشــيد للفراء أتلحن

فقال الفراء يا أمير المؤمنين إن طباع أهل البدو الإعراب وطباع أهل الحضر اللحن فإذا تحفظت لم ألحن وإذا رجعت إلى الطبع لحنت فاستحسن الرشيد قوله وقال الخطيب في تاريخ بغداد إن الفراء لما اتصل بالمأمون أمره أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العربية وأمر أن يفرد في حجرة من حجر الدار ووكل به جواري وخدما يقمن بما يحتاج إليه حتى لا يتعلق قلبه ولا تتشوف نفسه إلى شيء حتى إنهم كانوا يؤذونه بأوقات الصلوات وصير له الوراقين وألزمه الأمناء والمنفقين فكان يملي والوراقون يكتبون حتى صنف الحدود في سنتين وأمر المأمون بكتبه في الخزائن فبعد أن

178 فرغ من ذلك خرج إلى الناس وابتدأ بكتاب المعاني قال الراوي وأردنا أن نعد الناس الذين اجتمعوا لإملاء كتاب المعاني فلم نضبطهم فعددنا القضاة فكانوا ثمانين قاضيا فلم يزل يمليه حتى أتمه ولما فرغ من كتاب المعاني خزنه الوراقون عن الناس ليكسبوا به وقالوا لا نخرجه إلا لمن أراد أن ننسخه له على خمس أوراق بدرهم فشكا الناس إلى الفراء فدعا الوراقين فقال لهم في ذلك فقالوا إنما صحبناك لننتفع بك وكل ما صنفته فليس بالناس إليه من الحاجة ما بهم إلى هذا الكتاب فدعنا نعيش به فقال قاربوهم تنتفعوا وتنفعوا فأبوا عليه فقال سأريكم وقال للناس إني ممل كتاب معان أتم شرحا وأبسط قولا من الذي أمليت

فجلس يملي فأملى الحمد في مائة ورقة فجاء الوراقون إليه وقالوا نحن نبلغ الناس ما يحبون فنسخوا كل عشرة أوراق بدرهم وكان سبب إملائه كتاب المعاني أن أحد أصحابه وهو عمر بن بكير كان يصحب الحسن بن سهل المقدم ذكره فكتب إلى الفراء إن الأمير الحسن لا يزال يسألني عن أشياء من القرآن لا يحضرني عنها جواب فإن رأيت أن تجمع لي أصولا وتجعل ذلك كتابا يرجع إليه فعلت فلما قرأ الكتاب قال لأصحابه اجتمعوا حتى أملي عليكم كتابا في القرآن وجعل لهم يوما فلما حضروا خرج إليهم وكان في المسجد رجل يؤذن فيه وكان من القراء فقال له اقرأ فقرأ فاتحة الكتاب ففسرها حتى مر في القرآن كله على ذلك يقرأ الرجل والفراء يفسره وكتابه هذا نحو ألف ورقة وهو كتاب لم يعمل مثله ولا يمكن أحدا أن يزيد عليه وكان المأمون قد وكل الفراء يلقن ابنيه النحو فلما كان يوما أراد الفراء

179 أن ينهض إلى بعض حوائجه فابتدرا إلى نعل الفراء يقدمانه له فتنازعا أيهما يقدمه فاصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما فردا فقدماها وكان المأمون له على كل شيء صاحب خبر فرفع ذلك الخبر إليه فوجه إلى الفراء فاستدعاه فلما دخل عليه قال من أعز الناس قال ما أعرف أعز من أمير المؤمنين قال بلى من إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه وليا عهد المسلمين حتى رضي كل واحد أن يقدم له

فردا قال يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك ولكن خشـــيت أن أدفعهما عن مكرمة ســـبقا إليها أو أكسـر نفوسـهما عن شـريعة حرصـا عليها وقد روي عن ابن عباس أنه أمسك للحسن والحسين رضـي الله عنهم أجمعين ركابيهما حين خرجا من عنده فقال له بعض من حضر أتمسك لهذين الحدثين ركابيهما وأنت أسـن منهما فقال له اسـكت يا جاهل لا يعرف الفضـل لأهل الفضـــل إلا ذوو الفضـــل فقال له المأمون لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوما وعتبا وألزمتك ذنبا وما وضـــع ما فعلاه من شـــرفهما بل رفع من قدرهما وبين عن جوهرهما ولقد ظهرت لي مخيلة الفراســـة بفعلهما فليس يكبر الرجل وإن كان كبيرا عن ثلاث عن تواضـــعه لســـلطانه ووالده ومعلمه العلم وقد عوضـتهما بما فعلاه عشـرين ألف دينار ولك عشـرة آلاف درهم على حسن أدبك لهما وقال الخطيب أيضا كان محمد بن الحســـن الفقيه ابن خالة الفراء وكان الفراء يوما جالســـا عنده فقال الفراء قل رجل أنعم النظر في باب من العلم فأراد غيره إلا سهل عليه فقال له محمد يا أبا زكريا قد أنعمت النظر في العربية فنســـألك عن باب من الفقه فقال هات على بركة الله تعالى قال ما تقول في رجل صلى فسها فسجد سجدتين للسـهو فسـها فيهما ففكر الفراء سـاعة ثم قال لا شـيء عليه فقال له محمد ولم قال لأن التصـــغير عندنا لا

تصــغير له وإنما السـجدتان تمام الصــلاة فليس للتمام تمام فقال محمد ما ظننت آدميا يلد مثلك

180 وقد سبقت هذه الحكاية في ترجمة الكسائي ونبهت عليها ثم بما ذكرته هاهنا وكان الفراء لا يميل إلى الاعتزال وحكى سـلمة بن عاصـم عن الفراء قال كنت أنا وبشــر المريســي المقدم ذكره في بيت واحد عشـرين سـنة ما تعلم مني شـيئاً ولا تعلمت منه شـيئاً وقال الجاحظ دخلت بغداد حين قدمها المأمون في سنة أربع ومائتين وكان الفراء يحبني وأشـــتهي أن يتعلم شـــيئا من علم الكلام فلم يكن له فيه طبع وقال أبو العباس ثعلب كان الفراء يجلس للناس في مسـجده إلى جانب منزله وكان يتفلسف في تصانيفه حتى يسلك في ألفاظه كلام الفلاســفة وقال سـلمة بن عاصـــم إني لأعجب من الفراء كيف كان يعظم الكسـائي وهو أعلم بالنحو منه وقال الفراء أموت وفي نفســي شــيء من حتى لأنها تخفض وترفع وتنصب ولم ينقل من شعره غير هذه الأبيات وقد رواها أبو حنيفة الدينوري عن أبي بكر الطوال وهي (يـا أميرا على جريـب من الأرض * له تســـعة من الحجاب) (جالســـا في الخراب يحجب فيه * ما ســمعنا بحاجب في خراب) (لن تراني لـك العيون بباب * ليس مثلي يطيق رد الحجاب) ثم وجـدت هـذه الأبيـات لابن موســى المكفوف والله أعلم بالصـــواب ومولد الفراء بالكوفة وانتقل إلى بغداد وجعل أكثر مقامه بها وكان شـــديد

طلب المعاش لا يســتريح في بيته وكان يجمع طول السنة فإذا كان في
181 آخرها خرج إلى الكوفة فأقام بها أربعين يوما في أهله يفرق عليهم ما جمعه ويبرهم وله من التصــانيف الكتابان المقدم ذكرهما وهما الحدود والمعاني وكتابان في المشكل أحدهما أكبر من الآخر وكتاب البهي وهو صغير الحجم ووقفت عليه بعد أن كتبت هذه الترجمة ورأيت فيه أكثر الألفاظ التي استعملها أبو العباس ثعلب في كتاب الفصيح وهو في حجم الفصيح غير أنه غيره ورتبه على صورة أخرى وعلى الحقيقة ليس لثعلب في الفصيح سوى الترتيب وزيادة يسيرة وفي كتاب البهي أيضا ألفاظ ليست في الفصيح قليلة وليس في الكتابين اختلاف إلا في شيء قليل لا غير وله كتاب اللغات وكتاب المصــادر في القرآن وكتاب الجمع والتثنية في القرآن وكتاب الوقف والابتداء وكتاب المفاخر وكتاب آلة الكاتب وكتاب النوادر وكتاب الواو وغير ذلك من الكتب وقال سلمة بن عاصــم أملى الفراء كتبه كلها حفظا لم يأخذ بيده نســخة إلا في كتابين كتاب ملازم وكتاب يافع ويفعة قال أبو بكر الأنباري ومقدار الكتابين خمســون ورقة ومقدار كتب الفراء ثلاثة آلاف ورقة وقد مدحه محمد بن الجهم بقصــيدة على روي الواو الموصــولة بالهاء المكسورة أضربت عن ذكرها خوف الإطالة وتوفي الفراء سنة سبع ومائتين في طريق مكة وعمره ثلاث

وســـتون ســـنة رحمه الله تعالى والفراء بفتح الفاء وتشـــديد الراء وبعدها ألف ممدودة وإنما قيل له فراء ولم يكن يعمل الفراء ولا يبيعها لأنه كان يفري الكلام ذكر ذلك الحافظ السـمعاني في كتاب الأنسـاب وعزاه إلى كتاب الألقاب

182 وذكر أبو عبيد الله المرزباني في كتابه أن زيادا والد الفراء كان أقطع لأنه حضـر وقعة الحسـين بن علي رضـي الله عنهما فقطعت يده في تلك الحرب وهذا عندي فيه نظر لأن الفراء عاش ثلاثا وســتين سـنة فتكون ولادته سـنة أربع وأربعين ومائة وحرب الحسـين كانت سـنة إحدى وسـتين للهجرة فبين حرب الحسين وولادة الفراء أربع وثمانون سنة فكم قد عاش أبوه فإن كان الأقطع جده فيمكن والله أعلم ومنظور بفتح الميم وسكون النون وضم الظاء المعجمة وسكون الواو وبعدها راء وقد تقدم الكلام على الديلمي وبني أسـد وأما بنو منقر فهو بكسـر الميم وسـكون النون وفتح القاف وبعدها راء وهو منقر بن عبيد بن مقاعس واسـمه الحارث بن عمرو بن كعب بن سـعد ابن زيد مناة بن تميم بن مر وهي قبيلة كبيرة ينسـب إليها خلق كثير من الصـحابة رضـوان الله عليهم وغيرهم ومنها خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة وصفوان وشيبة ابنا عبد الله بن عمرو بن الأهتم المنقري وهما أعني خالدا وشـبيبا المشـهوران بالفصـاحة والبلاغة والخطابة ولخالد مجالس مشـهورة مع أمير المؤمنين السـفاح

ولشـــبيب مع المنصـــور والمهدي وغيرهما وقد تقدم ذكر خالد وشبيب في ترجمة البحتري في حرف الواو

183 799 أبو محمد اليزيدي أبو محمد يحيى بن المبـارك بن المغيرة العـدوي المعروف بـاليزيـدي المقرىء النحوي اللغوي صاحب أبي عمرو بن العلاء المقرىء البصـــري وهو الذي خلفه في القيام بالقراءة بعده ســكن بغداد وحدث بها عن أبي عمرو بن العلاء وابن جريج وغيرهما وروى عنـه محمـد ابنـه وأبو عبيد القاسـم بن سـلام وإسـحاق بن إبراهيم الموصـلي وجماعة من أولاده وحفدته وأبو عمرو الدوري وأبو حمدون الطيب بن إسـماعيل وأبو شـعيب السـوسـي وعامر بن عمر الموصلي وأبو خلاد سليمان بن خلاد وغيرهم وخـالف أبـا عمرو في حروف يســـيرة من القراءة اختارها لنفســــه وكان يؤدب أولاد يزيد بن منصـــور بن عبد الله بن يزيد الحميري خال المهدي وإليه كان ينتسب ثم اتصل بهارون الرشيد فجعل ولده المأمون في حجره فكان يؤدبه وكان ثقة وهو أحد القراء الفصـــحاء العالمين بلغات العرب والنحو وكان صـدوقا وله التصـانيف الحسـنة والنظم الجيد وشـعره مدون وصـــنف كتاب نوادر في اللغة على مثال كتاب نوادر الأصمعي الذي صنفه لجعفر البرمكي وفي مثل عدد ورقه وأخذ علم العربية وأخبار الناس عن أبي عمرو

184 والخليل بن أحمد ومن كان معاصـــرهما
وحكي عن أبي حمدون الطيب بن إســماعيل قال
شـــهدت ابن أبي العتاهية وقد كتب عن أبي محمد
اليزيدي قريبا من ألف جلد عن أبي عمرو بن العلاء
خاصة ويكون ذلك عشرة آلاف ورقة لأن تقدير الجلد
عشـــر ورقات وأخذ عن الخليل من اللغة أمرا عظيما
وكتب عنه العروض في ابتداء وضـــعه له إلا أن
اعتماده على أبي عمرو لســـعة علم أبي عمرو باللغة
وكان أبو محمد المذكور يعلم الصـبيان بحذاء دار أبي
عمرو بن العلاء وكان أبو عمرو يدنيه ويميل إليه
لذكائه وكان أبو محمد المذكور صـــحيح الرواية وله
من التصـــانيف كتاب النوادر المقدم ذكره وكتاب
المقصور والممدود ومختصر في النحو وكتاب النقط
والشكل وقال ابن المنادي أكثرت من السؤال عن أبي
محمد اليزيدي ومحله من الصـــدق ومنزلته من الثقة
لعدة من شـيوخنا بعضـــهم أهل عربية وبعضـــهم أهل
قرآن وحديث فقالوا هو ثقة صدوق لا يدفع عن سماع
ولا يرغب عنه في شيء غير ما يتوهم عليه من الميل
إلى المعتزلة وقد روى عنه الغريب أبو عبيد القاســـم
بن سلام وكفى به وما ذاك إلا عن معرفة منه به وكان
يجلس في أيام الرشـــيد مع الكســـائي في مجلس واحد
ويقرئان الناس وكان الكســـائي يؤدب الأمين وهو
يؤدب المأمون فأما الأمين فإن أباه أمر الكســـائي أن
يأخذ عليه بحرف حمزة وأما المأمون فإن أباه أمر أبا

محمد أن يأخذ عليه بحرف أبي عمرو وقال الأثرم دخل اليزيدي يوما على الخليل بن أحمد وهو جالس على وسادة فأوسع له وأجلسه معه فقال له اليزيدي أحسبني ضيقت عليك فقال الخليل ما ضاق موضع على اثنين متحابين والدنيا لا تسع متباغضين

185 وسأل المأمون اليزيدي عن شيء فقال لا وجعلني الله فداك يا أمير المؤمنين فقال لله درك ما وضعت الواو قط في موضع أحسن من موضعها في لفظك هذا ووصله وحمله وقال اليزيدي دخلت على المأمون يوما والدنيا غضة وعنده نعم تغنيه وكانت من أجمل أهل دهرها فأنشدت (وزعمت أني ظالم فهجرتني * ورميت في قلبي بسهم نافذ) (فنعم هجرتك فاغفري وتجاوزي * هذا مقام المستجير العائذ) (هذا مقام فتى أضر به الهوى * قرح الجفون بحسن وجهك لائذ) (ولقد أخذتم من فؤادي أنسه * لا شل ربي كف ذاك الآخذ) فاستعادها المأمون الصوت ثلاث مرات ثم قال يا يزيدي أيكون شيء أحسن مما نحن فيه قلت نعم يا أمير المؤمنين قال وما هو قلت الشكر لمن خولك هذا الإنعام العظيم الجليل فقال أحسنت وصدقت ووصلني وأمر بمائة ألف درهم يتصدق بها فكأني أنظر إلى البدر وقد أخرجت والمال يفرق وشكا اليزيدي إلى المأمون حاجة أصابته ودينا لحقه فقال ما عندنا في هذه الأيام ما إن أعطيناكه بلغت به ما تريد فقال يا أمير المؤمنين

إن الأمر قد ضــــاق علي وإن غرمائي قد أرهقوني فـاحتـل لي فـأفكر المـأمون واســـتقر الأمر على أن يحضــــر اليزيـدي إلى البـاب إذا جلس المـأمون في مجلس الأنس وعنده ندماؤه ويكتب رقعة يطلب فيها الـدخول أو إخراج بعض النـدمـاء إليـه فلمـا جلس المأمون حضـــر اليزيدي إلى الباب ودفع للخادم رقعة مختومة فأدخلها إلى

186 المأمون ففضها فإذا فيها مكتوب (يا خير إخوان وأصــــحــاب * هذا الطفيلي على البـاب) (فصــــيروني واحـدا منكم * أو أخرجوا لي بعض أصـــحابي) فقرأها المأمون على من حضـــر وقال ما ينبغي أن يدخل مثل هذا الطفيلي على مثل هذا الحال فأرســـل إليه المأمون يقول لـه دخولك في مثل هذا الوقت متعذر فاختر لنفســك من أحببت أن تنادمه فلما وقف على الرسـالة قال ما أرى لنفســي اختيارا ســوى عبد الله بن طـاهر فقال لـه المـأمون قد وقع الاختيـار عليك فصـــر إليه فقال يا أمير المؤمنين فأكون شــريك الطفيلي فقال مـا يمكنني رد أبي محمد عن أمره فـإن أحببت أن تخرج إليه وإلا فافتد نفســـك منه فقال على عشرة آلاف درهم فقال لا أحسب ذلك يقنعه منك ومن مجالستك فلم يزل يزيده عشرة آلاف على عشرة آلاف والمأمون يقول لا أرضـــى له بذلك حتى بلغ مائة ألف درهم فقال لـه المـأمون فعجلها لـه فكتـب لـه بهـا إلى وكيله ووجه رســولا وأرســل إليه المأمون وهو يقول

قبض هذا المبلغ في مثل هذه الحال أصـــلح لك من منادمته على مثل حاله فقبل ذلك منه وكان ظريفا في جميع أحوالـه وحكى أبو أحمد ابن جعفر البلخي في كتابه أن اليزيدي المذكور ســـأل الكســـائي عن قول الشاعر (ما رأينا خربا نقر * عنه البيض صقر) (لا يكون العير مهرا * لا يكون المهر مهر) الخرب بفتح الخاء المعجمة والراء وفي آخرها الباء الموحدة الذكر من

187 الحبـــارى والعير بفتح العين المهملـة وسـكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء وهو الذكر من حمر الوحش فقال الكســـائي يجب أن يكون مهر منصـوبا على أنه خبر كان ففي البيت على هذا التقدير إقواء فقال اليزيدي الشعر صواب لأن الكلام قد تم عند قوله لا يكون الثانية وهي مؤكدة للأولى ثم اســـتأنف الكلام فقال المهر مهر وضـــرب بقلنســـوته الأرض وقال أنا أبو محمد فقال لـه يحيى بن خالد البرمكي أتكتني بحضـرة أمير المؤمنين والله إن خطأ الكسـائي مع حسن أدبه لأحسن من صوابك مع سوء أدبك فقال اليزيدي إن حلاوة الظفر أذهبت عني التحفظ قلت أنا قول الكسـائي في البيت إقواء ليس بجيد فإن اصـطلاح أربـــاب علم القوافي أن الإقواء يختص بـــاختلاف الإعراب في حرف الروي بالرفع والجر لا غير بأن يكون أحد البيتين مرفوعـا والآخر مجرورا فـأمـا إذا كان الاختلاف بالنصـــب مع الرفع والجر فإن ذلك

يسمى إصرافا لا إقواء وإلى هذا أشار أبو العلاء المعري في قوله من جملة قصيدة طويلة يرثي بها الشريف الطاهر والد الرضي والمرتضى المقدم ذكرهما وهو في صفة نعيب الغراب (بنيت على الإيطاء سالمة من الإقواء * والإكفاء والإصراف) وهذا البيت متعلق بما قبله ولا يظهر معناه إلا بذكر ما تقدم ولا حاجة بنا إلى ذكره هاهنا بل ذكرنا موضع الاستشهاد لا غير وقد قيل إن الإصراف من جملة أنواع الإقواء فعلى هذا يستقيم ما قاله الكسائي وهذا الفصل وإن كان دخيلا لكنه ما خلا من فائدة وغالب شعر اليزيدي جيد وقد ذكره هارون بن المنجم المقدم ذكره

188 في كتاب البارع وأورد له عدة مقاطيع فمن ذلك قوله يهجو الأصمعي الباهلي المقدم ذكره (أبن لي دعي بني أصمع * متى كنت في الأسرة الفاضله) (ومن أنت هل أنت إلا امرؤ * إذا صح أصلك من باهله) ثم قال ابن المنجم وهذا البيت من نادر أبيات المحدثين في الهجاء قلت أنا وهذا مأخوذ من قول حماد عجرد في بشار بن برد يهجوه (نسبت إلى برد وأنت لغيره * وهب أن بردا ناك أمك من برد) وله في الهجاء أيضا (استبق ود أبي المقاتل * حين تدنو من طعامه) (سيان كسر رغيفه * أو كسر عظم من عظامه) (ويصوم كرها ضيفه * لم ينو أجرا في صيامه) وقد سبق في ترجمة أبي العباس

المبرد مقطوع من شعره في شيبة بن الوليد وكان له أخبار ونوادر فمن ذلك ما رواه أنه أخذ رجل ادعى النبوة فأتي به إلى المهدي فقال له أنت نبي فقال نعم فقال وإلى من بعثت فقال و هل تركتموني أذهب إلى أحد ساعة بعثت وضعتموني في الحبس فضحك المهدي واستتابه وكان لليزيدي خمسة بنين وكلهم علماء أدباء شعراء رواة لأخبار الناس وهم أبو عبد الله محمد وإبراهيم وأبو القاسم إسماعيل وأبو عبد الرحمن عبد الله وأبو يعقوب إسحاق وكلهم ألف في اللغة والعربية (316) وكان محمد أسنهم وأشعرهم وهو القائل فيما رواه دعبل بن علي الخزاعي المقدم ذكره من جملة أبيات (أتظعن والذي تهوى مقيم * لعمرك إن ذا خطر عظيم)

189 (إذا ما كنت للحدثان عونا * علي مع الزمان فمن ألوم) (شقيت به فما أنا عنه سال * ولا هو إذ شقيت به رحيم) وهو القائل (يا بعيد الدار موصولا * بقلبي ولساني) (ربما باعدك الدهر * فأدنتك الأماني) وله أشعار كثيرة جيدة وكان يؤدب المأمون مع أبيه وثقل سمعه في آخر عمره فانقطع فاستحضره المأمون فقال لم أرك منذ أيام فقال وجدت في سمعي ثقلا وأنا أكره أن أتعبك استفهاما إذا سمعت عن غير فهم فقال أنت الآن أطيب ما تكون فما شئت أن نسمعك أسمعناك وما احتشمناك فيه أسررناه عنك فأنت غائب شاهد وكان قد خرج مع المأمون إلى

خراســـان وأقام بخدمته في مدينة مرو ثم بقي إلى أيام
المعتصـم وخرج معه إلى مصـر فتوفي بها رحمه الله
تعالى وأما والده أبو محمد المذكور فإنه توفي ســـنة
اثنتين ومائتين رحمه الله تعالى بخراسـان والظاهر أنه
كان بمرو فإنه كان قد خرج في صـــحبة المأمون من
بغداد وكانت إقامة المأمون بمرو ثم وجدت في طبقات
القراء لأبي عمرو الـداني أنــه توفي في التــاريخ
المذكور بمرو ثم قال بعد ذلك وقال ابن المنادي وقيل
أنه بلغ من الســـن دون المائة بأعوام يســـيرة ومات
بالبصــرة ودفن بها والأول أصـح والله أعلم وقد تقدم
في حرف الميم ذكر حفيـده أبي عبـد الله محمـد بن
العباس بن أبي محمد اليزيدي المذكور وشــرح طرف
من أخباره وفضله وتاريخ وفاته والعدوي بفتح العين
والدال المهملتين والواو هذه النســبة إلى عدي بن عبد
مناة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضــر بن نزار بن
معد بن عدنان وهي قبيلة كبيرة مشــهورة ولم يكن أبو
محمد المذكور منهم وإنما كان من
190 مواليهم كان جده المغيرة مولى لامرأة من
بني عدي فنسب إليهم وقد سبق في أول هذه الترجمة
ذكر ســبب نســبته إلى يزيد ومن هو يزيد فأغنى عن
الإعادة وفي ذريته جماعة كثيرة أفاضــل مشــاهير
أصـحاب تصـانيف وأشـعاره رائقة مشـهورة ولولا
خوف الإطالة لذكرت شيئا منها (317) واليزيديون
يفتخرون بالكتاب الذي وضــعه إبراهيم بن أبي محمد

المذكور في اللغة وسـماه كتاب ما اتفق لفظه وافترق معناه جمع فيه كل الألفاظ المشتركة في الاسم المختلفة في المسـمى ورأيته في أربع مجلدات وهو من الكتب النفيسة يدل على غزارة علم مؤلفه وسعة اطلاعه وله غير ذلك تواليف حسـنة نافعة وكذلك بقية اليزيديين صـنفوا كتبا مشـهورة مشكورة (318) وكان يزيد الحميري خال المهدي مقدما في دولة بني العباس ولي للمنصور البصرة واليمن ومات في سنة خمس وستين ومائة بالبصرة وفيه قال بشار بن برد الشاعر المقدم ذكره (أبا خالد قد كنت سباح غمرة * صـغيرا فلما شـبت خيمت بالشـاطي) (وكنت جوادا سـابقا ثم لم تزل * تأخر حتى جئت تخطو مع الخاطي) (فأنت بما تزداد من طول رفعة * وتنقص من مجد كذاك بإفراط) (كسنور عبد الله بيع بدرهم * صـغيرا فلما شـب بيع بقيراط) قلت لقد كشفت عن سنور عبد الله المظان وسـألت أهل المعرفة بهذا الشـأن فما عرفت الخبر عن ذلك ولا عثرت لـه على أثر والله أعلم ثم ظفرت بقول الفرزدق وهو (رأيت الناس يزدادون يوما * ويوما في الجميل وأنت تنقص)

191 (كمثل الهر في صـغر يغالى * به حتى إذا ما شـب يرخص) ومن هاهنا أخذ بشـار قوله وليس المراد هرا بعينه بل كل هر تكون قيمته في صغره وينقص منها في كبره والله أعلم 800 الخطيب التبريزي اللغوي أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد

بن الحســن بن بســطام الشــيباني التبريزي المعروف بالخطيب أحد أئمة اللغة كانت له معرفة تامة بالأدب من النحو واللغة وغيرهما قرأ على الشــيخ أبي العلاء المعري وأبي القاســم عبيد الله بن علي الرقي وأبي محمد الدهان اللغوي وغيرهم من أهل الأدب وســمع الحديث بمدينة صـــور من الفقيه أبي الفتح ســـليم بن أيوب الرازي ومن أبي القاســم عبد الكريم ابن محمد بن عبد الله بن يوســف الدلال الســياري البغدادي وأبي القاسم عبيد الله بن علي وغيرهم وروى عنه الخطيب الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت صــاحب تاريخ بغداد والحافظ أبو الفضـــل محمد بن ناصـــر وأبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي وأبو الحسن سعد الخير بن محمد بن ســـهل الأندلســـي وغيرهم من الأعيان وتخرج عليه خلق كثير وتتلمذوا له وذكره الحافظ أبو ســعد الســمعاني في كتاب الذيل وكتاب الأنساب

192 وعدد فضــائله ثم قال ســمعت أبا منصــور محمد بن عبد الملك بن الحســـن بن خيرون المقرىء يقول أبو زكريــا يحيى بن علي التبريزي مــا كــان بمرضــي الطريقة وذكر عنه أشياء ثم قال وذاكرت أنا مع أبي الفضــل محمد بن ناصــر الحافظ بما ذكره ابن خيرون فسكت وكأنه ما أنكر ما قال ثم قال ولكن كان ثقة في اللغة وما كان ينقله وصـــنف في الأدب كتبا مفيدة منها شرح الحماسة وكتاب شرح ديوان المتنبي

وكتـاب شـــرح ســـقط الزنـد وهو ديوان أبي العلاء المعري وشرح المعلقات السبع وشرح المفضليات وله تهذيب غريب الحديث وتهذيب إصـــلاح المنطق وله في النحو مقدمة حسنة والمقصود منها أسرار الصنعة وهي عزيزة الوجود ولــه كتــاب الكــافي في علم العروض والقوافي وكتاب في إعراب القرآن ســـماه الملخص رأيتـه في أربع مجلدات وشـــروحه لكتـاب الحماسة ثلاثة أكبر وأوسط وأصغر وله غير ذلك من التواليف وقد ســبق في ترجمة الخطيب أبي بكر أحمد بن علي بن ثـابت الحـافظ ذكره ومـا دار بينهمـا عند قراءتـه عليـه بـدمشـــق فلينظر هنـاك ودرس الأدب بالمدرسة النظامية ببغداد وكان سبب توجهه إلى أبي العلاء المعري أنه حصلت له نسخة من كتاب التهذيب في اللغـة تـأليف أبي منصـــور الأزهري في عـدة مجلدات لطاف وأراد تحقيق ما فيها وأخذها عن رجل عالم باللغة فدل على المعري فجعل الكتاب في مخلاة وحملها على كتفه من تبريز إلى المعرة ولم يكن له ما يســـتأجر به مركوبا فنفذ العرق من ظهره إليها فأثر فيها البلل وهي ببعض الوقوف ببغداد وإذا رآها من لا يعرف صـــورة الحال فيها ظن أنها غريقة وليس بـها سوى عرق الخطيب المذكور هكذا وجدت هذه الحكاية مسطورة في كتاب

193 أخبار النحاة الذي ألفه القاضـــي الأكرم ابن القفطي الوزير بمدينة حلب كان رحمه الله تعالى والله

أعلم بصـــحة ذلك وكان الخطيب المذكور قد دخل
مصـــر في عنفوان شـــبابه فقرأ عليه بها الشـــيخ أبو
الحسن طاهر بن بابشاذ النحوي المقدم ذكره شيئا من
اللغة ثم عاد إلى بغداد واســـتوطنها إلى الممات وكان
يروي عن أبي الحســـن محمد بن المظفر ابن نحرير
البغدادي جملة من شـــعره فمن ذلك قوله على ما حكاه
الســـمعاني في كتاب الذيل في ترجمة الخطيب وهي
من أشهر أشعاره (خليلي ما أحلى صبوحي بدجلة *
وأطيب منه بالصراة غبوقي) (شربت على الماءين
من ماء كرمة * فكانا كدر ذائب وعقيق) (على
قمري أفق وأرض تقابلا * فمن شـــائق حلو الهوى
ومشوق) (فما زلت أسقيه وأشرب ريقه * وما زال
يسـقيني ويشـرب ريقي) (وقلت لبدر التم تعرف ذا
الفتى * فقال نعم هذا أخي وشـــقيقي) وهذه الأبيات
من أملح الشعر وأطرفه والبيت الأخير منها يستمد من
معنى قول أبي بكر محمد بن عيســى الداني المعروف
بابن اللبانة الأندلسي في مدح المعتمد بن عباد صاحب
إشـبيلية المقدم ذكره من جملة قصـيدة طويلة (سـألت
أخاه البحر عنه فقال لي * شـــقيقي إلا أنه الســـاكن
العذب) ما كفاه أنه جعله شـــقيق البحر حتى رجحه
عليه فقال السـاكن العذب والبحر مضـطرب ملح وهذا
من خالص المدح وأبدعه وأول هذه القصيدة
194 (بكت عند توديعي فما علم الركب *
أذاك ســـقيط الطل أم لؤلؤ رطب) (وتابعها ســـرب

وإني لمخطىء * نجوم الدياجي لا يقال لها سـرب) وهي قصـيدة طويلة ولولا خوف الإطالة والخروج عما نحن بصـدده لذكرتها كلها ولكن يكفي منها هذا الأنموذج وكان الخطيب أيضا يروي عن ابن نحرير المذكور من شعره قوله (يا نساء الحي من مضر * إن سلمى ضرة القمر) (إن سلمى لا فجعت بها * أسلمت طرفي إلى السهر) (فهي إن صدت وإن وصلت * مهجتي منها على خطر) (وبياض الشعر أسكنها * من سواد القلب والبصر) وللخطيب المذكور شعر فمن ذلك قوله (فمن يسأم من الأسفار يوما * فإني قد سئمت من المقام) (أقمنا بالعراق على رجال * لئام ينتمون إلى لئام) وقال الخطيب المذكور كتب إلي العميد الفياض (قل ليحيى بن علي * والأقاويل فنون) (غير أني لست من يكذب * فيها ويخون) (أنت عين الفضل إن مد * إلى الفضل عيون) (أنت من عز به الفضل * وقد كاد يهون) (فقت من كان وأتعبت * لعمري من يكون) (قد مضى فيك قران * ومضت فيه قرون) (وإذا قيس بك الكل * فصحو ودجون)

195 (وإذا فتش عنهم * فالأحاديث شجون) (قد سمعنا ورأينا * فسهول وحزون) (ووزنا بك من كان * فقيل وقيون) (أين شيبان وأزد * كل ما زال ظنون) (إنك الأصل ومن دونك * في العلم غصون) (إنك البحر وأعيان * ذوي الفضل عيون

) (ليس كالسـيف وإن حلي * في الحكم الجفون) (
ليس كـالفذ المعلى * ليس كـالبيت الحجون) (ليس
كالجد وإن آنس * هزل ومجون) (ليس في الحسـن
سـواء * أبـدا بيض وجون) (ليس كـالأبكـار في
اللطف * وإن راقتك عون) (قلت للحسـاد كونوا *
كيف شـئتم أن تكونوا) (سـبق الزائد بالفضـل *
فعزوا أو فهونوا) (دمت ما خالف في الحد * حراك
وسـكون) (وتلقاك المنى ما * قر بالطير الوكون)
(إن ودي لك عما * يصـم الود مصـون) (ليس لي
فيه ظهور * تتنافى أو بطون) (بل لقلبي فيك صـب
* بالمصـافاة يكون) (غلق الرهن وقد تغلق * في
الحب رهون) (ومن الناس أمين * في هواه وخؤون
(
196 وقال ابن الجواليقي قال لنا شيخنا الخطيب
أبو زكريا فكتبت أنا إلى العميد الفياض المذكور هذه
الأبيات (قل للعميد أخي العلا الفياض * أنا قطرة
من بحرك الفياض) (شـرفتني ورفعت ذكرى بالذي
* ألبسـتنيه من الثنا الفضـفاض) (ألبسـتني حلل
القريض تفضـلا * فرفلت منها في علا ورياض) (
إني أتيتك بالحصـى عن لؤلؤ * أبرزته من خاطر
مرتاض) (وبخاطري عن مثل ذاك توقف * ما إن
يكاد يجود بالأبعاض) (أيعارض البحر الغطامط
جدول * أم درة تنقاس بالرضـراض) (يا فارس
النظم المرصع جوهرا * والنثر يكشف غمة الأمراض

) (يرمي به الغرض البعيد وقد غدا * فكري يقصر عن مدى الأغراض) (لا تلزمني من ثنائك موجبا * حقا فلست لحقه بالقاضي) (فلقد عجزت عن القريض وربما * أعرضت عنه أيما إعراض) (أنعم علي ببسط عذري إنني * أقررت عند نداك بالإنفاض) وكانت ولادته سنة إحدى وعشرين وأربعمائة وتوفي فجأة يوم الثلاثاء لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسمائة ببغداد ودفن في مقبرة باب أبرز رحمه الله تعالى وبسطام بكسر الباء الموحدة وسكون السين المهملة وفتح الطاء المهملة وبعد الألف ميم وقد تقدم الكلام على الشيباني والتبريزي فأغنى عن الإعادة

197 801 الزواوي أبو الحسين يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي الملقب زين الدين النحوي الحنفي كان أحد أئمة عصره في النحو واللغة وسكن دمشق زمانا طويلا واشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به وصنف تصانيف مفيدة منها الألفية في النحو ومنها الفصول في النحو أيضا ثم إن الملك الكامل أرغبه في الانتقال إلى مصر فسافر إليها وتصدر بالجامع العتيق بمصر لإقراء الأدب وقرر له على ذلك جار ولم يزل إلى أن توفي سلخ ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وستمائة بالقاهرة ودفن من الغد على شفير الخندق بقرب تربة الإمام الشافعي رضي الله عنه وقبره هناك ظاهر ومولده سنة أربع وستين

وخمســـمائة رحمه الله تعالى والزواوي بفتح الزاي وبين الواوين ألف هذه النســـبة إلى زواوة وهي قبيلة كبيرة بظـاهر بجـايـة من أعمـال إفريقيـة ذات بطون وأفخاذ والله أعلم

198 802 يحيى بن المنجم النـديم أبو أحمـد يحيى بن علي بن يحيى بن أبي منصـــور المعروف بالمنجم واســـمه أبان حســـيس ين وريد بن كاد بن مـهابنداد حســـيس بن فروخ داد بن أســـاد ابن مهر حسيس بن يزدجرد كان في أول أمره نديم الموفق أبي أحمد طلحـة ابن المتوكل على الله والموفق المـذكور هو والد المعتضـــد بالله ولم يل الموفق الخلافة بل كان نـائبا عن أخيه المعتمد على الله ولم يزل في مـحاربة القرامطة وأمره في ذلك مشـهور وقصته طويلة وليس هذا موضـــع ذكرها ثم إن يحيى المذكور نادم الخلفاء بعد الموفق واختص بمنادمة المكتفي بالله ابن المعتضد وعلت رتبته عنده وتقدم على خواصـه وجلسـائه وكان متكلما معتزلـي الاعتقاد وله في ذلك كتب كثيرة وكان له مجلس يحضــــره جماعة من المتكلمين بحضــــرة المكتفي وصـــنف كتبا كثيرة فمن ذلك كتاب البـاهر في أخبار شـعراء مخضـرمي الدولتين ابتدأ فيه ببشـار بن برد وآخر من أثبت فيه مروان بن أبي حفصـــــة ولم يتمه وتممه ولده أبو الحسن أحمد بن يحيى وعزم على أن يضـــيف إلى كتاب أبيه ســـائر الشـــعراء المحدثين فذكر منهم أبا دلامة ووالبة بن الحباب ويحيى بن زياد

ومطيع بن إياس وأبا علي البصير (318) وكان أبو الحســـن أحمد المذكور متكلما فقيها على مذهب أبي جعفر

199 الطبري وله كتب صنفها منها كتاب أخبار أهله ونســـبهم في الفهرس وكتاب الإجماع في الفقه على مذهب أبي جعفر الطبري وكتاب المدخل إلى مذهب الطبري ونصـــرة مذهبه وكتاب الأوقات وغير ذلك وليحيى المذكور مع المعتضد وقائع ونوادر فمن ذلك ما حكاه أبو الحســـن علي بن الحســـين بن علي المسعودي في كتاب مروج الذهب عن يحيى المذكور أنه قال كنت يوما بين يدي المعتضـــد وهو مغضـــب فأقبل بدر مولاه وكان شديد الغرام به فلما رآه من بعيد ضـــحك وقال يا يحيى من الذي يقول من الشـــعراء (في وجهه شـــافع يمحو إســـاءته * من القلوب وجيه حيثما شـــفعا) فقلت يقوله الحكم بن عمرو الشـــاري فقال لله دره أنشدني هذا الشعر فأنشدته (ويلي على من أطـار النوم فـامتنعا * وزاد قلبي على أوجـاعـه وجعا) (كأنما الشمس من أعطافه لمعت * حسنا أو البدر من أزراره طلعا) (مســـتقبل بالذي يهوى وإن كثرت * منه الذنوب ومعذور بما صـــنعا) (في وجهه شـــافع يمحو إســـاءته * من القلوب وجيه حيثما شفعا) وذكر أبو الفتح كشـاجم الشـاعر المشـهور في كتابه الذي سماه المصـايد والمطارد في الفصل الذي ذكر فيه صيد الأسد بالنشـاب ما مثاله حدث أبو أحمد

يحيى بن علي بن يحيى المنجم النديم نديم المكتفي بالله قال وجد علي أمير المؤمنين المكتفي بالله منصـــرفه من الرقة لركوبي الماء منها إلى المرحلة الأولى قبل أن يركبه هو وذلك أن أبا العباس أحمد بن عبد الصمد حملني على ذلك

200 وسألني أن أكون معه في سفينة ففعلت ولم أظن أن المكتفي ينكر ذلك ولا يحتمل تأخيري عنه وإخلالي به فلما صـــرنا إلى الدالية أمر بأن أرد منها إلى قرقيسـيا وأقيم بها حتى أصـيد سـبعا وأحدره إليه فردني ورد معي عدة من المغنين كانوا قد ركبوا الماء فكتبت إليه بأبيات فلم تعطفه فرجعت إلى الرحبة وأقمت عند أبي محمد عبد الله بن الحســين بن ســعد القطربلي في قصــف وشــرب وصــبوح وغبوق وهو على غاية الســرور بمقامي عنده وكان معنا أبو جعفر محمد بن ســليمان بن محمد بن عبد الملك الزيات فكتبت من الرحبة كتابا إلى الوزير أبي الحسين القاسم بن عبيد الله وأنفذت فيه شــعرا أســأله أن يقرأه على المكتفي وهو (نفس الدهر أن نســر وأن يســعدنا * بالأحبة الاجتماع) (فرماني وإخوة لي بســهم * نفر النفس فهي منه شــعاع) (فرددنا إلى وراء ومر الناس * قدما فاشتدت الأوجاع) (لو سمعنا بمثل ما نالنا أفزعنا * منه في سوانا السماع) (كلفونا صيد الســباع وإنا * لبخير إن لم تصــدنا الســباع) (إن عصــينا فواجب أي قوم * كلفوا فوق طوقهم فأطاعوا

) (كل شـــيء يجوز تكليفه الإنســـان * إلا ما كان لا يســـتطاع) (لم تزل تمزح الملوك ولكن * مع ذاك المزاح جود وساع) (وتوانى الوزير عنا فضعنا * في ســبيل الإله حق مضـــاع) (قد مددنا الأيدي إليه وأضـــحت * عائذات بفضـــله الأطماع) (شـــافع لا يخاف ردا إذا ما * رد عما تريده الشـــفاع) (عبثات الملوك ينبعها الأنس * وأثمارها عطايا تباع)
201 (أولنا يا ولي دولته خيرا * لديه فالخير النفاع) وأنفذ الكتاب مع محمد بن سليمان الخرائطي في الخرائط فلم يضـعه القاسـم من يده حتى دخل على المكتفي فقرأه عليه وأنشـده الأبيات فاسـتحسـنها وقال يكتب السـاعة بتخلية سبيله وحمله إلينا فلم يكن أسـرع من أن وافاني الرسول فوافيت وأنشدت المكتفي ببغداد (عاد ليلي القصـــير في كرخ بغداد * بقرقيســـيا علي طويلا) (أجميلا أن تتركوني وتمضون * رهينا بها غريبا ذليلا) (مفردا بالعقاب مشـــترك الذنب * فصـــبرا حســـبي بربي وكيلا) (إن قضـــى الله لي رجوعا إلى بغداد * لا هالكا بغمي قتيلا) (وأراني الخليفة المكتفي بالله * وابن الخلائف المأمولا) (كالذي قد عهدت لا معرضـــا عني * ولا واجدا ولا مستحيلا) (كل شيء أسامه هين عندي * إذا الرأي منه كان جميلا) فاستحسنها ورق لشكواي بها حتى تبينت ذلك في وجهه وكلامه وأخبار يحيى ومحاسـنه كثيرة وكانت ولادته ســـنة إحدى وأربعين ومائتين

وتوفي ليلة الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة ثلثمائة رحمه الله تعالى وقد تقدم ذكر والده علي وأخيه هارون وابن أخيه علي ولم أرفع في نسبهم إلا في هذه الترجمة لأني لم أظفر بالنسب على هذه الصورة إلا لما وصلت إلى هذا الموضع فنقلته كما وجدته من كتاب الفهرست لأبي الفرج محمد بن إسحاق النديم ولم أضبط شيئا من أسماء أجداده لأني لم أتحقق فيها شيئا فنقلتها كما وجدتها

202 803 أبو بكر ابن بقي الشاعر أبو بكر يحيى بن محمد بن عبد الرحمن بن بقي الأندلسي القرطبي الشاعر المشهور صاحب الموشحات البديعة قال الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي في كتاب مطمح الأنفس في حق أبي بكر المذكور إنه كان نبيل النثر والنظام كثير الارتباط في سلكه والانتظام أحرز خصالا وطرز محاسنه بكرا وآصالا وجرى في ميدان الإحسان إلى أبعد أمد وبنى من المعارف على أثبت عمد إلا أن الأيام حرمته وقطعت حبل رعايته وصرمته ولم تتم له وطرا ولم تسجم عليه من الحظوة مطرا ولا نولته من الحرمة نصيبا ولا أنزلته مرعى خصيبا فصار راكب صهوات وقاطع فلوات لا يستقر يوما ولا يستحسن قوما مع توهم لا يظفره بأمان وتقلب ذهن كواهي الجمان إلا أن يحيى بن علي بن القاسم نزعه عن ذلك الطيش وأقطعه جانبا من العيش وأرقاه إلى سمائه وسقاه صوب نعمائه وفيأه ظلاله

وبوأه أثر النعمة يجوس خلاله فصـــرف فيه أقواله وشـــرف بقوافيه نواله وأفرده منها بأنفس در وقلد لبته منها بقصـــائد غر وذكر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي المذكور في حقه أيضا في كتاب
203 قلائد العقيان هو رافع راية القريض وصـــاحب آية التصـــريح فيه والتعريض أقام شـــرائعه وأظهر روائعه وصـــار عصـــيه طائعه إذا نظم أزرى بنظم العقود وأتى بأحســـن من رقم البرود ضـــفا عليه حرمانه وما صفا له زمانه انتهى كلام الفتح وقد أثبت لأبي بكر المذكور هذا المقطوع من الشـــعر ولم أر الفتح ذكره في واحد من كتابيه المذكورين مع أنه من أحســـن شـــعره وأشـــهره وهو (بأبي غزال غازلته مقلتي * بين العذيب وبين شـــطي بارق) (وســـألت منه زيارة تشـفي الجوى * فأجابني منها بوعد صـادق) (بتنا ونحن من الدجى في خيمة * ومن النجوم الزهر تحت سرادق) (عاطيته والليل يسحب ذيله * صـــهباء كالمســك الفتيق لناشـق) (وضـمـمته ضـم الكمي لسيفه * وذؤابتاه حمائل في عاتقي) (حتى إذا مالت به ســنة الكرى * زحزحته عني وكان معانقي) (أبعدته عن أضـلع تشـتاقه * كي لا ينام على وســاد خافق) (لما رأيت الليل آخر عمره * قد شـــاب في لمم له ومفارق) (ودعت من أهوى وقلت تأســـفا * أعزز علي بأن أراك مفارقي) وقد ذكر بعض هذه الأبيات الحافظ أبو الخطاب ابن دحية في كتابه الذي

سماه المطرب من أشعار أهل المغرب ومن شعره قصيدة يمدح بها يحيى بن علي بن القاسم المذكور في هذه الترجمة وهي طويلة ومن مديحها قوله (نوران ليسا يحجبان عن الورى * كرم الطباع ولا جمال المنظر) (وكلاهما جمعا ليحيى فليدع * كتمان نور علائه المتشهر)
204 (في كل أفق من جميل ثنائه * عرف يزيد على دخان المجمر) (رد في شمائله ورد في جوده * بين الحديقة والغمام الممطر) (ندب عليه من الوقار سكينة * فيها حفيظة كل ليث مخدر) (مثل الحسام إذا انطوى في غمده * ألقى المهابة في نفوس الحضر) (أربى على الغيث الملث لأنه * أعطى كما أعطى ولم يستعبر) (أزرى على البحر الخضم لأنه * في كل كف منه خمسة أبحر) (أقبلت مرتادا لجودك إنه * صوب الغمامة بل زلال الكوثر) (ورأيت وجه النجح عندك أبيضا * فركبت نحوك كل لج أخضر) (يجري إليك بنا سفين أتلع * مثل البعير مخزم في المنخر) (وبنات أعوج قد برمن بصحبتي * مما قطعن من اليباب المقفر) وأورد له صاحب قلائد العقيان مقطوعا وهو (يا أقتل الناس ألحاظا وأطيبهم * ريقا متى كان فيك الصاب والعسل) (في صحن خدك وهو الشمس طالعة * ورد يزيدك فيه الراح والخجل) (إيمان حبك في قلبي يجدده * من خدك الكتب أو من لحظك الرسل) (إن

كنت تجهل أني عبد مملكة * مرني بما شـــئت آتيه وأمتثل) (لو اطلعت على قلبي وجدت به * من فعل عينيك جرحا ليس يندمل) وذكره العماد الكاتب في الخريدة وأورد له عدة مقاطيع ثم أعاد ذكره في آخر الكتاب وأورد له (ومشمولة في الكأس تحسب أنها * سماء عقيق رصعت بالكواكب)

205 (بنت كعبة اللذات في حرم الصبا * فحج إليها اللهو من كل جانب) ومحاسنه في الشعر كثيرة وتوفي سنة أربعين وخمسمائة رحمه الله تعالى وبقي بفتح الباء الموحدة وكسـر القاف وتشـديد الياء 804

الخطيب الحصكفي أبو الفضل يحيى بن سلامة بن الحسين بن محمد الملقب معين الدين المعروف بالخطيب الحصكفي صاحب الديوان الشعر والخطب والرسائل ولد بطنزة ونشأ بحصن كيفا وقدم بغداد فاشتغل بالأدب على الخطيب أبي زكريا التبريزي المقدم ذكره وأتقنه حتى مهر فيه وقرأ الفقه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه وأجاد فيه ثم رحل عن بغداد راجعا إلى بلاده ونزل ميافارقين واستوطنها وتولى بها الخطابة وكان إليه أمر الفتوى بها واشتغل عليه الناس وانتفعوا بصحبته وذكره العماد الأصبهاني في كتاب الخريدة فقال في حقه كان علامة الزمان في علمه ومعري العصر في نثره ونظمه له الترصيع البديع والتجنيس النفيس والتطبيق والتحقيق واللفظ الجزل الرقيق والمعنى السهل

206 العميق والتقسيم المستقيم والفضل السائر المقيم ثم قال العماد بعد كثرة الثناء عليه وتعداد محاسنه وكنت أحب لقاءه وأحدث نفسي عند وصولي إلى الموصل به وأنا شغف بالاستفادة كلف بمجالسة الفضلاء للاستزادة فعاق دون لقائه بعد الشقة وضعفي عن تحمل المشــــقة ثم ذكر له عدة مقاطيع فمن ذلك قوله (وخليع بت أعذله * ويرى عذلي من العبث) (قلت إن الخمر مخبثة * قال حاشــاها من الخبث) (قلت فالأرفاث تتبعها * قال طيب العيش في الرفث) (قلت منها القيء قال أجل * شـــرفت عن مخرج الحدث) (وسأجفوها فقلت متى * قال عند الكون في الجدث) قلت أنا ولقد أخذ الخطيب المذكور قوله (شـرفت عن مخرج الحدث *) من قول بعضــهم ولا أعرفه لكنها أبيات ســـائرة وهي (ولائم لامني في الخمر قلت له * إني ســأشـــربها حيا وفي جدثي) (فأسقني قهوة حمراء صافية * صرفا حراما فإني غير مكترث) (فإن يكن حللوها بالطبيخ ففي * حشــــاي نار تبقيها على الثلث) (قالوا فلم تتقاياها فقلت لهم * إني أنزههـا عن مخرج الحـدث) ثم قـال العمـاد الأصبهاني وأنشدني له بعض الفضلاء ببغداد خمسة أبيات كالخمســة الســيارات مســتحســنات مطبوعات مصنوعات وهي (أشكو إلى الله من نارين واحدة * في وجنتيه وأخرى منه في كبدي)

207 (ومن سـقامين سـقم قد أحل دمي * من الجفون وسقم حل في جسدي) (ومن نمومين دمعي حين أذكره * يذيع سرى وواش منه بالرصد) (ومن ضـعيفين صـبري حين أذكره * ووده ويراه الناس طوع يدي) (مهفهف رق حتى قلت من عجب * أخصره خنصري أم جلده جلدي) ومن مليح شعره أبيات في هجو مغن وهي (ومسـمع غناؤه * يبدل بالفقر الغنى) (شـهدته في عصـبة * رضـيتهم لي قرنا) (أبصـرته فلم تخب * فراسـتي لما دنا) (وقلت من ذا وجهه * كيف يكون محسـنا) (ورمت أن أروح للظن * بـه ممتحنـا) (فقلت من بينهم * هات أخي غن لنا) (ويوم سلع لم يكن * يومي بسلع هينا) (فانشـال منه حاجب * وحاجب منه انحنى) (وامتلأ المجلس من * فيه نسـيما منتنا) (أوقع إذ وقع في الأنفس * أسباب العنا) (وقال لما قال من * يسـمع في ظل الفنا) (وما اكتفى باللحن والتخليط * حتى لحنا) (هذا وكم تكشخن الوغد * وكم تقرننا) (يوهم زمرا أنه * قطعه ودندنا)

208 (وصـاح صـوتا نافرا * يخرج عن حد البنا) (وما درى محضـره * ماذا على القوم جنى) (فذا يسـد أنفه * وذا يسـد الأذنا) (ومنهم جماعة * تستر عنه الأعينا) (فاغتنظت حتى كدت من * غيظ أبث الشجنا) (وقلت يا قوم اسمعوا * إما المغني أو أنا) (أقسـمت لا أجلس أو * يخرج هذا من هنا)

جروا برجل الكلب إن * السقم هذا والضنا) (قالوا لقد رحمتنا * وذدت عنا المحنا) (فحزت في إخراجه * راحة نفسي والثنا) (وحين ولى شخصه * قرأت فيهم معلنا) (الحمد لله الذي * أذهب عنا الحزنا) ولم أسمع مع كثرة ما قيل في هذا الباب مثل هذا المقطوع في هذا المعنى وللخطيب المذكور أيضا في هذا المعنى (ومسمع قوله بالكره مسموع * محجب عن بيوت الناس ممنوع) (غنى فبرق عينيه وحرك لحييه * فقلنا الفتى لا شك مصروع) (وقطع الشعر حتى ود أكثرنا * أن اللسان الذي في فيه مقطوع) (لم يأت دعوة أقوام بأمرهم * ولا مضى قط إلا وهو مصفوع) وقد سبق له في ترجمة الشيخ الشاطبي في حرف القاف مقطوع لغز في نعش وهو معنى مليح وأكثر شعره على هذا الأسلوب في اللطافة وجودة المقاصد

209 وكان يتشيع وهو في شعره ظاهر وكان بمدينة آمد شابان بينهما مودة أكيدة ومعاشرة كثيرة فركب أحدهما ظاهر البلد وطرد فرسه فتقنطر فمات وقعد الآخر يستعمل الشراب فشرق فمات في ذلك النهار فعمل فيهما بعض الأدباء (تقاسما العيش صفوا والردى كدرا * وما عهدنا المنايا قط تقتسم) (وحافظا الود حتى في حمامهما * وقلما في المنايا تحفظ الذمم) فلما وقف الخطيب المذكور على البيتين قال هذا الشاعر قصر إذ لم يذكر سبب موتهما وقد

قلت فيهما (بنفسي أخيان من آمد * أصيبا بيوم مشوم عبوس) (دهى ذا كميت من الصـــافنات * وهذا كميت من الخندريس) قلت ولو قال (دهى ذا كميت من الصــافنات * وهذا كميت من الصــافيات) لكان أحســن لأجل المجانســة وكان يجعل البيت الأول (بنفسـي أخيان من آمد * أصـيبا بيوم شـديد الأذاة) أو ما يناســب هذا ثم وجدت البيتين الأولين في كتاب الجنان تأليف القاضـي الرشـيد ابن الزبير المقدم ذكره في حرف الهمزة وقد نســبهما إلى الفقيه أبي علي الحســن بن أحمد المعلم المعري لكن هكذا وجدت الحكاية بخط

210 بعض المتـأدبين والله أعلم وللخطيـب المذكور الخطب المليحة والرســائل المنتقاة ولم يزل على رياسته وجلالته وإفادته إلى أن توفي سنة إحدى وقيل ثلاث وخمســين وخمســمائة وكانت ولادته في حدود ســنـة ســتين وأربعمائة رحمه الله تعالى والحصـكفي بفتح الحاء وسكون الصـاد المهملة وفتح الكاف وفي آخرها فاء هذه النســبة إلى حصــن كيفا وهي قلعة حصــينة شــاهقة بين جزيرة ابني عمر وميافارقين وكان القياس أن ينسبوا إليه الحصـني وقد نســبوا إليه أيضــا كذلك لكن إذا نســبوا إلى اســمين أضيف أحدهما إلى الآخر ركبوا من مجموع الاسمين اسما واحدا ونسبوا إليه كما فعلوا هاهنا وكذلك نسبوا إلى رأس عين رسعني وإلى عبد الله وعبد شمس وعبد

الدار عبدلي وعبشـــمي وعبدري وكذلك كل ما هو نظيره وأما طنزة بفتح الطاء المهملة وسـكون النون وفتح الزاي في آخرها هاء ساكنة فهي بليدة صغيرة بديار بكر فوق الجزيرة العمرية خرج منها جماعة من المحدثين وغيرهم ونسـبوا إليها (319) قال عماد الدين الأصبهاني الكاتب في كتاب الخريدة منها إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم الطنزي وهو القائل (وإني لمشـتاق إلى أرض طنزة * وإن خانني بعد التفرق إخواني) (سقى الله أرضا لو ظفرت بتربها * كحلت به من شـدة الشـوق أجفاني) ثم قال عماد الدين المذكور بعد هذا كان الشـاعر حيا في شـهر رمضان سنة ثمان وستين وخمسمائة

211 805 يحيى بن تميم الصنهاجي أبو طاهر يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الحميري الصـنهاجي صـاحب إفريقية وما والاها قد تقدم ذكر والده ورفعت نسبه هناك وتقدم ذكر جماعة من أجداده في هذا الكتاب وكانت ولاية الأمير يحيى المذكور بالمهدية خلافة عن أبيه تميم يوم الجمعة لأربع بقين من شـهر ذي الحجة سـنة سـبع وتسـعين وأربعمائة والطالع الدرجة السـابعة من الجدي ثم اسـتقل بالأمر يوم وفاة والده وقد سـبق ذلك في ترجمته وكان عمر الأمير يحيى يوم الاستقلال ثلاثا وأربعين سنة وستة أشـهر وعشـرين يوما وركب على العادة وأهل دولته محتفون به ورجع إلى قصـره فغير لباس جميع أهل

الدولـة من الخواص والجند بخلع ســـنية وكـانوا قد
غيروا لباسهم لموت أبيه ووهب للأجناد والعبيد أموالا
كثيرة ووعدهم مواعد ســارة ورأيت في كتاب الجمع
والبيـان في أخبـار القيروان الـذي ألفـه ولـد أخيـه عز
الدين أبو محمد عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز
بن باديس أن الأمير تميما قبل وفاته بمدة يســـيرة دعا
ولده يحيى المذكور وكان في دار الإمارة مع خاصــته
وجلسائه فمضى يحيى ومن معه إليه فوجدوا تميما في
بيت المال فأمرهم بالجلوس ثم قال لأحدهم قم فادخل
ذلك البيت وخذ منه الكتاب الذي صــفته كذا في مكان
كذا فقام وأتى به فإذا هو كتاب ملحمة فقال له
212 عد من أوله كذا وكذا ورقة واقرأ الصـفحة
التي تنتهي إليها فقرأها وإذا فيها الملك المغدور وهو
الطويل القامة الذي على وركه الأيمن خال وفي جنبه
الأيســـر شـــامة فقال الأمير تميم أطبق الكتاب واردده
إلى موضـــعـه ففعل ثم قـال تميم أمـا العلامتـان فقد
رأيتهما وبقيت علي الثالثة قم أنت يا شـــريف وأنت يا
فلان حتى تحققا عندي خبر العلامة الثالثة فقاموا وقام
يحيى معهم إلى موضـع مسـتور عن تميم فكشـف لهم
عن جسمه فرأوا شامة على جنبه الأيسر هلالية الشكل
فأتوا تميما فعرفوه فقال لم أعطه أنا شـــيئا الله تعالى
الذي أعطاه ثم قال إني أخبركم بحديث عجيب وذلك
أنه عرض علي النخاس والدته فاســـتحســـنتها ومالت
نفســـي إليها فاشـــتريتها وســـلمتها إلى خدام القصـــر

وأمرت النخــاس أن يرجع إلى قبض الثمن ثم دبرت في مال طيب حلال أخرج ثمنها منه فبينما أنا مفكر في ذلك إذ ســمعت الســائل يصــيح ويرفع صــوته في الإذن على مطالعتي فأخرجت رأســي من الطاق وقلت له ما شـأنك فقال كنت الســاعة أحفر في قصـر المهدي إذ وجدت صـــندوقا عليه قفل فتركته على حاله وجئت مطالعا بأمره فأنفذت معه من أثق به فإذا فيه أثواب مذهبات الأعلام قد أفناها الدهر فأمرت بسبك أعلامها فلم تزد ولم تنقص عن ثمن الجــاريــة فتعجــب الحـاضـــرون من ذلك ودعوا لـه ثم أمر لهم بدنـانير وكســـاء وانصـــرفوا قال عبد العزيز المذكور وقد أدركت هذا الكتاب المشــار إليه عند الســلطان الحســن رحمـه الله تعـالى يعني الحســـن بن علي بن يحيى المذكور وحكى عن الكتاب أمورا وقضـــايا ذكر أنـها ستكون وكانت كما ذكر رجعنا إلى حديث يحيى ولما جلس في الملـك قـام بـالأمر وعـدل في الرعيـة وفتح قلاعا لم يتمكن أبوه من فتحها قال عبد العزيز المذكور في تاريخه وفي أيامه يعني يحيى

213 وصـــل إلى المهدية من طرابلس المهدي محمد بن تومرت المقدم ذكره قـادمـا من الحج فنزل بمسجد قبلي مسجد السبت فاجتمع إليه جماعة من أهل المهدية وقرأوا عليه كتبا في علم أصـول الدين وشـرع في تغيير المنكر فرفع أمره إلى يحيى فـأحضـــره وجمـاعة من الفقهاء فرأى ما هو عليه من الخشـــوع

والتقشـــف والعلم فســـأله الدعاء فقال له أصـــلحك الله لرعيتك ونفع بها ذريتك وأقام مدة يســـيرة بالمهدية ثم انتقل إلى المنستير فأقام بها مدة ثم انتقل إلى بجاية وقد تقدم في ترجمة والده الأمير تميم أن محمد بن تومرت المذكور اجتاز بتلك البلاد في أيامه والله تعالى أعلم أي ذلك كان ثم قال عبد العزيز وفي ســـنة ســـبع وخمسمائة أتى إلى المهدية قوم غرباء فقصدوا يحيى بمطالعة زعموا فيها أنهم من أهل الصـــناعة الكبيرة من الواصـــلين إلى نهايتها فأذن لهم بالدخول عليه فلما مثلوا بين يديه طالبهم بأن يظهروا له من الصـــناعة ما يقف عليه فقالوا نحن نزيل من القصـــدير التدخين والصرير حتى يرجع لا فرق بينه وبين الفضة لمولانا من الســـروج والقصـــب والبنود والأواني قناطير من الفضـــة يجعل عوضـــا منها ما يريده ويســـتعمل جميع ذلك في مهماته وسألوه أن يكون ذلك في خلوة فأجابهم وأحضـــرهم للعمل ولم يكن عند الأمير يحيى ســـوى الشـــريف أبي الحســـن علي والقائد إبراهيم قائد الأعنة وكانوا هم ثلاثة وكانت بينهم أمارة فأمكنتهم الفرصـــة فقال أحدهم دارت البوتقة فتواثبوا وقصـــد كل واحد منهم واحدا بســـكاكينهم فأما الذي قصـــد الأمير يحيى فقال أنا ســـراج وكان يحيى جالســـا على مصـــطبة فضـــربه فجاءت على أم رأســـه فقطعت طاقات في العمامة ولم تؤثر في رأســـه واســـترخت يده بالســـكين على صدره فخدشته وضربه يحيى برجله فألقاه على

ظهره فسمع الخدم الجلبة ففتحوا باب القصر من
عندهم فدخل يحيى وأغلق الباب دونهم وأما الشريف
فلم يزل به الذي قصده حتى قتله وأما القائد إبراهيم
فإنه شهر سيفه ولم يزل يقاتل الثلاثة وكسر الجند
الباب الذي كان بينهم ودخلوا فقتلوهم وكان زيهم زي
أهل الأندلس فقتل في البلد جماعة ممن
214 يلبس ذلك الزي وخرج الأمير يحيى في
الحال ومشى في البلد وسكن الفتنة وكان يحيى عادلا
في دولته ضابطا لأمور رعيته عارفا بخرجه ودخله
مدبرا في جميع ذلك على ما يوجبه النظر العقلي
ويقتضيه الرأي الحكمي ونعته في الملاحم الملك
المغدور وتحقق له هذا النعت بهذه الواقعة التي
ذكرناها وكان كثير المطالعة لكتب الأخبار والسير
عارفا بها رحيما للضعفاء شفيقا على الفقراء يطعمهم
في الشدائد فيرفق بهم ويقرب أهل العلم والفضل من
نفسه وساس العرب في بلاده فهابوه وانكفت أطماعهم
وكان له نظر حسن في صناعة النجوم والأحكام وكان
حسن الوجه على حاجبه شامة أشهل العينين مائلا في
قده إلى الطول دقيق الساقين وكان عنده جماعة من
الشعراء قصدوه ومدحوه وخلدوا مديحه في دواوينهم
ومن جملة شعرائه أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن
أبي الصلت الشاعر المقدم ذكره أقام تحت كنفه بعد أن
جاب الأرض وتقاذفت به البلدان وله صنف الرسالة
المشهورة التي وصف فيها مصر وعجائبها

وشـــعراءها وغير ذلك وله فيه مدائح كثيرة أجاد فيها وأحســن وله أيضــا مدائح في ولده أبي الحســن علي وولد ولده الحســن بن علي ومن جملة قوله من مديحه قصيدة (وارغب بنفسك إلا عن ندى ووغى * فالمجد أجمع بين البأس والجود) (كدأب يحيى الذي أحيت مواهبه * ميت الرجاء بإنجاز المواعيد) (معطي الصـوارم والهيف النواعم والجرد * الصـلادم والبزل الجلاعيد) (أشـم أشـوس مضـروب سـرادقه * على أشم بفرع النجم معقود) (إذا بدا بسرير الملك محتبيا * رأيت يوســـف في محراب داوود) (من أســـرة تخذوا الماذي لبسـهم * واسـتوطنوا صـهوات الضـمر القود) (محسدون على أن لا نظير لهم * وهل رأيت عظيما غير محسود)

215 (وإن تكن جمعتكم أســرة كرمت * فليس في كـل عود نفحـة العود) (أقول للراكـب المزجي مطيتـه * يطوي بهـا الأرض من بيـد إلـى بيـد) (لا تترك الماء عدا في مشـارعه * وتطلب الري من صـم الجلاميد) (هذي موارد يحيى غير ناضـــبة * وذا الطريق إليها غير مســدود) (حكم سـيوفك فيما أنت طالبه * فللسـيوف قضــاء غير مردود) وله فيه غير ذلك ولما كان يوم الأربعاء وهو عيد النحر سـنة تسـع وخمسـمائة توفي يحيى فجأة وذلك أن منجمه قال يوما له إن في تسيير مولدك في هذا النهار عليك عكسا فلا تركب فامتنع من الركوب وخرج أولاده ورجال دولته

إلى المصلى فلما انقضت الصلاة حضر رجال الدولة على ما جرت بـه العـادة للســـلام وقرأ القراء القرآن وأنشـــد الشـــعراء وانصـــرفوا إلى الإيوان فأكل الناس وقام يحيى إلى مجلس الطعام فلما وصــــل إلى باب المجلس أشـــار إلى جارية من حظاياه فاتكأ عليها فما خطا من باب البيت ســـوى ثلاث خطوات حتى وقع ميتا وكان ولده علي نائبه على ســفاقس وهي بلدة من أعمال إفريقية وللشـــعراء فيها شـــعر فمن ذلك قول بعضـــهم وهو علي بن حبيب يصـــف بحرها في مده وجزره (ســـقيا لأرض ســـفاقس * ذات المصـــانع والمصـــلى) (بلد يكـاد يقول حين * وروده أهلا وســـهلا) (وكأن ماء البئر حين * تراه ينضـــب ثم يملا) (صـــب يريد زيارة * فإذا رأى الرقباء ولى) فأحضـــر وعقدت له الولاية ودفن يحيى في القصـــر على ما جرت به العادة ثم نقل بعد ســـنة إلى قصـــر الســـيدة بالمنســـتير وهي بلدة بأفريقية أيضـــا وخلف ثلاثين ولدا ذكورا

216 (320) وأما علي المذكور القائم مقام أبيه يحيى فإن مولده بمدينة المهدية صبيحة يوم الأحد لخمس عشرة ليلة خلت من صفر سنة تسع وتسعين وأربعمائة وكان أبوه قد ولاه ســـفاقس فلما مات أبوه اجتمع أعيان دولتـه على كتـاب كتبوه عن أبيـه إليـه يأمره بالوصـــول إليه مســـرعا فوصـــلـه الكتاب ليلا فخرج لوقته ومعه طائفة من أمراء العرب وجد في

السير فوصل الظهر من يوم الخميس الثاني من يوم العيد ودخل القصر ولم يقدم شيئا على تجهيز أبيه والصلاة عليه ودفنه وفي صبيحة يوم الجمعة ثالث عشر ذي الحجة جلس للناس فدخلوا عليه وسلموا بالإمارة ثم ركب في جيوشه وجموعه ثم عاد إلى قصره وفي أيامه توجه أخوه أبو الفتوح ابن يحيى إلى الديار المصرية ومع زوجته بلارة بنت القاسم وولده العباس صغير على الثدي فوصل إلى الإسكندرية فأنزل وأكرم بأمر الآمر صاحب مصر يومئذ فأقام بها مدة يسيرة وتوفي فتزوجت بعده زوجته بلارة بالعادل بن السلار واسمه علي المقدم ذكره في هذا الكتاب في حرف العين وشب العباس وقدمه الحافظ صاحب مصر وولي الوزارة بعد العادل المذكور وذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه في حوادث سنة اثنتين وخمسمائة حديث الثلاثة الذين جاءوا إلى يحيى في معنى الكيمياء فقال كان مجيئهم في هذه السنة وأنهم لما وثبوا على يحيى وجرى ما ذكرته قبل هذا صادف ذلك مجيء أبي الفتوح المذكور وأصحابه إلى القصر وعليهم السلاح فمنعوا من الدخول وثبت عند يحيى أن ذلك كان باتفاق بينهم فأخرج أبو الفتوح وزوجته وهي ابنة عمه إلى قصر زياد ووكل بهما إلى أن مات يحيى وملك ابنه علي فسيرهما في البحر إلى الديار المصرية فوصلا إلى الإسكندرية انتهى كلامه ولم تزل أمور علي بن

يحيى جارية على الســـداد إلى أن توفي يوم الثلاثاء لســبع بقين من شــهر ربيع الآخر ســنة خمس عشــرة وخمسمائة ودفن في القصر

217 بعد أن فوض الأمر من بعده إلى ولده أبي يحيى الحســـن بن علي بن يحيى (321) ومولـد الحســن المذكور بمدينة ســوســة في رجب ســنة اثنتين وخمســمائة فكان عمره يوم ولايته اثنتي عشــرة ســنة وتسـعة أشـهر ولما كان ثاني يوم وفاة أبيه خرج للناس فسلموا عليه وهنئوه بما صــار إليه ثم ركب والجيوش محتفـة بــه وجرت في أيــامــه وقــائع وأمور يطول شــرحها فمن ذلك أن رجار الفرنجي صــاحب صــقلية أخذ طرابلس الغرب عنوة بالســـيف في يوم الثلاثاء ســادس المحرم ســنة إحدى وأربعين وخمســمائة وقتل أهلها وســبى الحريم والأطفال وأخذ الأموال ثم شــرع في عمارتها وتحصينها بالرجال والعدد ثم أخذ المهدية يوم الاثنين ثاني عشــــر صـــفر ســـنة ثلاث وأربعين وخمســـمائة وذلك أن الحســـن بن علي لما علم عجزه عن مقاومته خرج من المهدية هاربا وقد استصحب ما خف عليه حمله من النفائس وخرج أهل البلد أيضـــا هـاربين إلا من أقعده العجز عن الهرب فدخل إليـه الفرنج وملكوه وصـــادفوا فيه من الأموال والذخائر ما لا يعد ولا يحصـــى وكان عدة من ملك من أهل بيتهم وأولهم زيري المقدم ذكره في حرف الزاي إلى هذا الحســن بن علي تســعة ملوك ومدة ولايتهم مائتا ســنة

وثمان سنين وانقرضت دولة بني باديس ثم إن الحسن بن علي توجه نحو المعلقة وهي قلعة حصينة بإفريقية تجاور تونس وكان صاحبها أبا محفوظ محرز بن زياد أحد أمراء العرب فأقام عنده قليلا ثم ظهر له منه الضجر والسآمة فعزم على قصد الديار المصرية ليكون عند الحافظ العبيدي صاحبها يومئذ فنمي خبره إلى نائب رجار بالمهدية فجعل عليه العيون وعمل عشرين شينيا ليمسكه في البحر فبلغ الحسن ذلك فرجع عن هذا الرأي ثم قصد أن يتوجه إلى جهة عبد المؤمن بن علي بمراكش وأنفذ ثلاثة من أولاده إلى صاحب بجاية وهي آخر أعمال إفريقية ليستأذنه في الوصول إليه وبعد ذلك يتوجه إلى عبد المؤمن فأضمر له الغدر وخاف من اجتماعه

218 بعبد المؤمن أن يتفقا على ما فيه ضرره فكتب إليه كتابا على يد أولاده يقول له لا حاجة لك في الرواح إلى عبد المؤمن ونحن نفعل معك ونصنع وأجزل له من المواعيد الحسنة فتوجه إليه فلما قرب من بجاية لم يخرج للقائه وعدل به إلى الجزائر وهي بلدة فوق بجاية من جهة الغرب وأنزلوه بها في مكان لا يليق بمثله ورتبوا له من الإقامة ما لا يصلح لبعض أتباعه ومنعوه من التصرف وكان وصوله إلى الجزائر في المحرم سنة أربع وأربعين وخمسمائة ثم إن عبد المؤمن فتح بجاية في سنة سبع وأربعين وهرب صاحبها إلى القسطنطينية (322) ثم إن

رجار صاحب صقلية هلك في العشر الأخير من ذي الحجة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة (323) ولما هلك رجار ملك بعده ابنه غنيم بن رجار وعليه قدم أبو الفتوح نصر الله بن قلاقس الشاعر المقدم ذكره ومدحه وأجازه وذلك في سنة ثلاث وستين وخمسمائة (324) ولما هلك غنيم ملكت ابنته وهي أم الأنبرور ملك ألمانية في زماننا ثم هلكت أم الأنبرور وخلفته صغيرا فملك واستمر ملكه وكان عاقلا فاضلا وبينه وبين الملك الكامل صاحب مصر مراسلات وغيرها

219 ثم إن عبد المؤمن وصل إلى المهدية وملكها بعد جهد جهيد وكان دخوله إليها بكرة يوم عاشوراء سنة خمس وخمسين وخمسمائة فولى بها نائبا وكان الحسن بن علي قد وصل صحبته فرتبه مع النائب لتدبير أمورها لكونه عارفا بأحوالها وأقطعه بها ضيعتين وأعطاه دورا سكنها هو وأولاده وأتباعه ولم أقف على تاريخ وفاة الحسن بن علي المذكور (325) ثم قتل محرز بن زياد المذكور في وقعة سطيف يوم الخميس في العشر الأوسط من ربيع الآخر سنة خمس وخمسين وخمسمائة وهذا الحسن بن علي هو الذي صنف له أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت كتاب الحديقة 806 يحيى بن خالد البرمكي أبو الفضل يحيى بن خالد بن برمك وزير هارون الرشيد وقد تقدم ذكر ولديه جعفر والفضل كل واحد منهما في بابه وكان جدهم برمك

من مجوس بلخ وكان يخدم النوبهار وهو معبد كان للمجوس بمدينة بلخ توقد فيه النيران واشــــتهر برمك المذكور وبنوه بســــدانته وكان برمك عظيم المقدار عندهم ولم أعلم هل أســـلم أم لا (326) وســـاد ابنه خالد وتقدم في الدولة العباسية وتولى الوزارة لأبي
220 العباس الســـفاح بعد أبي ســـلمة حفص الخلال المقدم ذكره وقد ذكرته في ترجمة جعفر وذكرت هناك تاريخ وفاته وقال أبو الحسن المسعودي في كتاب مروج الذهب لم يبلغ خالد بن برمك أحد من ولده في جوده ورأيه وبأســــه وعلمه وجميع خلاله لا يحيى في رأيه ووفور عقله ولا الفضـــل ابن يحيى في جوده ونزاهته ولا جعفر بن يحيى في كتابته وفصاحة لســـانه ولا محمد بن يحيى في ســـروه وبعد همته ولا موســـى بن يحيى في شـــجاعته وبأســـه ولما بعث أبو مســـلم الخراســـاني قحطبة بن شـــبيب الطائي لمحاربة يزيد بن عمر ابن هبيرة الفزاري عامل مروان بن محمد على العراقيين وكان خالد بن برمك في جملة من كان معه فنزلوا في طريقهم بقرية فبينما هم على ســـطح بعض دورها يتغدون إذ نظروا إلى الصـــحراء وقد أقبل منها أقاطيع الوحش من الظباء وغيرها حتى كادت تخالط العسكر فقال خالد لقحطبة أيها الأمير ناد في الناس ومرهم أن يســـرجوا ويلجموا قبل أن تهجم عليهم الخيل فقام قحطبة مذعورا فلم ير شـــيئا يروعه فقال يا خالد ما هذا الرأي فقال قد نهد إليك العدو أما

ترى أقاطيع الوحش قد أقبلت إن وراءها لجمعا كثيفا
فما ركبوا حتى رأوا الغبار ولولا خالد لهلكوا

221 وأما يحيى فإنه كان من النبل والعقل وجميع الخلال على أكمل حال وكان المهدي بن أبي جعفر المنصور قد ضم إليه ولده هارون الرشيد وجعله في حجره فلما استخلف هارون عرف له حقه وقال له يا أبت أنت أجلستني في هذا المجلس ببركتك ويمنك وحسن تدبيرك وقد قلدتك الأمر ودفع له خاتمه وفي ذلك يقول الموصلي وأظنه إبراهيم النديم أو ابنه إسحاق (ألم تر أن الشمس كانت سقيمة * فلما ولي هارون أشرق نورها) (بيمن أمين الله هارون ذي الندى * فهارون واليها ويحيى وزيرها) وكان يعظمه وإذا ذكره قال أبي وجعل إصدار الأمور وإيرادها إليه إلى أن نكب البرامكة فغضب عليه وخلده في الحبس إلى أن مات فيه وقتل ابنه جعفرا حسبما تقدم شرحه في ترجمته وكان من العقلاء الكرماء البلغاء ومن كلامه ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها الهدية والكتاب والرسول وكان يقول لولده اكتبوا أحسن ما تسمعون واحفظوا أحسن ما تكتبون وتحدثوا بأحسن ما تحفظون وكان يقول الدنيا دول والمال عارية ولنا بمن قبلنا أسوة وبمن بعدنا عبرة وقال الفضل بن مروان المقدم ذكره سمعت يحيى بن خالد يقول من لم أحسن إليه فأنا مخير فيه ومن أحسنت إليه فأنا مرتهن به وقال القاضي يحيى

بن أكثم ســمعت المأمون يقول لم يكن كيحيى بن خالد وكولده أحد في الكفاية والبلاغة والجود والشـــجاعة ولقد صـــدق القائل حيث يقول (أولاد يحيى أربع * كأربع الطبائع) (فهم إذا اختبرتهم * طبائع الصنائع) قال القاضـــي فقلت له يا أمير المؤمنين أما الكفاية والبلاغة والسماحة

222 فنعرفها فيهم ففي من الشـــجاعة فقال في موســى بن يحيى وقد رأيت أن أوليه ثغر السـند وقال إسحاق بن إبراهيم النديم الموصلي المقدم ذكره حدثني أبي قال أتيت يحيى بن خالد بن برمك فشـــكوت إليه ضـــيقة فقال ويحك ما أصـــنع بك ليس عندنا في هذا الوقت شــيء ولكن هاهنا أمر أدلك عليه فكن فيه رجلا قد جاءني خليفة صــاحب مصــر يســألني أن أســتهدي صــاحبه شــيئا وقد أبيت ذلك عليه فألح علي وقد بلغني أنك قد أعطيت بجاريتك فلانة ثلاثة آلاف دينار فهو ذا أســـتهديه إياها وأخبره أنها قد أعجبتني فإياك أن تنقصـــها من ثلاثين ألف دينار وانظر كيف تكون قال فوالله ما شعرت إلا بالرجل وافاني فساومني بالجارية فقلت لـه لا أنقصـــهـا من ثلاثين ألف دينـار فلم يزل يساومني حتى بذل لي عشرين ألف دينار فلما سمعتها ضعف قلبي عن ردها فبعتها وقبضت العشرين ألفا ثم صــرت إلى يحيى بن خالد فقال لي كيف صــنعت في بيعك الجارية فأخبرته وقلت والله ما ملكت نفســـي أن أجبت إلى العشرين ألفا حين سمعتها فقال إنك لخسيس

فخذ جاريتك بارك الله لك فيها و هذا خليفة صـــاحب فارس قد جاءني في مثل هذا فإذا ســـاومك بها فلا تنقصـها من خمسين ألف دينار فإنه لا بد أن يشـتريها منك بذلك فجاءني الرجل فاسـتمت عليه خمسـين ألف دينـار فلم يزل يســـاومني حتى أعطـاني ثلاثين ألف دينار فضـعف قلبي عن ردها ولم أصـدق بها فأوجبتها ثم صرت إلى يحيى بن خالد فقال لي بكم بعت الجارية فأخبرته فقال ويحك ألم تؤدبك الأولى عن الثانية قال فقلت والله ضـعفت عن رد شـيء لم أطمع فيه قال فقال هذه جاريتك فخذها إليك قال فقلت جارية أفدت بها خمسين ألف دينار ثم أملكها أشـهدك أنها حرة وأني قد تزوجتها هكذا رأيت هذه الحكاية ثم نظرت في كتاب أخبار الوزراء تأليف الجهشـــياري فقال إن يحيى قال لإبراهيم الموصــــلي لا تقبل أقل من مائة ألف دينار وأنه بـاعها بخمســين ألف دينـار وقـال لـه في المرة الثانية

223 لا تقبل أقل من خمســين ألف دينار فباعها بثلاثين ألف دينار وقال الأصـمعي دخلت على يحيى يوما فقال يا أصــــمعي هل لك زوجة فقلت لا فقال فجارية فقلت لكم منة فأمر بإخراج جارية غاية في الحسن والجمال والظرف فقال لها قد وهبتك لهذا وقال يا أصــــمعي خذها فشــكرته ودعوت له فلما رأت الجارية ذلك بكت وقالت يا سـيدي تدفعني إلى هذا فما ترى من سـماجته وقبحه فقال لي هل لك أن أعوضـك

عنها ألفي دينار قلت ما أكره ذلك ودخلت الجارية إلى داره فقال لي أنكرت على هذه الجارية أمرا فأردت أن أعاقبها بك ثم رحمتها فقلت له هلا أعلمتني حتى كنت لحقت بالباب على صـــورتي الأصـــلية من غير أن أسرح لحيتي وأصلح عمتي وأتطيب وأتجمل فضحك وأمر لي بألف دينار أخرى وحكى إســحاق النديم أيضـا قال كانت صـلات يحيى بن خالد إذا ركب لمن تعرض لـه مائتي درهم فركب ذات يوم فتعرض لـه أديب شاعر وأنشده (يا سمي الحصور يحيى أتيحت * لك من فضل ربنا جنتان) (كل من مر في الطريق عليكم * فله من نوالكم مائتان) (مائتا درهم لمثلي قليل * هي منكم للقابس العجلان) قال لـه يحيى صـــدقت وأمر بحمله إلى داره فلما رجع من دار الخلافة سأله عن حاله فذكر أنه تزوج وقد أخذ بواحدة من ثلاث إما أن يؤدي المهر وهو أربعة آلاف وإما أن يطلق وإما أن يقيم جاريا للمرأة يكفيها إلى أن يتهيأ له نقلها فأمر له يحيى بأربعة آلاف للمهر وبأربعة آلاف لثمن منزل وبأربعة آلاف لما يحتاج إليه المنزل وبأربعة آلاف للبنية وبأربعة آلاف يســتظهر بها فأخذ عشرين ألفا وانصرف

224 وقال محمد بن مناذر الشاعر حج هارون الرشـــيد ومعه ابناه الأمين محمد والمأمون عبد الله وحج معه يحيى بن خالد وابناه الفضــل وجعفر فلما صـــاروا بالمدينة جلس الرشـــيد ومعه يحيى بن خالد

فأعطى الناس عطاءهم ثم جلس الأمين ومعه الفضـــل فـأعطـاهم العطـاء ثم جلس المـأمون ومعـه جعفر بن يحيى فأعطاهم عطاياهم وكان أهل المدينة يســـمون ذاك العام عام الأعطية الثلاثة ولم يروا مثل ذلك قط فقلت في ذلك (أتانا بنو الأملاك من آل برمك * فيا طيب أخبار ويا حسن منظر) (لهم رحلة في كل عام إلى العدى * وأخرى إلى البيت العتيق المطهر) (إذا نزلوا بطحاء مكة أشــرقت * بيحيى وبالفضـــل بن يحيي وجعفر) (فتظلم بغـداد وتجلو لنـا الـدجى * بمكـة مـا حجوا ثلاثـة أقمر) (فمـا خلقت إلا لجود أكفهم * وأقدامهم إلا لأعواد منبر) (إذا راض يحيى الأمر ذلت صــــعابه * فناهيك من راع له ومدبر) (ترى الناس إجلالا له وكأنهم * غرانيق ماء تحت باز مصــــرصــــر) وذكر الخطيب في تاريخ بغداد في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي أنـه قال كنت حناطا بالمدينة في يدي مائة ألف درهم للناس أضـــارب بها فتلفت الدراهم فشـــخصـــت إلى العراق فقصـــدت يحيى بن خالد فجلســـت في دهليزه وأنســـت بالخدم والحجاب وسـألتهم أن يوصـلوني إليه فقالوا إذا قدم الطعام إليه لم يحجب عنه أحد ونحن ندخلك عليه ذلك الوقت فلما حضر طعامه أدخلوني فأجلسوني معه على المائدة فسـألني من أنت وما قصـتك فأخبرته فلما رفع الطعام وغســـلنا أيدينا دنوت منه لأقبل رأســـه فاشمأز من ذلك فلما صرت إلى الموضع الذي يركب

منه لحقني خادم معه كيس فيه ألف دينار فقال الوزير يقرأ عليك السلام ويقول لك استعن بهذا على أمرك 225 وعد إلينا في اليوم الثاني فأخذته وانصرفت وعدت في اليوم الثاني فجلست معه على المائدة فأنشأ يسألني كما سألني في اليوم الأول فلما رفع الطعام دنوت منه لأقبل رأسه فاشمأز مني فلما صرت إلى الموضع الذي يركب منه لحقني خادم معه كيس فيه ألف دينار فقال لي الوزير يقرأ عليك السلام ويقول لك استعن بهذا على أمرك وعد إلينا في غد فأخذته وانصرفت وعدت في اليوم الثالث كما أمر فأعطيت مثل الذي أعطيت في اليوم الأول والثاني فلما كان في اليوم الرابع أعطيت الكيس كما أعطيت قبل ذلك وتركني بعد ذلك أقبل رأسه وقال إنما منعتك ذلك لأنه لم يكن وصل إليك من معروفي ما يوجب هذا فالآن قد لحقك بعض النفع مني يا غلام أعطه الدار الفلانية يا غلام افرش له الفرش الفلاني يا غلام أعطه مائتي ألف درهم يقضي دينه بمائة ألف ويصلح شأنه بمائة ألف ثم قال لي الزمني وكن في داري فقلت أعز الله الوزير لو أذنت لي بالشخوص إلى المدينة لأقضي الناس أموالهم ثم أعود إلى حضرتك كان ذلك أرفق بي قال قد فعلت وأمر بتجهيزي فشخصت إلى المدينة فقضيت ديني ثم رجعت إليه فلم أزل في ناحيته ودخل عليه يوما أبو قابوس الحميري فأنشده (رأيت يحيى أتم الله نعمته * عليه يأتي الذي لم يأته أحد) (

ينسى الذي كان من معروفه أبدا * إلى الرجال ولا ينسى الذي يعد) فقضى حوائجه ووصله بجملة من المال قلت قد حل هذا البيت الثاني شرف الدولة مسلم بن قريش وقد قال له رجل لا تنس أيها الأمير حاجتي فقال إذا قضيتها أنسيتها

226 ولمسلم بن الوليد الأنصاري في يحيى بن خالد (أجدك هل تدرين إن رب ليلة * كأن دجاها من قرونك ينشر) (صبرت لها حتى تجلت بغرة * كغرة يحيى حين يذكر جعفر) وكان يحيى يقول إذا أقبلت الدنيا فأنفق فإنها لا تفنى وإذا أدبرت فأنفق فإنها لا تبقى وقال ذكر النعمة من المنعم تكدير ونسيان المنعم عليه كفر وتقصير وقال النية الحسنة مع العذر الصادق يقومان مقام النجح وقال إذا أدبر الأمر كان العطب في الحيلة وقال الحسن بن سهل المقدم ذكره من غيرته الولاية لإخوانه علمنا أن الولاية أكبر منه أخذنا ذلك عن صاحب ديوان المكارم أبي علي يحيى بن خالد بن برمك ولما عزم جعفر على بناء قصره شاور أباه يحيى بن خالد فيه فقال هو قميصك إن شئت فوسعه وإن شئت فضيقه وأتاه وهو يبني داره فإذا الصناع يبيضون حيطانها فقال إنك تعطي الذهب بالفضة فقال جعفر ليس كل أوان يكون ظهور الذهب أصلح ولكن هل ترى عيبا قال نعم مخالطتها لدور السفل والسوقة وكان ليحيى كاتب يختص بخدمته ويقرب من حضرته فعزم على ختان ولده فاحتفل له

الناس على طبقاتهم وهاداه أعيان الدولة ووجوه الكتاب والرؤساء على اختلاف منازلهم وكان له صديق قد اختلت أحواله وضاقت يده عما يريده لذلك مما دخل فيه غيره فعمد إلى كيسين كبيرين نظيفين فجعل في أحدهما ملحا وفي الآخر أشنانا مكفرا وكتب معهما رقعة نسختها لو تمت الإرادة لأسعفت بالعادة ولو ساعدت المكنة على بلوغ الهمة لاتبعت السابقين إلى برك وتقدمت المجتهدين في كرامتك لكن قعدت القدرة عن البغية وقصرت الجدة عن مباراة أهل النعمة وخفت أن تطوى صحائف البر
227 وليس لي فيها ذكر فأنفذت المبتدأ بيمنه وبركته والمختتم بطيبه ونظافته صابرا على ألم التقصير ومتجرعا غصص الاقتصار على اليسير فأما ما لم أجد إليه السبيل في قضاء حقك فالقائم فيه بعذري قول الله عز و جل (^ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج) التوبة 91 والسلام فلما حضر يحيى بن خالد الوليمة عرض عليه كاتبه الهدايا جميعها حتى الكيسين والرقعة فاستظرفها وأمر أن يملأ الكيسان مالا ويردا عليه فكان ذلك أربعة آلاف دينار وقال رجل ليحيى والله لأنت أحلم من الأحنف بن قيس فقال له لا تقرب إلي من أعطاني فوق حقي ونادى إسحاق بن إبراهيم الموصلي أحد غلمانه فلم يجبه فقال سمعت يحيى بن خالد يقول يدل على حلم الرجل سوء أدب غلمانه

وكان يحيى يساير الرشيد يوما فوقف له رجل فقال يا أمير المؤمنين عطبت دابتي فقال الرشيد يعطى خمسمائة درهم فغمزه يحيى فلما نزلوا قال له الرشيد يا أبت أومأت إلي بشيء ولم أعرفه فقال مثلك لا يجري هذا القدر على لسانه إنما يذكر مثلك خمسة آلاف ألف عشرة آلاف ألف فقال إذا سئلت مثل هذا كيف أقول فقال تقول يشترى له دابة وبالجملة فإن أخبارهم كثيرة ولا يحتمل هذا المختصر الإطالة أكثر من هذا ولما قتل هارون الرشيد جعفر بن يحيى البرمكي كما ذكرناه في حرف الجيم من هذا الكتاب نكب البرامكة وحبس يحيى وابنه الفضل كما ذكرناه في حرف الفاء من هذا الكتاب وكان حبسهما في الرافقة وهي الرقة القديمة تجاور الرقة الجديدة وهي البلد المشهور الآن على شاطئ الفرات ويقال لهما الرقتان تغليبا لأحد الاسمين على الآخر كما قيل العمران والقمران وغير ذلك

228 وحكى الجهشياري في كتاب أخبار الوزراء أن يحيى بن خالد اشتهى في وقت من الأوقات في محبسه وهو مضيق عليه سكباجة فلم يطلق له اتخاذها إلا بمشقة فلما فرغ منها سقطت القدر من يد المتخذ لها فانكسرت فأنشد يحيى أبياتا يخاطب بها الدنيا ومضمونها اليأس وقطع الأطماع ولم يزل يحيى في حبس الرافقة إلى أن مات في الثالث من المحرم سنة تسعين ومائة فجأة من غير علة وهو ابن

سبعين سنة وقيل أربع وسبعين وصلى عليه ابنه الفضل ودفن في شاطىء الفرات في ربض هرثمة ووجد في جيبه رقعة فيها مكتوب بخطه قد تقدم الخصم والمدعي عليه في الأثر والقاضي هو الحكم العدل الذي لا يجور ولا يحتاج إلى بينة فحملت الرقعة إلى الرشيد فلم يزل يبكي يومه كله وبقي أياما يتبين الأسى في وجهه رحمهما الله تعالى وكان يحيى يجري على سفيان الثوري رضي الله عنه في كل شهر ألف درهم وكان سفيان يقول في سجوده اللهم إن يحيى كفاني أمر دنياي فاكفه أمر آخرته فلما مات يحيى رآه بعض إخوانه في النوم فقال له ما صنع الله بك قال غفر لي بدعاء سفيان وقيل إن صاحب هذه القضية هو سفيان ابن عيينة لا سفيان الثوري والله تعالى أعلم قال الجهشياري ندم الرشيد على ما كان منه في أمر البرامكة وتحسر على ما فرط منه في أمرهم وخاطب جماعة من إخوانه بأنه لو وثق منهم بصفاء النية منهم لأعادهم إلى حالهم وكان الرشيد كثيرا ما يقول حملونا على نصحائنا وكفاتنا وأوهمونا أنهم يقومون مقامهم فلما صرنا إلى ما أرادوا لم يغنوا عنا وأنشد

229 (أقلوا علينا لا أبا لأبيكم * من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا) قلت هذا البيت للحطيئة الشاعر وبعده (أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا * وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا) قلت وذكر

الزمخشـــري في كتاب ربيع الأبرار ما مثاله إنه وجد تحت فراش يحيى بن خالد البرمكي رقعة فيها مكتوب (وحق الله إن الظلم لوم * وإن الظلم مرتعه وخيم) (إلى ديان يوم الدين نمضي * وعند الله تجتمع الخصوم (

230 807 الوزير ابن هبيرة أبو المظفر الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة بن محمد بن هبيرة بن سـعد بن الحسـين بن أحمد بن الحسـن بن جهم بن عمرو بن هبيرة بن علوان بن الحوفزان وهو الحارث بن شـريك بن عمرو بن قيس بن شـرحبيل بن مرة بن همام ابن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط ابن هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان الشيباني الملقب عون الدين هكذا ساق نسبه جماعة منهم ابن الدبيثي في تاريخه وابن القادسـي في كتاب الوزراء وغيرهما وإنما أخرج له هذا النسـب بعد سـنين من وزارته وذكره الشـعراء في مدائحهم وهو من قرية من بلاد العراق تعرف بقرية بني أوقر بالقاف من أعمال دجيل وهي دور عرمانيا بالعين المهملة والياء المثناة من تحت وتعرف الآن بدور الوزير نسبة إليه وكان والده من أجنادها

231 ودخل بغداد في صـباه واشـتغل بالعلم وجالس الفقهاء والأدباء وكان على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضـي الله عنه وسـمع الحديث وحصـل من

كل فن طرفا وقرأ الكتاب العزيز وختمه بالقراءات والروايات وقرأ النحو واطلع على أيام العرب وأحوال الناس ولازم الكتابة وحفظ ألفاظ البلغاء وتعلم صناعة الإنشاء وكانت قراءته الأدب على أبي منصور ابن الجواليقي وتفقه على أبي الحسين محمد بن محمد الفراء وصحب الشيخ أبا عبد الله محمد ابن يحيى بن علي بن مسلم بن موسى بن عمران الزبيدي الواعظ وسمع الحديث النبوي من أبي عثمان إسماعيل بن محمد بن قيلة الأصبهاني ومن أبي القاسم هبة الله بن محمد بن الحسين الكاتب ومن بعدهما وحدث عن الإمام المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين وعن غيره وسمع منه خلق كثير منهم الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي وأول ولايته الإشراف بالأقرحة الغربية ثم نقل إلى الإشراف على الإقامات المخزنية ثم قلد الإشراف بالمخزن ولم يطل في ذلك مكثه حتى قلد في سنة اثنتين وأربعين كتابة ديوان الزمام ثم ترقى إلى الوزارة وكان سبب توليته الوزارة ما حكاه الذي جمع سيرته أنه قال من جملة ما رفع قدر الوزير ونقله إلى الوزارة ما جرى من مسعود البلالي شحنة بغداد نيابة عن السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي وكان مسعود أحد الخدم الخصيان الحبشيين الكبار من أمراء دولته من سوء أدبه في الحضرة وخروجه عن معتاد الواجب وانتشار مفسدي أصحابه وكان وزير الخليفة إذ ذاك قوام الدين أبو القاسم علي بن صدقة

ابن علي بن صــدقة قد كتب عن الخليفة إلى السـلطان مســعود عدة كتب يعتمد الإنكار على مســعود البلالي على ما صــــدر منه فلم يرجع بجواب فلما قلد عون الدين ابن هبيرة كتابة ديوان الزمام خاطب الخليفة في مكاتبة السـلطان مســعود بالقضــية فوقع إليه قد كان الوزير كتب في ذلك عدة كتب فلم يجيبوه فراجع عون الدين في ذلك ســؤاله إلى أن أجيب فكتب من إنشــائه رســالة وهي طويلة فأضــربت عن ذكرها وحاصــل الأمر فيها أنه دعا له وأذكره ما كان أسلافه

232 يعاملون الخلفاء به من حســن الطاعة والتأدب معهم والذب عنهم ممن يفتات عليهم وشـــكا من مسعود البلالي وأنه كاتب في ذلك عدة دفعات وما جاءه جواب وأطال القول في ذلك وكان هذا في ســـنة اثنتين وأربعين وخمســمائة في شــهر ربيع الآخر فما مضـــى على هذا إلا قليل حتى عاد الجواب بالاعتذار والذم لمســعود البلالي والإنكار لما اعتمده فاســتبشــر المقتفي بإشارة عون الدين وعظم سروره بذلك وحسن موقع عون الدين من قلبه ولم يزل عنده مكينا حتى استوزره قال مصنف السيرة وكان أيضا من جملة أسباب وزارته أنه في سنة ثلاث وأربعين وصل إلى بغداد الأمير ابن ألقش المسعودي صاحب اللحف وهو صقع بالعراق ويلدكز السلطاني وقصداها في جموع كثيرة وصــــدر منهم فتن عظيمة تضــمنتها التواريخ فشـــرع الوزير قوام الدين بن صـــدقة في تدبير الحال

فأخفق مسـعاه فحينئذ اسـتأذن عون الدين الخليفة في أمرهم فأذن له في ذلك فخاطب هؤلاء الخارجين على الخليفة وأحسـن التدبير في ذلك حتى كف شـرهم ثم قوي عليهم حتى نهبت العامة أموالهم وجرت المقادير بهذه الأحوال لرفع ابن هبيرة ووضـع الوزير ابن صـدقة فإنه عند انقضـاء هذا المهم استدعى الخليفة المقتفي عون الدين بمطالعة على يد أميرين من أمراء الدولة فتبين بقراءته لها التباشير في أسرته فركب إلى دار الخليفة في جماعته وتسـامع الناس بوزارته ولما وصـل إلى باب الحجرة استدعي فدخل وقد جلس له المقتفي بميمنة التاج فقبل الأرض وسلم وتحدثا ساعة بما لم يحط به غيرهما علما ثم خرج وقد جهزوا له التشـريف على عادة الوزراء فلبسـه ثم استدعي ثانيا فقبل الأرض ودعا بدعاء أعجب الخليفة ثم أنشـده (سـأشـكر عمرا ما تراخت منيتي * أيادي لم تمنن وإن هي جلت) (رأى خلتي من حيث يخفى مكانها * فكانت بمرأى منه حتى تجلت) قلت و هذان البيتان لإبراهيم بن العباس الصولي المقدم ذكره وهي

233 ثلاثة أبيات والثاني منهما بعد الأول (فتى غير محجوب الغنى عن صـديقه * ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت) ولما أنشد عون الدين هذين البيتين غير نصف البيت الثاني منهما فإن الشاعر قال (فكانت قذى عينيه حتى تجلت *) فما رأى أنه يخاطب الخليفة بهذه العبارة فغيره تأدبا ثم إن عون

الدين خرج فقدم له حصـــان أدهم ســـائل الغرة محجل وعليـه من الحلى مـا جرت بـه عـادتهم مع الوزراء والشـــرح في ذلك يطول فاختصـــرته وخرج بين يديه أرباب المناصـــب وأعيان الدولة وأمراء الحضـــرة وجميع خدام الخلافة وســـائر حجاب الديوان والطبول تضرب أمامه والمسند وراءه محمول على عادتهم في ذلـك حتى دخـل الـديوان ونزل على طرف الـديوان وجلس في الدست وقام لقراءة عهده الشيخ سديد الدولة أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم ابن الأنباري ولولا خوف الإطالة لذكرت العهد فإنه بديع في بابه لكن قصـدي الاقتصـار فأعرضـت عن ذكره وهو مشـهور في أيدي الناس فلما فرغ من قراءته قرأ القراء وأنشـد الشعراء وتولى الوزارة يوم الأربعاء ثالث عشر ربيع الآخر من ســنة أربع وأربعين وخمســمائة وكان لقبه جلال الدين فلما ولي الوزارة لقبوه عون الدين وكان عالما فاضـلا ذا رأي صـائب وسـريرة صـالحة وظهر منـه في أيـام ولايتـه مـا شـــهـد لـه بكفـايتـه وحصـــن مناصـحته فشكر لـه ذلك ولحظه بعين الرعاية وتوفرت له أســـباب الســـعادة وكان مكرما لأهل العلم يحضـــر مجلســـه الفضـــلاء على اختلاف فنونهم ويقرأ عنده الحديث عليه وعلى الشـــيوخ بحضـــوره ويجري من البحث والفوائد ما يكثر ذكره وصـــنف كتبا فمن ذلك كتاب الإفصاح عن شرح معاني الصحاح وهو يشتمل على تسـعة عشـر كتابا شـرح الجمع بين الصـحيحين

وكشف عما فيه من الحكم النبوية وكتاب المقتصد بكسر الصاد المهملة وشرحه أبو

234 محمد ابن الخشاب النحوي المشهور في أربع مجلدات شرحا مستوفى واختصر كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت وله كتاب العبادات في الفقه على مذهب الإمام أحمد وأرجوزة في المقصور والممدود وأرجوزة في علم الخط وغير ذلك وذكر شيخنا عز الدين أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري في تاريخه الصغير الأتابكي في فصل حصار الملك محمد وزين الدين بغداد وذلك في ذي القعدة من سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة أن المقتفي لأمر الله جد في حفظ بغداد وقام وزيره عون الدين بن هبيرة في هذا الأمر المقام الذي يعجز عنه غيره قال وأمر المقتفي فنودي ببغداد من جرح وقت القتال فله خمسة دنانير فكان كل من جرح يوصل ذلك إليه فحضر بعض العامة عند الوزير مجروحا فقال الوزير هذا جرح صغير لا تستحق عليه شيئا فعاد إلى القتال فضرب في جوفه فخرجت أمعاؤه فعاد إلى الوزير فقال يا مولانا الوزير يرضيك هذا فضحك منه وأمر له بصلة وأحضر له من يعالجه انتهى كلام ابن الأثير قلت وهذا محمد هو ابن محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي وزين الدين هو أبو الحسن علي بن بكتكين المعروف بكجك والد مظفر الدين صاحب إربل وقال غير ابن الأثير إن الملك اسمه محمد شاه

وإن هذه القضــية كانت في ســنة اثنتين وخمســين والله
أعلم ذكر ذلك ابن الجوزي في كتاب شـــذور العقود
وهو أخبر لأنها بلده وهو بها وقد ذكرت محمد شاه في
ترجمة أبيه وتوفي الإمام المقتفي لأمر الله أبو عبد الله
محمد بن المســتظهر ليلة الأحد ثاني ربيع الأول ســنة
خمس وخمسين وخمسمائة وبويع ولده المستنجد بالله
أبو
235 المظفر يوســـف فدخل عليه وبايعه وأقره
على وزارته وأكرمه وكان خائفا منه أن يعزله فلم
يعزله ولم يتعرض له ولم يزل مســـتمرا في وزارته
إلى حين وفاته ومدحه جماعة من أماثل شـــعراء
عصـــره منهم أبو الفوارس ســـعد بن محمد المعروف
بابن صـــيفي الملقب حيص بيص المقدم ذكره وله فيه
مدائح منتخبة فمن ذلك قوله (يهز حديث الجود
ساكن عطفه * كما هز شـرب الحي صـهباء قرقف)
(ويرســو إذا طاشــت حبا القوم واغتدت * صـعاب
الذرا من زعزع الخطب ترجف) (صـــروم الدنايا
هاجر كل سبة * ولكنه بالمجد صب مكلف) (يضيق
بأدنى العار ذرعا وصــــدره * بأهوال ما يدني من
الحمد نفنف) (إذا قيل عون الدين يحيى تألق الغمام
* وماس الســـمهري المثقف) وكانت عوائدهم في
بغداد في شـهر رمضـان أن الأعيان يحضـرون سماط
الخليفة عند الوزير وهم يســمون السماط الطبق وكان
حيص بيص في جملة من يحضـر الطبق وكانت نفسه

أبية وهمته عربية وإذا أحضـــروا الطبق تخطاه وقعد فوقه من أرباب المراتب جماعة ليس فيهم فضـل فيجد في نفســه لذلك مشــقة عظيمة فكتب إلى الوزير عون الدين يســتعفيه من الحضــور (يا باذل المال في عدم وفي سـعة * ومطعم الزاد في صـبح وفي غسـق) (وحاشر الناس أغنتهم فواضله * إلى مزيد من النعماء مندفق) (في كل بيت خوان من مكارمه * يميرهم وهو يدعوهم إلى الطبق) (فاض النوال فلولا خوف منعمة * من بأس عدلك نادى الناس بالغرق) (وكل أرض بها صـــوب وســـاكبة * حتى الوغى من نجيع الخيل والعرق)

236 (صـن منكبي عن زحام إن غضـبت له * تمكن الطعن من عرضـي ومن خلقي) (وإن رضيت به فالذل منقصـــــة * فكم تكلفته حملا فلم أطق) (أنا المريض بأحداث وســورتها * وليس غير إبائي حافظ رمقي) (وهبـه لي كعطاياك التي كثرت * فـالجود بـالعز فوق الجود بـالورق) (إن اصـــفرار مجن الشـــمس من حزن * على علاها لمرماها إلى الأفق) (وإن توهم قوم أنـه حمق * فربمـا اشـــتبـه التوقير بـالحمق) وأهدي إلى الوزير عون الدين دواة بلور مرصـــعة بمرجان وفي مجلســـه جماعة منهم حيص بيص فقال الوزير يحسـن أن يقال في هذه الدواة شـيء من الشـعر فقال بعض الحاضـرين وكان ضـريرا ولم أقف على اســـمه (ألين لداود الحديد كرامة * يقدره

في السرد كيف يريد) (ولان لك البلور وهي حجارة * ومعطفه صـــعب المرام شــديد) فقال حيص بيص إنما وصـفت صـانع الدواة ولم تصفها فقال الوزير من عير غير فقال الحيص بيص (صـــيغت دواتك من يوميك فاشـتبها * على الأنام ببلور ومرجان) (فيوم ســـلمك مبيض بفيض ندى * ويوم حربك قان بالدم القاني) ثم وجدت البيتين الأولين في كتاب الجنان تأليف القاضـــي الرشـــيد أحمد ابن الزبير الغســـاني المذكور في أوائل هذا الكتاب ونسـبهما إلى القاضـــي الرشيد أحمد بن قاسم الصقلي قاضي مصر وذكر أنه دخل على الأفضل شاهان شاه أمير الجيوش بمصر وقد تقدم ذكره أيضا فرأى بين يديه دواة من
237 عاج محلاة بمرجان فقال بديها (ألين لداود الحديد كرامة * يقدره في السـرد كيف يريد) (ولان لك المرجان وهو حجارة * على أنه صـــعب المرام شـــديد) ومدحه أبو عبد الله محمد بن بختيار المعروف بالأبله الشـاعر المقدم ذكره بقصـائد عديدة منها وهي أحسـنها فلهذا ذكرتها (ولع النسـيم وبانة الجرعا * وصـــفاك إلا الحلي والودعا) (يا دمية ضـاقت خلاخلها * عنها وضـقت بحبها ذرعا) (قد كنت ذا دمع وذا جلد * فبقيت لا جلدا ولا دمعا) (صـيرت جسـمي للضـنى سـكنا * وسـكنت بعد تبالة الجرعا) (يا من رأى أدماء ســانحة * قلبي لها لا المنحنى مرعى) (لاثت بمثل الغصـــن مئزرها *

وجلت بعود أراكة طلعا) (وإذا تراجعك الكلام فلا
* تعدد لأيام الصـــبا رجعى) (ولقد ســعت بالكأس
تصــبحني * ســكرى اللواحظ وعثة المســعى) (في
مستنير الزهر ما صـنعت * أبراده عدن ولا صـنعا)
(باكرت مفترعا ثراه وما * ركب الحمام لبانة فرعا
) (ســـلت عليه البارقات ظبا * لبس الغدير لخوفها
درعا) (يا عاذلي إن شـئت تسـمعني * عذلا فشـق
لصخرة سمعا) (طبعا جبلت على الغرام كما * جبل
الوزير على الندى طبعا)

238 وخرج بعد هذا إلى المديح فأضـربت عنه
ولولا خوف الإطالة لذكرته ومدحه أبو الفتح محمد
بن عبد الله ســبط ابن التعاويذي المقدم ذكره بقصـــيدة
واحدة وهي (ســـقاها الحيا من أربع وطلول * حكت
دنفي من بعدهم ونحولي) (ضـــمنت لها أجفان عين
قريحة * من الدمع مدرار الشـــؤون همول) (لئن
حال رســـم الدار عما عهدته * فعهد الهوى في القلب
غير محيل) (خليلي قد هاج الغرام وشـاقني * سـنا
بارق بالأجرعين كليل) (ووكل طرفي بالســـهاد
تنظري * قضــــاء ملي بالديون مطول) (إذا قلت قد
أنحلت جسمي صبابة * تقول وهل حب بغير نحول)
(وإن قلت دمعي بالأســى فيك شـاهدي * تقول شـهود
الدمع غير عدول) (فلا تعذلاني إن بكيت صـــبابة *
على ناقض عهد الوفاء ملول) (فأبرح ما يمنى به
الصــــب في الهوى * ملال حبيب أو ملام عذول) (

ودون الكثيب الفرد بيض عقائل * لعبن بألباب لنا وعقول) (غداة التقت ألحاظها وقلوبنا * فلم تجل إلا عن دم وقتيل) (ألا حبذا وادي الأراك وقد وشت * برياك ريحا شمأل وقبول) (وفي أبرديه كلما اعتلت الصبا * شفاء فؤاد بالغرام عليل) (دعوت سلوا فيك غير مساعدي * وحاولت صبرا عنك غير جميل) (تعرفت أسباب الهوى وحملته * على كاهل للنائبات حمول) (فلم أحظ في حب الغواني بطائل * سوى رعي ليل بالغرام طويل) ومنها (إلى كم تمنيني الليالي بماجد * رزين وقار الحلم غير عجول)
239 (أهز اختيالا في هواه معاطفي * وأسحب تيها في ثراه ذيولي) (لقد طال عهدي بالنوال وإنني * لصب إلى تقبيل كف مذيل) (وإن ندى يحيى الوزير لكافل * بها لي وعون الدين خير كفيل) وكان عون الدين كثيرا ما ينشد (ما ناصحتك خبايا الود من أحد * ما لم ينلك بمكروه من العذل) (مودتي لك تأبى أن تسامحني * بأن أراك على شيء من الزلل) وذكر الشيخ شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزغلي بن عبد الله سبط الشيخ جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي في تاريخه الذي سماه مرآة الزمان ورأيته بدمشق في أربعين مجلدا وجميعه بخطه وكان أبوه قزغلي مملوك عون الدين ابن هبيرة المذكور وزوجه بنت الشيخ جمال الدين أبي الفرج المذكور فأولدها شمس الدين فولاؤه له أنه سمع

مشـــايخه ببغداد يحكون أن عون الدين قال كان ســـبب ولايتي المخزن أنني ضـاق ما بيدي حتى فقدت القوت أياما فأشــــار علي بعض أهلي أن أمضــــي إلى قبر معروف الكرخي رضي الله عنه فأسأل الله تعالى عنده فإن الدعاء عنده مســـتجاب قال فأتيت قبر معروف فصـــليت عنده ودعوت ثم خرجت لأقصـــد البلد يعني بغداد فاجتزت بقطفتا قلت وهي محلة من محال بغداد قال فرأيت مســـجدا مهجورا فدخلت لأصـــلي فيه ركعتين وإذا بمريض ملقى على بـارية فقعدت عند رأسه وقلت ما تشتهي فقال سفرجلة قال فخرجت إلى بقـال هنـاك فرهنـت عنـده مئزري على ســـفرجلتين وتفاحة وأتيته بذلك فأكل من الســـفرجلة ثم قال أغلق باب المســـجد فأغلقته فتنحى عن البارية وقال احفر هاهنا فحفرت وإذا بكوز فقال خذ هذا فأنت أحق به فقلت أما لك وارث فقال لا وإنما كان لي أخ وعهدي به بعيد وبلغني أنه مات ونحن من الرصافة

240 قال وبينا هو يحدثني إذ قضى نحبه فغسلته وكفنته ودفنته ثم أخذت الكوز وفيه مقدار خمســـمائة دينار وأتيت إلى دجلة لأعبرها وإذا بملاح في ســـفينة عتيقة وعليه ثياب رثة فقال معي معي فنزلت معه وإذا به من أكثر الناس شبها بذلك الرجل فقلت من أين أنت فقال من الرصـــافة ولي بنات وأنا صـــعلوك قلت فما لك أحد قال لا كان لي أخ ولي عنه زمان ما أدري ما فعل الله به قال فقلت ابسط حجرك فبسطه فصببت

المال فيه فبهت فحدثته الحديث فسألني أن آخذ نصفه فقلت لا والله ولا حبة ثم صعدت إلى دار الخليفة وكتبت رقعة فخرج عليها إشراف المخزن ثم تدرجت إلى الوزارة وقال جدي الشيخ أبو الفرج في كتاب المنتظم وكان الوزير يسأل الله تعالى الشهادة ويتعرض لأسبابها وكان صحيحا يوم السبت ثاني عشر جمادى الأولى من سنة ستين وخمسمائة فنام ليلة الأحد في عافية فلما كان في وقت السحر قاء فأحضر طبيبا كان يخدمه فسقاه شيئا فيقال إنه سمه فمات وسقي الطبيب بعده بنحو ستة أشهر سما فكان يقول سقيت كما سقيت ومات الطبيب وقال في المنتظم أيضا وكنت ليلة مات الوزير نائما على سطح مع أصحابي فرأيت في المنام كأني في دار الوزير وهو جالس فدخل رجل بيده حربة قصيرة فضربه بها بين أنثييه فخرج الدم كالفوارة فضرب الحائط فالتفت فإذا بخاتم من ذهب ملقى فأخذته وقلت لمن أعطيه أنتظر خادما يخرج فأعطيه إياه وانتبهت وحدثت أصحابي بالرؤيا فلم أستتم الحديث حتى جاء رجل فقال مات الوزير فقال بعض الحاضرين هذا محال أنا فارقته أمس العصر وهو في كل عافية وجاء آخر وصح الحديث وقال لي ولده لا بد أن تغسله فأخذت في غسله ورفعت يده لأغسل مغابنه قلت

241 المغابن مطاوي البدن مثل الإبط وغيره واحدها مغبن بفتح الميم وكسر الباء الموحدة وسكون

الغين المعجمة قال فســقط الخاتم من يده فحين رأيت الخاتم تعجبت من المنام قال ورأيت في وقت غســله آثارا في وجهه وجســده تدل على أنه مســموم فلما خرجت جنازته غلقت أســواق بغداد ولم يتخلف عن جنازته أحد وصلي عليه في جامع القصر وحمل إلى باب البصرة فدفن في مدرسته التي أنشأها وقد دثرت الآن ورثاه جماعة من الشعراء انتهى كلام أبي الفرج ابن الجوزي وقال مؤلف ســيرة الوزير المذكور إن ســبب موته كان بلغما ثار بمزاجه وقد خرج مع المستنجد للصيد فسقي مسهلا فقصر عن استفراغه فدخل إلى بغداد يوم الجمعة ســادس جمادى الأولى راكبا متحاملا إلى المقصورة لصلاة الجمعة فصلى بها وعاد إلى داره فلما كان وقت صلاة الصبح عاوده البلغم فوقع مغشــيا عليه فصــرخ الجواري فأفاق فســكتهن وبلغ الخبر ولده عز الدين أبا عبد الله محمدا وكان ينوب عنه في الوزارة فبادر إليه فلما دخل عليه قال له قد بث أستاذ الدار عضد الدين أبو الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤســاء المعروف بابن المسلمة جماعة ليستعلم ما هذا الصياح فتبسم الوزير على ما هو عليه من تلك الحال وأنشد (وكم شامت بي عند موتي جهالة * بظلم يسل السيف بعد وفاتي) (ولو علم المســكين ما ذا يناله * من الضــر بعدي مات قبل مماتي) ثم تناول مشــروبا فاستفرغ به ثم استدعى بماء فتوضأ للصلاة وصلى

قاعدا فسجد فأبطأ عن القعود من السجود فحركوه فإذا هو ميت فطولع به الإمام المستنجد فأمر بدفنه

242 وخلف ولدين أحدهما عز الدين المذكور والآخر شـــرف الدين أبو الوليد مظفر وأما مولده فقد ذكر أبو عبد الله محمد بن القادســـي في تاريخ الوزراء أنه ولد في سنة سبع وتسعين وأربعمائة على ما ذكره من لفظه رحمه الله تعالى قال بعضهم رأيته في المنام بعد موته فسـألته عن حاله فقال (قد سـئلنا عن حالنا فـأجبنـا * بعد مـا حـال حـالنـا وحجبنـا) (فوجدنـا مضـاعفا ما كسـبنا * ووجدنا ممحصـا ما اكتسـبنا) ولما بلغ خبر موته عضد الدين ابن المظفر أستاذ الدار المذكور كان بحضــرته سـبط ابن التعاويذي المذكور قبـل هـذا وهو من موالي بنـي المظفر فـإن أبـاه كـان مملوكا لبعض بني المظفر واسـمه نشـتكين فسـماه ابنه عبد الله فأراد سبط ابن التعاويذي أن يتقرب إلى عضد الدين لعلمه ما بينه وبين الوزير فأنشـد مرتجلا (قال لي والوزير قد مات قوم * قم لنبكي أبا المظفر يحيى) (قلت أهون عندي بذلك رزأ * ومصـــابا وابن المظفر يحيا) وقال آخر ولا أذكر اسمه الآن لكنه من الشعراء المشاهير (أيا رب مثل الماجد ابن هبيرة * يموت ويحيا مثل يحيى بن جعفر) (يموت بيحيى كل فضـل وسـؤدد * ويحيا بيحيى كل جهل ومنكر) والمقصـــود أن محاســـنه كانت كثيرة وقد أطلت هذه الترجمة حتى اسـتوفيت مقاصـدها ورأيت في كتاب

النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس تأليف أبي الخطاب ابن دحية غلطة أحببت التنبيه عليها في هذا الكتاب كي لا يقف عليها
243 أحد فيظنه مصيبا فيما ذكره وهو أنه قال في خلافة المقتفي لأمر الله ما مثاله وسعد بوزيره أبي المظفر عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة من ولد الأمير الكبير أبي حفص عمر بن هبيرة وقد ذكر المؤرخون فضائل جده التي حازها عون الدين من بعده ثم ذكر مكرمة جرت لعمر بن هبيرة الفزاري أمير العراقين في دولة بني أمية وظن ابن دحية المذكور أن الوزير المذكور من ذرية ذلك المتقدم وعجبت منه من ذلك فإن الوزير شيباني النسب كما شرحناه في أول الترجمة وذاك فزاري النسب كما يأتي في ترجمة ولده يزيد بن عمر ابن هبيرة إن شاء الله تعالى وأين شيبان من فزارة ولا شك أنه ما أوقعه في هذا الأمر إلا ما رآه في نسب الوزير فقد جاء فيه عمر بن هبيرة فتوهم أن هذا هو ذاك وليس الأمر كما توهمه ومثل ابن دحية لا يعذر فقد كان حافظا ومطلعا على أمور الناس وهذا الأمر واضح لكن الخطأ موكل بالإنسان (327) قلت وأكثر من جرى ذكره في هذه الترجمة قد تقدم ذكره في هذا التاريخ وأفردت لكل واحد منهم بترجمة مستقلة سوى الشيخ الزبيدي فإنه كان كبير القدر يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وما انتفع الوزير إلا بصحبته وما ذكرته في هذا

التـاريخ فينبغي التنبيـه عليـه إذ مثلـه لا يهمـل وكـان دخوله بغداد في سنة تسع وخمسمائة وتوفي في شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة رحمه الله تعالى وقال أبو عبد الله ابن النجار في تاريخ بغداد كان مولده بزبيد في ليلة الأربعاء الثاني والعشرين من المحرم سـنة سـتين وأربعمائة وتوفي ليلة الاثنين مسـتهل شـهر ربيع الآخر سـنة خمس وخمسـين وخمسمائة ودفن بمقبرة جامع المنصور ببغداد رحمه الله تعالى وقول الآخر (أيا رب مثل الماجد ابن هبيرة * يموت ويحيا مثل يحيى بن جعفر) 328) فالمراد به أبو الفضل يحيى بن أبي القاسم عبد الله بن محمد بن المعمر ابن جعفر الملقب زعيم الدين تولى النظر بالمخزن في جمادى الآخرة سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة إلى سنة سبع وستين ففيها ناب في الوزارة بعد عزل

244 أبي الفرج ابن المظفر ولم يزل على ذلك إلى أن توفي وكان مشـكورا محمود الطريقة محبا لأهل العلم وكانت ولادته ليلة الجمعة بعد العشـاء الأخير التاسع والعشرين من صفر سنة إحدى عشرة وخمسمائة وتوفي ليلة العشرين من شهر ربيع الأول سـنة سـبعين وخمسـمائة ببغداد ودفن من الغد في الحربية بتربة له رحمه الله تعالى 808 ابن زبادة أبو طالب يحيى بن أبي الفرج سعيد بن أبي القاسم هبة الله بن علي بن فرغلي ابن زبادة الشيباني الكاتب المنشيء

الواسطي الأصل البغدادي المولد والدار والوفاة الملقب قوام الدين وقيل عميد الدين كان من الأعيان الأماثل والصدور الأفاضل انتهت إليه المعرفة بأمور الكتابة والإنشاء والحساب مع مشاركته في الفقه وعلم الكلام والأصول وغير ذلك وله النظم الجيد جالس أبا منصور ابن الجواليقي وقرأ عليه وعلى من بعده وسمع الحديث من جماعة وخدم الديوان من صباه إلى أن توفي عدة خدمات وكان مليح العبارة في الإنشاء جيد الفكرة حلو الترصيع لطيف الإشارة وكان الغالب عليه في رسائله العناية بالمعاني أكثر من طلب التسجيع وله رسائل بليغة وشعر رائق وفضله أشهر من أن يذكر

245 وتولى النظر بديوان البصرة وواسط والحلة ولم يزل على ذلك إلى أن طلب من واسط والحلة ولم يزل على ذلك إلى المحرم سنة خمس وسبعين وخمسمائة ورتب حاجبا بباب النوبي وقلد النظر في المظالم ثم عزل عن ذلك في شهر ربيع الأول سنة سبع وسبعين ثم أعيد إليه في جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين فلما قتل أستاذ الدار وهو مجد الدين أبو الفضل هبة الله بن علي بن هبة الله بن محمد بن الحسن المعروف بابن الصاحب وكان قتله يوم السبت تاسع عشر ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ترتب ابن زبادة المذكور مكانه ثم عزل في سنة خمس وثمانين وعاد إلى واسط فأقام بها إلى أن

استدعي في شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين وقلد ديوان الإنشاء في يوم الاثنين الثاني والعشرين من شهر رمضان ثم رد إليه النظر في ديوان المقاطعات فكان على ذلك إلى حين وفاته وكان حسن السيرة محمود الطريقة متدينا حدث بشيء يسير وكتب الناس عنه كثيرا من نظمه ونثره فمن ذلك قوله (باضطراب الزمان ترتفع الأنذال فيه حتى يعم البلاء *) (وكذا الماء ساكنا فإذا حرك ثارت من قعره الأقذاء *) وله أيضا (إني لأعظم ما تلقونني جلدا * إذا توسطت هول الحادث النكد) (كذلك الشمس لا تزداد قوتها * إلا إذا حصلت في زبرة الأسد) وكتب إلى الإمام المستنجد يهنيه بالعيد (يا ماجدا جل قدرا أن نهنيه * لنا الهناء بظل منك ممدود)
246 (الدهر أنت ويوم العيد منك وما * في العرف أنا نهني الدهر بالعيد) وله أيضا (إن كنت تسعى للسعادة فاستقم * تنل المراد ولو سموت إلى السما) (ألف الكتابة وهو بعض حروفها * لما استقام على الجميع تقدما) وله أيضا (لا تغبطن وزيرا للملوك وإن * أناله الدهر منهم فوق همته) (واعلم بأن له يوما تمور به الأرض * الوقور كما مارت لهيبته) (هرون وهو أخو موسى الشقيق له * لولا الوزارة لم يأخذ بلحيته) وله كل معنى مليح وله ديوان رسائل وقفت عليه في بلادنا ولم يحضرني شيء منه كي أثبته هاهنا وقال أبو عبد الله محمد بن

سعيد الدبيثي في تاريخه أنشدنا أبو طالب يحيى ابن
سعيد بن هبة الله يعني ابن زبادة المذكور من حفظه
قال أنشدني أبو بكر أحمد بن محمد الأرجاني لما قدم
بغداد علينا في سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة لنفسه
قلت وهو ناصح الدين أبو بكر أحمد الأرجاني المقدم
ذكره قوله (ومقسومة العينين من دهش النوى * وقد
راعها بالعيس رجع حداء) (تجيب بإحدى مقلتيها
تحيتي * وأخرى تراعي أعين الرقباء) (رأت
حولها الواشين طافوا فغيضت * لهم دمعها
واستعصمت بحياء) (فلما بكت عيني غداة وداعهم
* وقد روعتني فرقة القرناء) (بدت في محياها
خيالات أدمعي * فغاروا وظنوا أن بكت لبكائي)
247 وكتب إليه أبو الغنائم محمد بن علي
المعروف بابن المعلم الهرثي الشاعر المقدم ذكره وقد
عزل عن نظر واسط (ولأنت إن لم يبلل الغيث
الثرى * تروي الورى بسماحك الهتان) (لم يعزلوك
عن البلاد لحالة * تدعو إلى النقصان والشنآن) (بل
مذ رأوا آثار جودك زاخرا * حفظوا بلادهم من
الطوفان) قلت وحكى لي الوجيه أبو عبد الله محمد
بن علي بن أبي طالب المعروف باب سويد التاجر
التكريتي قال كان الشيخ محيي الدين أبو المظفر
يوسف بن الحافظ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي
الواعظ المشهور قد توجه رسولا من بغداد إلى الملك
العادل بن الملك الكامل ابن الملك العادل بن أيوب

سلطان مصر في ذلك الوقت وكان أخوه الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محبوسا في قلعة الكرك يومئذ وقد شرحت ذلك في ترجمة الكامل في هذا التاريخ قال الوجيه فلما عاد محيي الدين راجعا إلى بغداد وقدم دمشق كنت بها فدخلت عليه أنا والشيخ أصيل الدين أبو الفضل عباس بن عثمان ابن نبهان الإربلي وكان رئيس التجار في عصره وجلسنا نتحدث معه فقال قد حلفت الملك الناصر داود صاحب الكرك أن لا يخرج الملك الصالح من الحبس إلا بأمر أخيه الملك العادل قال فقال له الأصيل يا مولانا هذا بأمر الديوان العزيز فقال محيي الدين وهل هذا يحتاج إلى إذن هذا اقتضته المصلحة ولكن أنت تاريخ يا أصيل فقال يعني مولانا أني قد كبرت وما أدري ما أقول وأنا أحكي لمولانا حكاية في هذا المعنى أعرفها من غرائب الحكايات قال هات فقال كان ابن رئيس الرؤساء ناظر واسط يحمل في كل شهر حمل واسط وهو ثلاثون ألف دينار لا يمكن أن يتأخر يوما واحدا عن العادة فتعذر في بعض الأشهر كمال الحمل فضاق صدره لذلك وذكره

248 لنوابه فقالوا له يا مولانا هذا ابن زبادة عليه من الحقوق أضعاف ذلك ومتى حاسبته قام بما يتم الحمل وزيادة فاستدعاه وقال له لم لا تؤدي كما يؤدي الناس فقال أنا معي خط الإمام المستنجد بالمسامحة قال هل معك خط مولانا الإمام الناصر قال

لا قال قم واحمل ما يجب عليك قال ما ألتفت إلى أحد ولا أحمل شيئا ونهض من المجلس فقال النواب لابن رئيس الرؤساء أنت صاحب الوسادتين وناظر النظار وما على يدك يد ومن هو هذا حتى يقابلك بمثل هذا القول ولو كبست داره وأخذت ما فيها ما قال لك أحد شيئا وحملوه عليه حتى ركب بنفسه وأجناده وكان ابن زبادة يسكن قبالة واسط وقدموا إلى ابن رئيس الرؤساء السفن حتى يعبر إليه وإذا بزبزب قد قدم من بغداد فقال ما قدم هذا إلا في مهم ننظر ما هو ثم نعود إلى ما نحن بسببه فلما دنا من الزبزب فإذا فيه خدم من خدام الخليفة فصاحوا به الأرض الأرض فقبل الأرض وناولوه مطالعة وفيها قد بعثنا خلعة ودواة لابن زبادة فتحمل الخلعة على رأسك والدواة على صدرك وتمشي راجلا إليه وتلبسه الخلعة وتجهزه إلينا وزيرا فحمل الخلعة على رأسه والدواة على صدره ومشى إليه راجلا فلما رآه ابن زبادة أنشده ابن رئيس الرؤساء (إذا المرء حي فهو يرجي ويتقي * وما يعلم الإنسان ما في المغيب) وأخذ يعتذر إليه فقال له ابن زبادة لا تثريب عليكم اليوم وركب في الزبزب إلى بغداد وما علموا أن أحدا أرسلت إليه الوزارة غيره فلما وصل إلى بغداد كان أول ما نظر فيه أن عزل ابن رئيس الرؤساء عن نظر واسط قال هذا ما يصلح لهذا المنصب ثم قال الأصيل ولا يأمن مولانا أن يخرج الملك الصالح ويملك ويعود إليه

رســولا ويقع وجهك في وجهه وتســتحي منه فأنشــده محيي الدين قوله (وحتى يؤوب القارظان كلاهما * وينشـــر في الموتى كليب لوائل) فما كان إلا مديدة حتى خرج الملك الصـــالح من حبس الكرك وملك مصـر وكان ما كان قلت وكنت بمصـر ومحيي الدين بها رسول إلى الملك

249 العادل وقبض العادل وجاء الصـالح فخرج محيي الدين التقاه وشـاهدت ذلك هكذا ذكر لي الوجيه هذه الحكاية وفيها غلط إما من الوجيه أو من الأصـيل فإن ابن زبادة ما ولي الوزارة ولا تولى إلا ما ذكرته في أوائل ترجمته فإن كان هذا صحيحا فيكون ذلك لما طلب للإنشــاء كما شــرحته والله أعلم بالصــواب قال ابن الدبيثي المذكور ســـألت أبا طالب ابن زبادة عن مولده فقال ولدت يوم الثلاثاء الخامس والعشـــرين من صــفر ســنة اثنتين وعشــرين وخمســمائة وتوفي ليلة الجمعة الســابع والعشــرين من ذي الحجة ســنة أربع وتسعين وخمسمائة وصلي عليه بجامع القصـر ودفن بالجانب الغربي بمشهد الإمام موسى بن جعفر رضي الله عنهمــا يعني ببغـداد بفتح الزاي هو القطعــة من الزباد الذي يتطيب النســـوان به والله أعلم 809 يحيى بن نزار المنبجي أبو الفضل يحيى بن نزار بن سعيد المنبجي ذكره الحــافظ أبو ســـعـد عبـد الكريم بن الســـمعـاني في كتـاب الـذيـل على تـاريخ الخطيـب المختص ببغداد فقال لـه شـــعر مطبوع غير متكلف

وكتب لي أبياتا من شـــعره وســـمعت منه وســـألته عن مولده فقال ولدت في المحرم من ســـنة ســـت وثمانين وأربعمائة بمنبج وأورد له مقاطيع أنشـــده إياها فمن ذلك قوله

250 (وأغيد غض زاد خط عذاره * لعاشـــقه في همه والبلابل) (تموج بحار الحســـن في وجناته * فتقذف منها عنبرا في الســـواحل) (وتجري بخديه الشـــبيبة ماءها * فتنبت ريحانا جنوب الجداول) قلت وقد خطر لي على هذا مأخذ وهو أنه جعل في البيت الثاني بحار الحســـن تموج في وجناته فكيف يقول في البيت الثالث وتجري بخديه الشـــبيبة ماءها وما مقدار ماء الشـــبيبة بالنســـبة إلى بحار الحســـن وما كفى هذا حتى جعلها جداول والجداول الأنهار وأين الأنهار من البحار ثم إنه في البيت الثاني قد شـــبه العذار بالعنبر فكيف يجعله في البيت الثالث ريحانا وأين العنبر من الريحان وإن كان كل واحد من العنبر والريحان قد جرت عادة الشـــعراء أن يشـــبهوا به العذار ولكن في مقطوع واحد من الشـــعر ما لهم عادة يجمعون بينهما وكنت قد ســـمعت في زمن الاشـــتغال بالأدب بيتين اســـتحســـنتهما ولم أعرف قائلهما وهما (يا عاذلي في حب ذي عارض * ما البلد المخصـــب كالماحل) (يموج بحر الحسن في خده * فيقذف العنبر في الساحل) فلما كان في أوائل ســـنة اثنتين وســـبعين وســـتمائة وقفت بالقاهرة المحروسة على مجلد من كتاب السيل

والذيل تأليف عماد الدين الكاتب الأصبهاني وقد جعله ذيلا على كتابه خريدة القصر فرأيت فيه ترجمة يحيى بن نزار المنبجي المذكور وقد ذكر له مقدار عشـــرة أبيات يمدح بها السـلطان نور الدين محمود ابن زنكي رحمه الله تعالى وفي جملة الأبيات البيت الثاني من هذين البيتين فعلمت أن الذي نظم ذلك المعنى في البيت الثاني من الثلاثة هو الذي نظم هذين البيتين في هذه الأبيات التي ذكرها في كتاب الســيل ثم بعد ذلك بقليل جاءني صاحبنا جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن أحمد المعروف بالحافظ اليغموري

251 فتذاكرنا وجرى ذكر البيتين وقال إنهما لعماد الدين أبي المناقب حســـام ابن عزى بن يونس المحلي نزيل دمشق وذكر أنه سمعهما منه وادعاهما لنفســـه فقلت له البيت الذي فيه المعنى ليس له بل هو ليحيى بن نزار المنبجي ويكون العماد المحلي قد نظم البيت الأول وجعله توطئة للثاني واستعمله على وجه التضمين كما جرت العادة في مثله لكنه كان ينبغي أن ينبه على أنه تضــمين كي لا يعتقد من يقف عليهما أنهما له فإن البيت الأول ليس في جملة أبيات يحيى المنبجي التي مدح بها نور الدين رحمه الله تعالى ثم من بعد ذلك خطرت لي مؤاخذة على العماد المحلي فإنه قال في بيته الذي جعله توطئة للثاني (ما البلد المخصب كالماحل *) والخصب والمحل إنما يكون بسبب النبات وعدمه والبيت الثاني الذي هو التضمين

شـــبه العذار بالعنبر وأين النبات من العنبر فالتوطئة بين البيتين ليست بملائمة وهذه المؤاخذة مثل المؤاخذة المتقدمة على الأبيات الثلاثة وكنت وقفت على بيتين للعماد المحلي المذكور أيضـــا أنشـــدنيهما عنه جماعة وهما (قيل لي من هويت قد عبث الشـــعر * بخديه قلت ما ذاك عاره) (جمرة الخد أحرقت عنبر الخال * فمن ذلك الدخان عذاره) وسنح لي عليهما مؤاخذة مثل المؤاخذة المذكورة وهي أنه لما قيل له إن الشـــعر عبث بخديه ما أنكر ذلك بل قال ما ذاك عاره فقد وافق على أنه شـعر غاية ما في الباب أنه قال هذا الشـعر ما هو عاره فكيف يقول بعد هذا جمرة الخد أحرقت عنبر الخال إلى آخره فجعل العذار دخان العنبر وأين دخان العنبر من الشـــعر بل كان ينبغي أن يقول لهم هذا ما هو شـــعر بل هو دخان العنبر حتى يتم له المعنى وقد نظم صـــاحبنا ورفيقنا في الاشـــتغال بحلب عون الدين أبو الربيع ســـليمان ابن بهاء الدين عبد المجيد ابن العجمي الحلبي بيتين ألم فيهما بهذا المعنى وهما

252 (لهيب الخد حين بدا لعيني * هوى قلبي عليه كالفراش) (فأحرقه فصـــار عليه خالا * وها أثر الدخان على الحواشي) وقد أحسن في هذا المعنى وخلص من تلك المؤاخذة لكن وقع في مؤاخذة أخرى وهي أنه جعل العذار دخان احتراق قلبه والعماد جعله دخان عنبر الخال وبين الدخانين بون كبير فهذا طيب الرائحة وذاك كريه الرائحة وقد سبق في ترجمة عبد

الله بن صـــــارة الشــــنتريني بيتان أبدع فيهما وهما (ومهفهف رقت حواشـــي حســـنه * فقلوبنا وجدا عليه رقاق) (لم يكس سـالفه العذار وإنما * نفضـت عليه صـباغها الأحداق) والأصـل في هذا الباب كله قول أبي إسحاق إبراهيم الصابي الكاتب في غلامه الأسود واسمه يمن وقد سبق ذكر الأبيات في ترجمته من هذا الكتاب والمقصـــود منها هاهنا قوله في أولها (لك وجه كأن يمناي خطته * بلفظ تمله آمالي) (فيه معنى من البدور ولكن * نفضت صبغها عليه الليالي) وبيتا عون الدين فيهما إلمام بقول أبي الحسين أحمد بن منبر الطرابلســـي المقدم ذكره (لا تخالوا الخال يعلو خده * قطرة من دم جفني نطفت) (ذاك من نار فؤادي جذوة * فيه ســـاخت وانطفت ثم طفت) قلت وقد خرجنا عن المقصـود وانتشـر الكلام لكن ما خلا من فائدة

253 وقال أبو سـعد السـمعاني أيضـا أنشـدني يحيى بن نزار المنبجي لنفسه (لو صد عني دلالا أو معاتبة * لكنت أرجو تلافيه وأعتذر) (لكن ملالا فلا أرجو تعطفه * جبر الزجاج عسير حين ينكسر) وله غير هذا نظم مليح ومعان لطيفة وقال أبو الفرج صدقة بن الحسين بن الحداد في تاريخه المرتب على السنين ما مثاله سنة أربع وخمسين وخمسمائة في ليلة الجمعة سادس ذي الحجة مات يحيى بن نزار المنبجي ببغداد ودفن بالوردية قيل إنه وجد في أذنه ثقلا

فاستدعى إنسانا من الطرقية فامتص أذنه فخرج شيء من مخه فكان سـببب موته رحمه الله تعالى وقال السمعاني هو أخو أبي الغنائم التاجر المعروف وذكر أبا الغنائم ووصفه وأثنى عليه في ترجمة مستقلة في كتاب الذيل أيضا رحمه الله تعالى (329) وأما العماد المحلي فإنه كان أديبا لطيفا على ما يحكى عنه من النوادر وله نظم مليح في المقطعات دون القصائد وكان يحفظ المقامات وشرحها وتوفي ليلة الأربعاء عاشر شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وستمائة بدمشق ودفن بمقابر الصوفية وعرف بابن الجمال وولد في سنة ستين وخمسمائة تقديرا بقوص ونشأ بالمحلة فنسب إليها ثم وجدت في مسوداتي بخطي بيتا منسوبا إلى الوجيه أبي الحسن علي بن يحيى بن الحسين بن أحمد المعروف بابن الذروي الأديب الشاعر وهو (عذاره دخان ند خاله * وريقه من ماء ورد خده) ثم وجدت منسوبا إلى ابن سناء الملك المقدم ذكره والصحيح أنها لأسعد

254 ابن مماتي المقدم ذكره أيضا (سمراء قد أزرت بكل أسمر * بلونها ولينها وقدها) (أنفاسها دخان ند خالها * وريقها من ماء ورد خدها) (لو كتب البدر إلى خدمتها * ملطفا ترجمه بعبدها) ورأيت للمهذب أبي نصر محمد بن محمد بن إبراهيم بن الخضر الحلبي المعروف بابن البرهان الحاسب المنجم الطبري (ومهفهف راقت نضارة وجهه *

فالعين تنظر منه أحســن منظر) (أصــلى بنار الخد
عنبر خاله * فبدا العذار دخان ذاك العنبر) فعلمت
أن العماد المحلى إنما أخذ ذلك المعنى من أحد هؤلاء
والله ســبحانه وتعالى أعلم 810 تاج الدين ابن الجراح
أبو الحسين يحيى بن أبي علي منصور بن الجراح بن
الحسين بن محمد بن داود بن الجراح المصـري وهذه
الزيـادة في نســبـه وجدتها بخط بعض الأدباء ولا
أتحققها والأول أصــح الكاتب المنعوت تاج الدين كتب
في ديوان
255 الإنشاء بالديار المصرية مدة طويلة وكتب
الكثير وكان خطه في غاية الجودة وكان فاضــلا أديبا
متقنا له فطرة حسـنة وشـعر فائق ورسـائل أنيقة سـمع
الحديث بثغر الإسـكندرية المحروسـة على الحافظ أبي
طاهر الســلفي وأبي الثناء حماد بن هبة الله الحراني
وحدث وســمع الناس عليه وله لغز في الدملج الذي
تلبسه النساء وهو بديع في بابه فأحببت ذكره وهو نثر
ما شـيء قلبه حجر ووجه قمر إن نبذته صبر واعتزل
البشر وإن أجعته رضـي بالنوى وانطوى على الخوى
وإن أشــبعته قبل قدمك وصــحب خدمك وإن غلفته
ضـــاع وإن أدخلته الســوق أبى أن يباع وإن أظـهرته
جمل المتاع وأحسـن الإمتاع وإن شـددت ثانيه وحذفت
منه القافيه كدر الحياة وأوجب التخفيف في الصـــلاة
وأحدث في وقت العصـر الضـجر ووقت الفجر الخدر
وجمع بين حســن العقبى وقبح الأثر هذا وإن فصــلته

دعا لك وأبقى ما إن ركبته هالك وربما بلغك آمالك
وكثر مالك وأحســـن بعون المســـاكين مالك والســـلام
قلت وهذا اللغز قد يقف عليه من لا يعرف طريق حله
فيعســـر عليه تفسيره فيحتاج إلى الإيضـــاح فأقول أما
قول ما شـــيء قلبه حجر فمراده قلب حروف دملج فإنا
إذا قلبنـا هذه الحروف يخرج منها جلمد وهو الحجر
وقوله ووجهه قمر يريد أنه مســـتدير كالقمر وقوله إن
نبذته صبر واعتزل البشر فالبشر جمع بشرة فالإنسان
إذا ألقى الدملج عنه صـــبر واعتزل بشـــرته إذ ليس فيه
أهلية المنع فهو يصــــبر ويعتزل المكان الذي كان فيه
وقوله وإن أجعته رضـــي بالنوى فالنوى لفظ مشـــترك
يقع على البعـــد وعلى نوى التمر وعـــادتهم في بلاد
العراق أن يطحنوا نوى التمر والرطـــب والبســـــر
ويعلفوا به البقر وقصــــد هاهنا هذه التورية فإن الدملج
إذ أخرج من العضـــد أو من الســـاق فقد جاع لأنه يكون
فـارغ الجوف ويرضـــــى بـالنوى الذي هو البعد عن
عضـــو صـــاحبه ويقولون فلان يرضـــى بالنوى إذا كان
فقيرا لا يجـد مـا يتبلغ بـه فهو يجتزىء بمص النوى
وهذا يفعله أهل
256 الحجاز والبلاد المجدبة كثيرا لقلة الأقوات
عندهم فقد اســـتعمل صـــاحب هذا اللغز لفظة النوى في
هذين المعنيين وهذه هي التورية وقوله وانطوى على
الخوى فالخوى هو الخلو وإذا كان فارغ الجوف فهو
خاو وقوله وإن أشـــبعته قبل قدمك مراده بالإشـــباع هنا

لبس الدملج فإن صاحبه إذا لبسه فقد ملأ جوفه ويكون فوق القدم فكأنه يقبله وقوله وصحب خدمك فيه تورية أيضا فإن الخدم جمع خادم وهذا الجمع قليل الاستعمال لهذا الواحد فإنه لا يقال فاعل وجمعه فعل إلا في ألفاظ مسموعة مثل خادم وخدم وغائب وغيب وحارس وحرس وجامد وجمد وغير ذلك فهو موقوف على السماع وخدم جمع خدمة أيضا وهو سير يشد في رسغ البعير تشد إليه سريحة النعل وبه سمي الخلخال خدمة لأنه ربما كان من سيور يركب فيه الذهب والفضة ويجمع على خدام أيضا وقوله وإن غلفته ضاع هذا فيه تورية أيضا فإن التغليف أن يجعل للشيء غلافا والتغليف استعمال الطيب أيضا وقوله ضاع فيه تورية أيضا فإنه يقال ضاع الشيء من الضياع وضاع الطيب إذا عبقت رائحته وقوله وإن أدخلته السوق أبى أن يباع فالسوق جمع ساق وفيه التورية أيضا لأن السوق موضع البيع والشراء والسوق كما ذكرناه وقوله أبى أن يباع لأن العادة أنه لا يباع إلا إذا أخرج من العضو الذي هو فيه ولا يباع قبل إخراجه فكأنه قبل الإخراج أبى البيع وقوله وإن أظهرته جمل المتاع وأحسن الإمتاع فهذا ظاهر لا حاجة له إلى تفسير وقوله وإن شددت ثانيه وهو الميم وحذفت منه القافية وهي الجيم فيبقى الدمل وهو يكدر الحياة بألمه ويوجب التخفيف في الصلاة للألم أيضا وقوله وأحدث في وقت العصر الضجر فالعصر فيه

التورية أيضـــا لأنه اســـم للصــلاة وهو مصـــدر لفعل عصــر وكذلك الفجر لأنه اسـم للصـــبح وهو مصــدر لفعل فجر فالإنسـان في وقت عصـر الدمل يحصـل له الضجر والقلق وإذا فجره وخلص منه حصل له الخدر والراحة وقوله وجمع بين حســـن العقبى وقبح الأثر فقصـــد المقابلة بين الحســن والقبح ولا شـــك أن عقبى انفجار الدمل حســـنة وإن كان الأثر الذي يبقى في المكان قبيحا وقوله

257 وإن فصـــلته دعا لك معناه أنك إذا فصـــلت أحد النصـــفين من لفظ الدملج من النصـــف الآخر فالنصـــف الأول منه دم وهو دعاء للإنســـان بالدوام وقوله وأبقى ما إن ركبته هالك فالباقي منه لج واللج هو لج البحر وإن كان النصـــف من الدملج مخففا ولج البحر مشـــددا لكنهم يغتفرون مثل هذا في الألغاز والتصـــاحيف والأحاجي ولا يبالون به ولا شـــك أن ركوب البحر أمر هائل فلهذا قال هالك وربما بلغك آمالك لأنه يوصـل الإنسـان إلى الموضـع الذي يقصـده وقوله وكثر مالك معناه إذا ركبه الإنســـان للتجارة وقوله وأحســن بعون المســاكين مآلك فعون المســاكين هو الســـفينة كما قال الله تعالى (^ أما الســـفينة فكانت لمســـاكين يعملون في البحر) الكهف 79 فهي عون لهم على حاجتهم وسـد خلتهم ومآل الشـــيء عاقبة أمره والله تعالى أعلم قلت وفي اللغز ثماني لغات لغز بضم اللام وسـكون الغين ولغز بضـمهما ولغز بضـم اللام

وفتح الغين ولغز بفتح اللام وسكون الغين ولغز بفتحهما وألغوزة بضم الهمزة وسكون اللام وضم الغين ولغيزي بضم اللام وتشديد الغين مع القصر ولغيزاء مثل الأول إلا أن الغين مخففة ومفتوحة والألف ممدودة والله أعلم وقد طال الكلام لكن الحاجة دعت إليه كي لا يبقى فيه التباس على سامعه ورأيت في مجموع بخط بعض الفضلاء بيتين منسوبين إليه وهما هذان (أمد كفي إلى البيضاء أقلعها * من لحيتي فتفديها بسوداء) (هذي يدي وهي مني لا تطاوعني * على مرادي فما ظني بأعدائي) وكانت ولادة المذكور في ليلة السبت خامس عشر شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسمائة وتوفي في خامس شعبان سنة ست عشرة وستمائة بدمياط والعدو المخذول محاصرها رحمه الله تعالى وجراح بفتح الجيم وتشديد الراء وبعد الألف حاء مهملة ثم إن العدو ملك دمياط يوم الثلاثاء السابع والعشرين من الشهر المذكور والله أعلم

258 ونقلت من خط الشيخ مهذب الدين أبي طالب محمد بن علي اللغوي المعروف بابن الخيمي الحلي نزيل مصر أن العدو نزل قبالة دمياط يوم الثلاثاء ثاني عشر ربيع الأول سنة خمس عشرة و ستمائة ونزل البر الشرقي يوم الثلاثاء سادس عشر ذي القعدة من السنة وأخذ الثغر يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شعبان سنة ست عشرة وستمائة

واستعيدت منهم يوم الأربعاء تاسع عشر رجب سنة ثمان عشـــرة وســـتمائة ومدة نزولهم عليها إلى أن انفصلوا عنها ثلاث سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوما ومن الاتفاق العجيب نزولهم عليها يوم الثلاثاء وإحاطتهم بها يوم الثلاثاء وملكهم لها يوم الثلاثاء وقد جاء في الخبر أن الله تعالى خلق المكروه يوم الثلاثاء ولفظة دمياط ســـريانية وأصـــلها بالذال المعجمة ويقولونه ذمط وتفسـيره القدرة الربانية وكأنه إشـــارة إلى مجمع البحرين العـذب والملح والله تعـالى أعلم

811 جمال الدين ابن مطروح أبو الحســـن يحيى بن عيســى بن إبراهيم بن الحســين بن علي بن حمزة بن إبراهيم بن الحســـين بن مطروح الملقب جمال الدين من أهل صــعيد مصــر ونشــأ هناك وأقام بقوص مدة وتنقلت به الأحوال في الخدم والولايات ثم اتصـــل بخدمة السلطان الملك الصـالح أبي الفتح أيوب الملقب نجم الدين ابن السلطان

259 الملك الكامل ابن السلطان الملك العادل بن أيوب وكان إذ ذاك نائبا عن أبيه الملك الكامل بالديار المصرية ولما اتسعت مملكة الكامل بالبلاد المصرية بل بالبلاد الشرقية فصـار له آمد وحصن كيفا وحران والرها والرقة ورأس عين وســـروج وما انضـــم إلى ذلك ســير إليها ولده الملك الصـــالح المذكور نائبا عنه وذلك في ســـنة تســـع وعشـــرين وســـتمائة فكان ابن مطروح المذكور في خدمته ولم يزل يتنقل في تلك

البلاد إلى أن وصل الملك الصالح إلى مصر مالكا لها وكان دخوله القاهرة يوم الأحد السابع والعشرين من ذي القعدة سنة سبع وثلاثين وستمائة ثم وصل ابن مطروح بعد ذلك إلى الديار المصرية في أوائل سنة تسع وثلاثين وستمائة فرتبه السلطان ناظرا في الخزانة ولم يزل يقرب منه ويحظى عنده إلى أن ملك الملك الصالح دمشق في الدفعة الثانية وكان ذلك في جمادى الأولى من سنة ثلاث وأربعين وستمائة ثم إن السلطان بعد ذلك رتب لدمشق نوابا فكان ابن مطروح في صورة وزير لها ومضى إليها وحسنت حالته وارتفعت منزلته ثم إن الملك الصالح توجه إلى دمشق فوصلها في شعبان سنة ست وأربعين وجهز عسكرا إلى حمص لاستنقاذها من يدي نواب الملك الناصر أبي المظفر يوسف الملقب صلاح الدين ابن الملك العزيز ابن الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين صاحب حلب فإنه كان قد انتزعها من صاحبها الملك الأشرف مظفر الدين أبي الفتح موسى ابن الملك المنصور إبراهيم ابن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه عنوة وكان منتميا إلى الملك الصالح فخرج من مصر لاسترداد حمص له فعزل ابن مطروح عن ولايته بدمشق وسيره مع العسكر المتوجه إلى حمص وأقام الملك الصالح بدمشق إلى أن ينكشف له ما يكون من أمر حمص فبلغه أن الفرنج قد اجتمعوا بجزيرة قبرص على عزم قصد الديار المصرية فسير إلى

عسكره المحاصرين بحمص وأمرهم أن يتركوا ذلك المقصد ويعودوا لحفظ الديار المصرية فعاد بالعسكر وابن مطروح في الخدمة والملك

260 الصالح متغير عليه متنكر له لأمور نقمها عليه وطرق الفرنج البلاد في أوائل سنة سبع وأربعين وملكوا دمياط يوم الأحد الثاني والعشرين من صفر من السنة وخيم الملك الصالح بعسكره على المنصورة وابن مطروح مواظب على الخدمة مع الإعراض عنه ولما مات الملك الصالح ليلة النصف من شعبان سنة سبع وأربعين بالمنصورة وصل ابن مطروح إلى مصر وأقام بها في داره إلى أن مات هذه جملة حاله على الإجمال وكانت أدواته جميلة وخلاله حميدة جمع بين الفضل والمروءة والأخلاق الرضية وكان بيني وبينه مودة أكيدة ومكاتبات في الغيبة ومجالس في الحضرة تجري فيها مذاكرات أدبية لطيفة وله ديوان شعر أنشدني أكثره فمن ذلك قوله في أول قصيدة طويلة (هي رامة فخذوا يمين الوادي * وذروا السيوف تقر في الإغماد) (وحذار من لحظات أعين عينها * فلكم صرعن بها من الآساد) (من كان منكم واثقا بفؤاده * فهناك ما أنا واثق بفؤادي) (يا صاحبي ولي بجرعاء الحمى * قلب أسير ما له من فادي) (سلبته مني يوم بانوا مقلة * مكحولة أجفانها بسواد) (وبحي من أنا في هواه ميت * عين على العشاق بالمرصاد) (وأغن مسكي

اللمى معســـوله * لولا الرقيب بلغت منه مرادي) (كيف الســبيل إلى وصـــال محجب * ما بين بيض ظبا وســمر صــعاد) (في بيت شــعر نازل من شــعره * فالحسـن منه عاكف في بادي) (حرسـوا مـهفهف قده بمثقف * فتشـــابه المياس بالمياد) (قالت لنا ألف العذار بخده * في ميم مبسـمه شـفاء الصـادي) وهي طويلة اقتصرت منها على هذا القدر للاختصار

261 ومن ذلك قولـه (علقتـه من آل يعرب لحظه * أمضـى وأفتك من سيوف عريبه) (أسكنته في المنحنى من أضلعي * شوقا لبارق ثغره وعذيبه) (يـا عـائبي ذاك الفتور بطرفـه * خلوه لي أنـا قـد رضــيت بعيبه) (لدن وما مر النســيم بعطفه * أرج وما نفح العبير بجيبه) وكان في بعض أســـفاره قد نزل في طريقه بمسجد وهو مريض فقال (يا رب إن عجز الطبيب فداوني * بلطيف صـــنعك واشـــفني يا شـافي) (أنا من ضـيوفك قد حسـبت وإن من * شـيم الكرام البر بالأضـياف) ووجدت بعد موته رقعة فيها مكتوب هذان البيتـان وأخبرني أنـه جرى بينـه وبين أبي الفضــل جعفر بن شــمس الخلافة الشـــاعر المقدم ذكره منازعة في بيت هو من جملة قصيدته التي أولها (من لي بغصــــن باللحاظ ممنطق * حلو الشـــمائل واللمى والمنطق) (مثري الروادف مملق من خصره * أسمعت في الدنيا بمثر مملق) والبيت الذي قـد وقع فيـه النزاع قولـه (وأقول يـا أخـت الغزال

ملاحة * فتقول لا عاش الغزال ولا بقي) فزعم ابن شـمس الخلافة أن هذا البيت له من جملة قصـيدة هي في ديوانه وعمل كل واحد منهما محضـرا شـهد فيه جماعة بأن البيت له وحلف لي ابن مطروح أن البيت له وكان محترزا في أقواله ولم تعرف منه الدعوى بما ليس له والله المطلع على السـرائر وأنشدني له بعض أصحابنا قال أنشدني لنفسه

262 (يا من لبسـت عليه أثواب الضـنى * صـفرا موشـعة بحمر الأدمع) (أدرك بقية مهجة لو لم تذب * أسـفا عليك نفيتها عن أضـلعي) وكان في مدة انقطاعه في داره وضـيق صـدره بسـبب عطلته وكثرة كلفه قد حدث في عينيه ألم انتهى به إلى مقاربة العمى وكنت أجتمع به في كل وقت فتأخرت عنه مديدة لعذر أوجب ذلك وكنت في ذلك الوقت أنوب في الحكم بالقاهرة المحروسـة عن قاضـي القضـاة بدر الدين أبي المحاسن يوسف بن الحسن ابن علي الحاكم بالديار المصـرية المعروف بقاضـي سنجار فكتب إلي ابن مطروح يقول (يا من إذا اسـتوحش طرفي له * لم يخل قلبي منه من أنس) (والطرف والقلب على ما هما * عليه مأوى البدر والشـمس) وله من جملة قصـيدة طويلة (ملك الملاح ترى العيون * عليه دائرة يطق) (ومخيم بين الضـلوع * وفي الفؤاد له سـبق) والبيت الأول مأخوذ من قول المتنبي (وخصر تثبت الأبصار فيه * كأن عليه من حدق نطاقا

) واليطق بفتح الياء المثناة من تحتها والطاء المهملة وبعدها قاف وهو عبارة عن جماعة من الجند يبيتون كل ليلة حول خيمة الملك محيطين به يحرســونه إذا كان مســافرا وهو لفظ تركي والســبق بفتح الســين المهملة والباء الموحدة وبعدها قاف وهي خيمة الملك إذا كان مســافرا فإنه تقدم له خيمة إلى المنزلة التي يتوجه إليها حتى إذا جاءها كانت مجهزة له ينزل فيها ولا يتوقف على انتظار وصول الخيمة التي

263 كان بها في تلك المنزلة التي رحل منها

وله بيتان ضمنهما بيت المتنبي وأحسن فيهما وهما (إذا ما سقاني ريقه وهو باسم * تذكرت ما بين العذيب وبارق) (ويذكرني من قده ومدامعي * مجر عوالينا ومجرى الســوابق) وهذا المعنى للمتنبي في أول قصــيدة بديعة طويلة وهي (تذكرت ما بين العذيب وبارق * مجر عوالينا ومجرى الســوابق) وكانت بينه وبين بهاء الدين زهير المقدم ذكره في حرف الزاي صــحبة قديمة من زمن الصــبا وإقامتهما ببلاد الصــعيد حتى كانا كالأخوين وليس بينهما فرق في أمور الدنيا ثم اتصلا بخدمة الملك الصالح وهما على تلك المودة وبينهما مكاتبات بالأشعار فيما يجري لهما فأخبرني بهاء الدين زهير أن جمال الدين ابن مطروح كتب إليه بعض الأيام يطلب منه درج ورق وكان قد ضــاق به الوقت وأظنهما كانا ببلاد الشــرق معا (أفلســت يا ســيدي من الورق * فجد بدرج كعرضــك

اليقق) (وإن أتى بالمداد مقترنا * فمرحبا بالخدود والحدق) قال بهاء الدين زهير وقد فتح الراء من الورق وكسرها تنبيها على حاله فكتبت إليه (مولاي سيرت ما رسمت به * وهو يسير المداد والورق) (وعز عندي تسيير ذاك وقد * شبهته بالخدود والحدق)

264 وقد سبق في ترجمة بهاء الدين ذكر بيتين كتبهما ابن مطروح إلى بهاء الدين وذكرت السبب في نظم ذينك البيتين على ما حكاه لي بهاء الدين ثم بعد ذلك وصل إلى الديار المصرية من الموصل بعض الأدباء وجرى حديث ما ذكره لي بهاء الدين زهير وأنه أنشدني بيت ابن الحلاوي وهو قوله (تجيزها وتجيز المادحين بها * فقل لنا أزهير أنت أم هرم) فقال ذلك الأديب هذه القصيدة أنشدنيها ناظمها ابن الحلاوي ونحن بالموصل وأروي عنه هذا البيت على خلاف هذه الرواية فإنه أنشدني (تجيدها ثم تجدو من أتاك بها * فقل لنا أزهير أنت أم هرم) فما أدري هل ابن الحلاوي أنشدها أولا كما رواه بهاء الدين زهير ثم غير البيت كما رواه هذا الأديب أم حصل الغلط لأحدهما والله تعالى أعلم مع أن كل واحد من الطريقين حسن وقصة زهير بن أبي سلمى المزني الشاعر الجاهلي المشهور معلومة فلا حاجة إلى شرحها والخروج عما نحن بصدده فإنه كان يمدح هرم بن سنان المري أحد أمراء العرب في الجاهلية وكان هرم

كثير العطاء له حتى آلى على نفسه أنه لا يسلم عليه زهير إلا أعطاه غرة من ماله فرسا أو بعيرا أو عبدا أو أمة فأجحف ذلك بهرم فجعل زهير يمر بالجماعة فيهم هرم فيقول عموا صباحا خلا هرما وخيركم تركت

265 ونعود إلى ما كنا فيه من حديث ابن مطروح بلغني أنه كتب قبل ارتفاع درجته رقعة تتضمن شفاعة في قضاء شغل بعض أصحابه أرسلها إلى بعض الرؤساء فكتب ذلك الرئيس في جوابه هذا الأمر فيه علي مشقة فكتب جوابه ثانيا لولا المشقة فلما وقف عليها ذلك الرئيس قضى شغله وفهم ما قصده وهو قول المتنبي (لولا المشقة ساد الناس كلهم * الجود يفقر والإقدام قتال) وهذا من لطيف الإشارات وأنشدني الأديب الفاضل جمال الدين أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم ابن يحيى بن محمد بن علي المعروف بالجزار المصري قصيدة بديعة مدح بها جمال الدين ابن مطروح المذكور وهي بديعة طويلة فاقتصرت منها على ذكر غزلها وهو هذا (هو ذا الربع ولي نفس مشوقه * فاحبس الركب عسى أقضي حقوقه) (فقبيح بي في شرع الهوى * بعد ذاك البر أن أرضى عقوقه) (لست أنسى فيه ليلات مضت * مع من أهوى وساعات أنيقه) (ولئن أضحى مجازا بعدهم * فغرامي فيه ما زال حقيقه) (يا صديقي والكريم الحر في * مثل هذا الوقت لا ينسى

صديقه) (ضع يدا منك على قلبي عسى * أن تهدي بين جنبي خفوقه) (فاض دمعي مذ رأى ربع الهوى * ولكم فاض وقد شام بروقه) (نفد اللؤلؤ من أدمعه * فغدا ينثر في الترب عقيقه) (قف معي واستوقف الركب فإن * لم يقف فاتركه يمضي وطريقه)
266 (فهي أرض قلما يلحقها * آمل والركب لم أعدم لحوقه) (طالما استجليت في أرجائها * من يتيه البدر إذ يدعى شقيقه) (يفضح الورد احمرارا خده * وتود الخمر لو تشبه ريقه) (فبه الحسن خليق لم يزل * والمعالي بابن مطروح خليقه) وكانت ولادته يوم الاثنين ثامن رجب سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة بأسيوط وتوفي ليلة الأربعاء مستهل شعبان سنة تسع وأربعين و ستمائة بمصر ودفن بسفح الجبل المقطم وحضرت الصلاة عليه ودفنه وأوصى أن يكتب عند رأسه دوبيت نظمه في مرضه وهو (أصبحت بقعر حفرة مرتهنا * لا أملك من دنياي إلا كفنا) (يا من وسعت عباده رحمته * من بعض عبادك المسيئين أنا) ومما ذكر أنه وجد في رقعة مكتوبة تحت رأسه بعد موته (أتجزع م الموت هذا الجزع * ورحمة ربك فيها الطمع) (ولو بذنوب الورى جئته * فرحمته كل شيء تسع) رحمه الله تعالى (330) وتوفي قاضي القضاة بدر الدين يوسف المذكور يوم السبت رابع عشر رجب سنة ثلاث وستين وستمائة بالقاهرة ودفن في تربته

المجاورة لمدرسته بالقرافة الصغرى وأخبرني مرارا عديدة أنه ولد في شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسمائة في جبال إربل وهو زرزاري النسب رحمه الله تعالى وأسيوط بضم الهمزة وسكون السين المهملة وضم الياء المثناة من تحتها وبعدها واو ساكنة ثم طاء مهملة وهي بليدة بالصعيد الأعلى من ديار مصر ومنهم من يسقط الهمزة ويضم السين فيقول سيوط والله تعالى أعلم

267 812 ابن جزلة صاحب المنهاج أبو علي يحيى بن عيسى بن جزلة الطبيب صاحب كتاب المنهاج الذي رتبه على الحروف وجمع فيه أسماء الحشائش والعقاقير والأدوية وغير ذلك شيئا كثيرا كان نصرانيا ثم أسلم وصنف رسالة في الرد على النصارى وبيان عوار مذاهبهم ومدح فيها الإسلام وأقام الحجة على أنه الدين الحق وذكر فيها ما قرأه في التوراة والإنجيل من ظهور النبي وأنه نبي مبعوث وأن اليهود والنصارى أخفوا ذلك ولم يظهروه ثم ذكر فيها معايب اليهود والنصارى وهي رسالة حسنة أجاد فيها وقرئت عليه في ذي الحجة سنة خمس وثمانين وأربعمائة وكان سبب إسلامه أنه كان يقرأ على أبي علي ابن الوليد المعتزلي ويلازمه فلم يزل يدعوه إلى الإسلام ويذكر له الدلائل الواضحة حتى هداه الله تعالى وحسن إسلامه وهو تلميذ أبي الحسن سعيد ابن هبة الله بن الحسن وبه انتفع في الطب وكان

له نظر في علم الأدب وكتب الخط الجيد وصـــنف للإمـام المقتـدي بـأمر الله كثيرا من الكتـب فمن ذلـك كتاب تقويم الأبدان وكتاب منهاج البيان فيما يســتعمله الإنســان وكتاب الإشــارة قي تلخيص العبارة ورســالة في مدح الطب وموافقته للشـــرع والرد على من طعن عليه ورســالة كتبها إلى إليا القس لما أســلم وغير ذلك من التصـــــانيف وهو من المشـــــاهير في علم الطب وعمله وذكره أبو المظفر يوسـف سبط أبي الفرج ابن الجوزي في تاريخه الذي ســـماه مرآة الزمان فقال إنه لما أسـلم اسـتخلفه أبو الحسـن القاضـي ببغداد في كتب السجلات وكان يطبب

268 أهل محلتـه ومعـارفـه بغير أجرة ويحمـل إليهم الأشـــربة والأدوية بغير عوض ويتفقد الفقراء ويحسن إليهم ووقف كتبه قبل وفاته وجعلها في مشهد أبي حنيفة رضــي الله عنه ذكر هذا كله في سـنة ثلاث وتسـعين وأربعمائة وعادته أن يذكر الإنسـان ويشـرح أحواله في ســنة وفاته فإن كتابه مرتب على الســنين وذكر صــاحب كتاب البســتان الجامع لتواريخ الزمان أن ابن جزلة مات سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة وزاد أبو الحســن الهمذاني في أواخر شــعبان نقله عنه ابن النجار في تاريخ بغداد وذكر غيره أن إسلامه كان في سنة ست وستين وأربعمائة زاد ابن النجار في تاريخه يوم الثلاثاء حادي عشـــر جمادى الآخرة رحمه الله تعالى وجزلة بفتح الجيم وســـكون الزاي وفتح اللام

وبعدها هاء ساكنة والله تعالى أعلم 813 السهروردي المقتول أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك الملقب شهاب الدين السهروردي الحكيم المقتول بحلب وقيل اسمه أحمد وقيل كنيته اسمه وهو أبو الفتوح وذكر أبو العباس أحمد بن أبي أصيبعة الخزرجي الحكيم في كتاب طبقات الأطباء أن اسم السهروردي المذكور عمر ولم يذكر اسم أبيه والصحيح الذي ذكرته أولا فلهذا بنيت الترجمة عليه فإني وجدته بخط جماعة من أهل المعرفة بهذا الفن وأخبرني به جماعة أخرى لا أشك في معرفتهم

269 فقوي عندي ذلك فترجمت عليه والله أعلم كان المذكور من علماء عصره قرأ الحكمة وأصول الفقه على الشيخ مجد الدين الجيلي بمدينة المراغة من أعمال أذربيجان إلى أن برع فيهما و هذا مجد الدين الجيلي هو شيخ فخر الدين الرازي وعليه تخرج وبصحبته انتفع وكان إماما في فنونه وقال في طبقات الأطباء كان السهروردي المذكور أوحد أهل زمانه في العلوم الحكمية جامعا للفنون الفلسفية بارعا في الأصول الفقهية مفرط الذكاء فصيح العبارة وكان علمه أكثر من عقله ثم ذكر أنه قتل في أواخر سنة ست وثمانين وخمسمائة والصحيح ما سنذكره في أواخر هذه الترجمة إن شاء الله تعالى وعمره نحو ست وثلاثين سنة ثم قال ويقال إنه كان يعرف علم السيمياء وحكى بعض فقهاء العجم أنه كان في

صحبته وقد خرجوا من دمشق قال فلما وصلنا إلى القابون القرية التي على باب دمشق في طريق من يتوجه إلى حلب لقينا قطيع غنم مع تركماني فقلنا للشيخ يا مولانا نريد من هذه الغنم رأسا نأكله فقال معي عشرة دراهم خذوها واشتروا بها رأس غنم وكان هناك تركماني فاشترينا منه رأسا بها ومشينا قليلا فلحقنا رفيق له وقال ردوا هذا الرأس خذوا أصغر منه فإن هذا ما عرف يبيعكم يساوي هذا الرأس أكثر من ذلك وتقاولنا نحن وإياه فلما عرف الشيخ ذلك قال لنا خذوا الرأس وامشوا وأنا أقف معه وأرضيه فتقدمنا نحن وبقي الشيخ يتحدث معه ويطيب قلبه فلما أبعدنا قليلا تركه وتبعنا وبقي التركماني يمشي خلفه ويصيح به وهو لا يلتفت إليه فلما لم يكلمه لحقه بغيظ وجذب يده اليسرى وقال أين تروح وتخليني وإذا بيد الشيخ قد انخلعت من عند كتفه وبقيت في يد التركماني ودمها يجري فبهت التركماني وتحير في أمره فرمى اليد وخاف فرجع الشيخ وأخذ تلك اليد بيده اليمنى ولحقنا وبقي التركماني راجعا وهو يتلفت

270 إليه حتى غاب عنه ولما وصل الشيخ إلينا رأينا في يده اليمنى منديلا لا غير قلت ويحكى عنه مثل هذا أشياء كثيرة والله أعلم بصحتها وله تصانيف فمن ذلك كتاب التنقيحات في أصول الفقه وكتاب التلويحات وكتاب الهياكل وكتاب حكمة الإشراق وله الرسالة المعروفة بالغربة الغريبة على مثال رسالة

الطير لأبي علي ابن سينا ورسالة حي بن يقظان لابن
سينا أيضا وفيها بلاغة تامة أشار فيها إلى حديث
النفس وما يتعلق بها على اصطلاح الحكماء ومن
كلامه الفكر في صورة قدسية يتلطف بها طالب
الأريحية ونواحي القدس دار لا يطؤها القوم الجاهلون
وحرام على الأجساد المظلمة أن تلج ملكوت السموات
فوحد الله وأنت بتعظيمه ملآن واذكره وأنت من
ملابس الأكوان عريان ولو كان في الوجود شمسان
لانطمست الأركان فأبى النظام أن يكون غير ما كان
(فخفيت حتى قلت لست بظاهر * وظهرت من سعتي
على الأكوان) آخر (لو علمنا أننا ما نلتقي *
لقضينا من سليمى وطرا) اللهم خلص لطيفي من هذا
العالم الكثيف وتنسب إليه أشعار فمن ذلك ما قاله في
النفس على مثال أبيات ابن سينا العينية وهي مذكورة
في ترجمته في حرف الحاء واسمه الحسين فقال هذا
الحكيم (خلعت هياكلها بجرعاء الحمى * وصبت
لمغناها القديم تشوقا)
271 (وتلفتت نحو الديار فشاقها * ربع عفت
أطلاله فتمزقا) (وقفت تسائله فرد جوابها * رجع
الصدى أن لا سبيل إلى اللقا) (فكأنما برق تألق
بالحمى * ثم انطوى فكأنه ما أبرقا) ومن شعره
المشهور (أبدا تحن إليكم الأرواح * ووصالكم
ريحانها والراح) (وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم *
وإلى لذيذ لقائكم ترتاح) (وارحمة للعاشقين تكلفوا

* ســتر المحبة والهوى فضــاح) (بالســر إن باحوا تباح دماؤهم * وكذا دماء البائحين تباح) (وإذا هم كتموا تحدث عنهم * عند الوشــاة المدمع السـفاح) (وبدت شــواهد للســقام عليهم * فيها لمشــكل أمرهم إيضــاح) (خفض الجناح لكم وليس عليكم * للصب في خفض الجناح جناح) (فإلى لقاكم نفســه مرتاحة * وإلى رضاكم طرفه طماح) (عودوا بنور الوصل من غســق الجفا * فالهجر ليل والوصــال صـباح) (صــــافاهم فصــــفوا له فقلوبهم * في نورها المشــكاة والمصـــباح) (وتمتعوا فالوقت طاب بقربكم * راق الشراب ورقت الأقداح) (يا صاح ليس على المحب ملامة * إن لاح في أفق الوصــال صـباح) (لا ذنب للعشــاق إن غلب الهوى * كتمانهم فنما الغرام وباحوا) (ســمحوا بأنفســهم وما بخلوا بها * لما دروا أن السماح رباح)

272 (ودعاهم داعي الحقائق دعوة * فغدوا بها مســتأنســين وراحوا) (ركبوا على ســنن الوفا فدموعهم * بحر وشدة شوقهم ملاح) (والله ما طلبوا الوقوف ببـابـه * حتى دعوا وأتـاهم المفتـاح) (لا يطربون بغير ذكر حبيبهم * أبدا فكل زمانهم أفراح) (حضروا وقد غابت شواهد ذاتهم * فتهتكوا لما رأوه وصــاحوا) (أفناهم عنهم وقد كشــفت لهم * حجب البقا فتلاشت الأرواح) (فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم * إن التشــبه بالكرام فلاح) (قم يا نديم إلى المدام

فهاتها * في كاســـها قد دارت الأقداح) (من كرم إكرام بدن ديانة * لا خمرة قد داسها الفلاح) وله في النظم والنثر أشياء لطيفة لا حاجة إلى الإطالة بذكرها وكان شـــافعي المذهب ويلقب بالمؤيد بالملكوت وكان يتهم بانحلال العقيدة والتعطيل ويعتقد مذهب الحكماء المتقدمين واشتهر ذلك عنه فلما وصل إلى حلب أفتى علماؤها بإباحة قتله بســـبب اعتقاده وما ظهر لهم من ســـوء مذهبه وكان أشـد الجماعة عليه الشـيخين زين الدين ومجد الدين ابني جهبل وقال الشيخ سيف الدين الآمـدي المقـدم ذكره في حرف العين اجتمعـت بالسـهروردي في حلب فقال لي لا بد أن أملك الأرض فقلت من أين لك هذا قال رأيت في المنام كأني شـربت ماء البحر فقلت لعل هذا يكون اشـــتهار العلم وما يناســب هذا فرأيته لا يرجع عما وقع في نفســه ورأيته كثير العلم قليل العقل ويقال إنه لما تحقق القتل كان كثير ما ينشـــد (أرى قدمي أراق دمي * وهان دمي فها ندمي) والأول مأخوذ من قول أبي الفتح علي بن محمد البستي المقدم ذكره (إلى حتفي مشـى قدمي * أرى قدمي أراق دمي)

273 (فلم أنفك من ندم * وليس بنافعي ندمي)

وكان ذلك في دولة الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين رحمه الله فحبسه ثم خنقه بإشارة والده السلطان صـلاح الدين وكان ذلك في خامس رجب سـنة سـبع وثمانين وخمسـمائة بقلعة حلب وعمره ثمان وثلاثون

سنة وذكره القاضـي بهاء الدين المعروف بابن شداد قاضـي حلب في أوائل سيرة صـلاح الدين وقد ذكر حسـن عقيدته فقال كان كثير التعظيم لشـعائر الدين وأطال الكلام في ذلك ثم قال ولقد أمر ولده صـاحب حلب بقتل شاب نشأ يقال له السهروردي قيل عنه إنه معاند للشـرائع وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره وعرف السـلطان به فأمر بقتله فقتله وصلبه أياما ونقل سبط ابن الجوزي في تاريخه عن ابن شـداد المذكور أنه قال لما كان يوم الجمعة بعد الصلاة سلخ ذي الحجة سنة سبع وثمانين وخمسمائة أخرج الشـهاب السـهروردي ميتا من الحبس بحلب فتفرق عنه أصـحابه قلت وأقمت بحلب سـنين للاشـتغال بالعلم الشـريف ورأيت أهلها مختلفين في أمره وكل واحد يتكلم على قدر هواه فمنهم من ينسـبه إلى الزندقة والإلحاد ومنهم من يعتقد فيه الصلاح وأنه من أهل الكرامات ويقولون ظهر لهم بعد قتله ما يشهد له بذلك وأكثر الناس على أنه كان ملحدا لا يعتقد شيئا نسأل الله تعالى العفو العافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة وأن يتوفانا على مذهب أهل الحق والرشاد وهذا الذي ذكرته في تاريخ قتله هو الصحيح وهو خلاف ما نقلته في أول هذه الترجمة وقد قيل إن ذلك كان في سـنة ثمان وثمانين وليس بشـيء أيضـا وحبش بفتح الحاء المهملة والباء الموحدة وبالشـين

المعجمة وأميرك بفتح الهمزة وبعدها ميم مكسورة ثم ياء مثناة من تحتها ساكنة

274 وبعدها راء مفتوحة ثم كاف وهو اسم أعجمي معناه أمير تصغير أمير وهم يلحقون الكاف في آخر الاسم للتصغير وقد تقدم الكلام على سهرورد في ترجمة الشيخ أبي النجيب عبد القاهر السهروردي فليطلب منه إن شاء الله تعالى 814 يزيد بن القعقاع القارىء أبو جعفر يزيد بن القعقاع القارىء مولى عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة المخزومي عتاقة ويعرف أبو جعفر المذكور بالمدني أخذ القراءة عرضا عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وعن مولاه عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة وعن أبي هريرة رضي الله عنه وسمع عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ومروان بن الحكم ويقال قرأ على زيد بن ثابت رضي الله عنه وروى القراءة عنه عرضا نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم وسليمان ابن مسلم بن جماز وعيسى بن وردان الحذاء وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وله قراءة قال أبو عبد الرحمن النسائي يزيد بن القعقاع ثقة وكان يقرىء الناس بالمدينة قبل وقعة الحرة وقال محمد بن القاسم المالكي أبو جعفر يزيد بن القعقاع مولى أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي قال ويقال إنه جندب بن فيروز مولى عبد الله بن عياش المخزومي وكان من أفضل الناس وقال سليمان بن مسلم أخبرني أبو جعفر

يزيد بن القعقاع أنه كان يقرىء في مسجد رسول الله قبل الحرة وكانت الحرة على
275 رأس ثلاث وستين سنة من مقدم رسول الله المدينة وأخبرني أنه كان يمسك المصحف على مولاه عبد الله بن عياش وكان من أقرأ الناس وكنت أرى كل يوم ما يقرأ وأخذت عنه قراءته وأخبرني أنه أتي به إلى أم سلمة رضي الله عنها وهو صغير فمسحت على رأسه ودعت له بالبركة قال سليمان المذكور وسألته متى أقرأت القرآن فقال أقرأت أو قرأت فقلت لا بل أقرأت فقال هيهات قبل الحرة في زمان يزيد بن معاوية وكانت الحرة بعد وفاة رسول الله بثلاث وخمسين سنة وقال نافع بن أبي نعيم لما غسل أبو جعفر يزيد بن القعقاع القارىء بعد وفاته نظروا ما بين نحره إلى فؤاده مثل ورقة المصحف فما شك أحد ممن حضره أنه نور القرآن وقال سليمان بن مسلم أخبرني أبو جعفر يزيد بن القعقاع حين كان نافع يمر به فيقول أترى هذا كان يأتيني وهو غلام له ذؤابة فيقرأ علي ثم كفرني وهو يضحك قال سليمان وقالت أم ولد أبي جعفر إن ذلك البياض الذي كان بين نحره وفؤاده صار غرة بين عينيه وقال سليمان رأيت أبا جعفر بعد موته في المنام وهو على الكعبة فقلت له أبا جعفر قال نعم اقرىء إخواني عني السلام وأخبرهم أن الله تعالى جعلني من الشهداء الأحياء المرزوقين واقرىء أبا حازم السلام وقل له يقول لك أبو جعفر

الكيس الكيس فإن الله عز و جل وملائكته يتراءون مجلسك بالعشيات وقال مالك بن أنس رحمه الله تعالى كان أبو جعفر القارىء رجلا صالحا بفتي الناس بالمدينة وقال خليفة بن خياط مات أبو جعفر يزيد بن القعقاع سنة اثنتين وثلاثين ومائة بالمدينة وقال غيره مات سنة ثمان وعشرين ومائة وقال أبو علي الأهوازي في أول كتاب الإقناع في القراءات قال ابن جماز ولم يزل أبو جعفر إمام الناس في القراءة إلى أن توفي سنة ثلاث وثلاثين ومائة بالمدينة

276 وقيل إنه توفي في سنة ثلاثين ومائة والله أعلم قلت وقد تكرر ذكر الحرة في هذه الترجمة في مواضع وقد يتشوف إلى الوقوف على معرفة ذلك من لا علم له به والحرة في الأصل اسم لكل أرض ذات حجارة سود فمتى كانت بهذه الصفة قيل لها حرة والحرار كثيرة والمراد بهذه الحرة حرة واقم بالقاف المكسورة وهي بالقرب من المدينة في جهتها الشرقية كان يزيد بن معاوية بن أبي سفيان في مدة ولايته قد سير إلى المدينة جيشا مقدمه مسلم بن عقبة المري فنهبها وخرج أهلها إلى هذه الحرة فكانت الوقعة بها وجرى فيها ما يطول شرحه وهو مسطور في التواريخ حتى قيل إنه بعد وقعة الحرة ولدت أكثر من ألف بكر من أهل المدينة ممن ليس لهن أزواج بسبب ما جرى فيها من الفجور ثم إن مسلم بن عقبة المري لما قتل أهل المدينة وتوجه إلى مكة نزل به الموت

بموضـــع يقال له ثنية هرشـــى فدعا حصـــين بن نمير السـكوني وقال له يا برذعة الحمار إن أمير المؤمنين عهد إلي إن نزل بي الموت أن أوليك وأكره خلافه عند الموت ثم إنه أوصـــى إليه بأمور يعتمدها ثم قال لئن دخلت النار بعد قتلي أهل الحرة إني إذا لشـــقي وأما واقم فإنه اسم أطم من آطام المدينة والأطم بضم الهمزة والطاء المهملة شـبيه بالقصـر وكان مبنيا عند هذه الحرة فأضـــيفت الحرة إليه فقيل حرة واقم والله أعلم

277 815 يزيد بن رومان أبو روح يزيد بن رومان القارىء مولى آل الزبير بن العوام المدني أخذ القراءة عرضـــا عن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة المخزومي وسمع ابن عباس وعروة بن الزبير رضي الله عنهم وروى القراءة عنه عرضا نافع ابن أبي نعيم قال يحيى بن معين يزيد بن رومان ثقة وقال وهب بن جرير حدثنا أبي قال رأيت محمد بن سيرين ويزيد بن رومان يعقدان الآي في الصـــلاة وقال يزيد بن رومان كنت أصـــلي إلى جنب نافع بن جبير بن مطعم فيغمزني فأفتح عليه ونحن نصـــلي وروى يزيد أنه كان الناس يقومون في زمن عمر بن الخطاب رضـــي الله عنه بثلاث وعشـــرين ركعة في شـــهر رمضـــان وتوفي يزيد في ســـنة ثلاثين ومائة رحمه الله تعالى ورومان بضم الراء وسكون الواو وبعدها ميم ثم ألف ونون

278 816 يزيد بن المهلب أبو خالد يزيد بن المهلب بن أبي صـــفرة الأزدي قد تقدم ذكر أبيه في حرف الميم ورفعت نســـبه وتكلمت عليه فأغنى عن الإعـادة هـاهنـا ذكر ابن قتيبـة في كتـاب المعـارف وجماعة من المؤرخين أنه لما مات أبوه في التاريخ المذكور في ترجمته كان قد اسـتخلف ولده يزيد مكانه ويزيد ابن ثلاثين ســـنة يومئذ فعزله عبد الملك بن مروان برأي الحجاج بن يوســـف الثقفي وولى مكانه في خراسان قتيبة بن مسلم الباهلي قلت وقد تقدم ذكره في حرف القاف وصار يزيد في يد الحجاج قلت وكان الحجاج زوج أخته هند بنت المهلب وكان الحجاج يكره يزيد لما يرى فيه من النجابة فيخشـــى منه لا يترتب مكانه فكان يقصـــده بالمكروه في كل وقت كي لا يثب عليه وكان الحجاج في كل وقت يسأل المنجمين ومن يعاني هذه الصـــناعة عمن يكون مكانه فيقولون رجل اسمه يزيد فلا يرى من هو أهل لذلك سوى يزيد المذكور والحجاج يومئذ أمير العراقين وكذا وقع فإنه لما مات الحجاج ولي يزيد مكانه هذا قول المؤرخين نعود إلى تتمة ما ذكره في المعارف قال فعذبه الحجاج وهرب يزيد من حبسه إلى الشام يريد سليمان بن عبد الملك فأتاه فشفع له إلى أخيه

279 الوليد بن عبد الملك فأمنه وكف عنه ثم ولاه سليمان خراسان حين أفضت إليه الخلافة فافتتح جرجان ودهســـتان وأقبل يريد العراق فتلقاه موت

سليمان ابن عبد الملك فصار إلى البصرة فأخذه عدي بن أرطأة فأوثقه وبعث به إلى عمر بن عبد العزيز رضـــي الله عنه فحبســـه عمر فهرب من حبســـه وأتى البصـــرة ومات عمر فخالف يزيد وخلع يزيد بن عبد الملك فوجه إليه أخاه مســـلمة فقتله وقال الحافظ أبو القاسـم المعروف بابن عساكر في تاريخه الكبير يزيد بن المهلب ولي إمرة البصرة لسليمان بن عبد الملك ثم نزعه عمر بن عبد العزيز وولى عدي بن أرطأة وقدم به على عمر مســـخوطا عليه حكى عن أنس بن مالك وعمر بن عبد العزيز وأبيه المهلب وروى عنه ابنه عبد الرحمن وأبو عيينة ابن المهلب وأبو إســـحاق السـبيعي وغيرهم وقال الأصـمعي إن الحجاج قبض على يزيد وأخذه بســوء العذاب فســألـه أن يخفف عنه العذاب على أن يعطيه كل يوم مائة ألف درهم فإن أدا ها وإلا عذبه إلى الليل قال فجمع يو ما مائة ألف درهم ليشتري بها عذابه في يومه فدخل عليه الأخطل الشـــاعر فقال (أبا خالد بادت خراســـان بعدكم * وصـاح ذوو الحاجات أين يزيد) (فلا مطر المروان بعدك مطرة * ولا اخضـــر بالمروين بعدك عود) (فما لسـريـر الملك بعدك بهجة * ولا لجواد بعد جودك جود) قوله في البيت الثاني فلا مطر المروان ولا اخضـــر بـالمروين هما تثنية مرو إحداهما مرو الشـــاهجان وهي العظمى والأخرى مرو الروذ وهي الصـغرى وكلتاهما مدينتان مشـهورتان بخراسـان وقد

تكرر ذكرهما في هذا الكتاب قال فأعطاه مائة الألف فبلغ ذلك الحجاج فدعا به وقال يا مروزي أكل هذا الكرم وأنت بهذه الحالة قد وهبت لك عذاب اليوم وما بعده

280 قلت هكذا ذكر ابن عساكر والمشهور أن صاحب هذه الواقعة والأبيات هو الفرزدق ثم إني رأيت هذه الأبيات في ديوان زياد الأعجم والله أعلم بالصواب وذكر الحافظ أيضا أن يزيد لما هرب من الحجاج قاصدا سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ بالرملة فاجتاز في طريقه بالشام على أبيات عرب فقال لغلامه استقنا هؤلاء لبنا فأتاه بلبن فشربه فقال أعطهم ألف درهم فقال الغلام إن هؤلاء لا يعرفونك قال لكني أعرف نفسي أعطهم ألف درهم فأعطاهم وقال الحافظ أيضا حج يزيد بن المهلب فطلب حلاقا فجاء فحلق رأسه فأمر له بألف درهم فتحير ودهش وقال هذا الألف أمضي إلى أمي فلانة أشتريها فقال أعطوه ألفا آخر فقال امرأتي طالق إن حلقت رأس أحد بعدك فقال أعطوه ألفين آخرين وقال المدائني وكان سعيد بن عمرو بن العاص مؤاخيا ليزيد بن المهلب فلما حبس عمر بن عبد العزيز يزيد منع الناس من الدخول إليه فأتاه سعيد فقال يا أمير المؤمنين لي على يزيد خمسون ألف درهم وقد حلت بيني وبينه فإن رأيت أن تأذن لي فأقتضيه فأذن له فدخل عليه فسر به يزيد وقال كيف دخلت إلي فأخبره سعيد فقال والله لا

تخرج إلا وهي معك فامتنع سعيد فحلف يزيد ليقبضنها فوجه إلى منزله حتى حمل إلى سـعيد خمسـون ألف درهم وزاد ابن عساكر فقال وفي ذلك قال بعضهم (فلم أر محبوسـا من النـاس مـاجدا * حبـا زائرا في السجن غير يزيد) (سعيد بن عمرو إذ أتاه أجازه * بخمسين ألفا عجلت لسعيد) وذكر أبو الفرج المعافى بن زكريا النهرواني في كتاب الجليس والأنيس عن عبد الله الكوفي قال أغرم سـليمان بن عبد الملك عمر بن هبيرة عن غزاة

281 في البحر ألف ألف درهم فمشـى إلى يزيد بن المهلب وقد ولي العراق عثمان بن حيان المري والقعقاع بن خالد العبسي والهذيل بن زفر بن الحارث الكلابي وغيرهم من قيس فلما انتهوا إلى باب سرادق يزيد أذن لهم الحاجب في دخولهم وأعلمهم أنه يغسل رأسـه فلما فرغ خرج في مسـتقة فألقى نفسـه على فراشـه ثم قال ما ألف بينكم فقال عثمان هذا ابن هبيرة شيخنا وسيدنا كان الوليد حمل معه مالا حيث وجه إلى البحر فأعطاه جنده فخرج عليه من غرمه ألف ألف درهم فقلنا يزيد سـيد أهل اليمن ووزير لسـليمان وصـاحب العراق ومن قد يحمل أمثالها عمن ليس بأمثالنا ووالله لو وسـعتها أموال قيس لاحتملناها ثم تكلم القعقاع فقال يا ابن المهلب هذا خير ساقه الله إليك وليس أحد أولى به منك فافعل به كبعض فعلاتك الأولى فلن يصـدك عن قضـاء هذا الحق ضـيق ولا

تبخل وقد أتيناك مع ابن هبيرة فيما حمل فهب لنا أموالنا واستر في العرب عورتنا ثم تكلم الهذيل بن زفر فقال يا ابن المهلب إني لو وجدت من الممشى إليك بدا لما مشيت إليك لأن أموالك بالعراق وإنما أتيتنا خائفا ثم أقمت فينا ضيفا ثم تخرج من عندنا محروسا وايم الله لئن تركناك بالشام لنأتينك بالعراق وما هاهنا أقرب في الحظوة وأوجب للذمام ثم تكلم ابن خيثمة فقال إني لأقول لك يا ابن المهلب ما قال هؤلاء أخبرني إن أنت عجزت عن احتمال ما على ابن هبيرة فعلى من المعول لا والله ما عند قيس له مكيال ولا في أموالهم متسع ولا عند الخليفة له فرج ثم تكلم ابن هبيرة فقال أما أنا فقد قضيت حاجتي رددت أم أنجحت لأنه ليس لي أمامك متقدم ولا خلفك متأخر وهذه حاجة كانت في نفسي فقضيتها فضحك يزيد بن المهلب وقال إن التعذر أخو البخل ولا اعتذار فاحتكموا فقال القعقاع نصف المال فقال يزيد قد فعلت يا غلام غذاءك قال فجيء بالطعام

282 فأبقينا أكثر مما أفرغنا فلما فرغنا أمر بتطييبنا وأجاد الكسوة لنا قال ثم خرجنا حتى إذا مررنا قال ابن هبيرة فأخبروني عما بقي من يحمله بعد ابن المهلب لقد صغر الله أقداركم وأخطاركم والله ما يدري يزيد ما بين النصف والتمام وما هما عنده إلا سواء ارجعوا إليه فكلموه في الباقي قال وقد كان يزيد ظن بهم أن سيرجعون إليه في التمام فقال للحاجب إذا

عادوا فأدخلهم فلما عادوا أدخلهم فقال لهم يزيد إن ندمتم أقلناكم وان استقللتم زدناكم فقال له ابن هبيرة يا ابن المهلب إن البعير إذا أوقر أثقلته أذناه وأنا بما بقي مثقل فقال قد حملتها عنك ثم ركب إلى سليمان فقال يا أمير المؤمنين إنك إنما رشحتني لتبلغ بي وإني لا أضيق عن شيء اتسع له مالك وما في أيدينا فواضلك يصطنع بها الناس وتبنى بها المكارم ولولا مكانك قلقنا بالصغير ثم قال له أنه أتاني ابن هبيرة بوجوه أصحابه فقال له سليمان أمسك اياك في مال الله عنده خب ضب جموع منوع جزوع هلوع هيه فصنعت ماذا قال حملتها عنه قال احملها إذن إلى بيت مال المسلمين قال والله ما حملتها خدعة وأنا حاملها بالغداة ثم حملها فلما أخبر سليمان بذلك دعا يزيد فلما رآه ضحك وقال ذكت بك ناري ووريت بك زنادي غرمها علي وحمدها لك قد وفت لي يميني فأرجع المال إليك ففعل وقال يزيد يوما والله للحياة أحب من الموت ولثناء حسن أحب إلي من الحياة ولو أني أعطيت ما لم يعطه أحد لأحببت أن يكون لي أذن أسمع غدا ما يقال في إذا أنا مت كريما وقد سبق ذكر هذا الكلام في ترجمة أبيه المهلب وأنه من كلامه لا من كلام ابنه يزيد والله أعلم وقال أبو الحسن المدائني باع وكيل ليزيد بن المهلب بطيخا جاءه من مغل بعض أملاكه بأربعين ألف درهم فبلغ ذلك يزيد فقال له تركتنا بقالين

283 أما كان في عجائز الأزد من تقســمه فيهن ومدحه عمر بن لجأ بشــعر يقول فيه (آل المهلب قوم إن نسبتهم * كانوا الأكارم آباء وأجدادا) (كم حاسد لهم يعيا بفضلهم * وما دنا من مساعيهم ولا كادا) (إن العرانين تلقاها محســـدة * ولا ترى للئام الناس حســـادا) (لوقيل للمجد حد عنهم وخلهم * بما احتكمت من الدنيا لما حادا) (إن المكارم أرواح يكون لها * آل المهلب دون الناس أجســـادا) وقال الأصــمعي قدم على يزيد بن المهلب قوم من قضـاعة فقال رجل منهم (والله ما ندري إذا ما فاتنا * طلب لديك من الذي نتطلب) (ولقد ضـــربنا في البلاد فلم نجد * أحدا ســـواك إلى المكارم ينســـب) (فاصـــبر لعادتك التي عودتنا * أو لا فأرشـــدنا إلى من نذهب) فأمر له بألف دينار فلما كان في العام المقبل وفد عليه فأنشـــده (ما لي أرى أبوابهم مهجورة * وكأن بابك مجمع الأسـواق) (حابوك أم هابوك أم شـاموا الندى * بيدك فانتجعوا من الآفاق) (إني رأيتك للمكارم عاشـقا * والمكرمات قليلة العشـاق) فأمر له بعشـرة آلاف درهم وأجمع علماء التاريخ على أنه لم يكن في دولة بني أمية أكرم من بني المهلب كما لم يكن في دولة بني العباس أكرم من البرامكة والله أعلم وكان لهم في الشـجاعة أيضـا مواقف مشـهورة وحكى ابن الجوزي في كتاب الأذكياء أن يزيد بن المهلب وقعت

284 عليه حية فلم يدفعها عن نفسه فقال له أبوه ضيعت العقل من حيث حفظت الشجاعة ولما خرج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي على الحجاج وقصته مشهورة أتى تستر فاجتمع إليه جماعة فذكروا يوما آل المهلب ووقعوا فيهم فقال عبد الرحمن لحريش بن هلال القريعي وكان في القوم ما لك يا أبا قدامة لا تتكلم فقال والله ما أعلم أحدا أصون لنفسه في الرخاء ولا أبذل لها في الشدة منهم وقدم عبد الرحمن بن سليم الكلبي على المهلب فرأى بنيه قد ركبوا عن آخرهم فقال أنس الله الإسلام بتلاحقكم أما والله لئن لم تكونوا أسباط نبوة إنكم لأسباط ملحمة ومات ابن لحبيب بن المهلب بن أبي صفرة فقدم أخاه يزيد ليصلي عليه فقيل له أتقدمه وأنت أسن منه والميت ابنك فقال إن أخي قد شرفه الناس وشاع فيهم له الصيت ورمته العرب بأبصارها فكرهت أن أضع منه ما رفعه الله تعالى ونظر مطرف بن عبد الله بن الشخير إلى يزيد بن المهلب وهو يمشي وعليه حلة يسحبها فقال له ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله فقال يزيد أما تعرفني فقال بلى أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت بين ذلك حامل عذرة قلت وقد نظم هذا المعنى أبو محمد عبد الله بن محمد البسامي الخوارزمي فقال (عجبت من معجب بصورته * وكان من قبل نطفة مذره) (وفي غد بعد حسن صورته * يصير في الأرض جيفة قذره) (

وهو على عجبه ونخوته * ما بين ثوبيه يحمل العذره
) (331) وذكر الحافظ المعروف بابن عســاكر في
تاريخه الكبير في ترجمة أبي خداش مخلد بن يزيد بن
المهلب أن مخلدا أحد الأسخياء الممدوحين وفد على
285 عمر بن عبد العزيز رضــي الله عنه يكلمه
في أمر أبيه يزيد وقد حبســـه عمر وكان أبوه قد ولاه
جرجان فاجتاز في طريقه بالكوفة فأتاه حمزة بن
بيض الحنفي الشــاعر المشـــهور في جماعة من أهل
الكوفة فقام بيد يديه وأنشده (أتيناك في حاجة فاقضها
* وقل مرحبا يجب المرحب) (ولا لا تكلنا إلى
معشــــر * متى يعدوا عدة يكذبوا) (فإنك في الفرع
من أسرة * لهم خضع الشرق والمغرب) (وفي أدب
فيهم ما نشأت * فنعم لعمرك ما أدبوا) (بلغت لعشر
مضت من سنيك * ما بلغ السيد الأشيب) (فهمك
فيها جســام الأمور * وهم لداتك أن يلعبوا) (وجدت
فقلت ألا ســائل * فيســأل أو راغب يرغب) (فمنك
العطية للســـائلين * وممن ببابك أن يطلبوا) فقال له
هات حاجتك فقضــــاها وقيل أمر له بمائة ألف درهم
وقدم على مخلد رجل كان قد زاره قبل ذلك فأجازه
وقضــــى حقه فلما عاد إليه قال له مخلد ألم تكن أتيتنا
فأجزناك قال بلى قال فماذا ردك قال قول الكميت فيك
(سألناه الجزيل فما تلكا * وأعطى فوق منيتنا وزادا)
(فأعطى ثم أعطى ثم عدنا * فأعطى ثم عدت له فعادا
) (مرارا ما أعود إليه إلا * تبســـم ضــاحكا وثنى

الوسادا) فأضعف له ما كان أعطاه وقال قبيصة بن عمر المهلبي كان يزيد بن المهلب قد فتح جرجان وطبرستان وأخذ صول وهو رئيس من رؤسائهم قلت كان صاحب جرجان

286 وهو جد إبراهيم بن العباس الصولي وأبي بكر محمد بن يحيى الصولي الأديبين الشاعرين المشهورين قال فأصاب يزيد أموالا كثيرة وعروضا كثيرة فكتب إلى سليمان بن عبد الملك إني قد فتحت طبرستان وجرجان ولم يفتحهما أحد من الأكاسرة ولا أحد ممن كان بعدهم غيري وإني باعث إليك بقطران عليها الأموال والهدايا يكون أولها عندك وآخرها عندي فلما مات سليمان وأفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بعده أخذه عمر بهذه العدة لسليمان فحبسه فقدم ابنه مخلد على عمر قال قبيصة المهلبي وهب مخلد من لدن خروجه من مرو الشاهجان إلى أن ورد دمشق ألف ألف درهم فلما أراد مخلد الدخول على عمر لبس ثيابا مستنكرة وقلنسوة لاطية فقال له عمر لقد شمرت فقال له إذا شمرتم شمرنا وإذا أسبلتم أسبلنا ثم قال له ما بالك قد وسع الناس عفوك حبست هذا الشيخ فإن تكن عليه بينة عادلة فاحكم عليه وإلا فيمينه أو فصالحه على ضياعه فقال يزيد أما اليمين فلا تتحدث العرب أن يزيد بن المهلب صبر عليها ولكن ضياعي فيها وفاء لما يطلب ومات مخلد وهو ابن سبع وعشرين سنة فقال عمر لو

أراد الله بهذا الشيخ خيرا لأبقى له هذا الفتى ويقال إن مخلد بن يزيد أصابه الطاعون فمات وصلى عليه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ثم قال اليوم مات فتى العرب وأنشد متمثلا (على مثل عمرو تذهب النفس حسرة * وتضحي وجوه القوم مغبرة سودا) ورثاه حمزة بن بيض الحنفي المقدم ذكره بأبيات منها (وعطلت الأسرة منك إلا * سريرك يوم تحجب بالثياب) (وآخر عهدنا بك يوم يحثى * عليك بدابق سهل التراب) وقال الفرزدق يرثيه (وما حملت أيديهم من جنازة * ولا ألبست أثوابها مثل مخلد)

287 (أبوك الذي تستهزم الخيل باسمه * وإن كان فيها قيد شهر مطرد) (وقد علموا إذ شد حقويه أنه * هو الليث ليث الغاب لا بالمعرد) قلت و هذا يدل على أن مخلد بن يزيد مات في حدود سنة مائة للهجرة لأن عمر بن عبد العزيز ولي الخلافة في صفر سنة تسع وتسعين وتوفي في رجب سنة إحدى ومائة وقد مات عنده وصلى عليه ويدل على أن موت مخلد كان بدابق ما تقدم من مرثية حمزة بن بيض ودابق قرية من أعمال حلب من جانبها الشمالي وإليها ينسب المرج الذي يقال له مرج دابق وبه كانت وفاة سليمان بن عبد الملك وقبره هناك مشهور ونعود إلى ذكر يزيد قال أبو جعفر الطبري في تاريخه الكبير إن المغيرة بن المهلب كان نائبا عن أبيه بمرو وعمله كله ومات في رجب سنة اثنتين وثمانين كما ذكرناه في

ترجمة المهلب فأتى الخبر يزيد وعلم أهل المعسكر
ولم يعلموا المهلب وأحب يزيد أن يعلمه من النساء
فصرخن فقال المهلب ما هذا فقيل مات المغيرة
فاسترجع وجزع حتى ظهر جزعه عليه فلامه بعض
خاصته فدعا يزيد فوجه إلى مرو وجعل يوصيه بما
يعمل ودموعه تنحدر على لحيته وكتب الحجاج إلى
المهلب يعزيه عن المغيرة وكان سيدا (332) قلت
وكان للمغيرة ابن اسمه بشر ذكره أبو تمام الطائي في
كتاب الحماسة في الباب الأول وأورد من شعره قوله
في يزيد (جفاني يزيد والمغيرة قد جفا * وأمسى
يزيد لي قد أزور جانبه)
288 (وكلهم قد نال شبعا لبطنه * وشبع الفتى
لؤم إذا جاع صاحبه) (فيا عم مهلا واتخذني لنوبة
* تنوب فإن الدهر جم نوائبه) (أنا السيف إلا أن
للسيف نبوة * ومثلي لا تنبو عليك مضاربه) (على
أي باب أبتغي الإذن بعد ما * حجبت عن الباب الذي
أنا حاجبه) رجعنا إلى تتمة كلام الطبري وكان
المهلب يوم مات المغيرة مقيما بكش وراء النهر
لحرب أهلها فسار يزيد في ستين فارسا فلقيهم
خمسمائة من الترك في المفازة وحاصل الأمر أنه
جرى بينهم قتال شديد ورمي يزيد في ساقه ثم إن
المهلب صالح أهل كش على فدية وانصرف عنهم
متوجها إلى مرو فلما وصل إلى زاغول قرية من
أعمال مرو الروذ أصابته الشوصة فدعا ولده حبيبا

ومن حضر من ولده ودعا بسهام فحزمت وقال أفترونكم كاسريها مجتمعة فقالوا لا قال أفترونكم كاسريها مفترقة قالوا نعم قال هكذا الجماعة ثم أوصاهم وصية طويلة لا حاجة إلى ذكرها ثم قال في آخرها وقد استخلفت يزيد وجعلت حبيبا على الجند حتى يقدم بهم على يزيد فلا تخالفوا يزيد فقال له ولده المفضل لو لم تقدمه لقدمناه ومات المهلب حسبما شرحناه في ترجمته وأوصى إلى حبيب فصلى عليه حبيب ثم سار إلى مرو فكتب يزيد إلى عبد الملك بوفاة المهلب واستخلافه إياه فأقره الحجاج ثم إنه عزله في سنة خمس وثمانين واستعمل أخاه المفضل وكان سبب ذلك أن الحجاج وفد على عبد الملك فمر في منصرفه بدير فنزله فقيل له إن بهذا الدير شيخا من أهل الكتب عالما فدعا به وقال يا شيخ هل تجدون في كتبكم ما أنتم فيه ونحن فقال نعم نجد ما مضى

289 من أمركم وما أنتم فيه وما هو كائن قال أفمسمى أم موصوفا قال كل ذلك موصوف بغير اسم واسم بغير صفة قال فما تجدون صفة أمير المؤمنين قال نجده في زماننا الذي نحن فيه أنه ملك أقرع من يقم لسبيله يصرع قال ثم من قال رجل يقال له الوليد قال ثم ماذا قال رجل اسمه اسم نبي يفتح به على الناس قلت وهو سليمان بن عبد الملك قال أفتعلم ما ألي قال نعم قال فمن يليه بعدي قال رجل يقال له يزيد قال في حياتي أم بعد موتي قال لا أدري قال أفتعرف

صـــفته قال يغدر غدرة لا أعرف غير هذا قال فوقع
في نفسه أنه يزيد بن المهلب وارتحل فسار سبعا وهو
وجل من قول الشيخ وقدم فكتب إلى عبد الملك يستعفيه
من العراق فكتب إليه قد علمت الذي تغزو وأنك تريد
أن تعلم رأيي فيك ثم إن الحجاج أجمع على عزل
يزيد فلم يجد لذلك سببا حتى قدم الخيار بن سبرة وكان
من فرســـان المهلب وكان مع يزيد فقال له الحجاج
أخبرني عن يزيد فقال حســن الطاعة لين الســيرة قال
كذبت اصدقني عنه فقال الله أجل وأعظم قد أسرج ولم
يلجم قال صدقت واستعمل الخيار على عمان بعد ذلك
ثم كتب إلى عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب وخلاصة
الأمر أنه كرر القول مع عبد الملك في ذلك إلى أن
كتب إليه عبد الملك قد أكثرت في يزيد وآل المهلب
فسم لي رجلا يصلح لخراسان فسمى له مجاعة بن
ســـعد الســـعدي فكتب إليه عبد الملك إن رأيك الذي
دعاك إلى اســـتفســـاد آل المهلب هو الذي دعاك إلى
مجاعة بن سعد السعدي فانظر لي رجلا حازما ماضيا
لأمرك فســمى قتيبة بن مســلم الباهلي فكتب إليه وله
فبلغ يزيد أن الحجاج عزله فقال لأهل بيته من ترون
الحجاج يولي خراسان قالوا رجلا من ثقيف قال
290 كلا والله ولكنه يكتب إلى رجل منكم بعهده
فإذا قدمت عليه ولى غيره وأخلق بقتيبة بن مسلم قال
فلما أذن عبد الملك للحجاج في عزل يزيد كره أن
يكتب بعزله فكتب إليه أن اســتخلف أخاك المفضــل

وأقبل فاستشار يزيد حصين بن المنذر فقال له أقم واعتل فإن أمير المؤمنين حسن الرأي فيك وإنما أتيت من الحجاج فإن أقمت ولم تعجل رجوت أن يكتب إليه أن يقر يزيد فقال إنا أهل بيت بورك لنا في الطاعة وأنا أكره المعصية والخلاف وأخذ في الجهاز فأبطأ ذلك على الحجاج فكتب إلى أخيه المفضل إني قد وليتك خراسان فجعل المفضل يستحث يزيد فقال له يزيد إن الحجاج لا يقرك بعدي وإنما دعاه إلى ما صنع مخافة أن أمتنع عليه قال بل حسدتني قال يزيد أنا لا أحسدك ولكن ستعلم وخرج يزيد في شهر ربيع الآخر سنة خمس وثمانين فعزل الحجاج المفضل وولى قتيبة بن مسلم الباهلي وقيل فيروز بن حصين وقال حصين بن منذر ليزيد المذكور (أمرتك أمرا حازما فعصيتني * فأصبحت مسلوب الإمارة نادما) (فما أنا بالباكي عليك صبابة * وما أنا بالداعي لترجع سالما) فلما قدم قتيبة خراسان قال لحصين كيف قلت ليزيد قال قلت (أمرتك أمرا حازما فعصيتني * فنفسك ول اللوم إن كنت لائما) (فإن يبلغ الحجاج أن قد عصيته * فإنك تلقى أمره متفاقما) قال فماذا أمرته به فعصاك قال أمرته أن لا يدع صفراء ولا بيضاء إلا حملها إلى الأمير وفي تولية قتيبة وعزل يزيد قال عبد الله بن همام السلولي (أقتيب قد قلنا غداة أتيتنا * بدل لعمرك من يزيد أعور

) (إن المهلب لم يكن كأبيكم * هيهات شـــأنكم أدق وأحقر)
291 (شـــتان من بالصـــنج أدرك والذي * بالسيف شمر والحروب تسعر) (حولان باهلة الألى في ملكهم * مات الندى فيهم وعاش المنكر) قوله بدل أعور هذا مثل يضـرب للمذموم يتولى بعد الرجل المحمود يقـال بـدل أعور وخلف أعور وقولـه من بالصنج أدرك يقال إن قتيبة كان يضـرب بالصنج في بدء أمره وقوله حولان باهلة جمع أحول وكان قتيبة أحول وهذا الجمع مثل قولهم أســود وســودان وأحمر وحمران وغير ذلك وقد قيل إن هذه الأبيات ليســـت لعبد الله بن همام وإنها لنهار بن توسعة اليشكري والله أعلم ثم ذكر الطبري في سنة تسعين أن الحجاج خرج إلى الأكراد الـذين غلبوا على عـامـة أرض فـارس فخرج بيزيد معه وأخويه المفضــل وعبد الملك وجعل عليهم في العســكر كهيئة الخندق وجعلهم في فســطاط قريبا منه وجعل عليهم حرسا من أهل الشام وأغرمهم ستة آلاف ألف وأخذ يعذبهم وكان يزيد يصـبر صـبرا حســـنا وكان الحجاج يغيظه ذلك فقيل له إنه رمي بنشـابة فثبت أصـلها في سـاقه فهو لا يمسـها شـيء إلا صـاح فإن حركت أدنى شـيء سمعت صـوته فأمر أن يعذب به ويرهق ســاقه فلما فعل به ذلك صــاح وأخته هند عند الحجاج فلما ســمعت صــياح يزيد صـــاحت وناحت فطلقها ثم إنه كف عنهم وأقبل يســـتأديهم

فـأخـذوا يؤدون وهم يعملون في المخلص من مكـانهم
فبعثوا إلى مروان بن المهلب وهو بالبصـــرة يأمرونه
أن يضـــمر لهم الخيل ويري الناس أنه إنما يريد بيعها
ويعرضـها على البيع ويغلي بها كي لا تشـترى فتكون
لنا عدة إن نحن قدرنا أن ننجو من هاهنا ففعل ذلك
مروان بن المهلب وحبيب بالبصـرة يعذب أيضـا فأمر
يزيد بالحرس فصـــنع لهم طعام كثير فأكلوا وأمر لهم
بشراب فسقوا وكانوا متشاغلين به ولبس
292 يزيد ثياب طباخه ووضـع على لحيته لحية
بيضاء وخرج فرآه بعض الحرس فقال كأن هذه مشية
يزيد فجاء حتى اســتعرض وجهه ليلا فرأى بياض
اللحية فانصـرف عنه وقال هذا شيخ وخرج المفضـل
على أثره ولم يفطن له فجاؤوا إلى سـفينة وقد هيؤوها
في البطائح وبينهم وبين البصـرة ثمانية عشـر فرسـخا
فلما انتهوا إلى السـفينة أبطأ عليهم عبد الملك وشـغل
عنهم فقال يزيد للمفضـــل اركب فـإنـه لاحق فقال
المفضـــل وكان عبد الملك أخاه لأمه لا والله لا أبرح
حتى يجيء عبد الملك ولو رجعت إلى السـجن فأقام
يزيـد حتى جاءهم عبـد الملـك وركبوا في السـفينـة
وسـاروا ليلتهم حتى أصـبحوا ولما أصـبح الحرس
علموا بـذهـابهم فرفع ذلـك إلى الحجـاج ففزع لـذلـك
الحجاج وذهب وهمه أنهم ذهبوا قبل خراسـان وبعث
البريد إلى قتيبة بن مسـلم يحذره قدومهم ويأمره أن
يسـتعـد لهم وبعـث إلى أمراء الثغور والكور أن

يرصــدوهم ويســتعدوا وبعث إلى الوليد بن عبد الملك
يخبره بهم وأنه لا يراهم أرادوا إلا خراســان ولم يزل
الحجاج يظن بيزيد ما صـــنع كان يقول إني لأظنه
يحدث نفســه بمثل الذي صــنع ابن الأشــعث قلت ابن
الأشــعث هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشــعث بن
قيس الكندي وكان قد خرج على عبد الملك بن مروان
وقصــته مشــهورة مذكورة في التواريخ قال الطبري
ولما دنا يزيد من البطائح استقبلته الخيل وقد هيئت لهم
فخرجوا عليهم ومعهم دليل فأخذ بهم على الســماوة
وأتي الحجاج بعد يومين فقيل له إنما أخذ الرجل
طريق الشام وهذه الخيل حسرى في الطريق وقد أتى
من رآهم متوجهين في البر فبعث إلى الوليد يعلمه
بذلك ومضى يزيد حتى قدم فلسطين فنزل على وهيب
بن عبد الرحمن الأزدي وكان كريما على ســليمان بن
عبد الملك وجاء وهيب حتى دخل على ســليمان فقال
إن يزيد وإخوته عندي وقد أتوا هرابا من الحجاج
متعوذين بك فقال أتني بهم فهم آمنون لا يوصل
293 إليهم أبدا وانا حي فجاء بهم حتى دخلوا
عليه فكانوا في مكان أمن وكتب الحجاج إلى الوليد
بن عبد الملك إن آل المهلب خانوا مال الله وهربوا
مني ولحقوا بسليمان فلما بلغ الوليد مكانه عند سليمان
أخيه هون عليه بعض ما كان في نفســه وطار غضــبا
للمال الذي ذهبوا به وكتب ســليمان إلى أخيه الوليد إن
يزيد بن المهلب عندي وقد آمنته وإنما عليه ثلاثة

آلاف ألف كان الحجاج أغرمهم ســتة آلاف ألف فأدى
ثلاثـة آلاف ألف وبقيـت ثلاثـة آلاف ألف فهي علي
فكتب إليه لا والله لا أؤمنه حتى تبعث به إلي فكتب
إليه لئن أنا بعثت به لأجيئن معه فأنشـــدك الله أن لا
تفضـــحني ولا أن تخفرني فكتب إليه الوليد والله لئن
جئتني به لا أؤمنه فقال يزيد ابعثني إليه فوالله ما أحب
أن أوقع بينك وبينه عداوة وحربا ولا أن يتشـــاءم بي
لكما الناس ابعث إليه بي وأرسل معي ابنك واكتب إليه
بألطف ما قدرت عليه فأرســـل ابنه أيوب معه وكان
الوليد أمره أن يبعث به إليه في وثاق فبعثه إليه وقال
لابنه إذا أردت أن تدخل عليه فادخل أنت ويزيد في
ســـلســـلة على الوليد ففعل ذلك حتى انتهيا إلى الوليد
فدخلا عليه فلما رأى الوليد ابن أخيه مع يزيد في
سلسلة قال والله لقد بلغنا من سليمان ثم إن الغلام دفع
كتاب أبيه إلى عمه وقال يا أمير المؤمنين نفســـي
فداؤك لا تخفر ذمة أبي وأنت أحق من منعها ولا تقطع
منا رجاء من رجا السلامة في جوارنا لمكاننا منك ولا
تذل من رجا العز في الانقطاع إلينا لعزنا بك وقرأ
الكتاب لعبد الله الوليد أمير المؤمنين من ســـليمان بن
عبد الملك أما بعد يا أمير المؤمنين فو الله إني لأظن
لو استجار بي عدو قد نابذك وجاهدك فأنزلته وأجرته
فأنك لا تذل جاري ولا تخفر جواري بل إني لم أجر
إلا سامعا مطيعا حسن البلاء والأثر في الإسلام هو
وأبوه وأهل بيته وبعد فقد بعثت به إليك فإن كنت إنما

تغزو قطيعتي والإخفار لذمتي والإبلاغ في مســـاءتي فقد قدرت إن أنت فعلت ذلك وأنا أعيذك بالله من اجترار قطيعتي وانتهاك حرمتي وترك يدي وصــلتي فوالله يا أمير المؤمنين ما تدري ما بقائي وبقاؤك ولا متى يفرق

294 الموت بيني وبينك فإن اســتطاع أمير المؤمنين أدام الله ســروره أن لا يأتي علينا أجل الوفاة إلا وهو لي واصــل ولحقي مؤد وعن مساءتي نازع فليفعل والله يا أمير المؤمنين ما أصــبحت لشــيء من أمور الدنيا بعد تقوى الله تعالى فيها بأسر مني برضاك وســروك ولرضــاك مما ألتمس به رضــوان الله فإن كنت يا أمير المؤمنين تريد يوما من الدهر مســرتي وصــلتي وكرامتي وإعظام حقي فتجاوز لي عن يزيد وكل ما طلبته به فهو علي فلما قرأ كتابه قال لقد شققنا على ســليمان ثم دعا ابن أخيه فأدناه منه ثم تكلم يزيد فحمد الله تعالى وأثنى عليه وصــلى على نبيه ثم قال يا أمير المؤمنين إن بلاءكم عندنا أحسن البلاء فمن ينس ذلك فلسنا ناسيه ومن يكفر فلسنا كافريه وقد كان من بلائنا أهل البيت في طاعتكم والطعن في أعين أعدائكم في المواطن العظام في المشــارق والمغارب ما إن المنة فيه عظيمة فقال له اجلس فجلس فآمنه وكف عنه ورجع إلى سليمان وسعى إخوته في المال الذي عليه وكتب إلى الحجاج إني لم أصــل إلى يزيد وأهل بيته مع سليمان فاكفف عنهم واله عن الكتاب إلي فيهم فلما

رأى ذلك الحجاج كف عنهم وكان أبو عيينة عند الحجاج عليه ألف ألف درهم فتركها له وكف عن حبيب بن المهلب واقام يزيد عند سليمان تسعة أشهر في أرغد عيش وأنعم بال لا تأتي سليمان هدية إلا أرسل نصفها إليه وقال بعض جلساء يزيد له لم لا تتخذ لك دارا فقال وما أصنع بها ولي دار حاصلة مجهزة على الدوام فقال له وأين هي قال إن كنت متوليا فدار الإمارة وإن كنت معزولا فالسجن ومن كلام يزيد ما يسرني أن أكفى أمور دنياي كلها ولي الدنيا بحذافيرها فقيل له ولم ذاك فقال لأني أكره عادة العجز ثم إن الحجاج مات في شوال سنة خمس وتسعين للهجرة وقيل كانت وفاته لخمس ليال بقين من شهر رمضان من السنة وعمره ثلاث وخمسون سنة

295 وقيل أربع وخمسون ولما حضرته الوفاة استخلف يزيد بن أبي كبشة على الحرب والصلاة بالمصرين البصرة والكوفة وولى خراجهما يزيد بن أبي مسلم فأقرهما الوليد وكذلك فعل بكل من استخلف الحجاج وقيل بل الوليد هو الذي ولاهما وكانت ولاية الحجاج بالعراقين عشرين سنة ثم توفي الوليد بن عبد الملك يوم السبت النصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين للهجرة بدير مران قلت وهو بسفح جبل قاسيون ظاهر دمشق ودفن في مقابر باب الصغير ظاهر دمشق وبويع سليمان بن عبد الملك في اليوم الذي مات فيه أخوه الوليد وفي هذه السنة أعني سنة

ست وتسعين عزل سليمان بن عبد الملك يزيد ابن أبي مســـلم عن العراق وأمر عليه يزيد بن المهلب وقال خليفة بن خياط جمع ليزيد المصـــران يعني الكوفة والبصرة سنة سبع وتسعين والله أعلم وجعل صالح بن عبد الرحمن على الخراج وأمره أن يعذب آل أبي عقيل قلت هم رهط الحجاج قال ويبسط عليهم العذاب فأخذ صـــالح آل أبي عقيل فكان يعذبهم وكان يلي عذابهم عبد الملك بن المهلب وكان الوليد قد عزم على خلع أخيه ســـليمان عن ولاية العهد ويجعل ولي عهده ولده عبد العزيز بن الوليد وتابعه على ذلك الحجاج وقتيبة بن المسلم الباهلي والي خراسان الذي تولى بعد يزيد بن المهلب كما سبق ذكره قبل هذا فلما ولي ســـليمان الخلافة خافه قتيبة بن مســـلم وتوهم أن يعزله ويولي خراســـان يزيد ابن المهلب فكتب إلى سليمان كتابا يهنئه بالخلافة ويعزيه عن الوليد ويعلمه بلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد وأنه على مثل ما كان لهما عليه من الطاعة والنصيحة إن لم يعزله عن خراسان وكتب إليه كتابا آخر يعلمه فيه فتوجه ومكانه وعظم قدره عند ملوك العجم وهيبته في صـــدورهم ويذم المهلب وآل المهلب ويحلف بالله لئن اســـتعمل يزيد على خراسان ليخلعنه وكتب كتابا ثالثا فيه

296 خلعه وبعث بالكتب الثلاثة مع رجل من باهلة وقال له ادفع إليه هذا الكتاب فإن كان يزيد بن المهلب حاضـــرا فقرأه ثم ألقاه إليه فادفع إليه هذا

الكتاب وإن قرأ الأول فاحتبسه ولم يدفعه إلى يزيد فاحتبس الكتابين الآخرين قال فقدم رسول قتيبة بن مسلم على سليمان وعنده يزيد بن المهلب فدفع إليه الكتاب فقرأه ثم ألقاه إلى يزيد فدفع إليه الكتاب الآخر فقرأه ثم رماه إلى يزيد فأعطاه الكتاب الثالث فقرأه فتمعر لونه ثم دعا بطين فختمه ثم أمسكه بيده وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى كان في الكتاب الأول وقيعة في يزيد بن المهلب وذكر غدره وكفره وقلة شكره وفي الكتاب الثاني ثناء على يزيد وفي الكتاب الثالث لئن لم تقرني على ما كنت عليه وتؤمنني لأخلعنك خلع النعل ولأملأنها عليك خيلا ورجلا ثم إن سليمان أمر برسول قتيبة أن ينزل بدار الضيافة فلما أمسى دعا به سليمان وأعطاه صرة فيها دنانير وقال هذه جائزتك وهذا عهد صاحبك على خراسان فسر وهذا رسول معك بعهده فخرج الباهلي ومعه رسول سليمان فلما كان بحلوان تلقاهم الناس بخلع قتيبة فرجع رسول سليمان ودفع العهد إلى رسول قتيبة فوصل به إليه فاستشار إخوته فقالوا لا يثق بك سليمان بعد هذا ثم إن قتيبة قتل كما ذكرته في ترجمته في حرف القاف مع الاختصار لأن الشرح في ذلك يطول ثم إن يزيد بن المهلب نظر في نفسه لما تولى العراق فقال إن العراق قد أخربها الحجاج وأنا اليوم رجا أهل العراق ومتى قدمتها وأخذت الناس

297 بالخراج وعذبتهم عليه صرت مثل الحجاج أدخل على الناس الحرب وأعيد عليهم تلك الشجون التي قد عافاهم الله منها ومتى لم آت سليمان بمثل ما جاء به الحجاج لم يقبل مني فأتى يزيد سليمان فقال أدلك على رجل بصير بالخراج توليه إياه وهو صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم فقال قد قبلنا رأيك فأقبل يزيد إلى العراق وكان صالح قدم العراق قبل قدوم يزيد ونزل واسطا ولما قدم يزيد خرج الناس يتلقونه فلم يخرج صالح حتى قرب يزيد من المدينة ثم خرج إليه وبين يديه أربعمائة من أهل الشام فلقي يزيد وسايره فلما دخل المدينة قال له صالح قد فرغت لك هذه الدار فنزل يزيد ومضى صالح حتى أتى منزله وضيق صالح على يزيد فلم يملكه شيئا واتخذ يزيد ألف خوان يطعم الناس عليها فأخذها صالح فقال له يزيد اكتب ثمنها علي واشترى متاعا كثيرا وصك صكاكا إلى صالح لباعتها منه فلم ينفذه فرجعوا إلى يزيد فغضب وقال هذا عملي بنفسي فلم يلبث أن جاء صالح فأوسع له يزيد فجلس وقال ليزيد ما هذه الصكاك إن الخراج لا يقوم لها ولقد أنفذت لك منذ أيام صكاكا بمائة ألف وعجلت لك أرزاقك وسألت مالا فأعطيتك فهذا لا يقوم له شيء ولا يرضي أمير المؤمنين وتؤخذ به فقال له يزيد يا أبا الوليد أجز هذه الصكاك هذه المرة وضاحكه فقال إني أجيزه فلا تكثرن علي قال لا ولما ولى سليمان يزيد العراق لم

يوله خراســـان فقال ســـليمان لعبد الملك ابن المهلب كيف أنت يا عبد الملك إن وليتك خراســان قال يجدني أمير المؤمنين حيث يحب ثم أعرض سليمان عن ذلك وكتب عبد الملك إلى رجال من خاصته بخراسـان إن أمير المؤمنين عرض علي ولاية خراسـان فبلغ الخبر إلى أخيه يزيد وقد ضـــجر بالعراق وقد ضـــيق عليه صالح بن عبد الرحمن فليس يصل معه إلى شيء فدعا يزيد عبد الله بن الأهتم فقال إني أريدك لأمر قد أهمني و قد أحببت أن تكفينيه قال مرني بما أحببت قال أنا فيما

298 ترى من الضـــيق و قد أضـــجرني ذلك وخراسـان شـاغرة وقد بلغني أن أمير المؤمنين ذكرها لعبد الملك بن المهلب فهل من حيلة قال نعم ســـرحني إلى أمير المؤمنين فـإني أرجو أن آتيـك بعهده عليهـا قال فاكتم ما أخبرتك به وكتب إلى ســـليمان كتابين أحدهما يذكر له فيه أمر العراق وأثنى فيه على ابن الأهتم وذكر له علمه بها ووجه ابن الأهتم وحمله على البريد وأعطاه ثلاثين ألفا و سار سبعا فقدم بكتاب يزيد على سليمان فدخل عليه و هو يتغدى فجلس ناحية فأتي بدجاجتين فأكلهما ثم قال له سليمان لك مجلس بعد هذا تعود إليه ثم دعا به بعد ثالثة فقال له ســـليمان إن يزيد بن المهلب كتب إلي يذكر علمك بالعراق وبخراســـان ويثني عليه فكيف علمك بها قال أنا أعلم الناس بها بها ولدت وبها نشـــأت قال ما أحوج أمير المؤمنين إلى

مثلك يشـــاوره في أمر ها فأشــــر علي بر جل أوليه خراســـان قال أمير المؤمنين أعلم بمن يريد يولـي فإن ذكر منهم أحدا أخبرتـه برأيي فيـه هل يصـــلح أم لا فســمى ســليمان رجلا من قريش فقال ليس من رجال خراســان فســمى عبد الملك ابن المهلب فقال لا حتى عدد رجالا فكان في آخر من ذكر وكيع ابن أبي ســود فقال يا أمير المؤمنين وكيع رجل شـجاع صـارم مقدام وليس بصــــاحبها ومع هذا إنه لم يقد ثلثمائة قط فرأى لأحد عليه طاعة قال صـدقت ويحك فمن لها قال رجل أعلمه لم تسـمه قال فمن هو قال لا أبوح باسـمه إلا أن يضــمن لي أمير المؤمنين ســتر ذلك وأن يجيرنـي منه إن علم قال نعم ســمه لي قال يزيد بن المهلب قال ذلك بالعراق والمقام بها أحب إليه من المقام بخراســان قال قد علمت يا أمير المؤمنين ولكن تكر هه فيســـتخلف على العراق رجلا ويســير قال أصـــبت الرأي فكتب عهد يزيد ابن المهلب على خراسان وكتب إليه إن ابن الأهتم كما ذكرت من عقله ودينه وفضــله ورأيه ودفع الكتاب وعهد يزيد إليه فسار سبعا فقدم على يزيد فقال له ما وراءك فأعطاه الكتاب فقال ويحك أعندك خبر فأعطاه العهد فأمر يزيد بالجهاز للمســير من ســاعته ودعا ابنه مخلدا فقدمه إلى خراسان فسار من يومه ثم سار يزيد إلى خراسـان فأقام بها ثلاثة أشـهر أو أربعة ثم غزا جرجان

299 وطبرســـتان ودهســـتان وفتحها وذلك في ســـنة ثمان وتســـعين وقتل من أصـــحاب يزيد على حصـار بعض قلاع جرجان خمسـة آلاف رجل فحلف يزيـد يمينـا مغلظـة أنـه ليقتلنهم حتى تطحن الرحى بدمائهم فأكثر من قتلهم وكانت الدماء لا تجري حتى صـــب عليها الماء فجرت فطحنت وأكل مما طحنت بدمائهم ثم مات ســـليمان بن عبد الملك يوم الجمعة لعشـر ليال بقين من صـفر سـنة تسـع وتسـعين للهجرة وقيل لعشر ليال مضين من صفر والله أعلم بالصواب بدابق قرية من شـــمالي حلب وعهد إلى عمر بن عبد العزيز رضـــي الله عنه فعزل عمر في هذه السـنة يزيد بن المهلب عن العراق وجعل مكانه عدي بن أرطأة الفزاري فأخذ يزيد وأوثقه وبعث به إلى عمر بن عبد العزيز وقد كان عمر يبغض يزيد وأهل بيته ويقول هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم وكان يزيد يبغض عمر ويقول إني لأظنه مرائيا ولما وصـل يزيد سـأله عمر عن الأموال التي كتب بها إلى ســـليمان فقال كنت من سليمان بالمكان الذي قد رأيت وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذني بشـــيء مما ســـمعت ولا بأمر أكرهه فقال عمر ما أجد في أمرك إلا حبســـك فاتق الله وأد ما قبلك فإنها حقوق المسـلمين ولا يسـعني تركها فرده إلى محبسـه وذكر البلاذري في كتاب فتوح البلدان في الفصـل المتضـمن حديث جرجان وطبرستان أن يزيد بن المهلب لما فرغ

من أمر جرجان ســـار إلى خراســـان فتلقته الهدايا ثم ولى ابنه مخلدا خراسان وانصرف إلى سليمان فكتب إليه إن معه خمســـة وعشـــرين ألف ألف درهم فوقع الكتاب في يد عمر بن عبد العزيز فأخذ يزيد به وحبسه والله أعلم وبعث عمر إلى الجراح بن عبد الله الحكمي فسرحه إلى خراسان ثم قدم

300 مخلد بن يزيد على عمر وجرى بينهما ما ســـبق ذكره فلما خرج مخلد بن يزيد قال عمر هذا عندي خير من أبيه فلم يلبث مخلد إلا قليلا حتى مات ولما أبي يزيد أن يؤدي المال إلى عمر ألبســـه جبة صوف وحمله على جمل ثم قال سيروا به إلى دهلك قلت وهي جزيرة في بحر عيذاب بالقرب من سـواكن كان الخلفاء يحبســـون بها من نقموا عليه قال فلما أخرج يزيد مروا به على الناس فجعل يزيد يقول مالي عشـــيرة يذهب بي إلى دهلك إنما يذهب إلى دهلك بالفاسق المريب سبحان الله أما لي عشيرة فدخل على عمر سلامة ابن نعيم الخولاني وقال يا أمير المؤمنين اردد يزيد إلى محبســـه فإني أخاف إن أمضـــيته أن ينتزعه قومه فإني رأيت قومه قد غضبوا له فرده إلى محبســـه ولم يزل في محبســـه حتى بلغه مرض عمر وقيل إن عدي بن أرطأة سلمه إلى وكيع بن حسان بن أبي سود التميمي مغلولا مقيدا في سفينة ليوصله إلى عين التمر حتى يحمل إلى عمر فعرض لوكيع ناس من الأزد لينتزعوه منه فوثب وكيع وانتضـــى ســـيفه

وقطع قلس السفينة وأخذ سيف يزيد بن المهلب وحلف بطلاق امرأته ليضربن عنقه إن لم يتفرقوا عنه فناداهم يزيد وأعلمهم بيمين وكيع فتفرقوا ومضـــى به حتى ســـلمه إلى الجند الذين بعين التمر وحمله الجند إلى عمر فحبسـه ولما كان يزيد في حبس عمر دخل عليه الفرزدق فرآه مقيدا فأنشده (أصبح في قيدك السماحة والجود * وحمل الديات والحســـب) (لا بطر إن ترادفت نعم * وصـــابر في البلاء محتســب) فقال له يزيد ويحك ماذا صـنعت أســأت إلي قال ولم ذاك قال تمدحني وأنا على هذه الحالة فقال له الفرزدق رأيتك رخيصـا فأحببت أن أسلف فيك بضـاعتي فرمى يزيد إليه بخاتمه وقال شراؤه ألف دينار وهو ربحك إلى أن يأتيك رأس المال واســتمر في حبســه إلى أن مرض عمر في سنة إحدى ومائة فخاف

301 يزيد بن المهلب من يزيد بن عبد الملك بن مروان أن يلي الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز وكان يزيد بن المهلب لما ولي العراق قد عذب آل أبي عقيل وهم رهط الحجاج كما ســبق ذكره وكانت أم الحجاج بنت محمد بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل عند يزيد بن عبد الملك وهي أم الوليد بن يزيد فاســـق بني أمية وهي بنت أخي الحجاج وكان يزيد بن عبد الملك قد عاهدها لئن أمكنه الله من يزيد بن المهلب ليقطعن منه طابقا فكان يخشـــى ذلك فأخذ يعمل في المهرب فبعث إلى مواليه فأعدوا له إبلا وكان مرض عمر في دير

سمعان فلما اشتد مرض عمر نزل يزيد من محبسه وخرج حتى أتى المكان الذي فيه إبله وقد واعدهم إليه فاحتمل وخرج فلما جاز كتب إلى عمر إني والله لو علمت أنك تبقى ما خرجت من محبسي ولكني لم آمن يزيد بن عبد الملك فقال عمر اللهم إن كان يريد بهذه الأمة شرا فاكفهم شره واردد كيده في نحره ومضى يزيد بن المهلب وزعم الواقدي أن يزيد بن المهلب إنما هرب من سجن عمر بعد موت عمر قلت وجدت في مسودة تاريخ القاضي كمال الدين ابن العديم الحلبي أن عمر حبس يزيد بن المهلب وابنه معاوية بحلب وهربا منها والله أعلم (333) ثم توفي عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة وقيل الأربعاء لخمس ليال بقين من رجب سنة إحدى ومائة رحمه الله تعالى بدير سمعان وقيل إنه مات لعشر بقين من رجب من السنة وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر وقيل إنه مات بخناصرة وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان يقال له أشج بني أمية وذلك أن دابة من

302 دواب أبيه كانت شجته قال نافع مولى ابن عمر كنت أسمع ابن عمر كثيرا يقول ليت شعري من هذا الذي من ولد عمر في وجهه علامة يملأ الأرض عدلا قال سالم الأفطس إن عمر بن عبد العزيز رمحته دابة وهو غلام بدمشق فأتى أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فضمته إليها

وجعلت تمســـح الدم عن وجهه ودخل أبوه عليها على تلك الحال فأقبلت عليه تعذله وتلومه وتقول ضــــيعت ابني ولم تضــم إليه خادما ولا حاضـنا يحفظه من مثل هذا فقال لها اســكتي يا أم عاصـــم فطوبى لك إن كان أشج بني أمية وقال حماد بن زيد إن عمر بن الخطاب رضـــــي الله عنه مر بعجوز تبيع لبنا معها في ســـوق اللبن فقال لها يا عجوز لا تغشي المسلمين وزوار بيت الله تعالى ولا تشـــوبي اللبن بالماء فقالت نعم يا أمير المؤمنين ثم مر بها بعد ذلك فقال لها يا عجوز ألم أتقدم إليك أن لا تشـــوبي اللبن بالماء فقالت والله ما فعلت فقالت ابنة لها من داخل الخباء أغشـــا وكذبا جمعت على نفسك فسمعها عمر رضــي الله عنه فهم بمعاقبة العجوز فتركها لكلام ابنتها ثم التفت إلى بنيه فقال أيكم يتزوج هذه فلعل الله عز و جل يخرج منها نســمة طيبة مثلها فقال عاصـــم بن عمر أنا أتزوجها فزوجها إياه فولدت له أم عاصم فتزوج أم عاصم عبد العزيز بن مروان فولدت له عمر بن عبد العزيز ثم تزوج بعدها حفصة وفيها قيل ليست حفصة من نساء أم عاصم وذكر الشيخ شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزغلي بن عبد الله ســـبط الشـــيخ جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي في كتاب جوهرة الزمان في تذكرة السلطان عن ابن عمر رضــي الله عنهما قال بينما أبي يعس بالمدينة إذ ســـمع امرأة وهي تقول لابنتها يا بنية قومي فشـــوبي اللبن بالماء فقالت يا أماه أما ســـمعت

منادي أمير المؤمنين أنه نادى أن لا يشاب اللبن بالماء فقالت وأين أنت من مناديه الساعة فقالت إذا لم يرني مناديه ألم يرني رب مناديه وفي رواية أخرى قالت والله ما كنت لأطيعه في الملا وأعصيه في الخلا قال فبكى عمر رضي الله عنه فلما أصبح دعا بالمرأة وبابنتها وسأل هل لها زوج فقالت ليس لها زوج فقال يا عبد الله تزوج هذه فلو كانت

303 بي حاجة إلى النساء لتزوجتها فقلت أنا في غنى عنها فقال يا عاصم تزوجها فتزوجها فجاءت بابنة فحملت بعمر بن عبد العزيز ولما مات عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه ولي مكانه يزيد بن عبد الملك بن مروان ثم إن يزيد بن المهلب لحق بالبصرة فغلب عليها وأخذ عامل يزيد بن عبد الملك وهو عدي بن أرطأة الفزاري فحبسه وخلع يزيد بن عبد الملك ورام الخلافة لنفسه فجاءته إحدى حظاياه وقبلت الأرض بين يديه وقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين فأنشدها (رويدك حتى تنظري عم تنجلي * عماية هذا العارض المتألق) قلت وهذا البيت من جملة أبيات لبشر بن قطية الأسدي قلت ولا حاجة إلى تفصيل الحال فيه فإن شرحه يطول وهذه خلاصته ثم إن يزيد بن عبد الملك جهز لقتاله أخاه مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس ابن الوليد بن عبد الملك ومعهما الجيش وخرج يزيد بن المهلب للقائهم واستخلف على البصرة ولده معاوية بن يزيد وعنده

الرجال والأموال والأسرى وقدم بين يديه أخاه عبد الملك بن المهلب وسار حتى نزل العقر قلت هي عقر بابل وهي عند الكوفة بالقرب من كربلاء الموضع الذي قتل فيه الحسين رضي الله عنه والعقر بفتح العين المهملة وسكون القاف وبعدها راء وهو في الأصل اسم القصر والمواضع المسماة بالعقر أربعة أحدها هذا ولا حاجة إلى ذكر الباقي وقد ذكرها ياقوت الحموي في كتابه الذي سماه المشترك وضعا قال الطبري ثم أقبل مسلمة بن عبد الملك حتى نزل على يزيد بن المهلب فاصطفوا ثم اقتتل القوم فشد أهل البصرة على أهل الشام فكشفوهم ثم إن أهل الشام كروا عليهم فكشفوهم وكان على مقدمة جيش يزيد أخوه

304 عبد الملك فلما انكشف جاء إلى أخيه يزيد وكان الناس يبايعون يزيد بن المهلب وكانت مبايعته على كتاب الله وسنة نبيه وأن لا تطأ الجنود بلادهم ولا بيضتهم ولا تعاد عليهم سيرة الفاسق الحجاج وكان مروان بن المهلب بالبصرة يحرض الناس على حرب أهل الشام ويسرح الناس إلى أخيه يزيد وكان الحسن البصري رضي الله عنه يثبط الناس عن يزيد بن المهلب فقال يوما في مجلسه يا عجبا لفاسق من الفاسقين ومارق من المارقين غبر برهة من دهره يهتك لله في هؤلاء القوم كل حرمة ويركب له فيهم كل معصية ويأكل ما أكلوا ويقتل من قتلوا حتى إذا منعوه

لماظة كان يتلمظها قال أنا لله غضـــبان فاغضـــبوا ونصب قصبا عليها خرق وتبعه رجراجة رعاع هباء ما لهم أفئدة وقال أدعوكم إلى سنة عمر بن عبد العزيز ألا وإن من ســـنة عمر أن توضـــع رجلاه في قيد ثم يوضـــع حيث وضـــعه عمر فقال له رجل أتعذر أهل الشـــام يا أبا ســـعيد يعني بني أمية فقال أنا أعذرهم لا عذرهم الله والله لقد حدث ابن عباس رضـــي الله عنهما أن رسول الله قال اللهم إني حرمت المدينة بما حرمت به بلدك مكة فدخلها أهل الشـــام ثلاثا لا يغلق لها باب إلا أحرق بما فيه حتى إن الأقباط والأنباط ليدخلون على نســـاء قريش فينتزعون خمرهن من رؤوســـهن وخلاخلهن من أرجلهن ســـيوفهم على عواتقهم وكتاب الله تعالى تحت أرجلهم أنا أقتل نفســـي لفاسقين تنازعا هذا الأمر والله لوددت أن الأرض أخذتهما خســـفا جميعا فبلغ ذلك يزيد بن المهلب فأتى الحســـن هو وبعض بني عمه إلى حلقته في المسجد متنكرين فسلما عليه ثم خلوا به فاشـــرأب الناس ينظرون إليهم فلاحاه يزيد فدخل في ملاحاتهما ابن عم يزيد فقال له الحسـن وما أنت وذاك يا ابن اللخناء فاخترط سيفه ليضربه به فقال يزيد ما تصـنع قال أقتله فقال له يزيد اغمد سـيفك فوالله لو فعلت لانقلب من معنا علينا قلت ويزيد بن المهلب المذكور هو الذي عناه ابن دريد في مقصورته المعروفة بالدريدية بقوله (وقد سـما قبلي
305 يزيد طالبا * شـأو العلا فما وهى ولا ونى) وكل من

شـــرح الدريدية تكلم على هذا البيت وشـــرح قصـــته وكانت إقامة يزيد بن المهلب منذ اجتمع هو ومســـلمة بن عبد الملك ثمانية أيام حتى إذا كان يوم الجمعة لأربع عشرة مضت من صفر سنة اثنتين ومائة أمر مســـلمة أن تحرق الســـفن فأحرقت والتقى الجمعان وشبت الحرب فلما رأى الناس الدخان وقيل لهم أحرق الجســـر انهزموا فقيل ليزيد قد انهزم الناس فقال مم انهزموا فقيل له أحرق الجســـر فلم يلبث أحد فقال قبحهم الله بق دخن عليه فطار وكان يزيد لا يحدث نفســـه بالفرار وجاءه من أخبره أن أخاه حبيبا قد قتل فقال لا خير في العيش بعد حبيب قد كنت والله أبغض الحياة بعد الهزيمة فوالله ما ازددت لها إلا بغضـــا امضوا قدما قال أصحابه فعلمنا أن الرجل قد استقتل وأخذ من يكره القتال ينكص وأخذوا يتســـالون وبقيت معه جماعة حسنة وهو يزدلف فكلما مر بخيل كشفها أو جماعة من أهل الشـــام عدلوا عنه وعن ســـنن أصـــحابه فجاء أبو رؤبة المرجيء وقال ذهب الناس فهل لك أن تنصـــرف إلى واســـط فإنها حصـــن تنزلها ويأتيك مدد أهل البصـــرة ويأتيك أهل عمان والبحرين في الســـفن وتضـــرب خندقا فقال له قبح الله رأيك ألي تقول ذا الموت أيســـر علي من ذلك فقال له فإني أتخوف عليك أما ترى ما حولك من جبال الحديد فقال له فأنا أباليها أجبال حديد كانت أو جبال نار اذهب عنا إن كنت لا تريد قتالا معنا وأقبل على مسلمة لا يريد

غيره حتى إذا دنا منه دعا مســـلمة بفرســـه ليركبه فعطفت عليه خيول أهل الشـــام وعلى أصـــحابه فقتل يزيد بن المهلب وقتل معه أخوه محمد وجماعة من أصحابه وقال القحل بفتح القاف وسكون الحاء

306 المهملة وآخره لام ابن عياش الكلبي لما نظر إلى يزيد يا أهل الشـــام هذا والله يزيد لأقتلنه أو ليقتلني إن دونه ناسا فمن يحمل معي يكفيني أصحابه حتى أصـل إليه فقال له ناس من أصـــحابه نحن نحمل معك فحملوا بأجمعهم فاضطربوا ساعة وسطع الغبار وانفرج الفريقان عن يزيد قتيلا وعن القحل بن عياش بآخر رمق فأومأ إلى أصـــحابه يريهم مكان يزيد وجاء برأس يزيد مولى لبني مرة فقيل له أنت قتلته فقال لا وفي أثناء الوقعة نظر الحواري بن زياد إلى برذون عائر فقال الله أكبر هذا برذون الفاســـق ابن المهلب قد قتله الله إن شـــاء الله فطلبوه فأتي مســـلمة برأســـه فلم يعرف الرأس فقال حســـــان النبطي مهما ظننتم فلا تظنوا أن الرجل هرب ولقد قتل فقال مســـلمة وما علامة ذلك فقال إني سمعته أيام ابن الأشعث يقول قبح الله ابن الأشـعث هبوه غلب على أمره أكان يغلب على الموت ألا مات كريما (334) قلت ذكر الأمير أبو نصـــر ابن ماكولا في باب الفحل والقحل والعجل ما مثاله وأما القحل فمثل الفحل إلا أن أوله قاف فهو القحل بن عياش بن حســـان بن عثمير بن شـراحيل بن عزيز قتل يزيد بن المهلب وقتله يزيد ضـــرب كل

واحد منهما صــاحبه فقتله فلما أتي به إلى مســلمة لم يعرف ولم ينكر فقيل له مر برأســه فليغســل ثم ليعمم ففعل به ذلك فعرفه فبعث به إلى أخيه يزيد بن عبد الملك مع خالد بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط وقال خليفة بن خياط ولد يزيد بن المهلب ســنة ثلاث وخمسين وتوفي مقتولا يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من صفر سنة اثنتين ومائة والله أعلم بالصواب

ولما جاءت هزيمة يزيد واسـط أخرج معاوية بن يزيد بن المهلب اثنين وثلاثين أسيرا كانوا في يديه فضربوا أعناقهم منهم عدي بن أرطأة ثم خرج

307 وقد قال له القوم ويحك إنا لا نراك تقتلنا إلا أن أباك قد قتل ثم أقبل حتى أتى البصرة معه المال والخزائن وجاء المفضــــل بن المهلب واجتمع جميع أهل المهلب بالبصــــرة وقد كانوا يتخوفون الذي كان فأعدوا الســفن البحرية وتجهزوا بكل الجهاز وأراد معاوية بن يزيد أن يتأمر على آل المهلب فاجتمعوا وأمروا عليهم المفضــــل بن المهلب وقالوا المفضــــل أكبرنا ســنا وإنما أنت غلام حدث الســن كبعض فتيان أهلك فلم يزل المفضل عليهم حتى خرجوا إلى كرمان وبكرمان فلول كثيرة فاجتمعوا إلى المفضــــل وبعث مســــلمة بن عبد الملك في طلب آل المهلب وطلب الفلول فأدركوهم في عقبة بفارس فاشـــتد قتالهم فقتل المفضــل وجماعة من خواصــه ثم قتل آل المهلب من عند آخرهم إلا أبا عيينة وعثمان بن المفضــــل فإنهما

نجوا ولحقا بخاقان ورتبيل وبعث مسلمة برؤوسهم إلى أخيه يزيد وهو على حلب فلما نصبوا خرج لينظر إليهم فقال لأصحابه هذا رأس عبد الملك هذا رأس المفضل والله لكأنه جالس معي يحدثني وقال غير الطبري لما حمل رأس يزيد بن المهلب إلى يزيد بن عبد الملك نال منه بعض جلسائه فقال له مه إن يزيد طلب جسيما وركب عظيما ومات كريما ولما فرغ مسلمة من حرب آل المهلب جمع له أخوه يزيد ولاية الكوفة والبصرة وخراسان في هذه السنة ولما قتل يزيد بن المهلب رثاه شاعره ثابت قطنة بمراث كثيرة حسنة منها قوله (كل القبائل بايعوك على الذي * تدعو إليه وتابعوك وساروا) (حتى إذا اشتجر القنا وتركتهم * رهن الأسنة أسلموك وطاروا)
308 (إن يقتلوك فإن قتلك لم يكن * عارا عليك ورب قتل عار) (335) قلت وهذا ثابت قطنة من شعراء خراسان وفرسانهم وذهبت عينه فكان يحشوها قطنة فسمي ثابت قطنة وقد كان يزيد بن المهلب استعمله على بعض كور خراسان فلما علا المنبر أرتج عليه فلم ينطق حتى نزل فدخل عليه الناس فقال (فإن لا أقم فيكم خطيبا فإنني * بسيفي إذا جد الوغى لخطيب) فقالوا لو كنت قلت هذا على المنبر لكنت أخطب الناس ذكره ابن قتيبة في كتاب طبقات الشعراء وقال ابن الكلبي في جمهرة النسب هو ثابت بن كعب بن جابر بن كعب بن كزمان بن

طرفة بن وهب بن مازن بن يم بن الأسـد بن الحارث بن العتيك بن الأسـد بن عمران بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السـماء وفيه يقول صـاحب الفيل الحنفي وكانا يتهاجيان (أبا العلاء لقد لاقيت معضـلة * يوم العروبة من كرب وتخنيق) (تلوي اللسـان إذا رمت الكلام به * كما هوى زلق من شـاهق النيق) (لما رمتك عيون الناس ضاحية * أنشأت تجرض لما قمت بـالريق) وقـال غير الطبري إن الـذي قتـل يزيـد بن المهلب هو الـهذيل بن زفر بن الحارث الكلابي وقال الكلبي نشـأت والناس يقولون ضـحى بنو أمية بالدين يوم كربلاء وبالكرم يوم العقر وقال محمد بن واسـع لما جاء نعي يزيد أشـتهي باكية عمانية تندب لي قتلى آل المهلب وقال عباد بن عباد مكثنا نيفا وعشرين سنة بعد قتلى آل المهلب لا تولد فينا جارية ولا يموت منا غلام وقال خليفة بن خياط سـنة اثنتين ومائة فيها قتل يزيد بن المهلب يوم

309 الجمعة لاثنتي عشـرة ليلة خلت من صـفر وهو ابن تسـع وأربعين سـنة رحمه الله تعالى فلقد كان من النجبـاء الكرمـاء العظمـاء الفرسـان وروي أن مسـلمة بن عبد الملك دخل على أخيه يزيد بن عبد الملـك حين خلعـه يزيـد بن المهلـب فرآه في ثوب مصـبوغ فقال له أتلبس مثل هذا وأنت ممن قيل فيه (قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم * دون النساء ولو باتت بأطهار) فقال مسـلمة ذاك ونحن نحارب أكفاءنا من

قريش فأما إن نعق ناعق فلا ولا كرامة قلت و هذا البيت للأخطل التغلبي النصـراني الشـاعر المشـهور

817 يزيد بن أبي مسـلم الثقفي مولاهم أبو العلاء يزيد بن أبي مسـلم دينار الثقفي مولاهم كان مولى الحجاج ابن يوسـف الثقفي وكاتبه وكان فيه كفاية ونهضـة قدمه الحجاج بسـببهما وقد تقدم في ترجمة يزيد بن المهلب أن الحجاج لما حضرته الوفاة استخلفه على الخراج بالعراق فلما مات الحجاج أقره الوليد بن عبد الملك على حاله ولم يغير عليه شـيئا وقيل إن الوليد هو الذي ولاه بعد موت الحجاج وقال الوليد يوما مثلي ومثل الحجاج وابن أبي مسلم كرجل ضاع منه درهم فوجد دينارا ولما مات الوليد وتولى أخوه سليمان عزل يزيد بن أبي مسلم وبعث مكانه

310 يزيد بن المهلب بن أبي صـفرة الأزدي المذكور قبله وأحضـر إليه يزيد بن أبي مسـلم في جامعة وكان رجلا قصـيرا دميما قبيح الوجه عظيم البطن تحتقره العين فلما نظر إليه سـليمان قال أنت يزيد بن أبي مسـلم قال نعم أصـلح الله أمير المؤمنين قال لعن الله من أشـركك في أمانته وحكمك في دينه قال لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنك رأيتني والأمور مدبرة عني ولو رأيتني والأمور مقبلة علي لاستعظمت ما استصـغرت ولاستجللت ما احتقرت فقال سليمان قاتله الله فما أسد عقله وأعضب لسانه ثم قال سليمان يا يزيد أترى صاحبك الحجاج يهوي بعد

في نار جهنم أم قد استقر في قعرها فقال يزيد لا تقل ذلك يا أمير المؤمنين فإن الحجاج عادى عدوكم ووالى وليكم وبذل مهجته لكم فهو يوم القيامة عن يمين عبد الملك وعن يسار الوليد فاجعله حيث أحببت وفي رواية أخرى إنه يحشر غدا بين أبيك وأخيك فضعهما حيث شئت قال سليمان قاتله الله فما أوفاه لصاحبه إذا اصطنعت الرجال فلتصطنع مثل هذا فقال رجل من جلساء سليمان يا أمير المؤمنين اقتل يزيد ولا تستبقه فقال يزيد من هذا فقالوا فلان بن فلان قال يزيد والله لقد بلغني أن أمه ما كان شعرها يوازي أذنيها فما تمالك سليمان أن ضحك وأمر بتخليته ثم كشف عنه سليمان فلم يجد عليه خيانة دينارا ولا درهما فهم باستكتابه فقال له عمر بن عبد العزيز أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تحيي ذكر الحجاج باستكتابك كاتبه فقال يا أبا حفص إني كشفت عنه فلم أجد عليه خيانة فقال عمر أنا أوجدك من هو أعف عن الدينار والدرهم منه فقال سليمان من هذا فقال إبليس ما مس دينارا ولا درهما بيده وقد أهلك هذا الخلق فتركه سليمان وحدث جويرية بن أسماء أن عمر بن عبد العزيز بلغه أن يزيد بن أبي مسلم في جيش من جيوش المسلمين فكتب إلى عامل الجيش أن يرده وقال إني

311 لأكره أن أستنصر بجيش هو فيهم ونقل الحافظ أبو القاسم المعروف بابن عساكر في تاريخ دمشق في ترجمة يزيد المذكور عن يعقوب أنه قال

في ســـنة إحدى ومائة أمر يزيد بن أبي مســـلم على إفريقية ونزع إســـماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم فسار أحسن سيرة وفي سنة اثنتين ومائة قتل يزيد وقال الطبري في تاريخه الكبير وكان سبب ذلك أنه كان فيما ذكر عزم أن يسير فيهم بسيرة الحجاج بن يوســـف في أهل الإســـلام الذين ســـكنوا الأمصـــار ممن كان أصـــله من الســـواد من أهل الذمة فأســـلم بالعراق ممن ردهم إلى قرارهم ورســـاتيقهم ووضـــع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم على كفرهم فلمـا عزم على ذلـك توامروا فـأجمع رأيهم على قتلـه فقتلوه وولوا على أنفســـهم الوالي الذي كان قبل يزيد بن أبي مســـلم وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك إنا لم نخلع أيدينا عن الطاعة ولكن يزيد بن أبي مســـلم ســـامنا ما لا يرضـــى به الله والمســـلمون فقتلناه وأعدنا عاملك فكتب إليهم يزيد بن عبد الملك إنني لم أرض ما صـــنع يزيد بن أبي مسـلم وأقر محمد بن يزيد على إفريقية وكان ذلك في ســـنة اثنتين ومائة قال الوضـــاح بن خيثمة أمرني عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى بإخراج قوم من الســـجن وفيهم يزيد بن أبي مسلم فأخرجتهم وتركته فحقد علي وإني بإفريقية إذ قيل قدم يزيد واليا فهربت منه وعلم بمكاني وأمر بطلبي فظفر بي وحملت إليه فلما رآني قال طالما ســـألت الله تعالى أن يمكنني منك فقلت وأنا والله لطالما ســـألت الله أن يعيذني منك فقال ما أعاذك

الله والله لأقتلنك والله لأقتلنك ولو سـابقني فيك ملك الموت لسبقته ثم دعا بالسيف والنطع فأتي بهما وأمر بالوضـاح فأقيم على النطع وكتف وقام وراءه رجل بالسـيف وأقيمت الصـلاة فخرج يزيد إليها فلما سـجد أخذته السـيوف ودخل إلى الوضـاح من قطع كتافه وأطلقـه وأعيـد إلى الولايـة محمـد بن يزيـد مولى الأنصار والله أعلم

312 قلت كان الوضـاح حاجب عمر بن عبد العزيز فلما مرض أمر الوضـاح بإخراج المحابيس فأخرجهم سـوى يزيد المذكور فلما مات عمر هرب الوضـاح إلى إفريقية خوفا من يزيد وجرى ما جرى وكان مرض عمر بخناصرة هكذا قاله الطبري محمد بن يزيد وابن عسـاكر قال إسـماعيل بن عبيد الله والله أعلم بالصـواب وقوله وأحضـر إليه يزيد بن أبي مسلم في جامعة فالجامعة الغل لأنـها تجمع اليدين إلـى العنق وقوله وكان رجلا قصـيرا دميما الدميم بالدال المهملة القبيح المنظر ومنـه قول عمر رضـي الله عنـه لا تزوجوا بناتكم من الرجل الدميم فإنه يعجبهن منهم ما يعجبهم منهن وأما الذميم بالذال المعجمة فإنه المذموم وكذا قول ابن الرومي الشـاعر المشـهور (كضـرائر الحسـناء قلن لوجهها * حسـدا وبغيا إنه لدميم) بالدال المهملة أيضـا وإنما قيدته بالضـبط لأنه يتصـحف على الناس كثيرا وخناصـرة بضـم الخاء المعجمة ثم نون وبعد الألف صـاد مهملة مكسـورة ثم راء بعدها هاء

وهي بلدة قديمة من أعمال الأحص من ولاية حلب من جهتها القبلية بشرق بالقرب من قنسرين كان عمر بن عبد العزيز أميرا بها من جهة عبد الملك بن مروان ثم من جهة سليمان بن عبد الملك وهي التي عناها المتنبي بقوله (أحب حمصا إلى خناصرة * وكل نفس تحب محياها) وذكرها عدي بن الرقاع العاملي الشاعر المشهور في قصيدته الدالية المشهورة فقال (وإذا الربيع تتابعت أنواؤه * فسقى خناصرة الأحص وجادها)

313 818 يزيد بن عمر بن هبيرة أبو خالد يزيد بن أبي المثنى عمر بن هبيرة بن معية بن سكين بن خديج ابن بغيض بن مالك بن سعد بن عدي بن فزارة ونسب فزارة معروف فلا حاجة إلى الإطالة بذكره قال ابن دريد معية تصغير معى وهو الواحد من أمعاء البطن وقد ردوا على ابن دريد هذا القول فقالوا بل صوابه أنه تصغير معاوية وسكين بضم السين المهملة وفتح الكاف وخديج بفتح الخاء المعجمة وبغيض بفتح الباء الموحدة والباقي معلوم لا حاجة إلى ضبطه ذكر الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في تاريخه الكبير أن أصله من الشام وأنه ولي قنسرين للوليد بن يزيد بن عبد الملك وكان مع مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية يوم غلب على دمشق وجمع له ولاية العراق مولده سنة سبع وثمانين وذكره ابن عياش في تسمية من ولي العراق وجمع له المصران

وهما البصـــرة والكوفة وكذلك ذكره ابن قتيبة في كتاب المعارف في تســمية من ولي العراقين وعد الولاة الذين جمع لهم العراقان فكان أولهم زياد بن أبيه الذي استلحقه معاوية بن أبي سفيان وآخرهم يزيد بن عمر بن هبيرة صاحب هذه الترجمة ثم قال ولم يجمع العراقان لأحد بعد هؤلاء وذكره أيضـــا قبل هذا في ترجمة أبيه عمر فقال وكان أبو جعفر المنصـــور حصر يزيد بواسط شهورا ثم آمنه وافتتح البلد صلحا وركب إليه يزيد في أهل بيته وكان أبو جعفر يقول لا يعز ملك هذا فيه ثم قتله

314 وقال خليفة بن خياط وفي ســنة ثمان وعشــرين ومائة وجه مروان بن محمد يزيد بن عمر بن هبيرة واليا على العراق وذلك قبل قتل الضـــحاك يعني ابن قيس الشـــيباني الخارجي فســـار حتى نزل هيت وكان سخيا جسيما طويلا خطيبا أكولا شجاعا وكان فيه حســد وذكره أبو جعفر الطبري في تاريخه في ســنة ثمان وعشــرين ومائة فقال وفي هذه الســنة وجه مروان بن محمد يزيد بن عمر بن هبيرة إلى العراق لحرب من بها من الخوارج ثم ذكر في ســنة اثنتين وثلاثين ومائة خروج قحطبة بن شــبيب أحد دعاة بني العباس لما أظهروا أمرهم بخراســان وتلك النواحي وكان أبو مسـلم الخراســاني المقدم ذكره في حرف العين أعظم الأعوان وأصـل تلك القضـية حتى انتظمت أمورها كما هو مشـهور وقد سـبق في ترجمة

أبي مسلم طرف من هذا الحديث ولا حاجة إلى التطويل فيه وكان خروج قحطبة بأرض العراق وقصد محاربة يزيد بن عمر بن هبيرة وجرت وقائع يطول شرحها وحاصل الأمر أن قحطبة خاض الفرات عند الفلوجة القرية المشهورة بالعراق ليقاتل ابن هبيرة وكان في قبالته فغرق قحطبة في عشية الأربعاء عند غروب الشمس لثمان خلون من المحرم من هذه السنة وقام ولده الحسن بن قحطبة مقامه في تقدمة الجيش وهي واقعة مشهورة طويلة وليس هذا موضع ذكرها وكان معن بن زائدة الشيباني المقدم ذكره من أتباع يزيد بن هبيرة المذكور ومن أكبر أعوانه في الحروب وغيرها فيقال إنه في تلك الليلة ضرب قحطبة ابن شبيب بالسيف على رأسه وقيل على عاتقه فوقع في الماء فأخرجوه حيا فقال إن مت فادفنوني في الماء لئلا يقف أحد على خبري وقيل في غرقه غير ذلك والله أعلم

315 عدنا إلى حديث ابن هبيرة وكان من خبره أن جيوش خراسان التي كان مقدمها قحطبة ثم ولده الحسن من بعد استظهرت عليه فهزمت عسكره ولحق ابن هبيرة بمدينة واسط فتحصن فيها ثم وصل أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه الملقب بالسفاح وأخوه أبو جعفر عبد الله بن محمد الملقب بالمنصور من الحميمة بضم الحاء المهملة القرية التي كانت

مسكن بني العباس في أطراف الشام من أرض البلقاء إلى الكوفة وبها جماعة من أشياعهم ونوابهم ومن قام معهم بإقامة دولتهم وإزالة دولة بني أمية التي أميرها إذ ذاك مروان ابن محمد بن مروان بن الحكم الأموي المعروف بالجعدي والمنبوز بالحمار آخر ملوكهم فلما وصلوا إلى الكوفة بويع أبو العباس السفاح بها يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة وقيل إن المبايعة كانت في شهر ربيع الأول والأول أصح وظهر أمر بني العباس وقويت شوكتهم وأدبرت دولة بني مروان فعند ذلك وجه السفاح أخاه أبا جعفر المنصور إلى واسط لحرب يزيد بن عمر بن هبيرة فجاء المنصور إلى المعسكر الذي مقدمه الحسن بن قحطبة وهو مقابل يزيد بن هبيرة بواسط فنزل فيه قال أبو جعفر الطبري في تاريخه الكبير وجرت السفراء بين أبي جعفر المنصور وبين ابن هبيرة حتى جعل له أمانا وكتب به كتابا فمكث يشاور فيه العلماء أربعين ليلة حتى رضيه ابن هبيرة ثم أخذه إلى أبي جعفر فأنفذه أبو جعفر إلى أبي العباس السفاح فأمر بإمضائه له وكان رأى أبي جعفر الوفاء له بما أعطاه وكان أبو العباس السفاح لا يقطع أمرا دون أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة وكان لأبي مسلم عين على السفاح يكتب إليه بأخباره كلها

316 فكتب أبو مسلم إلى السفاح إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد لا والله لا صلح طريق فيه ابن هبيرة ولما تم الكتاب خرج ابن هبيرة إلى أبي جعفر في ألف وثلثمائة من البخارية فأراد أن يدخل الحجرة على دابته فقام إليه الحاجب فقال مرحبا أبا خالد انزل راشدا وقد أطاف بالحجرة عشرة آلاف من أهل خراسان فنزل ودعا له بوسادة ليجلس عليها ثم دعا له بالقواد فدخلوا ثم قال له الحاجب ادخل أبا خالد فقال أنا ومن معي فقال إنما استأذنت لك وحدك فقام فدخل ووضعت له وسادة وحادثه ساعة ثم قام وأتبعه أبو جعفر بصره حتى غاب عنه ثم مكث يقيم عنه يوما ويأتيه يوما في خمسمائة فارس وثلثمائة راجل فقال يزيد بن حاتم لأبي جعفر أيها الأمير إن ابن هبيرة ليأتي فيتضعضع له العسكر وما نقص من سلطانه شيء فقال أبو جعفر للحاجب قل لابن هبيرة يدع الجماعة ويأتينا في حاشيته فقال له الحاجب ذلك فتغير وجهه وجاء في حاشيته نحوا من ثلاثين فقال له الحاجب كأنك تأتي متأهبا فقال إن أمرتم أن نمشي إليكم مشينا فقال ما أردنا بك استخفافا ولا أمر الأمير بما أمر به إلا نظرا لك فكان بعد ذلك يأتي في ثلاثة وقال محمد بن كثير كلم ابن هبيرة يوما أبا جعفر فقال يا هياه أو يا أيها المرء ثم رجع فقال أيها الأمير إن عهدي بكلام الناس بمثل ما خاطبتك به حديث فسبقني لساني بما لم أرده وألح أبو العباس السفاح على أبي

جعفر يأمره بقتله وهو يراجعه فكتب إليه والله لتقتلنه أو لأرسلن إليه من يخرجه من حجرتك ثم يقتله فأزمع على قتله فبعث أبو جعفر من ختم بيوت المال ثم بعث إلى وجوه من مع ابن هبيرة فحضروا وخرج الحاجب من عند أبي جعفر وطلب ابن الحوثرة ومحمد بن نباتة وهما من الأعيان فقاما فدخلا وقد أجلس أبو جعفر ثلاثة من خواصـــــه في مائة من جماعته في حجرة فنزعت

317 ســـيوفهما وكتفا ثم أدخلوا بعدهما اثنين ففعل بهما كذلك وبعدهم جماعة أخرى فعل بهم كذلك فقال موســى بن عقيل أعطيتمونا عهد الله ثم خســتم به إنا لنرجو أن يدرككم الله وجعل ابن نباتة يضــــرط في لحية نفســـه فقال له ابن الحوثرة إن هذا لا يغني عنك شـــيئا فقال كأني كنت أنظر إلى هذا فقتلوا وأخذت خواتيمهم وانطلق حازم والهيثم بن شـــعبة والأغلب ابن ســالم في نحو من مائة فأرسـلوا إلى ابن هبيرة إنا نريد هذا المال فقال ابن هبيرة لحاجبه انطلق فدلهم عليه فأقاموا عند كل بيت نفرا ثم جعلوا ينظرون في نواحي الدار ومع ابن هبيرة ابنه داود وكاتبه عمرو بن أيوب وحاجبه وعدة من مواليه وبني له صغير في حجره فجعل ينكر نظرهم فقال أقسم بالله إن في وجوه القوم لشــرا فأقبلوا نحوه فقام حاجبه في وجوههم فقال وراءكم فضــــربه الهيثم بن شـــعبة على حبل عاتقه فصـــرعه وقاتل ابنه داود فقتل وقتل مواليه ونحى

الصبي من حجره وقال دونكم هذا الصبي وخر ساجدا فقتل وهو ســاجد ومضــوا برؤوســهم إلى أبي جعفر فنادى بالأمان للناس وقال أبو عطاء السـندي واسـمه مرزوق وقيل أفلح مولى بني أســد يرثي ابن هبيرة (ألا إن عينا لم تجد يوم واســط * عليك بجاري دمعها لجمود) (عشية قام النائحات وشققت * جيوب بأيدي مأتم وخدود) (فإن تمس مهجور الفناء فربما * أقام به بعد الوفود وفود) (وإنك لم تبعد على متعهد * بلى كل من تحت التراب بعيد) قلت و هذه المرثية ذكر ها أبو تمام الطائي في كتاب الحماســة في باب المراثي قلـت إلى هنـا انتهى مـا نقلتـه من تـاريخ الطبري مقتضبا فإنني جمعته من

318 عدة مواضع حتى انتظم على هذه الصورة وأمـا غير الطبري فـإنـه قـال لمـا قدم أبو جعفر على الحسن بن قحطبة تحول له الحسن من سرادقه فأنزله فيه وأقاموا يقتتلون أياما وثبت معن بن زائدة مع ابن هبيرة وطال الحصار عليهم وكان أبو جعفر المنصور يقول ابن هبيرة يخندق على نفسه مثل النساء وبلغ ابن هبيرة ذلك فأرســل إليه أنت القائل كذا ابرز إلي لترى فأرســل إليه المنصــور ما أجد لك ولي مثلا إلا كأســد لقي خنزيرا فقال له الخنزير بارزني فقال الأســد ما أنت لي بكفؤ فإن بارزتك فنالني منك ســوء كان عارا وإن قتلتك قتلت خنزيرا فلم أحصــل على حمد ولا في قتلك فخر فقال لـه الخنزير لئن لم تبـارزني لأعرفن

السباع أنك جبنت عني فقال الأسد احتمال عار كذبك أيسر من تلطيخ براثني بدمك ثم إن المنصور كاتب القواد وفهم ابن هبيرة فطلب الصلح فأجابه المنصور وكتبوا كتاب الصلح والأمان وبعثه المنصور إلى أخيه السفاح فأمضاه وكتب فيه فإن غدر ابن هبيرة أو نكث فلا عهد له ولا أمان وكان من رأي المنصور الوفاء له وقال أبو الحسن المدائني لما كتب المنصور بينه وبين ابن هبيرة كتاب الصلح خرج إلى المنصور وبينه وبينه ستر فقال ابن هبيرة أيها الأمير إن دولتكم بكر فأذيقوا الناس حلاوتها وجنبوهم مرارتها تصل محبتكم إلى قلوبهم ويعذب ذكركم على ألسنتهم وما زلنا منتظرين لدعوتكم قال فرفع المنصور الستر بينه وبينه وقال في نفسه عجبا لمن يأمرني بقتل مثل هذا وصار ابن هبيرة يخرج إلى المنصور في آخر أمره في ثلاثة من أصحابه يتغدى ويتعشى عنده وكان يثني له وساده فيقال إنه كان يكاتب عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويدعو إليهم وإلى خلع السفاح وجاءه كتاب أبي مسلم يحثه على قتل ابن هبيرة فكتب السفاح إلى المنصور يأمره بقتله فقال لا أفعل وله في عنقي بيعة وأيمان فلا أضيعها بقول أبي مسلم فكتب السفاح ما أقتله بقول أبي مسلم بل بنكثه وغدره ودسيسه إلى آل أبي طالب وقد أبيح لنا

319 دمه فلم يجبه المنصـــور وقال هذا فســـاد الملك فكتب إليه السفاح لست مني ولست منك إن لم تقتله فقال المنصور للحسن بن قحطبة اقتله أنت فامتنع فقال خازم بن خزيمة أنا أقتله فدخل عليه في جماعة من قواد خراســـان وهو في القصـــر وعنده ابنه داود وكاتبه ومواليه وعليه قميص مصـــري وملاءة موردة وعنده الحجام وهو يريد أن يحجمه فلما رآهم ســـجد فقتلوه وقتلوا ابنه وكاتبه ومن كان معه وحملوا رأســـه إلى المنصـور وكان معن بن زائدة غائبا عند السفاح فسلم وبعث المنصـور برأسـه إلى السفاح وكان ذلك في ســـنة اثنتين وثلاثين ومائة قال الهيثم بن عدي لما قتل ابن هبيرة قال بعض الخراسانيين لبعض أصحاب ابن هبيرة ما كان أكبر رأس صـــاحبكم فقال له الرجل أمـانكم لـه كـان أكبر وذكر الخطيـب أبو زكريـا التبريزي في كتاب شـرح الحماســة في باب المراثي عند ذكره أبيات أبي عطاء الســـندي الدالية المقدم ذكرهـا التي رثى بهـا يزيـد المـذكور فقـال وكـان المنصـــور قد حلف له وأكد الأيمان فلما قتله وحمل رأسه إليه قال المنصور للحرسي أترى طينة رأسه ما أعظمها فقال الحرســـي طينة أيمانه أعظم من طينة رأسه وهدم المنصور قصر واسط وقال الحافظ ابن عســـاكر في تاريخه الكبير كان ابن هبيرة إذا أصـــبح أتي بعس قلت العس بضـم العين المهملة وبعدها سـين مهملة مشـــددة هو القدح الكبير قال وفيه لبن قد حلب

على عسل وأحيانا سكر فيشربه فإذا صلى الغداة جلس في مصلاه حتى تحل الصلاة فيصلي ثم يدخل فيحركه اللبن فيدعو بالغداء فيأكل دجاجتين وناهضين ونصف جدي وألوانا من اللحم والناهض بالنون وبعد الهاء المكسورة ضاد معجمة وهو الفرخ من الحمام قال ثم يخرج فينظر في أمور الناس إلى نصف النهار

320 ثم يدخل فيدعو جماعة من خواصه وأعيان الناس ويدعو بالغداء فيتغدى ويضع منديلا على صدره ويعظم اللقم ويتابع فإذا فرغ من الغداء تفرق من كان عنده ودخل إلى نسائه حتى يخرج إلى صلاة الظهر ثم ينظر بعد الظهر في أمور الناس فإذا صلى العصر وضع له سرير ووضعت الكراسي للناس فإذا أخذ الناس مجالسهم أتوهم بعساس اللبن والعسل وألوان الأشربة قلت والعساس بكسر العين جمع عس وقد تقدم الكلام عليه ثم توضع السفرة والطعام للعامة ويوضع له ولأصحابه خوان مرتفع فيأكل معه الوجوه إلى المغرب ثم يتفرقون للصلاة ثم تأتيه سماره فيحضرون مجلسا يجلسون فيه حتى يدعوهم فيسامروه حتى يذهب عامة الليل وكان يسأل في كل ليلة عشر حوائج فإذا أصبحوا قضيت وكان رزقه ستمائة ألف درهم فكان يقسم كل شهر في أصحابه من قومه ومن الفقهاء والوجوه وأهل البيوتات فقال عبد الله بن شبرمة الضبي القاضي الفقيه الكوفي وكان من سماره (إذا نحن أعتمنا ومال بنا الكرى *

أتانا بإحدى الراحتين عياض) وعياض بوابه وإحدى الراحتين الدخول أو الانصـــراف ولم يكن له منديل فكان إذا دعا بالمنديل قام الناس وقال شـيخ من قريش أذن يزيد بن عمر بن هبيرة في يوم صائف شديد الحر للناس فدخل عليه وعليه قميص خلق مرقوع الجيب فجعلوا ينظرون إليـه ويعجبون منـه ففطن لـهم فتمثـل بقول إبراهيم بن هرمـة (قد يـدرك الشــرف الفتى ورداؤه * خلق وجيب قميصــــه مرقوع) وحكي أن شـــريك بن عبد الله النميري ســـايره يوما فبدرت دابة شـريك فقال له يزيد غض من لجامها فقال شـريك إنـها مكتوبة أصلح الله الأمير فقال

321 له يزيد ذهبت حيث أردت قول يزيد غض من لجامها يشير إلى قول جرير (فغض الطرف إنك من نمير * فلا كعبـا بلغـت ولا كلابـا) فعرض لـه شـــريك بقول ابن دارة (لا تأمنن فزاريا خلوت به * على قلوصـــك واكتبها بأســيار) وكان بنو فزارة في العرب يرمون بإتيان الإبل وأخباره ومحاســنه كثيرة مشــهورة وقال خليفة بن خياط قتل ابن هبيرة بواسـط يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سـنة اثنتين وثلاثين ومائة رحمه الله تعالى وقال أبو جعفر الطبري في تاريخه توفي الحســن بن قحطبة في ســنة إحدى وثمانين ومائة 819 يزيد بن حاتم المهلبي أبو خـالد يزيد بن حـاتم بن قبيصــــة بن المهلـب بن أبي صفرة الأزدي قد سبق ذكر بقية نسبه في ترجمة جده

المهلب بن أبي صـفرة وقد ذكرت أخاه روح ابن حاتم في حرف الراء وعم أبيه يزيد بن المهلب ومن ولده الوزير أبو

322 محمد الحسـن بن محمد المهلبي المقدم ذكره وهم أهل بيت كبير اجتمع فيه خلق كثير من الأعيان الأمجاد النجباء ذكر ابن جرير الطبري في تاريخه أن الخليفة أبا جعفر المنصور عزل حميد ابن قحطبة عن ولاية مصر فولاها نوفل بن الفرات ثم عزله وولى يزيد بن حاتم وذلك في سنة ثلاث وأربعين ومائة ثم إن المنصور عزله عن مصر في سنة اثنتين وخمسين ومائة وجعل مكانه محمد بن سعيد وقال أبو سعيد ابن يونس في تاريخه ولي يزيد بن حاتم مصر في سنة أربع وأربعين ومائة وزاد غيره في منتصف ذي القعدة ثم إن المنصور خرج إلى الشام وزيارة بيت المقدس في سنة أربع وخمسين ومن هناك سير يزيد بن حاتم إلى إفريقية لحرب الخوارج الذين قتلوا عامله عمر ابن حفص وجهز معه خمسين ألف مقاتل واستقر يزيد المذكور واليا بإفريقية من يومئذ وكان وصوله إليها واستظهاره على الخوارج في سنة خمس وخمسين ودخل مدينة القيروان في هذا التاريخ وكان جوادا سريا مقصودا ممدحا قصده جماعة من الشعراء فأحسن جوائزهم وكان أبو أسامة ربيعة بن ثابت الأسدي الرقي وقيل إنه من موالي سليم قد قصد يزيد بن أسيد بضم الهمزة وفتح السين المهملة ابن زافر

ابن أسـماء بن أسـيد بن قنفذ بن جابر بن قنفذ بن مالك بن عوف بن امرىء القيس ابن بهثـة بن سـلـيم بن منصـــور بن عكرمة بن خصـــفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وهو يومئذ وال على أرمينيـة وكـان قـد وليهـا زمـانـا طويلا لأبي جعفر المنصـــور ثم من بعـده لولـده المهـدي وكـان يزيـد المذكور من أشراف قيس وشجعانهم ومن ذوي الآراء الصائبة ومدحه ربيعة المذكور بشعر أجاد فيه فقصر في حقـه ومـدح يزيـد بن حـاتم المـذكور فبـالغ في الإحسـان إليه فقال ربيعة قصـيدة يفضـل فيها يزيد بن حاتم على يزيد بن أسيد وكان

323 في لســان يزيد بن أســيد تمتمة فعرض بذكرها في هذه الأبيات فقال (حلفت يمينا غير ذي مثنوية * يمين امرىء آل بها غير آثم) (لشـتان ما بين اليزيدين في الندى * يزيد سـليم والأغر ابن حاتم) (يزيد سـليم سـالم المال والفتى * أمحو الأزد للأموال غير مسالم) (فهم الفتى الأزدي إتلاف ماله * وهم الفتى القيسـي جمع الدراهم) (فلا يحسـب التمتام أني هجوته * ولكنني فضلت أهل المكارم) (فيا أيها السـاعي الذي ليس مدركا * بسـماته سـعي البحور الخضارم) (سميت ولم تدرك نوال ابن حاتم * لفك أسير واحتمال العظائم) (كفاك بناء المكرمات ابن حاتم * ونمت وما الأزدي عنها بنائم) (فيا ابن أسيد لا تسام ابن حاتم * فتفرغ إن ساميته سن نادم)

(هو البحر إن كلفت نفسك خوضه * تهافكت في أذيه المتلاطم) (تمنيت مجدا في سـليم سـفاهة * أماني خال أو أماني حالم) (ألا إنما آل المهلب غرة * وفي الحرب قـادات لكم بـالخزائم) (هم الأنف في الخرطوم والنـاس بعدهم * منـاسـم والخرطوم فوق المناسم) (قضيت لكم آل المهلب بالعلا * وتفضيلكم حق على كل حالم) (لكم شيم ليست لخلق سواكم * سماح وصدق البأس عند الملاحم) (مهينون للأموال فيما ينوبكم * منا عيش دفاعون عن كل جارم) قال دعبل بن علي الخزاعي المقدم ذكره قلت لمروان بن أبي حفصـة الشـاعر وقد تقدم ذكره أيضـا يا أبا السمط من أشعركم جماعة المحدثين قال أسيرنا بيتا قلت ومن هو قال الذي يقول (لشتان ما بين اليزيدين في الندى * يزيد سليم والأغر ابن حاتم)

324 وكنت قد ذكرت بعض هذه الأبيات في ترجمة أخيه روح بن حاتم ثم إني ظفرت بها أكمل من تلك فأحببت أن أفرد له ترجمة وأذكر ما جرى له لأن مثله لا يصـلح لأن يكون ضـميمة في ترجمة أخيه وكان ربيعة بن ثابت الرقي قد قصـده قبل هذه المرة فلم ير منه من الإحسـان ما كان يرجوه فنظم أبياتا من جملتها (أراني ولا كفران لله راجعا * بخفي حنين من نوال ابن حاتم) ولما عقد أبو جعفر المنصـور ليزيـد المهلبي المـذكور على بلاد إفريقيـة وليزيـد السلمي المذكور على ديار مصر خرجا معا فكان يزيد

المهلبي يقوم بكفاية الجيشـــين فقال ربيعة الرقي المذكور (يزيد الخير إن يزيد قومي * ســـميك لا يجود كما تجود) (تقود كتيبة ويقود أخرى * فترزق من تقود ومن يقود) قلت وهذا يدل على أن ربيعة المذكور مولى بني ســـليم لقوله يزيد قومي والله أعلم وقدم أشـعب المشـهور بالطمع على يزيد وهو بمصـر فجلس في مجلسه ودعا بغلامه فساره فقام أشعب فقبل يده فقال له يزيد لم فعلت هذا فقال إني رأيتك تســـار غلامك فظننت أنك قد أمرت لي بشـــيء فضـحك منه وقال ما فعلت هذا ولكنني أفعل ووصـله وأحسـن إليه وقال الطرطوشي في كتاب سراج الملوك قال سحنون ين ســـعيد كان يزيد بن حاتم حكيما يقول والله ما هبت شيئا قط هيبتي لرجل ظلمته وأنا أعلم أنه لا ناصـر له إلا الله تعالى فيقول حســـبك الله الله بيني وبينك وذكر أبو ســـعد السـمعاني في كتاب الأنســـاب أن المشـــهر التميمي الشاعر وفد على يزيد بن حاتم بإفريقية فأنشده
325 (إليك قصـــرنا النصـــف من صـــلواتنا * مسيرة شهر ثم شهر نواصله) (فلا نحن نخشى أن يخيب رجاؤنا * لديك ولكن أهنأ البر عاجله) فأمر يزيد بوضـع العطاء في جنده وكان معه خمسون ألف مرتزق فقال من أحب أن يسـرني فليضـع لزائري هذا من عطائه درهمين فاجتمع له مائة ألف درهم وضـــم يزيد إلى ذلك مائة ألف درهم أخرى ودفعها إليه قلت ثم وجدت البيتين المذكورين لمروان بن أبي حفصـــة

والله أعلم وقد ذكره الحافظ أبو القاسم المعروف بابن
عساكر في تاريخ دمشق فقال بعد ذكر أحواله وولاياته
إن يزيد بن حاتم قال لجلسائه استنقوا لي ثلاثة أبيات
فقال صفوان بن صفوان من بني الحارث بن الخزرج
أفيك فقال فيمن شئتم فكأنها كانت في كمه (لم أدر ما
الجود إلا ما سمعت به * حتى لقيت يزيدا عصمة
الناس) (لقيت أجود من يمشي على قدم * مفضلا
برداء الجود والباس) (لو نيل بالجود مجد كنت
صاحبه * وكنت أولى به) ثم كففت فقال أتمم من آل
عباس فقلت لا يصلح فقال لا يسمعن هذا منك أحد
وقال يموت بن المزرع قال لي الأصمعي يوما وقد
جئته مسلما إلى أن ذكر الشعراء المحسنين المداحين
من المولدين فقال لي يا أبا عثمان ابن المولى من
المحسنين المداحين ولقد أسهرني في ليلتي هذه حسن
مديحه يزيد بن حاتم حيث يقول (وإذا تباع كريمة أو
تشترى * فسواك بائعها وأنت المشتري) (وإذا
تخيل من سحابك لامع * سبقت مخيلته يد المستمطر)
326 (وإذا صنعت صنيعة أتممتها * بيدين
ليس نداهما بمكدر) (وإذا الفوارس عددت أبطالها
* عدوك في أبطالهم بالخنصر) ولما قدم عليه ابن
المولى المذكور أنشده وهو أمير مصر (يا واحد
العرب الذي * أضحى وليس له نظير) (لو كان
مثلك آخر * ما كان في الدنيا فقير) فدعا يزيد
بخازنه وقال كم في بيت مالي قال فيه من العين

والورق ما مبلغه عشــرون ألف دينار فقال ادفعها إليه ثم قال يا أخي المعذرة إلى الله تعالى وإليك والله لو أن في ملكي غير ها لما أدخرتها عنك و هذا ابن المولى هو أبو عبد الله محمد بن مســـلم وعرف بابن المولى وروى الأصمعي أيضا أن يزيد لما كان بإفريقية جاءه البشير يخبره أنه ولد له مولود بالبصرة فقال قد سميته المغيرة وكان عنده المشــهر التميمي فقال بارك الله لك أيها الأمير فيه وبارك له في بنيه كما بارك لجده في أبيه ولم يزل يزيد واليا بإفريقية إلى أن توفي بها يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة ســبعين ومائة بالقيروان ودفن بباب ســلم واســتخلف على إفريقية ولده داود بن يزيد فعزله هارون الرشــيد في ســنة اثنتين وســبعين ومائة وولاها عمه روح بن حاتم المقدم ذكره

327 820 يزيد بن مزيد الشـــيباني أبو خالد وأبو الزبير يزيد بن مزيد بن زائدة وهو ابن أخي معن ابن زائدة الشـــيباني المقدم ذكره وقد اســـتوفيت ذكر نســـبه هناك فلا حاجة إلى إعادته هاهنا كان يزيد المذكور من الأمراء المشهورين والشجعان المعروفين كان واليا بأرمينية فعزله عنها هارون الرشــيد ســنة اثنتين وســبعين ومائة ثم ولاه إياها وضـــم إليها أذربيجان في سنة ثلاث وثمانين وقد سبق طرف من خبره في ترجمة الوليد بن طريف الشــيباني الخارجي فإنه الذي تولى محاربته وقتله ذكر أرباب التاريخ أن

الوليد بن طريف الشيباني لما خرج على هارون الرشيد ببلاد الجزيرة وهي فيما بين الفرات وشط الموصل وذلك في سنة ثمان وسبعين ومائة وكثر جمعه من الشراة حتى انتشروا في تلك البلاد ونهض إليهم عامل ديار ربيعة فقتلوه وصاروا إلى ديار مضر فحصروا عبد الملك بن صالح بن علي العباسي بالرقة فاستشار هارون الرشيد يحيى بن خالد البرمكي فيمن يوجهه لحرب الوليد بن طريف فقال له يحيى بن خالد البرمكي وجه موسى بن حازم التميمي فإن فرعون كان اسمه الوليد فغرقه موسى عليه السلام فوجهه إليه الرشيد في جيش كثيف فلاقاه الوليد في أصحابه فهزمه الوليد وقتله فلما بلغ الرشيد ذلك وجه إليه معمر بن عيسى العبدي فكانت بينهما عدة وقائع بناحية دارا من ديار ربيعة فلما اتصل ذلك وكثرت جموع الوليد وظهر هذا الظهور العظيم قال الرشيد ليس لها إلا الأعرابي يزيد بن مزيد الشيباني فقال بكر بن النطاح الشاعر

328 (لا تبعثن إلى ربيعة غيرها * إن الحديد بغيره لا يفلح) فوجه الرشيد إليه يزيد المذكور في عسكر ضخم وأمره بمناجزته فقصده يزيد وجعل الوليد يراوغه ويزيد يتبعه وكان الوليد ذا مكر ودهاء ثم كانت بينهما حرب صعبة وبلغ الرشيد مماطلة يزيد بن مزيد له فوجه إليه خيلا بعد خيل ثم بعث إليه من يعنفه فسار يزيد في طلبه ثم نزل يصلي الصبح فلم

يستتم صلاته حتى طلع الوليد عليه في عسكره واصطفت الخيلان وتزاحف الناس فلما شبت الحرب ناداه يزيد يا وليد ما حاجتك إلى التستر بالرجال ابرز إلي قال نعم والله فبرز الوليد وبرز إليه يزيد ووقف العسكران فلم يتحرك منهما أحد فتطاردا ساعة وكل واحد منهما لا يقدر على صاحبه حتى مضت ساعات من النهار فأمكنت يزيد فيه الفرصة فضرب رجله فسقط وصاح بخيله فسقطوا عليه واحتزوا رأسه ذكر أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم المعروف بابن القراب الهروي في تاريخه أن الوليد بن طريف قتله يزيد بن مزيد بالحديثة من أرض الجزيرة قلت و هذه الجزيرة هي الجزيرة الفراتية والحديثة بالقرب من عانة وتعرف بحديثة النورة وهي على فراسخ من الأنبار وهي غير حديثة الموصل ووجه يزيد برأس الوليد إلى الرشيد وبكتاب الفتح مع ابنه أسد بن يزيد وفي ذلك يقول أبو الوليد مسلم بن الوليد الأنصاري الشاعر المشهور وكان منقطعا إلى يزيد ومختصا به (سل الخليفة سيفا من بني مطر * يمضي فيخترق الأجسام والهاما) (لولا يزيد ومقدار له سبب * عاش الوليد مع العامين أعواما) (أكرم به وبآباء له سلفوا * أبقوا من المجد أياما وأياما)

329 ولما انصرف يزيد إلى باب الرشيد قدمه ورفع مرتبته وقال له يا يزيد ما أكثر أمراء المؤمنين في قومك قال نعم إلا أن منابرهم الجذوع يعني

الجذوع التي يصلبون عليها إذا قتلوا وكان قتل الوليد في سنة تسع وسبعين ومائة كما سبق ذكره في ترجمته ورثته أخته بتلك الأبيات الفائية المذكورة هناك وقالت أخته الفارعة فيه أيضا (يا بني وائل لقد فجعتكم * من يزيد سيوفه بالوليد) (لو سيوف سوى سيوف يزيد * قاتلته لاقت خلاف السعود) (وائل بعضها يقتل بعضا * لا يفل الحديد غير الحديد) وقد روي أن هارون الرشيد لما جهز يزيد بن مزيد إلى حرب الوليد بن طريف أعطاه ذا الفقار سيف النبي وقال له خذه يا يزيد فإنك ستنتصر به فأخذه ومضى وكان من هزيمة الوليد وقتله ما قد شرحناه وفي ذلك يقول مسلم بن الوليد الأنصاري من جملة قصيدة يمدح بها يزيد بن مزيد المذكور (أذكرت سيف رسول الله سنته * وبأس أول من صلى ومن صاما) يعني بأس علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذ كان هو الضارب به وقد ذكر هشام بن الكلبي في كتاب جمهرة النسب شيئا يتعلق بذي الفقار وهي فائدة يحسن ذكرها هاهنا فإنه قال في نسب قريش منبه ونبيه ابنا الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم القرشي كانا سيدي بني سهم في الجاهلية قتلا يوم بدر كافرين وكانا من المطعمين والعاص ابن نبيه قتل مع أبيه وكان له ذو الفقار قتله علي بن أبي طالب رضي الله

330 عنه يوم بدر وأخذه منه وقال غير ابن الكلبي إن ذا الفقار أعطاه النبي لعلي رضي الله عنه

والفقار بفتح الفاء جمع فقارة الظهر يقال في جمعها فقار وفقارات ويقال ذو الفقار بكسـر الفاء أيضـا والفقار جمع فقرة بكسر الفاء وسكون القاف ولم يأت مثلـه في الجموع إلا قولهم إبرة وإبـار رجعنـا إلى حديث ذي الفقار وكان سـبب وصـوله إلى هارون الرشيد فيما ذكره أبو جعفر الطبري بإسناد متصل إلى عمر بن المتوكل عن أمه وكانت أمه تخدم فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب رضـي الله عنهما قالت كان ذو الفقار مع محمد بن عبد الله ابن الحسـن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضـي الله عنه يوم قتل في محاربته لجيش أبي جعفر المنصـور العباسـي والواقعة مشـهورة فلما أحس محمد بالموت دفع ذا الفقار إلى رجل من التجار كان معه وكان له عليه أربعمائة دينار وقال له خذ هذا السـيف فإنك لا تلقى أحدا من آل أبي طالب إلا أخذه منك وأعطاك حقك فكان السـيف عند ذلك التاجر حتى ولي جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه اليمن والمدينة فأخبر عنه فدعا بالرجل فأخذ منه السيف وأعطاه أربعمائة دينار فلم يزل عنده حتى قام المهدي ابن المنصور واتصل خبره به فأخذه ثم صار إلى موسى الهادي ثم إلى أخيه هارون الرشيد وقال الأصمعي رأيت الرشيد بطوس متقلدا سيفا فقال يا أصمعي ألا أريك ذا الفقار قلت بلى جعلني الله فداك

فقال استل سيفي هذا فاستللته فرأيت فيه ثماني عشرة فقارة

331 قلت خرجنا عن المقصـــود فلنرجع إلى تتمة حديث يزيد بن مزيد ذكر الخطيب أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي في تاريخ بغداد أن يزيد المذكور دخل على الرشيد فقال له الرشيد يا يزيد من الذي يقول فيك (لا يعبق الطيب كفيه ومفرقه * ولا يمســـح عينيه من الكحل) (قد عود الطير عادات وثقن بها * فهن يتبعنه في كل مرتحل) فقال لا أدري يا أمير المؤمنين قال أفيقال فيك مثل هذا الشـــعر ولا تعرف قائله فانصـــرف خجلا فقال لحاجبه من الباب من الشعراء فقال مسلم بن الوليد الأنصاري قال ومنذ كم هو مقيم بالباب قال منذ زمان طويل منعته من الوصـــول إليك لما عرفته من إضـــاقتك قال أدخله فأدخله فأنشده هذه القصيدة حتى ختمها فقال للوكيل بع ضيعتي الفلانية وأعطه نصف ثمنها واحتبس نصفا لنفقتنا فباعها بمائة ألف درهم فأعطى مسلما خمسين ألفا ورفع الخبر إلى الرشيد فاستحضـر يزيد وسأله عن الخبر فأعلمه الحديث فقال قد أمرت لك بمائتي ألف درهم لتسترجع الضيعة بمائة ألف درهم وتزيد الشاعر خمسين ألفا وتحبس خمسين ألفا لنفسك قال أبو بكر ابن الأنباري قال أبي ســـرق مسلم بن الوليد هذا المعنى من قول النابغة الذبياني حيث يقول (إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم * عصـــائب طير تهتدي

بعصـــائب) (يصـــاحبنهم حتى يغرن مغارهم * من الضــــاريات بالدماء الدوارب) (جوانح قد أيقن أن قبيله * إذا ما التقى الجمعان أول غالب) (لهن عليهم عادة قد عرفنها * إذا عرض الخطي فوق الكواثب)

332 الكواثب بالثاء المثلثة وبعدها الباء الموحدة جمع كاثبة وهي ما يقرب من منســـج الفرس أمام قربوس السرج قلت وأول قصيدة مسلم بن الوليد الأنصـــاري (أجررت حبل خليع في الصـــبا غزل * وقصــــرت همم العذال عن عذلي) ومن مديحها (حاط الخلافة سيف من بني مطر * أقام قائمه من كان ذا ميل) (كم صائل في ذرا علياء مملكة * لولا يزيد بني شيبان لم يصل) (ناب الإمام الذي يفتر عنه إذا * ما افترت الحرب عن أنيابها العصل) (يفتر عند افترار الحرب مبتسما * إذا تغير وجه الفارس البطل) (ينال بالرفق ما يعيا الرجال به * كالموت مســـتعجلا يأتي على مهل) (لا يرحل الناس إلا عند حجرته * كالبيت يضحي إليه ملتقى السبل) (يكسو السيوف نفوس الناكثين به * ويجعل الهام تيجان القنا الذبل) (يغدو فتغدو المنايا في أســـنته * شـــوارعا تتحدى الناس بالأجل) (إذا طغت فئة عن عب طاعته * عبا لها الموت بين البيض والأسل) (تراه في الأمن في درع مضاعفة * لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل) وذكر أبو الفرج الأصـــبهاني في كتاب الأغاني في ترجمة مســـلم بن الوليد الأنصـــاري قال

يزيد بن مزيد أرســـل إلي الرشـــيد يوما في وقت لا يرسل فيه إلى مثلي فأتيته لابسا سلاحي مستعدا لأمر إن أراده فلما رآني ضـــحك إلي وقال من الذي يقول فيك

333 (تراه في الأمن في درع مضـــاعفة * لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل) (لله من هاشــم في أرضه جبل * وأنت وابنك ركنا ذلك الجبل) فقلت لا أعرفه يا أمير المؤمنين فقال ســـوأة لك من ســـيد قوم يمدح بمثل هذا الشـــعر ولا يعرف قائله وقد بلغ أمير المؤمنين فرواه ووصـــل قائله هو مســـلم بن الوليد فانصـــرفت ودعوت به ووصـــلته ووليته قلت وهذان البيتان من جملة القصـــيدة التي ذكرت منها الأبيات التي قبلها وقد روي أن عمه معن بن زائدة كان يقدمه على أولاده فعاتبته امرأته في ذلك وقالت له كم تقدم يزيد ابن أخيك وتؤخر بنيك ولو قدمتهم لتقدموا ولو رفعتهم لارتفعوا فقال لها إن يزيد قريب مني وله علي حق الولد إذ كنت عمه وبعد فإن بني ألوط بقلبي وأدنى من نفســي ولكني لا أجد عندهم من الغناء ما عنده ولو كان ما يضــطلع به يزيد في بعيد لصـــار قريبا أو عدو لصـــار حبيبا وســـأريك في هذه الليلة ما تبســـطين به عذري يا غلام اذهب فادع جســـاســـا وزائدة وعبد الله وفلانا وفلانا حتى أتى على جميع أولاده فلم يلبثوا أن جاءوا في الغلائل المطيبة والنعال الســـندية وذلك بعد هدأة من الليل فسلموا وجلسوا ثم قال معن يا غلام ادع

يزيد فلم يلبث أن دخل عجلا وعليه سلاحه فوضع رمحه بباب المجلس ثم دخل فقال له معن ما هذه الهيئة يا أبا الزبير فقال جاءني رسول الأمير فسبق وهمي إلى أنه يريدني لمهم فلبست سلاحي وقلت إن كان الأمر كذلك مضيت ولم أعرج وإن كان على غير ذلك فنزع هذه الآلة عني من أيسر شيء فقال معن انصرفوا في حفظ الله فلما خرجوا قالت زوجته قد تبين لي عذرك فأنشد متمثلا (نفس عصام سودت عصاما * وعلمته الكر والأقداما) (وصيرته ملكا هماما *) وإلى هذه الحالة أشار مسلم بن الوليد بقوله تراه في الأمن في درع مضاعفة . . . .

334 وقد روي أن مسلم بن الوليد لما انتهى في إنشاء هذه القصيدة إلى هذا البيت قال له يزيد بن مزيد الممدوح هلا قلت كما قال أعشى بكر بن وائل في مديح قيس بن معدي كرب (وإذا تجيء كتيبة ملمومة * شهباء تجتنب الكماة نزالها) (كنت المقدم غير لابس جنة * بالسيف تضرب معلما أبطالها) فقال مسلم قولي أحسن من قوله لأنه وصفه بالخرق وأنا وصفتك بالحزم الخرق بضم الخاء المعجمة وسكون الراء وبعدها قاف وهو الاسم من عدم معرفة العمل قلت وقيس الذي مدحه الأعشى هو والد الأشعث بن قيس الكندي أحد الصحابة رضوان الله عليهم قلت وقد تقدم الكلام على قوله (قد عود الطير

عادات وثقن بها *) وأنه أخذ هذا المعنى من أبيات النابغة البائية التي تقدم ذكرها وقد وافقه في أخذ هذا المعنى جماعة منهم أبو نواس قال عمر الوراق سمعت أبا نواس ينشد قصيدته الرائية التي أولها (أيها المنتاب من عفره * لست من ليلي ولا سمره) (لا أذود الطير عن شجر * قد بلوت المر من ثمره) فحسدته عليها فلما بلغ إلى قوله (وإذا مج القنا علقا * وتراءى الموت في صوره) (راح في ثنيي مفاضته * أسد يدمى شبا ظفره)
335 (تتأي الطير غدوته * ثقة بالشبع من جزره) قلت له ما تركت للنابغة شيئا حيث يقول (إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم * عصائب طير تهتدي بعصائب) فقال اسكت فلئن أحسن الاختراع لما أسأت الاتباع وأخذ هذا المعنى أبو تمام حبيب بن أوس الطائي فقال (وقد ظللت عقبان أعلامه ضحى * بعقبان طير في الدماء نواهل) (أقامت على الرايات حتى كأنها * من الجيش إلا أنها لم تقاتل) وقال المتنبي أيضا (يطمع الطير فيهم طول أكلهم * حتى تكاد على أحيائهم تقع) وللمتنبي أيضا في صفة جيش وقد ألم بهذا المعنى (وذي لجب لا ذو الجناح أمامه * بناج ولا الوحش المثار بسالم) (تمر عليه الشمس وهي ضعيفة * تطالعه من بين ريش القشاعم) (إذا ضوءها لاقى من الطير فرجة * تدور فوق البيض مثل الدراهم) ولما كان يزيد واليا على اليمين

قصده أبو الشمقمق مروان بن محمد مولى مروان بن محمد الجعدي آخر ملوك بني أمية الشاعر المشهور الكوفي وكنيته أبو محمد وكان مشهورا بأبي الشمقمق وهو في حال رثة وكان راجلا فمدحه وشرح حاله بقوله (رحل المطي إليك طلاب الندى * ورحلت نحوك ناقة نعليه)

336 (إذا لم تكن لي يا يزيد مطية * فجعلتها لي في السفار مطيه) (تخدي أمام اليعملات وتغتلي * في السير تترك خلفها المهريه) (من كل طاوية الصوى مزورة * قطعا لكل تنوفة دويه) ومنها (تنتاب أكرم وائل في بيتها * حسبا وقبة مجدها مبنيه) (أعني يزيدا سيف آل محمد * فراج كل شديدة مخشيه) (يوماه يوم للمواهب والجدا * خضل ويوم دم وخطف منيه) (ولقد أتيتك واثقا بك عالما * أن لست تسمع مدحة بنسيه) فقال صدقت يا شمقمقي ولست أقبل مدحه بنسيئة أعطوه ألف دينار ومدحه أبو الفضل منصور بن سلمة النمري الشاعر المشهور بقصيدة طويلة بائية أحسن فيها كل الإحسان منها قوله (لو لم يكن لبني شيبان من حسب * سوى يزيد لفاتوا الناس بالحسب) (ما أعرف الناس أن الجود مدفعة * للذم لكنه يأتي على النشب) وذكر أبو العباس المبرد في كتاب الكامل أن يزيد بن مزيد المذكور نظر إلى رجل ذي لحية عظيمة وقد تلففت على صدره وإذا هو خاضب فقال له إنك من لحيتك في مؤنة فقال

أجل ولذلك أقول (لها درهم للدهن في كل ليلة * وآخر للحناء يبتدران) (ولولا نوال من يزيد بن مزيد * لصوت في حافاتها الجلمان) قلت الجلمان بفتح الجيم واللام تثنية جلم وهو المقص

337 وقال له هارون الرشيد يوما يا يزيد إني قد أعددتك لأمر كبير فقال يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قد أعد لك مني قلبا معقودا بنصيحتك ويدا مبسوطة لطاعتك وسيفا مشحوذا على عدوك فإذا شئت فقل وذكر المسعودي في كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر أن هذه المقالة دارت بين هارون الرشيد ومعن بن زائدة عم يزيد المذكور ثم قال بعد هذا وقيل إن هذا الكلام من كلام يزيد بن مزيد قلت أنا وهذا لا يمكن أن يكون بين الرشيد ومعن أصلا لأن معنا قتل في خلافة أبي جعفر المنصور حسبما تقدم ذكره في ترجمته على الاختلاف في السنة وهو بعد الخمسين ومائة فكيف يمكن أن يقول له الرشيد ذلك والرشيد ولي الخلافة في سنة سبعين ومائة وذكر ابن أبي عون في كتاب الأجوبة المسكتة أن الرشيد قال ليزيد المذكور في لعب الصوالجة كن مع عيسى بن جعفر فأبى يزيد فغضب الرشيد وقال تأنف أن تكون معه فقال قد حلفت لأمير المؤمنين أن لا أكون عليه في جد ولا هزل ورأيت في بعض المجاميع حكاية عن بعضهم أنه قال كنت مع يزيد بن مزيد فإذا صائح في الليل يا يزيد بن مزيد فقال يزيد

علي بهذا الصـــائح فلما جيء به قال له ما حملك على أن ناديت بـهذا الاســـم فقال نفقت دابتي ونفذت نفقتي وسمعت قول الشاعر فتيمنت به فقال وما قال الشاعر فأنشـــد (إذا قيل من للمجد والجود والندى * فناد بصـوت يا يزيد بن مزيد) فلما سمع يزيد مقالته هش له وقال له أتعرف يزيد بن مزيد قال لا والله قال أنا هو وأمر له بفرس أبلق كان معجبا به وبمائة دينار

338 وقد أطلنـا القول في هذه الترجمـة لكن الكلام شـــجون يتعلق بعضـــه ببعض ومحاســـن يزيد كثيرة وتوفي في ســـنة خمس وثمانين ومائة ورثاه أبو محمد عبد الله ابن أيوب التيمي الشاعر المشهور وقيل بل هذه المرثية لأبي الوليد مسلم بن الوليد الأنصـاري الشـاعر المذكور والصـحيح أنها للتيمي المذكور وهي (أحقا أنه أودى يزيد * تبين أيها الناعي المشـــيد) (أتدري من نعيت وكيف فاهت * به شـــفتاك كان بها الصـــعيد) (أحامي المجد والإســـلام أودى * فما للأرض ويحك لا تميد) (تأمل هل ترى الإســـلام مالت * دعائمه وهل شـــاب الوليد) (وهل شـــيمت سـيوف بني نزار * وهل وضـعت عن الخيل اللبود) (وهل تسـقي البلاد ثقال مزن * بدرتها وهل يخضـر عود) (أما هدت لمصـــرعه نزار * بلى وتقوض المجد المشيد) (وحل ضـريحه إذ حل فيه * طريف المجد والحســـب التليد) (أما والله ما تنفك عيني * عليك بدمعها أبدا تجود) (وإن تجمد دموع لئيم قوم

* فليس لدمع ذي حسب جمود) (أبعد يزيد تختزن البواكي * دموعا أو يصان لها خدود) (لتبكك قبة الإسلام لما * وهت أطنابها ووهى العمود) (ويبكي شاعر لم يبق دهر * له نشبا وقد كسد القصيد) (فإن يهلك يزيد فكل حي * فريس للمنية أو طريد) (لقد عزى ربيعة أن يوما * عليها مثل يومك لا يعود) قلت وهذا البيت الأخير قد استعمله الشعراء كثيرا فمن ذلك قول مطيع ابن إياس يرثي يحيى بن زياد الحارثي من جملة أبيات (فاذهب بمن شئت إذ ذهبت به * ما بعد يحيى في الرزء من ألم)

339 وقول أبي نواس يرثي الأمين (وكنت عليه أحذر الموت وحده * فلم يبق لي شيء عليه أحاذر) وقول إبراهيم بن العباس الصولي يرثي ابنه (أنت السواد لمقلة * تبكي عليك وناظر) (من شاء بعدك فليمت * فعليك كنت أحاذر) وذكر أبو الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني في ترجمة مسلم بن الوليد بإسناد متصل إلى أحمد بن أبي سعد قال أهديت إلى يزيد بن مزيد جارية وهو يأكل فلما رفع يده من الطعام وطئها فلم ينزل عنها إلا ميتا وهو ببردعة فدفن في مقابر بردعة وكان مسلم بن الوليد معه في جملة أصحابه فقال يرثيه (قبر ببردعة استتمر ضريحه * خطرا تقاصر دونه الأخطار) (أبقى الزمان على ربيعة بعده * حزنا لعمر الله ليس بعار) (سلكت بك العرب السبيل إلى العلا * حتى إذا سبق

الردى بك حاروا) (نفضت بك الأحلاس آمال الغنى
* واســـترجعت زوارها الأمصـــار) (فاذهب كما
ذهبت غوادي مزنة * أثنى عليها الســهل والأوعار)
قد قيل إن هذا البيت الأخير أبلغ شيء قيل في المراثي
و هذه الأبيات في كتاب الحماســـة في باب المراثي
وبردعة بفتح الباء الموحدة وسـكون الراء وبعدها دال
مهملـة ثم عين مهملـة و هي مدينـة من أقصــــى بلاد
أذربيجان قلت هكذا رأيته في التواريخ
340 وأهل تلك البلاد يقولون بردعة من إقليم
إران والله أعلم ويقال برذعة أيضــــا بالذال المعجمة
وكذلك بردعة الدابة يقال بالدال والذال وقد قيل إن
مســـلم بن الوليد إنما رثى بهذه الأبيات يزيد بن أحمد
السلمي وقيل بل رثى بها مالك بن علي الخزاعي وإن
أول الأبيات (قبر بحلوان استسر ضـريحه *) لأن
الذي قيلت فيه مات بحلوان بضـــم الحاء المهملة وهي
آخر مدينة بأرض السـواد من أعمال العراق والله أعلم
بالصـــواب في ذلك كله وذكر أبو عبيد الله المرزباني
في كتاب معجم الشـعراء أن أبا البلهاء عمير بن عامر
مولى يزيد بن مزيد الشـــيباني هو القائل (نعم الفتى
فجعت به إخوانه * يوم البقيع حوادث الأيام) (سهل
الفناء إذا حللت ببابه * طلق اليدين مؤدب الخدام) (
وإذا رأيت صديقه وشقيقه * لم تدر أيهما ذوو الأرحام
) وذكر أبو تمـام الطـائي هـذه الأبيـات في كتـاب
الحماســة في باب المراثي لمحمد بن بشــير الخارجي

وقيل ابن يسـير بالسـين المهملة وهو فعيل من اليسـر وبشير من البشارة وهو من خارجة عدوان قبيلة وليس من الخوارج والله أعلم بالصـواب في ذلك كله ورثاه منصـور النمري وهي في كتاب الحماسـة بقوله (أبا خالد ما كان أدهى مصـيبة * أصـابت معدا يوم أصبحت ثاويا) (لعمري لئن سر الأعادي فأظهروا * شـماتا لقد مروا بربعك خاليا) (فإن يك أفنته الليالي وأوشكت * فإن له ذكرا سيفني اللياليا)

341 وكان ليزيد ولدان نجيبان جليلان سـيدان (336) أحدهما خالد بن يزيد وهو ممدوح أبي تمام الطائي وله فيه أحسن المدائح وقد تضمنها ديوانه فلا حاجة إلى ذكر شـيء منها لشـهرة ديوانه (337) والآخر محمد بن يزيد كان موصـوفا بالكرم وأنه لا يرد طالبا فإن لم يحضـره مال لم يقل لا بل يعد ثم يعجل العدة ومدحه أحمد بن أبي فنن صـالح بن سـعيد بقوله ثم وجدت هذه الأبيات لأبي الشـيص الخزاعي في كتاب البارع (عشـق المكارم فهو مشـتغل بها * والمكرمات قليلة العشـاق) (وأقام سـوقا للثناء ولم تكن * سوق الثناء تعد في الأسواق) (بث الصنائع في البلاد فأصـبحت * تجبى إليه محامد الآفاق) وكان خالد بن يزيد قد تولى الموصل من جهة المأمون فوصل إليها وفي صحبته أبو الشمقمق الشاعر الذي ذكرته في هذه الترجمة فلما دخل خالد إلى الموصـل نشـب اللواء الذي لخالد في سـقف باب المدينة فاندق

فتطير خالد من ذلك فأنشده أبو الشمقمق ارتجالا (لما كان مندق اللواء لريبة * تخشى ولا سوء يكون معجلا) (لكن هذا الرمح أضـــعف متنه * صـــغر الولاية فاســتقل الموصــلا) فبلغ الخليفة ما جرى فكتب إلى خالد بن يزيد قد زدنا في ولايتك ديار ربيعة كلها لكون رمحك اســتقل الموصـــل ففرح بذلك وأجزل جائزة أبي الشـمقمق ولما انتقض أمر أرمينية في أيام الواثق جهز إليها خالد بن يزيد المذكور في
342 جيش عظيم فاعتل في الطريق ومات في سـنة ثلاثين ومائتين ودفن بمدينة دبيل أرمينية رحمهم الله أجمعين 821 يزيد ابن مفرغ الحميري أبو عثمان يزيد بن زياد بن ربيعة بن مفرغ بن ذي العشـــيزة بن الحارث ابن دلال بن عوف بن عمرو بن يزيد بن مرة بن مرثد بن مســروق بن زيد ابن يحصـــب الحميري وبقية النسب من يحصب معروفة فلا حاجة إلى ذكرها هكذا ســاق هذا النســب ابن الكلبي في كتاب جمهرة النسـب غير أنه لم يذكر كنية يزيد بل ذكرها صــاحب الأغاني وأكثر العلماء يقولون هو يزيد بن ربيعة بن مفرغ ويســقطون زيادا (338) وقال صـــاحب الأغاني إنما لقب جده مفرغا لأنه راهن على سقاء من لبن يشربه كله فشربه حتى فرغه فسمي مفرغا وذكر في ترجمة حفيده الســيد الحميري في كتاب الأغاني أيضـا أن ابن عائشـة قال مفرغ هو ربيعة ومفرغ لقبه ومن قال ربيعة بن مفرغ فقد أخطأ والله أعلم و قال

الفضـــل ابن عبد الرحمن النوفلي كان مفرغ المذكور حدادا باليمن فعمل لامرأة قفلا وشــرط عليها عند فراغه منه أن تجيئه بلبن كرش ففعلت فشــرب منه ووضعه فقالت له رد علي الكرش فقال ما عندي شيء أفرغه فيه قالت لا بد منه ففرغه في جوفه فقالت إنك لمفرغ فعرف به وهو

343 من حمير فيما يزعم أهله وذكر ابن الكلبي وأبو عبيدة أن مفرغا كان شــعابا بتبالة قلت تبالة بفتح التاء المثناة من فوقها وبعدها باء موحدة ثم ألف ولام وفي آخرها هاء وهي بليدة على طريق اليمن للخارج من مكة وهذا المكان كثير الخصــب له ذكر في الأخبار والأمثال والأشــعار وهي أول ولاية وليها الحجاج بن يوسف الثقفي ولم يكن رآها قبل ذلك فخرج إليها فلما قرب منها ســأل عنها فقيل له إنها وراء تلك الأكمة فقال لا خير في ولاية تســترها أكمة ورجع عنها محتقرا لها وتركها فضــربت العرب بها المثل وقالت للشــيء الحقير أهون من تبالة على الحجاج قال الراوي فادعى يزيد أنه من حمير وهو حليف آل خالد بن أســيد بن أبي العيص الأموي وقيل إنه كان عبدا للضــحاك بن عبد عوف الهلالي فأنعم عليه وكان يزيد شــاعرا غزلا محســنا (339) والســيد الحميري الشــاعر المشــهور من ولده وهو إسماعيل بن محمد بن بكار بن يزيد المذكور كذا ذكره ابن ماكولا في كتاب الإكمال ولقبه الســيد وكنيته أبو

هاشم وهو من كبار الشيعة وله في ذلك أخبار وأشعار مشـهورة ومن محاسـن شـعر يزيد المذكور قوله من جملة قصـيدة يمدح بها مروان بن الحكم الأموي وكان قد أحسن مروان إليه (وأقمتم سوق الثناء ولم تكن * سـوق الثناء تقام في الأسـواق) (فكأنما جعل الإله إليكم * قبض النفوس وقسمة الأرزاق) والبيت الأول من هذين البيتين تقدم ذكره في ترجمة يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني منسوبا إلى أحمد بن أبي فنن يمدح به خالد بن يزيد بن مزيد المذكور من جملة أبيات والله أعلم بالصواب في ذلك ولما ولي سعيد بن عثمان بن عفان رضي الله عنه خراسان عرض على

344 يزيد بن مفرغ أن يصـحبه فأبى ذلك وصـحب عباد بن زياد بن أبيه فقال له سـعيد أما إذ أبيت أن تصـحبني وآثرت صـحبة عباد فاحفظ ما أوصـيك به إن عبادا رجل لئيم فإياك والدالة عليه وإن دعاك إليها من نفسـه فإنها خدعة منه لك عن نفسـك وأقلل زيارته فإنه ملول ولا تفاخره وإن فاخرك فإنه لا يحتمل لك ما كنت أحتمله ثم دعا سعيد بمال فدفعه له وقال له استعن به على سفرك فإن صح لك مكانك من عباد وإلا فمكانك عندي ممهد فائتني ثم سار سعيد إلى خراسـان وخرج ابن مفرغ مع عباد فلما بلغ عبيد الله بن زياد أمير العراقين صحبة يزيد أخاه عبادا شق عليه فلما سار عباد شيعه أخوه عبيد الله وشيعه الناس وجعلوا يودعونه فلما أراد عبيد الله أن يودع أخاه دعا

ابن مفرغ فقال له إنك سألت عبادا أن يصحبك فأجابك وقد شق علي فقال له ولم أصلحك الله قال لأن الشاعر لا يقنعه من الناس ما يقنع بعضهم من بعض لأنه يظن فيجعل الظن يقينا ولا يعذر في موضـــع العذر وإن عبادا يقدم على أرض حرب فيشتغل بحروبه وخراجه عنك فلا تعذره أنت وتكسونا شرا وعارا فقال له لست كما ظن الأمير وإن لمعروفه عندي لشـكرا كثيرا وإن عندي إن أغفل أمري عذرا ممهدا فقال لا ولكن تضـــمن لي إن أبطأ عنك ما تحبه أن لا تعجل عليه حتى تكتب إلي قال نعم قال امض إذا على الطائر الميمون قال فقدم عباد خراســـان وقيل ســـجســـتان فاشـــتغل بحروبه وخراجه فاســـتبطأه ابن مفرغ ولم يكتب لأخيه عبيد الله بن زياد يشــكوه كما ضـــمن له ولكنه بسط لسانه فذمه وهجاه وكان عباد كبير اللحية كأنها جوالق فســـار ابن مفرغ مع عباد فدخلت الريح فيها فنفشـــتها فضـــحك ابن مفرغ وقال لرجل من لخم كان إلى جنبه (ألا ليت اللحى كانت حشيشا * فنعلفها خيول المسلمينا) فسعى به اللخمي إلى عباد فغضب من ذلك غضـــبا شـــديدا وقال لا تجمل بي عقوبته في هذه الســـاعة مع صـــحبته لي وما أؤخرها إلا لأشـفي نفسي

345 منه فإنه كان يقوم فيشـــتم أبي في عدة مواضـــع وبلغ الخبر ابن مفرغ فقال إني لأجد ريح الموت من عباد ثم دخل عليه فقال أيها الأمير إني قد

كنت مع سـعيد بن عثمان وقد بلغك رأيه في وجميل أثره علي وقد اخترتك عليه فلم أحظ منك بطائل وأريد أن تأذن لي بالرجوع فلا حاجة لي في صـحبتك فقال لـه أما اختيارك إياي فقد اخترتك كما اخترتني واستصحبتك حين سألتني وقد أعجلتني عن بلوغ حجتي فيك وطلبت الإذن لترجع إلى قومك فتفضحني فيهم وأنت على الإذن قادر بعد أن أقضي حقك وبلغ عبادا أنه يسبه ويذكره وينال من عرضه فدس إلى قوم كان لهم عليه دين أن يقدموه إليه ففعلوا فحبسه وأضر به ثم بعث إليه بعني الأراكة وبردا وكانت الأراكة قينة لابن مفرغ وبرد غلامه رباهما وكان شديد الضن بهما فبعث إليه ابن مفرغ مع الرسول أيبيع المرء نفسه وولده فأخذهما عباد منه وقيل إنه باعهما عليه فاشتراهما رجل من أهل خراسان فلما دخلا منزله قال له برد وكان داهية أديبا أتدري ما اشتريت قال نعم اشتريتك وهذه الجارية قال لا والله ما اشتريت إلا العار والدمار والفضيحة أبدا ما حييت فجزع الرجل وقال له كيف ذاك ويلك قال نحن ليزيد ابن مفرغ والله ما أصاره إلى هذه الحال إلا لسانه وشره أفتراه يهجو عبادا وهو أمير خراسان وأخوه عبيد الله أمير العراقين وعمه الخليفة معاوية بن أبي سفيان في أن استبطأه ويمسك عنك وقد ابتعتني وابتعت هذه الجارية وهي نفسه التي بين جنبيه ووالله ما أرى أحدا أدخل بيته أشأم على نفسه وأهله مما أدخلته منزلك فقال

أشهدك أنك وإياها له فإن شئتما أن تمضيا إليه فامضيا وعلى أني أخاف على نفسي إن بلغ ذلك ابن زياد وإن شئتما أن تكونا له عندي فافعلا قال فاكتب إليه بذلك فكتب الرجل إلى ابن مفرغ إلى الحبس بما فعله فكتب إليه يشكر فعله وسأله أن يكونا عنده حتى يفرج الله عنه وقال عباد لحاجبه ما أرى هذا يعني ابن مفرغ يبالي بالمقام في الحبس

346 فبع فرسه وسلاحه وأثاثه واقسم ثمنها بين غرمائه ففعل ذلك وبقيت عليه بقية حبسه بها فقال ابن مفرغ في بيعهما (شريت بردا ولو ملكت صفقته * لما تطلبت في بيع له رشدا) (لولا الدعي ولولا ما تعرض لي * من الحوادث ما فارقته أبدا) (يا برد ما مسنا دهر أضر بنا * من قبل هذا ولا بعنا له ولدا) معنى شريت بعت وهو من الأضداد يقع على الشراء والبيع والأبيات أكثر من هذا فتركت الباقي وعلم ابن مفرغ أنه إن أقام على ذم عباد وهجائه وهو في حبسه زاد نفسه شرا فكان يقول للناس إذا سألوه عن حبسه ما سببه رجل أدبه أميره ليقوم من أوده ويكف من غربه وهذا لعمري خير من جر الأمير ذيله على مداهنة صاحبه فلما بلغ ذلك عبادا رق له وأخرجه من السجن فهرب حتى أتى البصرة ثم خرج منها إلى الشام وجعل يتنقل في مدنها هاربا ويهجو زيادا وولده فمن ذلك قوله في ترك سعيد بن عثمان بن عفان رضي الله عنه واتباعه عباد بن زياد وذكر بيع برد

عليه (أصرمت حبلك من أمامه * من بعد أيام برامه) (فالريح تبكي شـــجوها * والبرق يضــــحك في الغمامه) (لهفي على الأمر الذي * كانت عواقبه ندامه) (تركي ســـعيدا ذا الندى * والبيت ترفعه الدعامه) (ليثا إذا شهد الوغى * ترك الهوى ومضى أمامه) (فتحت سمرقند له * وبنى بعرصتها خيامه) (وتبعت عبد بني علاج * تلك أشــراط القيامه) (جاءت به حبشية * سكاء تحسبها نعامه) (من نسوة سود الوجوه * ترى عليهن الدمامه) (وشريت بردا ليتني * من بعد برد كنت هامه)

347 (هامة إذ تدعو صـــدى * بين المشـــقر واليمامه) (فالهول يركبه الفتى * حذر المخازي والســـآمه) (والعبد يقرع بالعصـــا * والحر تكفيه الملامه) قلت قوله وتبعت عبد بني علاج بنو علاج بطن من ثقيف وســـيأتي ذكره عند ذكر الحارث بن كلدة في هذه الترجمة إن شـــاء الله تعالى قاله أبو بكر ابن دريد في كتاب الاشـــتقاق وأنشـــد عليه (آل أبي بكرة اســـتفيقوا * هل تعدك الشـمس بالسـراج) (إن ولاء النبي أعلى * من دعوة في بني علاج) وهذا القول لـه ســـبب يذكر عند ذكر أبي بكرة نفيع بن الحارث في هذه الترجمة إن شـاء الله تعالى وقوله في البيت الآخر سـكاء تحسـبها نعامة يقال أذن سـكاء إذا كانت صـغيرة والسكاء أيضـا التي لا أذن لها والعرب تقول كل سكاء تبيض وكل شـرفاء تلد والشـرفاء التي

لها أذن طويلة والسكاء بفتح السين المهملة وتشديد الكاف والشرفاء بفتح الشين المعجمة وسكون الراء وبعدها فاء والضابط عندهم فيه أن كل حيوان له أذن ظاهرة فإنه يلد وكل حيوان ليست له أذن ظاهرة فإنه يبيض قال الراوي ثم إن ابن مفرغ لج في هجاء بني زياد حتى تغنى أهل البصرة في أشعاره فطلبه عبيد الله طلبا شديدا حتى كاد يؤخذ فلحق بالشام واختلف الرواة فيمن رده إلى ابن زياد فقال بعضهم رده معاوية بن أبي سفيان وقال بعضهم بل رده يزيد بن معاوية والصحيح أنه يزيد لأن عبادا إنما ولي سجستان في أيام يزيد

348 قلت ثم ذكر صاحب الأغاني عقيب هذا الفصل أن سعيد بن عثمان ابن عفان رضي الله عنه دخل على معاوية بن أبي سفيان فقال له علام جعلت ولدك يزيد ولي عهدك دوني فوالله لأبي خير من أبيه وأمي خير من أمه وأنا خير منه وقد وليناك فما عزلناك وبنا نلت ما نلت فقال له معاوية أما قولك إن أباك خير من أبيه فقد صدقت لعمر الله إن عثمان لخير مني وأما قولك إن أمك خير من أمه فحسب المرأة أن تكون في بيت قومها وأن يرضاها بعلها وينجب ولدها وأما قولك إنك خير من يزيد فوالله يا بني ما يسرني أن لي بيزيد ملء الغوطة مثلك وأما قولك إنكم وليتموني فما عزلتموني فما وليتموني وإنما ولاني من هو خير منكم عمر بن الخطاب رضي الله عنه

فأقررتموني وما كنت بئس الوالي لكم لقد قمت بثاركم وقتلت قتلة أبيكم وجعلت الأمر فيكم وأغنيت فقيركم ورفعت الوضـــيع منكم فكلمه يزيد في أمره فولاه خراســـان رجعنا إلى حديث ابن مفرغ قال الراوي ولم يزل يتنقل في قرى الشـــام ويهجو بني زياد وأشـــعاره تنقل إلى البصـــرة فكتب عبيد الله بن زياد أمير العراق إلى معاوية وقيل إلى يزيد وهو الأصـــح يقول إن ابن مفرغ هجا زيادا وبني زياد بما هتكه في قبره وفضـــح بنيه طول الدهر وتعدى إلى أبي ســـفيان فقذفه بالزنا وسـب ولده وهرب من ســجستان وطلبته حتى لفظته الأرض وهرب من الشـام يتمضـغ لحومنا ويهتك أعراضـــنا وقد بعثت إليك بما قد هجانا به لتنتصف لنا منه ثم بعث بجميع ما قاله ابن مفرغ فيهم فأمر يزيد بطلبه فجعل يتنقل في البلاد حتى لفظته الشـام فأتى البصـرة ونزل على الأحنف بن قيس قلت وهو الذي يضـرب به المثل في الحلم وقد سـبق ذكره واسمه الضحاك قال فاستجار

349 به فقال له الأحنف إني لا أجير على ابن ســمية فأغرك وإنما يجير الرجل على عشــيرته وأما على سلطانه فلا ثم إنه مشى على غيره فلم يجره أحد فأجاره المنذر بن الجارود العبدي وكانت ابنته تحت عبيد الله بن زياد وكان المنذر من أكرم الناس عليه فاغتر بذلك وأدل بموضـــعه منه وطلبه عبيد الله وقد بلغه وروده البصـرة فقيل له أجاره المنذر بن الجارود

فبعث عبيد الله إلى المنذر فأتاه فلما دخل عليه بعث عبيد الله بالشـــرط فكســبوا داره وأتوه بابن مفرغ فلم يشــعر ابن الجارود إلا بابن مفرغ قد أقيم على رأســه فقام ابن الجارود إلى عبيد الله فكلمه فيه فقال أذكرك الله أيها الأمير أن تخفر جواري فإني قد أجرته فقال عبيد الله يا منذر الله ليمدحن أباك ويمدحنك وقد هجاني وهجا أبي ثم تجيره علي لاها الله لا يكون ذلك أبدا ولا أغفرها له فغضــب المنذر فقال له لعلك تدلي بكريمتك عندي إن شئت والله لأبيتها بتطليق البتة فخرج المنذر من عنده وأقبل عبيد الله على ابن مفرغ فقال له بئس ما صـــحبت به عبادا فقال بل بئس ما صـــحبني عباد اخترته على ســـعيد بن عثمان وأنفقت على صـــحبته جميع ما أملكه وظننت أنه لا يخلو من عقل زياد وحلم معاوية وسـماحة قريش فعدل عن ظني كله ثم عاملني بكل قبيح وتناولني بكل مكروه من حبس وغرم وشــتم وضــرب فكنت كمن شــام برقا خلبا في ســحاب جهام فأراق ماءه طمعا فيه فمات عطشــا وما هربت من أخيك إلا لما خفت أن يجري في ما يندم عليه وقد صرت الآن في يديك فشأنك فاصنع بي ما شئت فأمر بحبسه وكتب إلى يزيد بن معاوية يسأله أن يأذن له في قتله فكتب إليه يزيد إياك وقتله ولكن تناوله بما ينكله ويشد سلطانك ولا يبلغ نفسه فإن له عشيرة هي جندي وبطانتي ولا ترضى بقتله مني ولا تقنع إلا بالقود منك فاحذر ذلك واعلم أنه الجد منهم ومني وأنك مرتهن

بنفسه ولك في دون تلفها مندوحة تشفي من الغيظ
فورد الكتاب على عبيد الله فأمر بابن مفرغ فسقي نبيذا
حلوا قد خلط معه الشبرم وقيل التربذ فأسهل بطنه
فطيف به وهو على
350 تلك الحال وقرن بهرة وخنزيرة فجعل
يسلخ والصبيان يتبعونه ويصيحون وألح عليه ما
يخرج منه حتى أضعته فسقط فقيل لعبيد الله لا نأمن
أن يموت فأمر به أن يغسل ففعلوا فلما اغتسل قال (
يغسل الماء ما فعلت وقولي * راسخ منك في العظام
البوالي) فرده عبيد الله إلى الحبس وقيل لعبيد الله
كيف اخترت له هذه العقوبة فقال لأنه سلخ علينا
فأحببت أن تسلخ الخنزيرة عليه وكان فيما قاله ابن
مفرغ في عباد بن زياد من جملة أبيات عديدة (إذا
أودى معاوية بن حرب * فبشر شعب قفيك بانصداع
) (فأشهد أن أمك لم تباشر * أبا سفيان واضعة
القناع) (ولكن كان أمرا فيه لبس * على وجل شديد
وارتياع) وقال أيضا (ألا أبلغ معاوية بن صخر *
مغلغلة عن الرجل اليماني) (أتغضب أن يقال أبوك
عف * وترضى أن يقال أبوك زاني) (فأشهد أن
رحمك من زياد * كرحم الفيل من ولد الأتان) (
وأشهد أنها ولدت زيادا * وصخر من سمية غير دان
) قلت قوله فأشهد أن رحمك من زياد البيت الثالث
أخذه من قول أبي الوليد وقيل أبي عبد الرحمن حسان
بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه في بيت من جملة

أبيات وهي قوله (لعمرك إن إلك من قريش * كإل السقب من رأل النعام) الإل بكسر الهمزة وتشديد اللام وهو الرحم والسقب بفتح السين
351 المهملة وسكون القاف وبعدها باء موحدة وهو الذكر من ولد الناقة والرأل بفتح الراء وبعدها همزة وفي آخره لام وهو ولد النعام (340) وهذه الأبيات قالها حسان في أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن هاشم وهو ابن عم النبي وكان أخاه من الرضاعة أرضعتهما حليمة ابنة أبي ذؤيب السعدية وكان من أكثر الناس شبها برسول الله وكان له فيه هجاء وكان حسان يجاوب عنه فمن ذلك هذه الأبيات الميمية المقدم ذكره ومنها قوله (ألا أبلغ أبا سفيان عني * مغلغلة فقد برح الخفاء) (هجوت محمدا فأجبت عنه * وعند الله في ذاك الجزاء) (أتهجوه ولست له بكفء * فشركما لخيركما الفداء) (فإن أبي ووالده وعرضي * لعرض محمد منكم وقاء) وقوله فشركما لخيركما الفداء فيه كلام لأهل العلم لأجل شر وخير لأنهما من أداة التفضيل وتقتضي المشاركة وإنما أجابه حسان بأمر النبي له في ذلك قلت والجماعة الذين كانوا يشبهون رسول الله من أهله خمسة أبو سفيان المذكور والحسن بن علي بن أبي طالب وجعفر بن أبي طالب وقثم بن العباس بن عبد المطلب والسائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم ابن المطلب بن عبد مناف وهو جد الإمام الشافعي رضي

الله عنهم أجمعين ثم إن أبا ســـفيان أســـلم عام الفتح وكان ذلك في السنة الثامنة من الهجرة وحسن إسلامه وخرج مع النبي إلى الطـائف وحنين ولمـا انهزم المسلمون يوم حنين كان أبو سفيان أحد السبعة الذين ثبتوا مع النبي حتى رجع إليهم المســلمون وكـانـت النصــرة لهم وكســبوا من الغنائم سـتة آلاف رأس من الرقيق ثم من النبي عليهم فأطلقهم والشـــرح في ذلك يطول وليس هذا موضعه وكان أبو سفيان
352   المذكور يومئذ ممسـكا لجام بغلة النبي ولم يفـارقهـا وكـان النبي يقول إني لأرجو أن يكون فيـه خلف من حمزة بن عبد المطلب وشــهد له بالجنة فقال أبو ســفيان بن الحارث من شــباب أهل الجنة أو ســيد فتيان أهل الجنة والله أعلم وأكثر العلماء يقولون اسمه كنيته ليس له اسم سـواها وقيل إن اسـمه المغيرة وقيل المغيرة أخوه وهو أبو ســـفيان لا غير ويقال إنه ما رفع رأسـه إلى رسـول الله منذ أسـلم حياء منه لما تقدم من هجـائـه رجعنـا إلى حـديـث ابن مفرغ وهو من شــعراء الحماســة وهو القائل (ألا طرقتنا آخر الليل زينب * عليك ســـلام هل لما فات مطلب) قيل أراد بالليل الشـــباب (وقالت تجنبنا ولا تقربننا * فكيف وأنتم حـاجتي أتجنـب) (يقولون هـل بعـد الثلاثين ملعب * فقلت وهل قبل الثلاثين ملعب) (لقد جل خطب الشـــيب إن كان كلما * بدت شـــيبة يعرى من اللهو مركب) وذكر المظفري الأندلســـي في تاريخه

الكبير في جملة هذه الأبيات (فلو أن لحمي إذ وهى لعبت به * كرام ملوك أو أسود وأذؤب) (لهون من وجدي وسلى مصيبتي * ولكنما أودى بلحمي أكلب)

353 (341) ولما بلغ الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وفاة معاوية ابن أبي سفيان وبيعة ولده يزيد بن معاوية عزم على قصد الكوفة بمكاتبة جماعة من أهلها كما هو مشهور في هذه الواقعة التي قتل فيها الحسين رضي الله عنه فكان في تلك المدة يتمثل كثيرا بقول يزيد بن مفرغ المذكور من جملة أبيات (لا ذعرت السوام في غلس الصبح * مغيرا ولا دعيت يزيدا) (يوم أعطي على المخافة ضيما * والمنايا يرصدنني أن أحيدا) فعلم من سمع ذلك منه أنه سينازع يزيد بن معاوية في الأمر فخرج الحسين إلى الكوفة وأميرها يومئذ عبيد الله بن زياد فلما قرب منها سير إليه جيشا مقدمه عمر بن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فقتل الحسين رضي الله عنه بالطف وجرى ما جرى وروي أن معاوية بن أبي سفيان كتب إلى الحسين رضي الله عنه إني لأظن في رأسك نزوة ولا بد لك من إظهارها وددت لو أدركتها فأغتفرها لك وروي عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه قال لو كنت من قتلة الحسين وغفر الله لي وأدخلني الجنة لما دخلتها حياء من رسول الله وقال عبيد الله بن زياد لحارثة بن بدر الغداني ما تقول في وفي الحسين يوم القيامة قال يشفع له أبوه وجده

ويشفع لك أبوك وجدك فاعرف من هاهنا ما تريد
نقلت من كتاب تاريخ شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزغلي المعروف بسبط الحافظ جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي الواعظ الذي سماه مرآة الزمان ورأيته بخطه في أربعين مجلدا بدمشق وقد رتبه على السنين فقال في السنة التاسعة والخمسين للهجرة بعد أن قص حديث يزيد بن مفرغ مع بني

354 زياد فقال في آخر الحديث ومات يزيد بن مفرغ في سنة تسع وستين يعني للهجرة والله أعلم
وقال أبو اليقظان في كتاب النسب مات عباد بن زياد في سنة مائة للهجرة بجرود قلت وجرود بفتح الجيم وضم الراء وسكون الواو وبعدها دال مهملة وهي قرية من أعمال دمشق من جهة حمص ويكون في أرضها من حمير الوحش شيء كثير يجاوز الحصر ولما وصل بعض عسكر الديار المصرية إلى الشام في أثناء سنة ستين وستمائة وتوجهوا بعسكر الشام إلى أنطاكية وكنت يومئذ بدمشق أقاموا عليها قليلا ثم عادوا فدخلوا دمشق في سلخ شعبان من السنة وأخبرني بعضهم بقضية غريبة يصلح أن تذكر هاهنا لغرابتها وهي أنهم نزلوا على جرود المذكورة واصطادوا من الحمر الوحشية شيئا كثيرا على ما قالوا فذبح واحد من الجماعة حمارا وطبخ لحمه الطبخ المعتاد فلم ينضج ولا قارب النضج فزاد في الحطب والإيقاد فلم يؤثر فيه شيئا ومكث يوما كاملا يفعل ذلك

وهو لا يفيد فقام شـــخص من الجند وأخذ الرأس يقلبه فوجد على أذنه وســما فقرأه فإذا هو بهرام جور فلما وصلوا إلى دمشق أحضروا تلك الأذن عندي فوجدت الوسم ظاهرا وقد رق شعر الأذن إلى أن بقي كالهباء وبقي موضع الوسم أسود وهو بالقلم الكوفي (342) وهذا بهرام جور من ملوك الفرس وكان قبل مبعث النبي بزمان طويل وكان من عاداته أنه إذا كثر عليه ما يصـــطاده وســـمه وأطلقه والله أعلم كم كان عمر الحمار لما وســـمه والله يعلم لو تركوه ولم يذبحوه كم كـان يعيش وعلى الجملـة فـإن حمـار الوحش من الحيوانات المعمرة و هذا الحمار لعله عاش ثمانمائة ســنة أو أكثر وهذه جرود في أرضـــها جبل المدخن المشـــهور وقد ذكره أبو نواس في قصـــيدته التي ذكر فيها المنازل لما قصد الخصيب بمصر فقال

355 (ووافين إشــراقا كنائس تدمر * وهن إل رعن المدخن صـــور) والمدخن بضـــم الميم وبالدال المهملة وفتح الخاء المعجمة المشـــددة وبعد ها نون وســـمي المدخن لأنه لا يزال عليه مثل الدخان من الضـــباب ثم بعد هذا وجدت في كتاب مفاتيح العلوم تأليف محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الخوارزمي أن بهرام جور بن بهرام بن ســابور الجنود بن ســابور ذي الأكتاف ســمي بهرام جور لأنه كان مولعا بصــيد العير وهو الحمار الوحشـــي والأهلي أيضـــا انتهى كلامه ثم إني حســـبت مدة ملكهم بعد هذا فكانت إلى

سنة الهجرة النبوية مقدار مائتين وست عشرة سنة فقد عاش هذا الحمار منذ وســـمه بهرام جور إلى أن ذبح في سنة ستين وستمائة مقدار ثمانمائة سنة وأكثر والله أعلم قلت وقد تكرر في هذه الترجمة حديث زياد وبنيه وسمية وأبي سفيان ومعاوية وهذه الأشعار التي قالها يزيد بن مفرغ فيهم ومن لا يعرف هذه الأســباب قد يتشـــوف إلى الاطلاع عليها فنورد منها شـــيئا مختصــــرا فأقول (343) إن أبا الجبر الملك الذي ذكره أبو بكر ابن دريد في المقصــورة المشــهورة في البيت الذي يقولـه فيها وهو (وخـامرت نفس أبي الجبر الجوى * حتى حواه الحتف فيمن قـد حوى) كان أحد ملوك اليمن واســمه كنيته وقيل هو أبو الجبر يزيد بن شـــرحبيل الكندي وقيل أبو الجبر بن عمرو وتغلب عليه قومه فخرج إلى بلاد فارس يســـتجيش كســـرى عليهم فبعث معه جيشـــا من الأســـاورة فلما صـــاروا إلى كاظمة ونظروا إلى وحشـــة بلاد العرب وقلة خيرها قالوا إلى أين نمضي مع هذا

356 فعمدوا إلى سم فدفعوه إلى طباخه ووعدوه بالإحســان إليه أن ألقى ذلك السم في طعام الملك ففعل ذلك فما استقر الطعام في جوفه حتى اشتد وجعه فلما علم الأســـاورة ذلك دخلوا عليه فقالوا له إنك قد بلغت إلى هذه الحالة فاكتب لنا إلى الملك كســـرى أنك قد أذنت لنا في الرجوع فكتب لهم بذلك ثم إن أبا الجبر خف ما به فخرج إلى الطائف البليدة التي بالقرب من

مكة وكان بها الحارث بن كلدة طبيب العرب الثقفي فعالجه فأبرأه فأعطاه سمية بضم السين المهملة وفتح الميم وتشـــديد الياء المثناة من تحتها وفي آخره هاء وعبيدا بضم العين المهملة تصغير عبد وكان كسرى قد أعطاهما أبا الجبر في جملة ما أعطاه ثم ارتحل أبو الجبر يريد اليمن فانتقضـــت عليه العلة فمات في الطريق (344) ثم إن الحارث بن كلدة الثقفي زوج عبيدا المذكور سمية المذكورة فولدت سمية زيادا على فراش عبيد وكان يقال له زياد بن عبيد وزياد بن سمية وزياد ابن أبيه وزياد ابن أمه وذلك قبل أن يســتلحقه معاوية كما سيأتي إن شـاء الله تعالى وولدت سـمية أيضا أبا بكرة نفيع بن الحارث بن كلدة المذكور ويقال نفيع بن مســروح وهو الصـــحابي المشـــهور بكنيته رضـي الله عنه وولدت أيضا شبل بن معبد ونافع بن الحارث وهؤلاء الإخوة الأربعة هم الذين شهدوا على المغيرة بن شعبة بالزنا وسيأتي خبر ذلك بعد الفراغ من حديث زياد إن شـــاء الله تعالى وكان أبو ســـفيان صـــخر بن حرب الأموي والد معاوية بن أبي ســفيان يتهم في الجاهلية بالترداد إلى ســمية المذكورة فولدت ســـمية زيادا في تلك المدة لكنها ولدته على فراش زوجها عبيد ثم إن زيادا كبر وظهرت منه النجابة والبلاغة وهو أحد الخطباء المشـــهورين في العرب بالفصـــاحة والدهاء والعقل الكثير حتى إن عمر بن الخطاب رضـــي الله عنه كان قد اســتعمل أبا موســـى

الأشعري رضي الله عنه على البصرة فاستكتب زياد ابن أبيه ثم إن زيادا قدم على عمر رضي الله عنه من عند أبي موسى فأعجب به عمر رضي الله عنه فأمر له بألف درهم ثم تذكرها بعدما مضى فقال لقد ضاع ألف أخذها زياد فلما

357 قدم عليه بعد ذلك قال له ما فعل ألفك يا زياد قال اشتريت بها عبيدا فأعتقته يعني أباه قال ما ضاع ألفك يا زياد هل أنت حامل كتابي إلى أبي موسى في عزلك عن كتابته قال نعم يا أمير المؤمنين إن لم يكن ذلك عن سخطة قال ليس عن سخطة قال فلم تأمره بذلك قال كرهت أن أحمل على الناس فضل عقلك واستكتب أبو موسى بعد زياد أبا الحصين ابن أبي الحر العنبري فكتب إلى عمر رضي الله عنه كتابا فلحن في حرف منه فكتب إليه أن قنع كاتبك سوطا وكان عمر رضي الله عنه إذا وفد إليه من البصرة رجل أحب أن يكون زيادا ليشفيه من الخبر وكان عمر رضي الله عنه قد بعثه في إصلاح فساد وقع باليمن فرجع من وجهه وخطب خطبة لم يسمع الناس مثلها فقال عمرو ابن العاص أما والله لو كان هذا الغلام من قريش لساق العرب بعصاه فقال أبو سفيان والله إني لأعرف الذي وضعه في رحم أمه فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومن هو يا أبا سفيان قال أنا قال مهلا أبا سفيان فقال أبو سفيان (أما والله لولا خوف شخص * يراني يا علي من الأعادي

) (لأظهر ســره صــخر بن حرب * ولم يكن المقالة عن زياد) (وقد طالت مجاملتي ثقيفا * وتركي فيهم ثمر الفؤاد) فلما صار الأمر إلى علي رضي الله عنه وجـه زيـادا إلى فـارس فضـــبط البلاد وحمى وجبى وأصـلح الفسـاد فكاتبه معاوية يروم إفسـاده على علي رضــــي الله عنه فلم يفعل ووجه بكتابه إلى علي وفيه شـعر تركته فكتب إليه علي إنما وليتك ما وليتك وأنت أهل لذلك عندي ولن تدرك ما تريده مما أنت فيه إلا بالصـبر واليقين وإنما كانت من أبي سـفيان فلتة زمن عمر رضــــي الله عنه لا تســتحق بها نســبا ولا ميراثا وإن معاوية يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه فاحذره ثم احذره والســلام فلما قرأ زياد الكتاب قال شـــهد لي أبو الحسن

358 ورب الكعبة فذلك الذي جرأ زيادا ومعاوية على ما صــنعا فلما قتل علي رضــــي الله عنه وتولى ولده الحسن رضي الله عنه ثم فوض الأمر إلى معاوية كما هو مشـهور أراد معاوية استمالة زياد إليه وقصـد تأليف قلبه ليكون معه كما كان مع علي رضي الله عنه فتعلق بذلك القول الذي صـــدر من أبيه بحضـــرة علي وعمرو بن العاص فاســـتلحق زيادا في ســـنة أربع وأربعين للهجرة فصـــار يقال له زياد بن أبي ســـفيان فلما بلغ أخاه أبا بكرة أن معاوية اسـتلحقه وأنه رضـي ذلك حلف يمينا أن لا يكلمه أبدا وقال هذا زنى أمه وانتفى من أبيه والله ما علمت سمية رأت أبا سفيان قط

ويله ما يصـــنع بأم حبيبة بنت أبي ســفيان زوج النبي أيريد أن يراها فإن حجبته فضــــحته وإن رآها فيا لها مصيبة يهتك من رسول الله حرمة عظيمة وحج زياد في زمن معاوية ودخل المدينة فأراد الدخول على أم حبيبة لأنها أخته على زعمه وزعم معاوية ثم ذكر قول أخيه أبي بكرة فانصـــرف عن ذلك وقيل إن أم حبيبة حجبته ولم تأذن له في الدخول عليها وقيل أنه حج ولم يزر من أجل قول أبي بكرة وقال جزى الله أبا بكرة خيرا فما يدع النصــــيحة على حال وقدم زياد على معاوية وهو نائب عنه

359 وحمل معه هدايا جليلة من جملتها عقد نفيس فأعجب به معاوية فقال زياد يا أمير المؤمنين دوخت لك العراق وجبيت لك برها وبحرها وحملت إليك لبها وسرها وكان يزيد بن معاوية جالسا فقال له أما إنك إذ فعلت ذلك فإنا نقلناك من ثقيف إلى قريش ومن عبيد إلى أبي ســـفيان ومن القلم إلى المنابر فقال له معاوية حسبك وريت بك زنادي وقال أبو الحسن المدائني أخبرنا أبو الزبير الكاتب عن ابن إسحاق قال اشترى زياد أباه عبيدا فقدم زياد على عمر رضي الله عنه فقال له ما صنعت بأول شيء أخذت من عطائك قال اشتريت به أبي قال فأعجب ذلك عمر رضي الله عنه وهذا ينافي استلحاق معاوية إياه والله أعلم ولما ادعى معاوية زيادا دخل عليه بنو أمية وفيهم عبد الرحمن بن الحكم أخو مروان بن الحكم الأموي فقال

يا معاوية لو لم تجد إلا الزنج لاستكثرت بهم علينا قلة وذلة فأقبل معاوية على أخيه مروان بن الحكم وقال أخرج عنا هذا الخليع فقال مروان والله إنه لخليع ما يطاق قال معاوية والله لولا حلمي وتجاوزي لعلمت أنه يطاق ألم يبلغني شعره في وفي زياد ثم قال لمروان أسمعنيه فقال (ألا أبلغ معاوية بن صخر * لقد ضاقت بما تأتي اليدان) (أتغضب أن يقال أبوك عف * وترضى أن يقال أبوك زان) وقد تقدم ذكر بقية هذه الأبيات منسوبة إلى يزيد بن مفرغ وفيها خلاف هل هي ليزيد بن مفرغ أم لعبد الرحمن بن الحكم فمن رواها لابن مفرغ روى البيت الأول على تلك الصورة ومن رواها لعبد الرحمن رواها على هذه الصورة ولما استلحق معاوية زيادا وقربه وأحسن إليه وولاه صار من أكبر الأعوان على بني علي بن أبي طالب رضي الله عنه حتى قيل إنه لما كان أمير العراقين طلب رجلا من أصحاب الحسن بن علي رضي الله عنهما يعرف بابن سرح وكان في الأمان الذي كتب لأصحاب الحسن رضي الله عنه لما نزل

360 عن الخلافة لمعاوية فكتب الحسن إلى زياد من الحسن إلى زياد أما بعد فقد علمت ما كنا أخذنا لأصحابنا من الأمان وقد ذكر لي ابن سرح أنك عرضت له فأحب أن لا تعرض له إلا بخير والسلام فلما أتاه الكتاب وقد بدأ فيه بنفسه ولم ينسبه إلى أبي سفيان غضب وكتب إليه من زياد ابن أبي سفيان إلى

الحســـن أما بعد فإنه أتاني كتابك في فاســـق تؤويه الفســاق من شــيعتك وشــيعة أبيك وايم الله لأطلبنه ولو كان بين جلدك ولحمك وإن أحب الناس إلي لحما أن آكله للحم أنت منه فلما قرأه الحســـن رضـــي الله عنه بعث به إلى معاوية فلما قرأه غضـــب وكتب إلى زياد من معاوية بن أبي سفيان إلى زياد أما بعد فإن الحسن بن علي بعث إلي كتابك إليه جواب كتابه كان إليك في ابن ســـرح فأكثرت التعجب منه وقد علمت أن لك رأيين رأي من أبي سفيان ورأي من سمية فأما رأيك من أبي ســفيان فحلم وحزم وأما رأيك من ســمية فكما يكون رأي مثلها ومن ذلك كتابك إلى الحســـن تســميه وتعرض له بالفسق ولعمري لأنت أولى بذلك منه فإن كان الحسن بدأ بنفسه ارتفاعا عنك فإن ذلك لن يضعك وأما تركك تشــفيعه فيما شــفع فيه إليك فحظ دفعته عن نفسك إلى من هو أولى به منك فإذا أتاك كتابي فخل ما بيدك لابن ســـرح ولا تعرض له فيه فقد كتبت إلى الحســـن يخيره إن شـــاء أقام عنده وإن شـــاء رجع إلى بلده وإنه ليس لك عليه سبيل بيد ولا لسان وأما كتابك إلى الحســـن باســـمه ولا تنســـبه إلى أبيه فإن الحســـن ويحك ممن لا يرمى به الرجوان أفاســـتصـــغرت أباه وهو علي ابن أبي طالب أم إلى أمه وكلته وهي فاطمة بنت رســول الله فذلك أفخر له إن كنت عقلت والســلام قولـه لا يرمى بـه الرجوان بفتح الراء الجيم وهو لفظ

مثنى ومعناه المهالك قلت وقد رويت هذا الحكاية علي صورة أخرى وهي كان سعيد

361 ابن سـرح مولى كريز بن حبيب بن عبد شمس من شيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه فلما قدم زياد ابن أبيه الكوفة واليا عليها أخافه وطلبه فأتى المدينة فنزل على الحسين بن علي رضي الله عنه فقال له الحسين ما السبب الذي أشخصك وأزعجك فذكر له قضيته وصنيع زياد به فكتب إليه الحسين أما بعد فإنك عمدت إلى رجل من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم فهدمت داره وأخذت ماله وعياله فإذا أتاك كتابي هذا فابن له داره واردد عليه ماله وعياله فإني قد أجرته فشفعني فيه فكتب إليه زياد من زياد بن أبي سفيان إلى الحسين بن فاطمة أما بعد فقد أتاني كتابك تبدأ فيه باسمك قبل اسمي وأنت طالب حاجة وأنا سلطان وأنت سوقة وكتابك إلي في فاسق لا يؤويه إلا فاسق مثله وشر من ذلك توليه أباك وقد آويته إقامة منك على سوء الرأي ورضى بذلك وايم الله لا تسبقني إليه ولو كان بين جلدك ولحمك فإن أحب لحم إلي أن آكله للحم أنت منه فأسلمه بجريرته إلى من هو أولى به منك فإن عفوت عنه لم أكن شفعتك وإن قتلته لم أقتله إلا بحبه أباك فلما قرأ الحسين رضي الله عنه الكتاب كتب إلى معاوية يذكر له حال ابن سرح وكتابه إلى زياد فيه وإجابة زياد إياه ولف كتابه في كتابه وبعث به إليه وكتب الحسين إلى

زياد من الحسـين بن فاطمة بنت رسـول الله إلى زياد
بن سـمية عبد بني ثقيف الولد للفراش وللعاهر الحجر
فلما قرأ معاوية كتاب الحسين رضـي الله عنه ضـاقت
به الشـام وكتب إلى زياد أما بعد فإن الحسـين بن علي
بعـث إلي بكتابك جواب كتابه إليك في ابن سـرح
فأكثرت التعجب منه وعلمت أن لك رأيين أحدهما من
أبي سـفيان وآخر من سـمية فأما الذي من أبي سـفيان
فحلم وحزم وأما الذي من سمية فكما يكون رأي مثلها
ومن ذلك كتابك إلى الحسـين تشـتم أباه وتعرض له
بالفسـق ولعمري لأنت أولى بالفسـق من الحسـين
ولأبوك إذ كنت تنسب إلى عبيد أولى بالفسـق من أبيه
وإن كان الحسـين بدأ بنفسـه ارتفاعا عنك فإن ذلك لم
يضعك وأما تشفيعه فيما شفع إليك فيه فحظ دفعته عن
نفسـك إلى من هو أولى به منك فإذا قدم عليك كتابي
هذا فخل ما في يدك لسعيد بن سرح وابن له
362 داره ولا تعذر له واردد عليه ماله فقد
كتبت إلى الحسين أن يخبر صاحبه بذلك فإن شاء أقام
عنده وإن شاء رجع إلى بلده فليس لك عليه سلطان بيد
ولا لسان وأما كتابك إلى الحسين باسمه واسم أمه لا
تنسـبه إلى أبيه فإن الحسـين ويلك ممن لا يرمى به
الرجوان أإلى أمه وكلته لا أم لك فهي فاطمة بنت
رسول الله فتلك أفخر له إن كنت تعقل والسلام وقال
عبيد الله بن زياد ما هجيت بشـيء أشـد على من قول
ابن مفرغ (فكر ففي ذاك إن فكرت معتبر * هل نلت

مكرمة إلا بتأمير) (عاشـــت ســمية ما عاشـــت وما علمـت * أن ابنهـا من قريش في الجمـاهير) وقـال قتادة قال زياد لبنيه وقد احتضــر ليت أباكم كان راعيا في أدناها وأقصــــاها ولم يقع بالذي وقع به قلت فبهذا الطريق كان ينظم ابن مفرغ هذه الأشـــعار في زياد وبنيه ويقول إنهم أدعياء حتى قال في زياد وأبي بكرة ونافع أولاد ســـمية (إن زيادا ونافعا وأبا * بكرة عندي من أعجب العجب) (هم رجال ثلاثة خلقوا * في رحم أنثى وكلهم لأب) (ذا قرشـــي كما يقول وذا * مولى وهذا بزعمه عربي) (345) وهذه الأبيات تحتاج إلى زيادة إيضـاح فأقول قال أهل العلم بالأخبار إن الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج بن أبي ســلمة بن عبد العزى بن غيرة ابن عوف بن قسي وهو ثقيف هكذا ســاق هذا النســب ابن الكلبي في كتاب الجمهرة وهو طبيب العرب المشـــهور ومات في أول الإســلام وليس يصح إسلامه وروي أن رسول الله أمر سعد بن أبي وقاص

363 أن يأتي الحارث يستوصفه في مرض نزل به فدل ذلك على أنه جائز أن يشـــاور أهل الكفر في الطـب إذا كـانوا من أهلـه وكـان ولـده الحـارث بن الحــارث من المؤلفـة قلوبهم وهو معـدود في جملــة الصــحابة رضــي الله تعالى عنهم ويقال إن الحارث بن كلدة كان رجلا عقيما لا يولد له وإنه مات في خلافة عمر رضي الله عنه (346) ولما حاصر رسول الله

الطائف قال أيما عبد تدلى إلي فهو حر فنزل أبو بكرة رضـــي الله عنه من الحصـــن في بكرة قلت وهي بفتح الباء الموحدة وسكون الكاف وبعدها راء ثم هاء وهي التي تكون على البئر وفيها الحبل يســـتقى به والناس يســـمونها بكرة بفتح الكاف وهو غلط إلا أن صـــاحب كتاب مختصـــر العين حكاها بالفتح أيضـــا وهي لغة ضـــعيفة لم يحكها غيره قال فكناه رســـول الله أبا بكرة لذلك وكان يقول أنا مولى رسول الله وأراد أخوه نافع أن يدلي نفسه في البكرة أيضا فقال له الحارث بن كلدة أنت ابني فأقم فأقام ونسب إلى الحارث وكان أبو بكرة قبل أن يحسن إسلامه ينسب إلى الحارث أيضا فلما حسن إسلامه ترك الانتساب إليه ولما هلك الحارث بن كلدة لم يقبض أبو بكرة من ميراثه شيئا تورعا هذا عند من يقول إن الحارث أســـلم وإلا فهو محروم من الميراث لاختلاف الدين فلهذا قال ابن مفرغ الأبيات الثلاثة البائية لأن زيادا ادعى أنه قرشـــي باســـتلحاق معاوية له وأبو بكرة اعترف بولاء رســـول الله ونافع كان يقول إنه ابن الحارث بن كلدة الثقفي وأمهم واحدة وهي ســـمية المذكورة وهذا ســـبب نظم البيتين في آل أبي بكرة كما تقدم ذكره وعلاج جد الحارث بن كلدة كما ذكرته

364 هذه قصـــة زياد وأولاده ذكرتها مختصـــرة قلت إلا أن قول ابن مفرغ في البيت الثاني وكلهم لأب ليس بجيد فإن زيادا ما نسبه أحد إلى الحارث ابن كلدة

بل هو ولد عبيد لأنه ولد على فراشـــــه وأما أبو بكرة ونافع فقد نســـبا إلى الحارث فكيف يقول وكلهم لأب فتأمله وذكر ابن النديم في كتابه الذي سماه الفهرست أن أول من ألف كتابا في المثالب زياد ابن أبيه فإنه لما طعن عليه وعلى نســـبه عمل ذلك لولده وقال لهم اســـتظهروا به على العرب فإنهم يكفون عنكم وأما حديث المغيرة بن شـــعبة الثقفي والشـــهادة عليه فإن عمر بن الخطاب رضـي الله عنه كان قد رتب المغيرة أميرا على البصرة وكان يخرج من دار الإمارة نصف النهار وكان أبو بكرة المذكور يلقاه فيقول أين يذهب الأمير فيقول في حـاجـة فيقول إن الأمير يزار ولا يزور قالوا وكان يذهب إلى امرأة يقال لها أم جميل بنت عمرو وزوجها الحجاج بن عتيك بن الحارث بن وهب الجشـــمي وقال ابن الكلبي في كتاب جمهرة النســـب هي أم جميل بنت الأفقم بن محجن بن أبي عمرو بن شـــعيثة ابن الهزم وعدادهم في الأنصـــار وزاد غير ابن الكلبي فقال الهزم بن رؤيبة ابن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن والله أعلم قـال الراوي فبينمـا أبو بكرة في غرفة مع إخوته وهم نافع وزياد المذكوران وشـبل بن معبد والجميع أولاد ســـمية المذكورة فهم إخوة لأم وكانت أم جميل المذكورة في غرفة أخرى قبالة هذه الغرفة فضـــربت الريح باب غرفة أم جميل ففتحته ونظر القوم فـإذا هم بـالمغيرة مع المرأة على هيئـة

الجماع فقال أبو بكرة هذه بلية قد ابتليتم بـها فانظروا فنظروا حتى أثبتوا فنزل أبو بكرة فجلس حتى خرج عليه المغيرة من بيت المرأة فقال له إنه قد كان من أمرك ما قد علمت فاعتزلنا قال وذهب المغيرة ليصلي بالناس الظهر

365 ومضى أبو بكرة فقال لا والله لا تصلي بنا وقد فعلت ما فعلت فقال الناس دعوه فليصـــل فإنه الأمير واكتبوا بذلك إلى عمر رضـــي الله عنه فكتبوا إليه فأمرهم أن يقدموا عليه جميعا المغيرة والشـــهود فلما قدموا عليه جلس عمر رضـــي الله عنه فدعا بالشـــهود والمغيرة فتقدم أبو بكرة فقال له رأيته بين فخذيها قال نعم والله لكأني أنظر إلى تشـــريم جدري بفخذيها فقال له المغيرة لقد ألطفت في النظر فقال أبو بكرة لم آل أن أثبت ما يخزيك الله به فقال عمر رضي الله عنه لا والله حتى تشـــهد لقد رأيته يلج فيها ولوج المرود في المكحلة فقال نعم أشـــهد على ذلك فقال فاذهب عنك مغيرة ذهب ربعك ثم دعا نافعا فقال له علام تشهد قال على مثل شهادة أبي بكرة قال لا حتى تشـــهد أنه ولج فيها ولوج الميل في المكحلة قال نعم حتى بلغ قذذه قلت القذذ بالقاف المضـــمومة وبعدها ذالان معجمتان وهي ريش السـهم قال الراوي فقال له عمر رضـي الله عنه اذهب مغيرة ذهب نصفك ثم دعا الثالث فقال له على ما تشـــهد فقال على مثل شـــهادة صـــاحبي فقال له عمر رضـــي الله عنه اذهب عنك

مغيرة ذهب ثلاثة أرباعك ثم كتب إلى زياد وكان غائبا فقدم فلما رآه جلس له في المسجد واجتمع عنده رؤوس المهاجرين والأنصار فلما رآه مقبلا قال إني أرى رجلا لا يخزي الله على لسانه رجلا من المهاجرين ثم إن عمر رضي الله عنه رفع رأسه إليه فقال ما عندك يا سلح الحبارى فقيل إن المغيرة قام إلى زياد فقال لا مخبأ لعطر بعد عروس قلت و هذا مثل العرب لا حاجة إلى الكلام عليه فقد طالت هذه الترجمة كثيرا قال الراوي فقال له المغيرة يا زياد اذكر الله تعالى واذكر موقف يوم القيامة فإن الله تعالى وكتابه ورسوله وأمير المؤمنين قد حقنوا دمي إلا أن تتجاوز إلى ما لم تر مما رأيت فلا يحملنك سوء منظر رأيته على أن تتجاوز إلى ما لم تر فوالله لو كنت بين بطني وبطنها ما رأيت أن يسلك ذكري فيها قال فدمعت عينا زياد واحمر وجهه وقال يا أمير

366 المؤمنين أما إن أحق ما حق القوم فليس عندي ولكن رأيت مجلسا وسمعت نفسا حثيثا وانتهازا ورأيته مستبطنها فقال عمر رضي الله عنه رأيته يدخل كالميل في المكحلة فقال لا وقيل قال زياد رأيته رافعا رجليها فرأيت خصييه تتردد إلى بين فخذيها ورأيت حفزا شديدا وسمعت نفسا عاليا فقال عمر رضي الله عنه رأيت يدخله ويخرجه كالميل في المكحلة فقال لا فقال عمر رضي الله عنه الله أكبر قم إليهم فاضربهم فقام إلى أبي بكرة فضربه ثمانين

وضـــرب الباقين وأعجبه قول زياد ودرأ الحد عن المغيرة فقال أبو بكرة بعد أن ضرب أشهد أن المغيرة فعل كذا وكذا فهم عمر رضي الله عنه أن يضربه حدا ثانيا فقال له علي بن أبي طالب رضـــي الله عنه إن ضربته فارجم صاحبك فتركه واستتاب عمر أبا بكرة فقال إنما تســتتيبني لتقبل شـــهادتي فقال أجل فقال لا أشـــهد بين اثنين ما بقيت في الدنيا فلما ضـــربوا الحد قال المغيرة الله أكبر الحمد لله الذي أخزاكم فقال عمر رضـــي الله عنه بل أخزى الله مكانا رأوك فيه وذكر عمر بن شبة في كتاب أخبار البصـرة أن أبا بكرة لما جلد أمرت أمه بشاة فذبحت وجعلت جلدها على ظهره فكان يقال ما ذاك إلا من ضـــرب شـــديد وحكى عبد الرحمن بن أبي بكرة أن أباه حلف لا يكلم زيادا ما عاش فلما مات أبو بكرة كان قد أوصـــى أن لا يصـلي عليه زياد وأن يصـــلي عليه أبو برزة الأسـلمي وكان النبي آخى بينهما وبلغ ذلك زيادا فخرج إلى الكوفة وحفظ المغيرة بن شـــعبة ذلك لزياد وشـــكره ثم إن أم جميل وافقت عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالموسم والمغيرة هناك فقال لـه عمر أتعرف هذه المرأة يا مغيرة قال نعم هذه أم كلثوم بنت علي فقال لـه عمر أتتجاهل علي والله ما أظن أبا بكرة كذب عليك وما رأيتك إلا خفت أن أرمى بحجارة من الســـماء قلت ذكر الشـيخ أبو إسـحاق الشـيرازي في أول باب عدد

الشهود في كتاب المهذب وشهد على المغيرة ثلاثة أبو بكرة ونافع وشبل بن معبد
367 وقال زياد رأيت استا تنبو ونفسا يعلو ورجلين كأنهما أذنا حمار ولا أدري ما وراء ذلك فجلد عمر الثلاثة ولم يحد المغيرة قلت وقد تكلم الفقهاء على قول علي رضي الله عنه لعمر رضي الله عنه إن ضربته فارجم صاحبك فقال أبو نصر ابن الصباغ المقدم ذكره وهو صاحب كتاب الشامل في المذهب يريد أن هذا القول إن كان شهادة أخرى فقد تم العدد وإن كان هو الأول فقد جلدته عليه والله أعلم وذكر عمر بن شبة في أخبار البصرة أن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه إن رسول الله أقطعني البحرين فقال ومن يشهد لك بذلك قال المغيرة بن شعبة فأبى أن يجيز شهادته قلت وقد طالت هذه الترجمة وسببه أنها اشتملت على عدة وقائع فدعت الحاجة إلى الكلام على كل واحدة منها فانتشر القول لأجل ذلك وما خلا عن فوائد 822
يزيد بن الطثرية الشاعر المشهور أبو المكشوح يزيد بن سلمة بن سمرة بن سلمة الخير بن قشير بن كعب ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة المعروف بابن الطثرية الشاعر المشهور هكذا ساق نسبه أبو عمرو الشيباني وإنما قيل لجده سلمة الخير لأنه كان لقشير ولد آخر يقال له سلمة الشر قال وقد قيل إنه يزيد بن المنتشر بن

368 سلمة وذكر ابن الكلبي أنه يزيد بن الصمة أحد بني سلمة الخير بن قشير وذكر البصريون أنه من ولد الأعور بن قشير ذكر أبو الحسن علي بن عبد الله الطوسي في أول ديوان يزيد بن الطثرية المذكور وكان الطوسي قد اعتنى به وجمعه فقال كان ابن الطثرية شاعرا مطبوعا عاقلا فصيحا كامل الأدب وافر المروءة لا يعاب ولا يطعن عليه وكان سخيا شجاعا له أصل ومحل في قومه من قشير وكان من شعراء بني أمية مقدما عندهم وقال غير الطوسي كان يزيد بن الطثرية يسمى مودقا سمي بذلك لحسن وجهه وحسن شعره وحلاوة حديثه فكانوا يقولون إنه إذا جلس بين النساء ودقهن يقال استودقت المرأة وودقت إذا مالت إلى الفحل لأجل الجماع والأصل في هذه اللفظة أن تكون لذوات الحافر ثم نقلت إلى بني آدم وهي بالدال المهملة والقاف والمودق هو الذي يجعل النساء يملن عليه وكان يزيد كثيرا ما يجلس عند النساء ويتحدث معهن ويقال إنه كان عنينا لا يأتي النساء وليس له عقب وهو من أعيان الشعراء ذكره أبو تمام الطائي في كتاب الحماسة في عدة مواضع فمن ذلك قوله في باب النسيب (عقيلية أما ملاث إزارها * فدعص وأما خصرها فبتيل) (تقيظ أكناف الحمى ويظلها * بنعمان من وادي الأراك مقيل) (أليس قليلا نظرة إن نظرتها * إليك وكل ليس منك قليل) (فيا خلة النفس التي ليس دونها * لنا من

أخلاء الصـفاء خليل) (ويا من كتمنا حبه لم يطع به * عدو ولم يؤمن عليه دخيل) (أما من مقام أشـتكي غربة النوى * وخوف العدا فيه إليك سبيل) (فديتك أعدائي كثير وشقتي * بعيد وأشياعي لديك قليل) (فلا تحملي ذنبي وأنت ضـعيفة * فحمل دمي يوم الحساب ثقيل)
369 (وكنت إذا ما جئت جئت بعلة * فأفنيت علاتي فكيف أقول) (فما كل يوم لي بأرضك حاجة * ولا كل يوم لي إليك رسـول) وكان أبو الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني قد جمع شعر يزيد ابن الطثرية أيضا في ديوان وأورد له قوله (ألا بأبي من قد برى الجسم حبه * ومن هو موموق إلى حبيب) (ومن هو لا يزداد إلا تشوقا * وليس يرى إلا عليه رقيب) (وإني وإن أحموا علي كلامها * وحالت أعاد دوننا وحروب) (لمثن على ليلى ثناء يزينها * قواف بأفواه الرجال تطيب) (أليلى احذري نقض القوى لا يزل لنا * على النأي والهجران منك نصيب) (وكوني على الواشين لداء شغبة * كما أنا للواشي ألد شـغوب) (فإن خفت ألا تحكمي مرة الهوى * فردي فؤادي والمزار قريب) وأورد له أيضـا (بنفسي من لو مر برد بنانه * على كبدي كانت شفاء أنامله) (ومن هابني في كل شـيء وهبته * فلا هو يعطيني ولا أنا سائله) وأما أبو الحسن الطوسي فإنه أورد له (وإني لأستحيي من الله أن أرى * رديفا

لوصل أو علي رديف) (وأن أرد الماء الموطا حنيه * وأتبع وصــلا منك وهو ضــعيف) قلت ورأيت في موضع آخر بعد البيت الأول

370 (وإنـي للمــاء المخــالطــه القذى * وإن كثرت وراده لعيوف) وأورد له الطوسي أيضا (ألا رب راج حاجة لا ينالها * وآخر قد تقضـــــى له وهو جالس) (يجول لها هذا وتقضى لغيره * وتأتي الذي تقضى له وهو آيس) وأورد له أيضا من جملة أبيات (برغمي أطيل الصــد عنها إذا نأت * أحاذر أســماعا عليها وأعينا) (أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى * فصـادف قلبا خاليا فتمكنا) وأورد له أيضـا أبياتا منها قولـه (وقولا إذا عدت ذنوبا كثيرة * علينا تجناها ذري ما تغيبا) (هبيني امرأ إما بريئا ظمته * وإما مســـيئا تاب بعد وأعتبا) (فلما أبت لا تقبل العذر وارتمى * بها كذب الواشـين شـأوا مغربا) (تعزيت عنها بالسلو ولم أكن * لمن ضـن عني بالمودة أقربا) (وكنـت كذي داء تبغى لدائـه * طبيبـا فلما لم يجده تطببا) وأورد لـه أبو عبد الله المرزبـاني في كتـاب معجم الشـــعراء وهي في الحماســـة أيضـــا وقد رويت أيضـا لعبد الله بن الدمينة الخثعمي والله أعلم (بنفســي وأهلي من إذا عرضوا لـه * ببعض الأذى لم يدر كيف يجيـب) (ولم يعتـذر عـذر البرىء ولم تزل * بـه رعـدة حتى يقـال مريـب) وأورد لـه المرزبـاني في

المعجم أيضا (حننت إلى ريا ونفسك باعدت * مزارك من ريا وشعباكما معا)
371 (فما حسن أن تأتي الأمر طائعا * وتجزع أن داعى الصبابة أسمعا) (قفا ودعا نجدا ومن حل بالحمى * وقل لنجد عندنا أن يودعا) (ولما رأيت البشر أعرض دوننا * وجالت بنات الشوق يحنن نزعا) (بكت عيني اليمنى فلما زجرتها * عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا) (تلفت نحو الحي حتى وجدتني * وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا) (وأذكر أيام الحمى ثم أنثني * على كبدي من خشية أن تقطعا) (وليست عشيات الحمى برواجع * عليك ولكن خل عينيك تدمعا) قلت وهي أبيات في غاية الرقة واللطافة وذكرها أبو تمام الطائي في كتاب الحماسة في أول باب النسيب وقال إنها للصمة بن عبد الله القشيري والله أعلم بالصواب في ذلك وقال أبو عمر يوسف بن عبد البر صاحب كتاب الاستيعاب في أخبار الصحابة رضي الله عنهم وقد تقدم ذكره في كتاب بهجة المجالس ما مثاله للصمة بن عبد الله القشيري (أما وجلال الله لو تذكرينني * كذكريك ما كفكفت للعين مدمعا) (فقالت بلى والله ذكرا لو أنه * يصب على الصخر الأصم تصدعا) ثم قال بعد ذلك وأكثرهم ينسبون إليه في هذا الشعر (حننت إلى ريا ونفسك باعدت * مزارك من ريا وشعباكما معا) وذكر الأبيات بكمالها كما ذكرها في الحماسة وبعد

الفراغ منها قال ومنهم من ينســـبها إلى قيس بن ذريح وإلى المجنون أيضا والأكثر أنها للصمة والله أعلم

372 قلت فقد وقع الاختلاف في أن هذه الأبيات العينية هل هي ليزيد بن الطثرية أم للصمة بن عبد الله القشيري أم لقيس بن ذريح أم للمجنون والله أعلم قلت وذكره المرزباني أيضا في كتاب المونق فقال أنشدني أبو الخنبش لابن الطثرية (وحنت قلوصـــي بعد هذا صـبابة * فيا روعة ما راع قلبي حنينها) (فقلت لها صـــبرا فكل قرينـة * مفارقها لا بد يوما قرينها) وأورد له أيضـا (كيف العزاء وأنت أومق من مشـى * والنفس معولـة ودارك نـائيـه) (بيـديـك قتلي إن أردت منيتي * وشفاء نفسي إن أردت شفائيه) (ولقد عرفت فما أويت لمدنف * ما النفس عنك وإن نـأيت بســـاليه) وأورد له أيضـــا (إذا نحن جئنا لم تجمل بزينـة * حـذار الأعـادي وهي بـاد جمـالهـا) (ولا نبتديها بالســـلام ولم نقل * لهم من توقي شــرهم كيف حالها) وأورد له أشياء كثيرة غير هذا فنقتصـر على هذا القـدر وقـال أبو بكر أحمـد بن يحيى بن جـابر البلاذري في كتاب أنسـاب الأشـراف بعد ما ذكر مقتل الوليـد بن يزيـد بن عبـد الملـك بن مروان الأموي الحكمي ووقائع جرت في سـنة سـت وعشـرين ومائة فكان في أثناء ذلك وقعة قتل فيها المندلث ابن إدريس الحنفي وقتل معه يزيد بن الطثرية المذكور على قرية يقال لها الفلج بفتح الفاء واللام وفي آخره الجيم وأظنها

من قرى اليمـامـة ثم وجـدت في كتـاب أبي بكر الحازمي الذي صنفه في أسماء المواضع أن فلج بفتح الفاء واللام وآخره جيم قريـة عظيمـة لبني جعدة بهـا منبر يقال لها فلج الأفلاج

373 من نـاحيـة اليمـامـة وقـال غيره فلج بينهـا وبين هجر التي هي قصـــبة البحرين ســتة أيام وبينها وبين مكة تســعة أيام والله أعلم وذكر أبو إســحاق الزجـاج في كتـاب معـاني القرآن الكريم في ســـورة الفرقان أن الرس قرية باليمامة يقال لها فلج فتكون هي هذه القرية على ما قال وأما الذي جاء في قول الشـــاعر (وإن الذي حانت بفلج دماؤهم * هم القوم كل القوم يا أم خالد) فإنه بفتح الفاء وســـكون اللام وهو واد بين البصـــرة وحمى ضـــرية وضـــرية قرية على القرب من مكة شـرفها الله تعالى وأما فلجة الذي جاء في شـــعر بعض العرب (ألا حبذا أعلام فلجة بـالضـــحى * وخيم روابي جلهتيها المنصــــب) (يقولون ملح مـاء قلجـة آجن * أجـل هو مملوح إلى القلب طيب) فهذا الاسـم يقع على موضـعين أحدهما منزل بين مكة والبصـــرة والثاني موضــع بالعقيق وكانت به الواقعة في الســـنة التي قتل فيها الوليد بن يزيد الأموي المذكور رجعنا إلى ما كنا فيه وكان قتل الوليد في جمادى الآخرة يوم الخميس لليلتين بقيتا منها من سنة ست وعشرين ومائة بالبخراء بفتح الباء الموحدة وســكون الخـاء المعجمـة وبعد الراؤ ألف

ممدودة وذكر أبو الحسن الطوسي المذكور في هذه الواقعة أن الراية كانت مع يزيد بن الطثرية فلما قتل المندلث وهرب أصحابه ثبت يزيد بن الطثرية بالراية وكانت عليه جبة خز فتشبثت في عشرة قلت

374 وهي بضم العين المهملة وفتح الشين وبعدها راء مفتوحة ثم هاء وهي شجرة لها صمغ من شجر العضاه قال فعثر فضربه بنو حنيفة حتى قتلوه قلت وذكر هذه الواقعة بعد قتل الوليد في التاريخ المذكور فيكون قتل يزيد ابن الطثرية بين تاريخ قتل الوليد بن يزيد وبين آخر سنة ست وعشرين ومائة والله أعلم وذكر أبو الفرج الأصبهاني في أول الديوان الذي جمعه من شعر يزيد بن الطثرية أن بني حنيفة قتلته في خلافة بني العباس والأول أصح ولما قتل ابن الطثرية رثاه القحيف بن حمير بن سليم الندى بن عبد الله العقيلي بقوله (ألا تبكي سراة بني قشير * على صنديدها وعلى فتاها) (أبا المكشوح بعدك من يحامي * ومن يزجي المطي على وجاها) ورثى القحيف أيضا الوليد بن يزيد ورثاه أخوه ثور بن سلمة بقوله (أرى الأثل من بطن العقيق مجاوري * مقيما وقد غالت يزيد غوائله) وهي من الشعر المختار وذكر أبو تمام الطائي في الحماسة أن هذه الأبيات لأخته زينب بنت الطثرية وقيل إنها لأمه والله أعلم وذكر الطوسي المذكور أن هذه الواقعة كانت بالعقيق وقال ياقوت الحموي في كتاب المشترك

وضعا إن العقيق عشرة مواضع قال الأصمعي الأعقة الأودية التي تشقها السيول ثم عد المواضع فقال الثالث عقيق عارض بأرض اليمامة وهو واد واسع مما يلي العرمة تندفق فيه شعاب العارض وفيه عيون وقرى ثم قال والعقيق من قرى اليمامة لبني عقيل وهو عقيق نمرة في طريق اليمن من اليمامة

375 قلت فيحتمل أن يكون المراد بقوله بطن العقيق في هذا البيت العقيق الأول ويحتمل العقيق الثاني والله أعلم وإنما كني ابن الطثرية بأبي المكشوح لأنه كان على كشحه كي نار والكشح بفتح الكاف وسكون الشين المعجمة وبعدها الحاء المهملة وهي الخاصرة والطثرية بفتح الطاء المهملة وسكون الثاء المثلثة وبعدها راء ثم ياء النسب وهاء التأنيث وهي أمه ينسب يزيد المذكور إليها وهي من بني طثر بن عنز بن وائل والطثر الخصب وكثرة اللبن يقال إن أمه ولدت في عام هذا وصفه وقيل بل ولدته في عام هذا شأنه ويقال إن أمه كانت مولعة بإخراج زبد اللبن فسميت الطثرية وطثرة اللبن زبدته والله أعلم قلت وهذا الكلام في النفس منه شيء فإنهم قالوا إن أمه من بني طثر ابن عنز بن وائل فعلى هذا تكون أمه منسوبة إلى هذه القبيلة فلا معنى حينئذ لقولهم إن أمه ولدت في عام هذا وصفه أو ولد هو في عام هذا شأنه أو أو كانت أمه تخرج الزبد من اللبن فتأمله إلا أن يكون عندهم فيه خلاف هل هو منسوب إلى القبيلة أم إلى

هـذا المعنى الثـاني والله أعلم بـالصــواب في ذلـك ويروى لزينب بنت الطثرية أخت يزيد المذكور شـيء كثير من الشـعر فمن ذلك قولها في المديح (أشـم إذا ما جئت للعرف طالبا * حباك بما تحنو عليه أنامله) (ولو لم يكن في كفه غير روحه * لجاد بها فليتق الله سـائله) وينسـب هذان البيتان إلى زياد الأعجم أيضـا والبيت الثاني منهما يوجد في ديوان أبي تمام الطائي أيضــا في قصـيدته التي أولها (أجل أيها الربع الذي خف آهله * لقد أدركت فيك النوى ما تحاوله) والله أعلم بالصواب

376 823 الماجشــون أبو يوســف يعقوب بن أبي ســلمة دينار وقيل ميمون الملقب بالماجشــون القرشــي التيمي من موالي آل المنكدر من أهل المدينة سمع ابن عمر رضـي الله عنـهما وعمر بن عبد العزيز ومحمد بن المنكدر وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج روى عنه ابناه يوســف وعبد العزيز وابن أخيه عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة وقال يعقوب بن شيبة الماجشون يعقوب بن أبي سلمة مولى آل الهدير وكان يعقوب مع عمر بن عبد العزيز رضــي الله عنه في ولاية عمر المدينة يحدثه ويأنس به فلما استخلف عمر رضــي الله عنه قدم عليه الماجشــون فقال له عمر إنا تركناك حيث تركنا لبس الخز فانصــرف عنه وذكره محمد بن ســعد في كتاب الطبقات وقال يعقوب بن شيبة قال مصعب وكان الماجشون يعين ربيعة الرأي

على أبي الزناد لأن أبا الزناد كان معاديا لربيعة الرأي فكان أبو الزناد يقول مثلي ومثل الماجشون مثل ذئب كان يلح على أهل قرية فيأكل صبيانهم فاجتمعوا له وخرجوا في طلبه فهرب منهم فانقطعوا عنه إلا صاحب فخار فإنه ألح في طلبه فوقف له الذئب فقال هؤلاء أعذرهم فأنت ما لي ولك ما كسرت لك فخارة قط والماجشون ما كسرت له كبرا ولا بربطا قط وقال ابن الماجشون عرج بروح الماجشون فوضعناه على سرير الغسل

377 وقلنا للناس نروح به فدخل غاسل إليه يغسله فرأى عرقا يتحرك في أسفل قدمه فأقبل علينا وقال أرى عرقا يتحرك ولا أرى أن أعجل عليه فاعتللنا على الناس بالأمر الذي رأيناه وفي الغد جاء الناس و غدا الغاسل عليه فرأى العرق على حاله فاعتذرنا إلى الناس فمكث ثلاثا على حاله ثم إنه استوى جالسا فقال آتوني بسويق فأتي به فشربه فقلنا له خبرنا ما رأيت قال نعم عرج بروحي فصعد بي الملك حتى أتى سماء الدنيا فاستفتح ففتح له ثم هكذا في السموات حتى انتهى بي إلى السماء السابعة فقيل له من معك قال الماجشون فقيل له لم يأن له بعد بقي من عمره كذا كذا سنة وكذا كذا شهرا وكذا كذا يوما وكذا كذا ساعة ثم هبط فرأيت النبي وأبا بكر عن يمينه وعمر عن يساره وعمر بن عبد العزيز بين يديه فقلت للملك الذي معي من هذا قال هذا عمر بن عبد

العزيز قلت إنه لقريب المقعد من رســـول الله قال إنه عمل بـالحق في زمن الجور وإنهمـا عملا بـالحق في زمن الحق ذكر هـذا يعقوب بن شـــيبـة في ترجمـة الماجشـــون وذكر أبو الحســـن محمد بن أحمد بن القواس الوراق أن يعقوب الماجشـون مات سـنـة أربع وسـتين ومائة رحمه الله تعالى هذا كله نقلته من تاريخ الحافظ أبي القاسـم المعروف بابن عسـاكر الذي جعله تاريخا لدمشق وذكر ابن قتيبة في كتاب المعارف في ترجمة محمد بن المنكدر أن المـاجشـــون من مواليه واســـمـه يعقوب وكـان فقيهـا ثم قـال بعد ذلك وكـان للماجشـون أخ يقال له عبد الله بن أبي سلمة (347) وابنه عبد العزيز بن عبد الله يكنى أبا عبد الله توفي ببغداد وصـــلى عليه المهدي ودفنه في مقابر قريش وذلك في سنة أربع وستين ومائة قلت وقد تقدم في هذا الكتاب ترجمة ولده عبد الملك بن عبد العزيز بن
378 عبد الله وذكرت ما قاله العلماء في معنى الماجشون فأغنى عن الإعادة هاهنا والله أعلم قوله ما كســـرت له كبرا ولا بربطا الكبر بفتح الكاف والباء الموحدة وبعدها راء وهو طبل ذو وجه واحد والبربط بفتح الباءين الموحدتين بينهما راء ســـاكنة وفي آخره طاء مهملة وهو نوع من العود الذي للغناء وأصـلـه بر وهو الصدر بالفارسي وبط الطائر المعروف فلما كان هذا الملهى يشبه صدر البط سمي به واسمه بالعربي العود والمزهر أيضا بكسر الميم وسكون الزاي وفتح

الهاء وبعدها راء وبالعجمي البربط كما ذكرناه 824 القاضي أبو يوسف صاحب أبي حنيفة القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن خنيس بن سعد بن حبتة الأنصاري وسعد بن حبتة أحد الصحابة رضي الله عنهم وهو مشهور في الأنصار بأمه وهي حبته بنت مالك من بني عمرو بن عوف وأما أبو سعد ابن حبتة فهو عوف بن بحير بن معاوية بن سلمى بن بجيلة حليف بني عمرو بن عوف الأنصاري هكذا ساق نسب سعد بن حبتة في الاستيعاب وأما الخطيب أبو بكر البغدادي فإنه قال في تاريخه هو سعد بن بجير بن معاوية بن قحافة بن بليل بن سدوس بن عبد مناف بن أبي

379 أسامة بن سحمة بن سعد بن عبد الله بن قداد بن ثعلبة بن معاوية بن زيد بن الغوث بن بجيلة كان القاضي أبو يوسف المذكور من أهل الكوفة وهو صاحب أبي حنيفة رضي الله عنه كان فقيها عالما حافظا سمع أبا إسحاق الشيباني وسليمان التيمي ويحيى بن سعيد الأنصاري والأعمش وهشام بن عروة وعطاء بن السائب ومحمد بن إسحاق بن يسار وتلك الطبقة وجالس محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ثم جالس أبا حنيفة النعمان بن ثابت وكان الغالب عليه مذهب أبي حنيفة وخالفه في مواضع كثيرة روى عنه محمد بن الحسن الشيباني الحنفي وبشر بن الوليد الكندي وعلي بن الجعد وأحمد بن حنبل ويحيى

بن معين في آخرين وكان قد سكن بغداد وتولى القضاء بها لثلاثة من الخلفاء المهدي وابنه الهادي ثم هارون الرشيد وكان الرشيد يكرمه ويجله وكان عنده حظيا مكينا وهو أول من دعي بقاضي القضاة ويقال إنه أول من غير لباس العلماء إلى هذه الهيئة التي هم عليها في هذا الزمان وكان ملبوس الناس قبل ذلك شيئا واحدا لا يتميز أحد عن أحد بلباسه ولم يختلف يحيى بن معين وأحمد بن حنبل وعلي ابن المديني في ثقته في النقل وذكر أبو عمر ابن عبد البر صاحب كتاب الاستيعاب في كتابه الذي سماه كتاب الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء أن أبا يوسف المذكور كان حافظا وأنه كان يحضر المحدث ويحفظ خمسين ستين حديثا ثم يقوم فيمليها على الناس وكان كثير الحديث وقال محمد بن جرير الطبري وتحامى حديثه قوم من أهل الحديث من أجل غلبة الرأي عليه وتفريعه الفروع والأحكام مع صحبة السلطان وتقلده القضاء وحكى أبو بكر الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد أن أبا يوسف قال

380 كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مقل رث الحال فجاء أبي يوما وأنا عند أبي حنيفة فانصرفت معه فقال يا بني لا تمد رجلك مع أبي حنيفة فإن أبا حنيفة خبزه مشوي وأنت تحتاج إلى المعاش فقصرت عن كثير من الطلب وآثرت طاعة أبي فتفقدني أبو حنيفة وسأل عني فجعلت أتعاهد مجلسه فلما كان أول

يوم أتيته بعد تأخري عنه قال لي ما شـــغلك عنا قلت الشـغل بالمعاش وطاعة والدي فجلسـت فلما انصـرف الناس دفع إلي صرة وقال استمتع بها فنظرت فإذا فيها مـائـة درهم فقـال لي الزم الحلقـة وإذا فرغـت هـذه فأعلمني فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع إلي مائة أخرى ثم كان يتعاهدني وما أعلمته بخلة قط ولا أخبرتـه بنفاد شـــيء وكـأنـه كان يخبر بنفادها حتى استغنيت وتمولت ثم قال الخطيب وحكي أن والد أبي يوسـف مات وخلف أبا يوسـف طفلا صـغيرا وأن أمه هي التي أنكرت عليه حضور حلقة أبي حنيفة ثم روى الخطيب أيضـا بإسـناد متصـل إلى علي بن الجعد قال أخبرنـي أبو يوســف القاضـــي قال توفي أبي وخلفني صـــغيرا في حجر أمي فأسـلمتني إلى قصـــار أخدمه فكنت أدع القصـــار وأمر إلى حلقة أبي حنيفة فأجلس أسـتمع فكانت أمي تجيء خلفي إلى الحلقة فتأخذ بيدي فتذهب بي إلى القصـــار وكان أبو حنيفة يعنى بي لما يرى من حضوري وحرصي على التعلم فلما كثر ذلك على أمي وطال عليها هربي قالت لأبي حنيفة ما لـهذا الصـبي فسـاد غيرك هذا صـبي يتيم لا شـيء له وإنما أطعمه من مغزلي وآمل أن يكسـب دانقا يعود به على نفسـه فقال لها أبو حنيفة مري يا رعناء ها هو ذا يتعلم أكل الفالوذج بدهن الفسـتق فانصـرفت عنه وقالت له أنت شـيخ قد خرفت وذهب عقلك ثم لزمته فنفعني الله تعـالى بـالعلم ورفعني حتى تقلدت القضـــاء وكنـت

أجالس الرشـــيد وآكل معه على مائدته فلما كان في
بعض الأيام قدم إلى هارون فالوذجة فقال لي يا يعقوب
كل منها فليس في كل يوم يعمل لنا مثلها فقلت و ما
هذه يا أمير المؤمنين فقال هذه فالوذجة بدهن الفستق
381 فضـحكت فقال لي مم ضـحكك فقلت خيرا
أبقى الله أمير المؤمنين قـال لتخبرني وألح علي
فأخبرته بالقصـــة من أولها إلى آخرها فعجب من ذلك
وقال لعمري إن العلم لينفع دنيا ودينا وترحم على أبي
حنيفة وقال كان ينظر بعين عقله مالا يراه بعين رأسـه
وحكى علي بن المحسن التنوخي عن أبيه عن جده قال
كان سـبب اتصـال أبي يوسـف بالرشـيد أنه كان قدم
بغداد بعـد موت أبي حنيفـة رحمـه الله تعـالى فحنـث
بعض القواد في يمين فطلب فقيها يسـتفتيه فجيء بأبي
يوســف فأفتاه أنه لم يحنث فوهب له دنانير وأخذ له
دارا بالقرب منه ودخل القائد يوما على الرشيد فوجده
مغموما فسأله عن سبب غمه فقال شيء من أمر الدين
قد حزنني فاطلب فقيها كي أستفتيه فجاءه بأبي يوسف
قال أبو يوســف فلما دخلت إلى ممر بين الدور رأيت
فتى حســنا عليه أثر الملك وهو في حجرة محبوس
فأومأ إلي بأصبعه مستغيثا فلم أفهم منه إرادته وأدخلت
إلى الرشيد فلما مثلت بين يديه سلمت ووقفت فقال لي
ما اسمك فقلت يعقوب أصلح الله أمير المؤمنين قال ما
تقول في إمام شاهد رجلا يزني هل يحده قلت لا فحين
قلتها ســجد الرشــيد فوقع لي أنه قد رأى بعض أهله

على ذلك وأن الذي أشار إلي بالاستغاثة هو الزاني ثم قال الرشيد من أين قلت هذا قلت لأن النبي قال ادرأوا الحدود بالشبهات وهذه شبهة يسقط الحد معها قال وأي شبهة مع المعاينة قلت ليس توجب المعاينة لذلك أكثر من العلم بما جرى والحدود لا تكون بالعلم وليس لأحد أخذ حقه بعلمه فسجد مرة أخرى وأمر لي بمال جزيل وأن ألزم الدار فما خرجت حتى جاءتني هدية الفتى وهدية أمه وجماعته وصار ذلك أصلا للنعمة ولزمت الدار فكان هذا الخادم يستفتيني وهذا يشاورني ولم يزل حالي يقوى عند الرشيد حتى قلدني القضاء قلت وهذا يخالف ما نقلته قبل هذا من أنه ولي القضاء لثلاثة من الخلفاء والله أعلم بالصواب

382 وقال طلحة بن محمد بن جعفر أبو يوسف مشهور الأمر ظاهر الفضل وهو صاحب أبي حنيفة وأفقه أهل عصره ولم يتقدمه أحد في زمانه وكان النهاية في العلم والحكم والرياسة والقدر وأول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة وأملى المسائل ونشرها وبث علم أبي حنيفة في أقطار الأرض وقال عمار بن أبي مالك ما كان في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف لولا أبو يوسف ما ذكر أبو حنيفة ولا محمد بن أبي ليلى ولكنه هو نشر قولهما وبث علمهما وقال محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة مرض أبو يوسف في زمن أبي حنيفة مرضا خيف عليه منه فعاده أبو حنيفة ونحن معه فلما خرج

من عنده وضـــع يده على عتبة بابه وقال إن يمت هذا الفتى فإنه أعلم من عليها وأومأ إلى الأرض وقال أبو يوسف سألني الأعمش عن مسألة فأجبته فيها فقال لي من أين لك هذا فقلت من حديثك الذي حدثتناه أنت ثم ذكرت له الحديث فقال لي يا يعقوب إني لأحفظ هذا الحديث قبل أن يجتمع أبواك وما عرفت تأويله حتى الآن وقال هلال بن يحيى كان أبو يوســـف يحفظ التفسير والمغازي وأيام العرب وكان أقل علومه الفقه ولم يكن في أصـــحاب أبي حنيفة مثل أبي يوســـف وذكر أبو الفرج المعـافى بن زكريـا النهرواني في كتاب الجليس والأنيس عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال مضـى أبو يوسف القاضـي ليسمع المغازي من محمد بن إسحاق أو من غيره وأخل بمجلس أبي حنيفة أياما فلما أتاه قال له أبو حنيفة يا أبا يوســـف من كان صاحب راية جالوت فقال له أبو يوسف إنك إمام وإن لم تمسك عن هذا سألتك والله على رؤوس الملإ أيما
383 كان أول وقعة بدر أو أحد فإنك لا تدري أيهما كان قبل الآخر فأمســـك عنه وذكر في الكتاب المذكور أيضـــا عن علي بن الجعد أن القاضـــي أبا يوســـف كتب يوما كتابا وعن يمينه إنســـان يلاحظ ما يكتبه ففطن له أبو يوســـف فلما فرغ من الكتابة التفت إليه وقال له هل وقفت على شــــيء من خطإ فقال لا والله ولا حرف واحد فقال له أبو يوسـف جزيت خيرا حيث كفيتنا مؤونة قراءته ثم أنشـــد) كأنه من ســـوء

تأديبه * أسلم في كتاب سوء الأدب) وقال حماد بن أبي حنيفة رأيت أبا حنيفة يوما وعن يمينه أبو يوسف وعن يساره زفر وهما يتجادلان في مسألة فلا يقول أبو يوسف قولا إلا أفسده زفر ولا يقول زفر قولا إلا أفسده أبو يوسف إلى وقت الظهر فلما أذن المؤذن رفع أبو حنيفة يده فضرب بها فخذ زفر وقال لا تطمع في رياسة ببلدة فيها أبو يوسف وقضى لأبي يوسف على زفر ولم يكن بعد أبي يوسف في أصحاب أبي حنيفة مثل زفر وقال طاهر بن أحمد الزبيدي كان يجلس إلى أبي يوسف رجل فيطيل الصمت فقال له أبو يوسف ألا تتكلم فقال بلى متى يفطر الصائم فقال إذا غابت الشمس فقال فإن لم تغب إلى نصف الليل فضحك أبو يوسف وقال أصبت في صمتك وأخطأت أنا في استدعاء نطقك ثم تمثل (عجبت لإزراء الغبي بنفسه * وصمت الذي قد كان بالقول أعلما) (وفي الصمت ستر للغبي وإنما * صحيفة لب المرء أن يتكلما) ومن كلام أبي يوسف صحبة من لا يخشى العار عار يوم القيامة وكان يقول رؤوس النعم ثلاثة فأولها نعمة الإسلام التي لا تتم نعمة إلا بها
384 والثانية نعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها والثالثة نعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا بها وقال علي بن الجعد سمعت أبا يوسف يقول العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك وأنت إذا أعطيته كلك من إعطائه البعض كنت على غرر وكان أبو

يوســـف راكبا وغلامه يعدو وراءه فقال لـه رجل أتســـتحل أن تعدي غلامك وراءك لم لا تركبه فقال له أيجوز عندك أن أســـلم غلامي مكاريا قال نعم قال أبو يوسف فيعدو معي كما كان يعدو لو كان مكاريا وقال يحيى بن عبد الصـــمد خوصـــم أمير المؤمنين الهادي إلى القاضـــي أبي يوســـف في بســـتانه وكان الحكم في الظاهر للهادي وفي الباطن خلاف ذلك فقال الهادي للقاضي أبي يوسف ما صنعت في الأمر الذي نتنازع إليك فيه فقال خصـــم أمير المؤمنين يســـألني أن أحلف أمير المؤمنين أن شـــهوده شـــهدوا على حق فقال له الهادي وترى ذلك قال فقد كان ابن أبي ليلى يراه فقال اردد البستان عليه وإنما احتال عليه أبو يوسف لعلمه أن الهادي لا يحلف وقال بشـــر بن الوليد الكندي قال لي القاضـــي أبو يوســـف بينا أنا البارحة قد أويت إلى فراشـــي فإذا داق يدق الباب دقا شـــديدا فأخذت علي إزاري وخرجت فإذا هرثمة بن أعين فســـلمت عليه فقال أجب أمير المؤمنين فقلت يا أبا حاتم لي بك حرمة وهذا وقت كما ترى ولســـت آمن أن يكون أمير المؤمنين قد دعاني لأمر من الأمور فإن أمكنك أن تدفع بذلك إلى غد فلعله أن يحدث له رأي فقال ما لي إلى ذلك سبيل قلت كيف كان السبب

385 قال خرج إلي مســـرور الخادم فأمرني أن آتي بك أمير المؤمنين فقلت تأذن لي أن أصـــب علي ماء وأتحنط فإن كان أمر من الأمور كنت قد أحكمت

شـــأني وإن رزق الله العافية فلن يضـــرني فأذن لي فدخلت فلبست ثيابا جددا وتطيبت بما أمكن من الطيب ثم خرجنا فمضينا حتى أتينا دار أمير المؤمنين هارون الرشـيد فإذا مسـرور واقف فقال له هرثمة قد جئت به فقلت لمســـرور يا أبا هاشـــم خدمتي وحرمتي وميلي وهذا وقت ضـــيق فتدري لم طلبني أمير المؤمنين قال لا فقلت فمن عنده قال عيســـى بن جعفر قلت ومن قال ما عندهما ثالث ثم قال لي مر فإذا صرت في الصحن فـإنــه في الرواق وهو ذاك جـالس فحرك رجلـك بالأرض فإنه سـيسـألك فقل أنا قال أبو يوسـف فجئت ففعلـت ذلـك فقـال من هـذا فقلـت يعقوب فقـال ادخـل فدخلت فإذا هو جالس وعن يمينه عيســـى بن جعفر فسلمت فرد السلام علي وقال أظننا روعناك فقلت إي والله وكذلك من خلفي فقال اجلس فجلســت حتى سـكن روعي ثم التفت إلي وقال يا يعقوب تدري لم دعوتك قلت لا قال دعوتك لأشـــهدك على هذا ان عنده جارية سـألته أن يهبها لي فامتنع وسـألته أن يبيعها فأبى والله لئن لم يفعل لأقتلنه قال أبو يوسـف فالتفت إلى عيســى فقلـت لـه ومـا بلغ الله بجـاريـة تمنعهـا أمير المؤمنين وتنزل نفسـك هذه المنزلة قال فقال لي عجلت علي في القول قبـل أن تعرف مـا عنـدي قلـت ومـا في هـذا من الجواب قال إن علي يمينا بالطلاق والعتاق وصدقة ما أملك أن لا أبيع هذه الجـاريـة ولا أهبهـا فـالتفت إلي الرشـــيد فقال هل له في ذلك من مخرج قلت نعم قال

وما هو قلت يهب لك نصفها ويبيعك نصفها فيكون لم يهب ولم يبع فقال عيســـى ويجوز ذلك قلت نعم قال فأشـهدك أني قد وهبت له نصفها وبعته نصفها الباقي بمائة ألف دينار فقال له الرشـيد قبلت الهبة واشـتريت نصـــفها بمائة ألف دينار ثم طلب منه الجارية فأتى بالجارية وبالمال فقال خذها يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيها فقال الرشيد يا يعقوب

386 بقيت واحدة فقلت وما هي فقال هي مملوكة ولا بد أن تستبرأ ووالله لئن لم أبت معها ليلتي هذه إني أظن أن نفسـي ستخرج فقلت يا أمير المؤمنين تعتقها وتتزوجها فإن الحرة لا تســـتبرأ قال فإني قد أعتقتها فمن يزوجنيها فقلت أنا فدعا بمسرور وحسين فخطبت وحمدت الله تعالى ثم زوجته إياها على عشـــرين ألف دينار ودعا بالمال فدفعه إليها ثم قال لي يا يعقوب انصرف ورفع رأسه إلى مسرور فقال يا مسرور فقال لبيك فقال احمل إلى يعقوب مائتي ألف درهم وعشرين تختا ثيابا فحمل ذلك معي قال بشـــر بن الوليد فالتفت إلي أبو يوسف وقال هل رأيت بأسا فيما فعلت فقلت لا فقال خذ حقك منها قلت وما حقي فقال العشر قال بشر فشـــكرته ودعوت له وذهبت لأقوم فإذا بعجوز قد دخلت فقالت يا أبا يوســـف إن بنتك تقرئك الســـلام وتقول لك والله ما وصـــل إلي في ليلتي هذه من أمير المؤمنين إلا المهر الذي قد عرفته وقد حملت إليك النصـــف منه وخلفت الباقي لما أحتاج إليه فقال رديه

فوالله لا قبلتهــا أخرجتهــا من الرق وزوجتهــا أمير المؤمنين وترضـــى لي بهذا قال بشــر فلم نزل نطلب إليه أنا وعمومتي حتى قبلها وأمر لي منها بألف دينار وقال أبو عبد الله اليوسفي إن أم جعفر زبيدة ابنة جعفر زوجة الرشــيد كتبت إلى أبي يوســف ما ترى في كذا وأحب الأشـــياء إلي أن يكون الحق فيه كذا فأفتاها بما أحبت فبعثت إليه بحق فضــة فيه حقاق فضــة مطبقات في كل واحد لون من الطيب وفي جام دراهم وســطها جام فيه دنانير فقال له جليس له قال رســـول الله من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها فقال أبو يوسف ذاك حين كـانت الهدايـا اللبن والتمر وقـال يحيى بن معين كنت عند أبي يوسف القاضي وعنده جماعة من أصــــحـاب الحـديث وغيرهم فوافتـه هـديـة أم جعفر احتوت على تخوت دبيقي ومصــمت وشــرب وطيب وتماثيل ند وغير ذلك فذاكرني رجل بحديث

387 رسول الله من أتته هدية وعنده قوم جلوس فهم شـركاؤه فيها فسـمعه أبو يوسف فقال أبي تعرض ذاك إنمـا قـالـه النبي والهـدايـا يومئـذ الأقط والتمر والزبيب ولم تكن الهدايا ما ترون يا غلام أشـــل إلى الخزاين ونقلت من كتاب اســـمه اللفيف ولم يذكر فيه من هو مصـــنفه قال كان عبد الرحمن بن مســـهر أخو علي بن مسـهر قاضـيا على المبارك قلت وهي بضـم الميم وبعدهـا بـاء موحـدة وبعـد الألف راء مفتوحـة وبعدهـا كـاف وهي بليـدة بين بغـداد وواســـط على

شاطىء دجلة قال فبلغ القاضي خروج الرشيد إلى البصرة ومعه أبو يوسف القاضي في الحراقة فقال عبد الرحمن القاضي لأهل المبارك أثنوا علي عند أمير المؤمنين وعند القاضي أبي يوسف فأبوا عليه ذلك فلبس ثيابه وقلنسوة طويلة وطيلسانا أسود وجاء إلى الشريعة فلما أقبلت الحراقة رفع صوته وقال يا أمير المؤمنين نعم القاضي قاضينا قاضي صدق ثم مضى إلى شريعة أخرى فقال مثل مقالته الأولى فالتفت هارون إلى أبي يوسف وقال يا يعقوب هذا شر قاض في الأرض قاض في موضع لا يثني عليه إلا رجل واحد فقال له أبو يوسف وأعجب من هذا يا أمير المؤمنين هو القاضي يثني على نفسه قال فضحك هارون وقال هذا أظرف الناس هذا لا يعزل أبدا وكان الرشيد إذا ذكره يقول هذا لا يعزل أبدا وقيل لأبي يوسف أتولي مثل هذا القضاء فقال إنه أقام ببابي مدة وشكا إلي الحاجة فوليته وقال أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب صاحب كتاب الفصيح أخبرني بعض أصحابنا قال قال الرشيد لأبي يوسف بلغني أنك تقول إن هؤلاء الذين يشهدون عندك وتقبل أقوالهم متصنعة فقال نعم يا أمير المؤمنين قال وكيف ذاك قال لأن من صح ستره وخلصت أمانته لم يعرفنا ولم نعرفه ومن ظهر أمره وانكشف خبره لم يأتنا ولم نقبله وبقيت هذه الطبقة وهم هؤلاء المتصنعة الذين أظهروا الستر وأبطنوا غيره فتبسم الرشيد وقال صدقت وقال

محمد بن سماعة سمعت أبا يوسف في اليوم الذي مات فيه يقول

388 اللهم إنك تعلم أني لم أجر في حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك تعمدا ولقد اجتهدت في الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك وكل ما أشكل علي جعلت أبا حنيفة بيني وبينك وكان عندي والله ممن يعرف أمرك ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه قلت وهذا الكلام مأخوذ من قول أبي محمد عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد رؤي يمسح على خفيه فقيل له تمسح قال نعم قد مسح عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن جعل عمر بينه وبين الله فقد استوثق ذكر هذا ابن قتيبة في كتاب المعارف في ترجمة علي رضي الله عنه وأخبار أبي يوسف كثيرة وأكثر الناس من العلماء على تفضيله وتعظيمه وقد نقل الخطيب البغدادي في تاريخه الكبير ألفاظا عن عبد الله بن المبارك ووكيع بن الجراح ويزيد بن هارون ومحمد بن إسماعيل البخاري وأبي الحسن الدارقطني وغيرهم ينبو السمع عنها فتركت ذكرها والله أعلم بحاله وكانت ولادة القاضي أبي يوسف سنة ثلاث عشرة ومائة وتوفي يوم الخميس أول وقت الظهر لخمس خلون من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين ومائة ببغداد وقيل إنه توفي سنة اثنتين وسبعين ومائة والأول أصح وولي القضاء سنة ست وستين ومائة ومات وهو على

القضـــاء رحمه الله تعالى (348) وأما ولده يوسـف فإنه كان قد نظر في الرأي وفقه وســـمع الحديث من يونس بن أبي إســـحاق الســـبيعي والســـري بن يحيى وغيرهما وولي القضاء بالجانب الغربي من بغداد في حياة أبيه وصــلى بالناس الجمعة في مدينة المنصــور بأمر هارون الرشـــيد ولم يزل على القضـــاء إلى أن مات في رجب سنة اثنتين وتسعين ومائة ببغداد وذكر الخطيب البغدادي أن أبا يوسف القاضي لما مات ولى الرشيد مكانه

389 أبا البختري وهب بن وهب القرشـــي قلت وقد تقدم ذكره في حرف الواو وكان أبو يعقوب الخريمي الشاعر المشهور صديقا لأبي يوسف ولابنه يوســف فلما توفي أبو يوســف سـمع الخريمي رجلا يقول اليوم مات الفقه فأنشـد الخريمي (يا ناعي الفقه إلى أهله * أن مات يعقوب ولا يدري) (لم يمت الفقه ولكنه * حول من صـــدر إلى صـــدر) (ألقاه يعقوب إلى يوســـف * فزال من طيب إلى طهر) (فهو مقيم فإذا ما ثوى * حل وحل الفقه في قبر) رحمهما الله تعالى وخنيس بضـــم الخاء المعجمة تصـــغير أخنس وهو الذي تأخر أنفه عن وجهه مع ارتفاع قليل في الأرنبة فالرجل أخنس والمرأة خنسـاء وهذا التصـــغير يســـمى تصـــغير ترخيم وحقيقته أن تحذف منه الحروف الزوائد ويصـــغر الباقي كما قالوا أزهر وزهير وأسود وسويد وأحمد وحميد وغير ذلك

وحبتة بفتح الحاء المهملة وسكون الباء الموحدة وبعدها تاء مثناة من فوقها ثم هاء ساكنة وكشفت عن معنى هذا الاسم في عدة مواضع من كتب اللغة وغيرها فلم أجده وبحير بفتح الباء الموحدة وكسر الحاء المهملة وقيل هو بضم الباء وبالجيم المفتوحة والأول أصح والباقي معروف لا حاجة إلى ضبطه (349) وسعد بن حبتة من جملة من استصغر يوم أحد هو والبراء بن عازب وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهم فردهم النبي ورآه النبي يوم الخندق وهو يقاتل قتالا شديدا مع حداثة

390 سنه فدعاه وقال له من أنت فقال سعد بن حبتة فقال أسعد الله جدك ومسح على رأسه رضي الله عنه وخنيس هو صاحب جهارسوج خنيس بالكوفة وهو لفظ عجمي تفسيره بالعربي أربع طرق لأن هذا المكان رحبة مربعة تفترق إلى أربع جهات والله تعالى أعلم 825 يعقوب الحضرمي أبو محمد يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي بالولاء البصري المقرىء المشهور وهو أحد القراء العشرة وهو المقرىء الثامن وله في القراءات رواية مشهورة منقولة عنه وهو من أهل بيت العلم بالقراءات والعربية وكلام العرب والرواية الكثيرة للحروف والفقه وكان من أقرإ القراء وأخذ عنه عامة حروف القرآن مسندا وغير مسند من قراة الحرميين والعراقيين وأهل الشام وغيرهم وأخذ هو القراءة

عرضــــا عن ســــلام بن ســــليمان الطويل ومهدي بن ميمون وأبي الأشـهب العطاردي وغيرهم وروى عن حمزة حروفا وسمع الحروف من أبي الحسن الكسائي وسمع من جده زيد بن عبد الله وشعبة وأما إسناده في القراءة إلى رســـول الله فإنه قرأ على ســــلام المذكور وقرأ ســـلام على عاصـــم بن أبي النجود وقرأ عاصـــم على أبي عبد الرحمن الســــلمي وقرأ أبو عبد الرحمن على علي بن أبي طالب رضـــــي الله عنه وقرأ علي على رسول الله وروى القراءة عن

391 يعقوب المذكور عرضا جماعة منهم روح بن عبـد المؤمن ومحمـد بن المتوكـل وأبو حــاتم السجستاني وغيرهم وسمع منه الزعفراني واقتدى به في اختياره عامة البصـــريين بعد أبي عمرو بن العلاء فهم أو أكثرهم على مذهبه وكان طاهر بن عبد المنعم بن غلبون إمام الجامع بالبصــــــرة لا يقرأ إلا بقراءة يعقوب وقال أبو الحسين ابن المنادي قرأ يعقوب على أبي عمرو وغلط في ذلك وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم ســئل أحمد بن حنبل رضـــي الله عنه عن يعقوب الحضـرمي فقال صـدوق وسئل أبو حاتم الرازي عنه فقال صـــدوق وقال أبو حاتم الســجســتاني كان يعقوب الحضـــــرمي أعلم من أدركنــا ورأينــا بــالحروف والاختلاف في القرآن الكريم وتعليلــه ومــذاهبــه ومذاهب النحو في القرآن الكريم وله كتاب ســــماه الجامع جمع فيه عامة اختلاف وجوه القراءات ونسب

كل حرف إلى من قرأ به وبالجملة فإنه كان إمام أهل البصرة في عصره في القراءات وكان يأخذ أصحابه بعدد آي القرآن العزيز فإذا أخطأ أحدهم في العدد أقامه وتوفي يعقوب المذكور في ذي الحجة وقيل في جمادى الأولى سنة خمس ومائتين وهو الأصح وعاش هو وأبوه إسحاق وجده زيد كل واحد منهم ثمانيا وثمانين سنة رحمهم الله أجمعين (350) وأما جد أبيه عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي فإنه كان من الأئمة الأعلام المشار إليه في علومهم قال أبو عبيدة معمر بن المثنى أول من وضع العربية أبو الأسود الدؤلي ثم ميمون الأقرن ثم عنبسة الفيل ثم عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي وقد جاء في رواية أخرى أن عنبسة قبل ميمون والله أعلم بالصواب وكان في زمان عبد الله بن أبي إسحاق عيسى بن عمر الثقفي وأبو عمرو بن العلاء ومات عبد الله قبلهما

392 وذكر أبو عبيد الله المرزباني في كتاب المقتبس في أخبار النحويين أن المبرد قال أجمعت العلماء باللغة أن أول من وضع العربية أبو الأسود الدؤلي وأنه لقن ذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثم أخذ النحو عن أبي الأسود عنبسة بن معدان المهري وأخذه عنه ميمون الأقرن وأخذه عنه عبد الله الحضرمي وأخذه عنه عيسى بن عمر وأخذه عنه الخليل بن أحمد وأخذه عنه سيبويه وأخذه عنه الأخفش وكان بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري

رضـــــي الله عنه قد جمع بين عبد الله وأبي عمرو بن العلاء وبلال يومئذ متولي البصـــــرة قال أبو عمرو فغلبني ابن أبي إســـحاق بالهمز فنظرت فيه بعد ذلك وبالغت فيه وكان عبد الله كثيرا ما يأخذ على الفرزدق الغلط في شـــعره فقال الفرزدق والله لأهجونه ببيت يســـير بين أهل الأدب ويتمثلون به فعمل (فلو كان عبد الله مولى هجوته * ولكن عبد الله مولى مواليا) وإنما قال الفرزدق ذلك لأن عبد الله مولى الحضرميين وهم حلفاء بني عبد شمس بن عبد مناف والحليف عند العرب مولى ولهم على ذلك شـــواهد ولولا خوف الإطالة لذكرت طرفا من ذلك لكن ليس هذا موضـــع ذكره

393 826 أبو عوانة الحافظ أبو عوانة يعقوب بن إســـحـاق بن إبراهيم بن يزيد النيســـابوري ثم الإسفرايني الحافظ صاحب المسند الصحيح المخرج على كتاب مســلم بن الحجاج كان أبو عوانة أحد الحفاظ الجوالين والمحدثين المكثرين طاف الشـــام ومصر والبصرة والكوفة وواسط والحجاز والجزيرة واليمن وأصـــبهان والري وفارس قال الحافظ أبو القاسم المعروف بابن عساكر في تاريخ دمشق سمع أبو عوانة بدمشـــق يزيد بن محمد بن عبد الصـــمد وإسماعيل بن محمد بن قيراط وشعيب بن شعيب بن إسحاق وغيرهم وبمصـر يونس بن عبد الأعلى وابن أخي ابن وهب والمزني والربيع ومحمدا وسعدا ابني

عبد الحكم وبالعراق سعدان بن نصر والحسن الزعفراني وعمر بن شبة وغيرهم وبخراسان محمد ابن يحيى الذهلي ومسلم بن الحجاج ومحمد بن رجاء السندي وغيرهم وبالجزيرة علي بن حرب وغيره روى عنه أبو بكر الإسماعيلي وأحمد بن علي الرازي وأبو علي الحسين بن علي وأبو أحمد ابن علي وسليمان الطبراني ومحمد بن يعقوب ابن إسماعيل الحفاظ وأبو الوليد الفقيه وابنه أبو مصعب محمد بن أبي عوانة وحج خمس مرات وقال كنت بالمصيصة فكتب إلي أخي محمد بن إسحاق فكان في كتابه (فإن نحن التقينا قبل موت * شفينا النفس من مضض العتاب) (وإن سبقت بنا أيدي المنايا * فكم من عاتب تحت التراب) وقال أبو عبد الله الحاكم أبو عوانة من علماء الحديث وأثباتهم ومن

توفي سنة ست عشرة وثلثمائة وقال حمزة بن يوسف السهمي روى بجرجان سنة اثنتين وتسعين ومائتين قال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر حدثني الشيخ الصالح الأصيل أبو عبد الله محمد بن محمد بن عمر ابن الصفار الإسفرايني قال قبر أبي عوانة بإسفرايين مزار العالم ومتبرك الخلق وبجنب قبره قبر الراوية عنه أبي نعيم عبد الملك ابن الحسن الأزهري الإسفرايني في مشهد واحد داخل المدينة على يسار الداخل من باب نيسابور من إسفرايين وقريب من

مشـهده مشـهد الإمام الأسـتاذ أبي إسـحاق الإسـفرايني على يمين الداخل من باب نيسـابور وبجنب قبره قبر الأسـتاذ أبي منصـور البغدادي الإمام الفقيه المتكلم صـاحبه الصـاحب بالجنب حيا وميتا المتظاهرين لنصـرة الدين بالحجج والبراهين سـمعت جدي الإمام عمر ابن الصـفار رحمه الله تعالى ونظر إلى القبور حول قبر الإمام الأستاذ أبي إسحاق وأشار إلى المشهد وخارج المشـهد وقال قد قيل هاهنا من الأئمة والفقهاء على مذهب الإمام الشـافعي رضـي الله عنه أربعون إماما كل واحد منهم لو تصـرف في المذهب وأفتى برأيه واجتهاده يعني على مذهب الشـافعي لكان حقيقا بذلك والعوام يتقربون إلى مشـهد الأسـتاذ أبي إسـحاق أكثر مما يتقربون إلى أبي عوانة وهم لا يعرفون قدر هذا الإمام الكبير المحدث أبي عوانة لبعد العهد بوفاته وقرب العهد بوفاة الأستاذ أبي إسـحاق وأبو عوانة هو الذي أظهر لهم مذهب الإمام الشـافعي رضـي الله عنه بإسـفرايين بعد ما رجع عن مصـر وأخذ العلم عن أبي إبراهيم المزني رحمه الله تعالى وكان جدي إذا وصـل إلى مشـهد الأستاذ رأيته لا يدخله احتراما بل كان يقبل عتبة المشـهد وهي مرتفعة بدرجات ويقف سـاعة على هيئـة التعظيم والتوقير ثم يعبر عنـه كـالمودع لعظيم عظيم الهيبة وإذا وصل إلى مشـهد أبي عوانة كان أشد تعظيمـا لـه وإجلالا وتوقيرا ويقف أكثر من ذلـك رحمهم الله تعالى أجمعين وعوانة بفتح العين المهملة

وبعد الألف نون وقد تقدم الكلام على النيسابوري والإسفرايني فلا حاجة إلى الإعادة

395 827 ابن السكيت أبو يوسف يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت صاحب كتاب إصلاح المنطق وغيره ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق فقال حكى عن أبي عمرو إسحاق بن مرار الشيباني ومحمد بن مهنا ومحمد بن صبح ابن السماك الواعظ حكى عنه أحمد بن فرح المقرىء ومحمد بن عجلان الأخباري وأبو عكرمة الضبي وأبو سعيد السكري وميمون بن هارون الكاتب وغيرهم وكان يؤدب أولاد المتوكل وقال قال محمد ابن السماك من عرف الناس داراهم ومن جهلهم ماراهم ورأس المداراة ترك المماراة وروى ابن السكيت أيضا عن الأصمعي وأبي عبيدة والفراء وجماعة غيرهم وكتبه جيدة صحيحة منها إصلاح المنطق وكتاب الألفاظ وكتاب في معاني الشعر وكتاب القلب والإبدال ولم يكن له نفاذ في علم النحو وكان يميل في رأيه واعتقاده إلى مذهب من يرى تقديم علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال أحمد بن عبيد شاورني ابن السكيت في منادمة المتوكل فنهيته فحمل قولي على الحسد وأجاب إلى ما دعي إليه من المنادمة فبينا هو مع المتوكل يوما جاء المعتز والمؤيد فقال المتوكل يا يعقوب أيما أحب إليك

396 ابناي هذان أم الحسن والحسين فغض ابن السكيت من ابنيه وذكر من الحسن والحسين رضي الله عنهما ما هما أهله فأمر الأتراك فداسوا بطنه فحمل إلى داره فمات بعد غد ذلك اليوم وكان ذلك في سنة أربع وأربعين ومائتين وقال عبد الله بن عبد العزيز وكان نهى يعقوب عن اتصاله بالمتوكل (نهيتك يا يعقوب عن قرب شادن * إذا ماسطا أربى على كل ضيغم) (فذق واحس ما استحسيته لا أقول إذ * عثرت لعا بل لليدين وللفم) وحكي أن الفراء سأل السكيت عن نسبه فقال خوزي أصلحك الله من دورق قلت بفتح الدال المهملة وبعد الواو الساكنة راء ثم قاف وهي بليدة من أعمال خوزستان قال من كور الأهواز قلت والأهواز من خوزستان أيضا قال فبقي الفراء أربعين يوما في بيته لا يظهر لأحد من أصحابه فسئل عن ذلك فقال سبحان الله أستحي أن أرى السكيت لأنني سألته عن نسبه فصدقني وفيه بعض القبح قال أبو الحسن الطوسي كنا في مجلس أبي الحسن علي اللحياني وكان عازما على أن يملي نوادره ضعف ما أملى فقال يوما تقول العرب مثقل استعان بذقنه فقام إليه ابن السكيت وهو حدث فقال يا أبا الحسن إنما هو مثقل استعان بدفيه يريدون الجمل إذا نهض بحمله استعان بجنبيه فقطع الإملاء فلما كان المجلس الثاني أملى فقال تقول العرب وهو جاري مكاشري فقام له ابن السكيت فقال أعزك الله

وما معنى مكاشـري إنما هو هو مكاسـري كسـر بيتي إلى كسـر بيته قال فقطع اللحياني الإملاء فما أملى بعد ذلك شـيئا وقال أبو العباس المبرد ما رأيت للبغداديين كتابا أحسـن من كتاب ابن السـكيت في المنطق وقال أحمد بن محمد بن أبي شـداد شـكوت إلى ابن السـكيت ضـــائقة فقال هل قلت شـــيئا قلت لا قال فأقول أنا ثم أنشدني

397 (نفســي تروم أمورا لســت مدركها * ما دمت أحذر ما يأتي به القدر) (ليس ارتحالك في كسب الغنى سفرا * لكن مقامك في ضـر هو السفر) وقال ابن الســـكيت كتب رجل إلى صـــديق له قد عرضت لي قبلك حاجة فإن نجحت فالفاني منها حظي والباقي حظك وإن تعذرت فالخير مظنون بك والعذر مقدم لك والســـلام ونقل من خطه ما مثاله عرض ســـلمان بن ربيعة الباهلي الخيل فمر عمرو بن معدي كرب الزبيدي على فرس له فقال ســـلمان هذا الفرس هجين فقال عمرو بل هو عتيق فقال سـلمان هو هجين فقال عمرو هو عتيق فأمر ســـلمان فعطش ثم دعا بطسـت فيه ماء ودعا بخيل عتاق فشـربت وجاء فرس عمرو فثنى يده وشـــرب وهذا صـــنيع الهجين فقال له ســـلمان أترى فقال عمرو أجل الهجين يعرف الهجين فبلغ ذلك عمر ابن الخطاب رضـــي الله عنه فكتب إلى عمرو قد بلغني ما قلت لأميرك وبلغني أن لك ســـيفا تسميه الصمصامة وعندي سيف أسميه مصمما وايم

الله لئن وضـــعته على هامتك لا أقلع حتى أبلغ به رهابتك فإن سـرك أن تعلم أحق ما أقول فعد والسلام الرهابة على وزن السحابة عظم في الصدر مشرف على البطن مثل اللســان والله أعلم وقال أبو عثمان المازني اجتمعت بابن الســكيت عند محمد بن عبد الملك الزيات الوزير فقال محمد بن عبد الملك سل أبا يوسف عن مسألة فكرهت ذلك وجعلت أتبأطا وأدافع مخافة أن أوحشه لأنه كان لي صديقا فألح علي محمد بن عبد الملك وقال لم لا تســأله فاجتهدت في اختيار مسألة سهلة لأقارب يعقوب فقلت له ما وزن نكتل من الفعل من قول الله تعالى (^ فأرسل

398 معنا أخانا نكتل) يوسف 63 فقال لي نفعل قلت ينبغي أن يكون ماضــيه كتل فقال لا ليس هذا وزنه إنما هو نفتعل فقلت له نفتعل كم حرف هو قال خمســة أحرف قلت فنكتل كم حرفا هو قال أربعة أحرف فقلت أيكون أربعة أحرف بوزن خمسة أحرف فانقطع وخجل وسكت فقال محمد بن عبد الملك فإنما تأخذ كل شــهر ألفي درهم على أنك لا تحســن وزن نكتل قال فلما خرجنا قال لي يعقوب يا أبا عثمان هل تدري ما صــنعت فقلت له والله لقد قاربتك جهدي وما لي في هذا ذنب قلت وذكر أبو الحسن ابن سيده هذه الحكاية في أول خطبة كتابه المحكم في اللغة لكنه قال إن ذلك كان بين يدي المتوكل والله أعلم وقال غير ابن عســاكر كان يعقوب بن الســكيت يؤدب مع أبيه

بمدينة السلام في درب القنطرة صبيان العامة حتى احتاج إلى الكسب فجعل يتعلم النحو وحكى عن أبيه أنه كان قد حج فطاف بالبيت وسعى وسأل الله تعالى أن يعلم ابنه النحو فتعلم النحو واللغة وجعل يختلف إلى قوم من أهل القنطرة فأجروا له كل دفعة عشرة دراهم وأكثر حتى اختلف إلى بشر وهارون ابني هارون أخوين كانا يكتبان لمحمد بن عبد الله بن طاهر الخزاعي فما زال يختلف إليهما وإلى أولادهما دهرا فاحتاج ابن طاهر إلى رجل يعلم أولاده وجعل ولده في حجر إبراهيم بن إسحاق المصعبي فرتب يعقوب وجعل له رزقا خمسمائة درهم ثم جعلها ألف درهم وقال أبو العباس ثعلب كان ابن السكيت يتصرف في أنواع العلوم وكان أبوه رجلا صالحا وكان من أصحاب أبي الحسن الكسائي حسن المعرفة بالعربية وكان سبب قعود يعقوب للناس وقصدهم إياه أنه عمل شعر أبي النجم العجلي وجرده فقلت ادفعه لي لأنسخه فقال يا أبا العباس حلفت بالطلاق

399 أنه لا يخرج من يدي ولكنه بين يديك فانسخه واحضر يوم الخميس فلما وصلت إليه عرف بي فحضر بحضوري قوم ثم انتشر ذلك فحضر الناس وقال ثعلب أيضا أجمع أصحابنا أنه لم يكن بعد ابن الأعرابي أعلم باللغة من ابن السكيت وكان المتوكل قد ألزمه تأديب ولده المعتز بالله فلما جلس عنده قال له بأي شيء يحب الأمير أن نبدأ يريد من العلوم فقال

المعتز بالانصـــراف قال يعقوب فأقوم قال المعتز فأنا أخف نهوضا منك وقام فاستعجل فعثر بسراويله فسقط والتفت إلى يعقوب خجلا وقد احمر وجهه فأنشـــد يعقوب (يصـــاب الفتى من عثرة بلســـانه * وليس يصـــاب المرء من عثرة الرجل) (فعثرته في القول تذهب رأســـه * وعثرته بالرجل تبرأ في مهل) فلما كان من الغد دخل يعقوب على المتوكل فأخبره بما جرى فأمر له بخمســـين ألف درهم وقال قد بلغني البيتان وكان يعقوب يقول أنا أعلم من أبي بالنحو وأبي أعلم مني بالشـعر واللغة وقال الحسـين بن عبد المجيب الموصلي سمعت ابن السكيت يقول في مجلس أبي بكر بن أبي شـــيبة (ومن الناس من يحبك حبا * ظاهر الحب ليس بالتقصـير) (فإذا ما سـألته عشـر فلس * ألحق الحـب باللطيف الخبير) وكان لابن السكيت شعر وهو مما تثق النفس به فمن ذلك قوله (إذا اشتملت على اليأس القلوب * وضاق لما به الصدر الرحيب) (وأوطنت المكاره واسـتقرت * وأرسـت في أماكنها الخطوب) (ولم تر لانكشـــاف الضـــر وجها * ولا أغنى بحيلته الأريب)

400 (أتاك على قنوط منك غوث * يمن به اللطيف المســـتجيب) (وكل الحادثات إذا تناهت * فموصـــول بها فرج قريب) وكان العلماء يقولون إصـــلاح المنطق كتاب بلا خطبة وأدب الكاتب تأليف ابن قتيبة خطبة بلا كتاب لأنه طول الخطبة وأودعها

فوائد وقال بعض العلماء ما عبر على جسر بغداد كتاب في اللغة مثل إصلاح المنطق ولا شك أنه من الكتب النافعة الممتعة الجامعة لكثير من اللغة ولا نعرف في حجمه مثله في بابه وقد عني به جماعة فاختصره الوزير أبو القاسم الحسين بن علي المعروف بابن المغربي المقدم ذكره و هذبه الخطيب أبو زكريا التبريزي وتكلم على الأبيات المودعة فيه ابن السيرافي وهو كتاب مفيد ولابن السكيت من التصانيف أيضا كتاب الزبرج وكتاب الألفاظ وكتاب الأمثال وكتاب المقصور والممدود وكتاب المذكر والمؤنث وكتاب الأجناس وهو كبير وكتاب الفرق وكتاب السرج واللجام وكتاب فعل وأفعل وكتاب الحشرات وكتاب الأصوات وكتاب الأضداد وكتاب الشجر والنبات وكتاب الوحوش وكتاب الإبل وكتاب النوادر وكتاب معاني الشعر الكبير وكتاب معاني الشعر الصغير وكتاب سرقات الشعراء وما اتفقوا عليه وغير ذلك من الكتب ومع شهرته لا حاجة إلى الإطالة في ذكر فضله وقد روي في قتله غير ما ذكرته أولا فقيل إن المتوكل كان كثير التحامل على علي بن أبي طالب وابيه الحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين وقد تقدم في ترجمة أبي الحسن علي بن محمد المعروف بابن بسام أبيات تدل على هذا أيضا وكان ابن السكيت من المغالين في محبتهم والتوالي

لهم فلما قال له المتوكل تلك المقالة قال ابن السـكيت
والله إن قنبر خادم علي رضي الله عنه خير
401 منك ومن ابنيك فقال المتوكل سلوا لسانه
من قفاه ففعلوا ذلك به فمات وذلك في ليلة الاثنين
لخمس خلون من رجب سـنة أربع وأربعين ومائتين
وقيل سنة ست وأربعين وقيل سنة ثلاث وأربعين والله
أعلم بالصواب وبلغ عمره ثمانيا وخمسين سنة ولما
مات سير المتوكل لولده يوسف عشرة آلاف درهم
وقال هذه دية والدك رحمه الله تعالى وقال أبو جعفر
أحمد بن محمد المعروف بابن النحاس النحوي كان
أول كلام المتوكل مع ابن السكيت مزاحا ثم صار جدا
وقيل إن المتوكل أمره أن يشـتم رجلا من قريش وأن
ينال منه فلم يفعل فأمر القرشي أن ينال منه فأجابه ابن
السـكيت فقال له المتوكل أمرتك فلم تفعل فلما شـتمك
فعلت وأمر به فضرب وحمل من عنده وقيذا صريعا
والله أعلم أي ذلك كان وقد تقدم في ترجمة عبد الله بن
المبارك مثل هذه القضية لما سئل عن معاوية وعمر
بن عبد العزيز وأيهما أفضل والسكيت بكسر السين
المهملة والكاف المشددة وبعدها ياء مثناة من تحتها ثم
تاء مثناة من فوقها وعرف بذلك لأنه كان كثير
السكوت طويل الصمت وكل ما كان على وزن فعيل
أو فعليل فإنه مكسور الأول وقوله خوزي بضم الخاء
المعجمة وبعد الواو زاي هذه النسـبة إلى خوزسـتان
وهو إقليم بين البصرة وبلاد فارس

402 828 يعقوب الصفار أبو يوسف يعقوب بن الليث الصفار الخارجي قد أكثر أهل التاريخ من ذكر هذا الرجل وذكر أخيه عمرو وما ملكا من البلاد وقتلا من العباد وما جرى للخلفاء معهما من الوقائع وقد اخترت من ذلك ما أودعته في هذه الأوراق فأقول قال أبو عبد الله بن محمد الأزهر الأخباري حدثني علي بن محمد وكان عالما بأمور يعقوب بن الليث الصفار ومحاربته وأول أمره أنه وأخاه عمرا كانا صفارين في حداثتهما وكانا يظهران الزهد وأن رجلا من أهل سجستان كان مشهورا بالتطوع في قتال الخوارج يقال له صالح بن النضر الكناني المطوعي من أهل بست فصحباه وحظيا به فقتلت الخوارج الذين يقال لهم الشراة أخا يعقوب المذكور وأقام صالح المذكور يعقوب المذكور مقام الخليفة ثم هلك صالح فتولى مكانه درهم بن الحسين من المطوعة أيضا فصار يعقوب مع درهم كما كان مع صالح ثم إن صاحب خراسان احتال لدرهم حتى ظفر به فحمل إلى بغداد فحبس بها ثم أطلق وخدم السلطان ثم لزم بيته يظهر النسك والحج والاقتصاد حتى غلظ أمر يعقوب وذكر شيخنا عز الدين أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير في

403 تاريخه في سنة سبع وثلاثين ومائتين ابتداء أمر يعقوب المذكور فقال في هذه السنة تغلب إنسان من أهل بست اسمه صالح بن النضر الكناني

على سجستان ومعه يعقوب بن الليث فعاد طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين أمير خراسان واستنقذها منه ثم ظهر بها إنسان اسمه درهم بن الحسين من المطوعة فغلب عليها وكان غير ضابط لأمور عسكره وكان يعقوب بن الليث قائد عسكره فلما رأى أصحاب درهم ضعفه وعجزه اجتمعوا على يعقوب بن الليث وملكوه أمرهم لما رأوا من تدبيره وحسن سيايته وقيامه بأمرهم فلما تبين ذلك له لم ينازعه في الأمر وسلمه إليه واعتزل عنه فاستبد يعقوب بالأمر وضبط البلاد وقويت شوكته وقصدته العساكر من كل ناحية فصار من أمره ما سنذكره رجعنا إلى تمام ما ذكره علي بن محمد بن أحمد قال فلما دخل درهم بن الحسين بغداد تولى يعقوب أمر المطوعة وحارب الخوارج الشراة فرزق الظفر بهم حتى أفناهم وأخرب ضياعهم وأطاعه أصحابه بمكره ودهائه طاعة لم يطيعوها أحدا كان قبله ثم اشتدت شوكته وزادت صولته فغلب على سجستان وهراة وبوشنج وما والاها وكان الترك بتخوم سجستان وملكهم رتبيل ويسمى هذا القبيل من الترك الدراري فحرضه أهل سجستان على قتالهم وأعلموه أنهم أضر من الشراة الخوارج وأوجب محاربة فغزا الترك فقتل رتبيل ملكهم وقتل ثلاثة من ملوكهم بعد رتبيل ويسمى كل ملك لهم رتبيل وانصرف يعقوب إلى سجستان وقد

حمل رؤوسهم مع رؤوس ألوف منهم فرهبته الملوك الذين حوله منهم ملك المولتان وملك
404 الرخج وملك الطبسين وملك زابلستان وملك السند ومكران وغيرهم وأذعنوا له وكان قصده هراة وبوشنج في سنة ثلاث وخمسين ومائتين وأمير خراسان يومئذ محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعي وعامله عليها محمد بن أوس الأنباري فخرج لمحاربته في تعبئة وبأس شديد وزي جميل فحاربه وأحسن مقاومته حتى احتال له يعقوب فحال بينه وبين دخول المدينة وهي بوشنج وانحاز ابن أوس منهزما فقيل أنه لم يقاتله أحد أحسن موافقته كما أحسنها ابن أوس ودخل يعقوب بوشنج وهراة وصارت المدينتان في يده وظفر بجماعة من الطاهرية وهم المنسوبون إلى طاهر بن الحسين الخزاعي فحملهم إلى سجستان حتى وجه المعتز بالله الخليفة إليه المعروف بابن بلعم وهو رجل من الشيعة برسالة وكتاب فأطلقهم قال ابن الأزهر الأخباري المذكور حدثني محمد بن عبد الله بن مروان قال حدثني ابن بلعم المذكور قال صرت إليه بكتاب أمير المؤمنين المعتز بالله إلى زرنج قلت وهي بفتح الزاي والراء وسكون النون وبعدها جيم وهي كرسي بلاد سجستان قال ابن بلعم فاستأذنت عليه فأذن لي فدخلت ولم أسلم عليه وجلست بين يديه من غير أمره ودفعت الكتاب إليه فلما أخذه قلت له قبل كتاب أمير المؤمنين

فلم يقبله وفضه فتراجعت القهقرى إلى باب مجلسه الذي كان فيه ثم قلت السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله فأعجبه ذلك وأحسن مثواي ووصلني وأطلق الطاهرية وقال ابن بلعم المذكور أيضا دخلت على يعقوب الصفار يوما فقال لي ينبغي أن يجيئنا رجل من ناحية فارس مستأمن ومعه ثلاثة أنفس أو أربعة بل هو تمام الخمسة قال فأنكرت هذا منه وأمسك فما علمت إلا وحاجبه قد دخل فسلم وقال أيها الأمير بالباب رجل مستأمن ومعه أربعة أنفس

405 فقال أدخله فدخل وسلم وقال أيها الأمير معي أربعة أنفس فأذن لهم فدخلوا عليه فالتفت إلى الحاجب وقلت قد أخذتم في المخاريق فحلف لي أيمانا مغلظة أنهم جاؤوا بغتة ما علم بهم أحد من الناس وسألت يعقوب بعد ذلك وقلت له أيها الأمير لقد رأيت منك عجبا في أمر المستأمنة فكيف علمت بهم فقال أخبرك أني فكرت في أمر فارس ورأيت غرابا واقفا بإزاء طريقها واختلجت إحدى أصابع رجلي ثم تبع بعضها بعضا فعلمت أنه عضو غير شريف وأنه سيأتينا من ذلك الصقع قوم مستأمنة أو رسل ليسوا بأجلة فكانوا هؤلاء وقال علي بن الحكم سألت يعقوب بن الليث الصفار عن الضربة التي على وجهه وهي منكرة على قصبة أنفه ووجنته فذكر أن ذلك أصابه في بعض وقائع الشراة وأنه طعن رجلا منهم فرجع عليه فضربه هذه الضربة فسقط نصف وجهه حتى رد

وخيط قال فمكثت عشرين يوما في فمي أنبوبة قصب وفمي مفتوح لئلا يتقرح رأسي وكان يصب في حلقي الشيء بعد الشيء من الغذاء قال حاجبه وقد كان مع هذه الضربة يخرج ويعبي أصحابه للحرب ويقاتل وأرسل يعقوب إلى المعتز بالله هدية سنية من جملتها مسجد فضة مخلع يصلي فيه خمسة عشر إنسانا وسأل أن يعطى بلاد فارس ويقرر عليه خمسة عشر ألف ألف درهم على أن يتولى إخراج علي بن الحسين بن قريش وكان على فارس ثم شخص يعقوب من سجستان في أثر كتابه إلى المعتز يريد كرمان ثم نزل بم قلت وهي بالباء الموحدة المفتوحة وبعدها ميم مخففة وهي الحد الفاصل بين سجستان وكرمان قال وكان بكرمان العباس بن الحسين بن قريش أخو علي بن الحسين المذكور ومعه أحمد بن الليث الكردي فخرجا عن كرمان يريدان شيراز وقدم يعقوب أخاه علي بن الليث إلى السيرجان قلت وهي بكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها ثم راء وجيم وبعد الألف نون وهي مدينة كرمان قال وضم إليه جماعة

406 فأقام هو على بم فرد أحمد بن الليث الكردي إليه من الطريق في جمع كثير من الأكراد وغيرهم فصاروا إلى درابجرد قلت وهي بفتح الدال المهملة ثم راء وألف وبعدها باء موحدة ثم جيم مكسورة ثم راء وبعدها دال مهملة وهذا الاسم يقع

بالاشـــتراك على ثلاثة مواضـــع الأول كورة عظيمة مشهورة بفارس قصبتها درابجرد والثاني قرية بفارس أيضـــا من أعمال اصـــطخر فيها معدن الزئبق فيحتمل أن يكون مصـــيرهم إلى الأولى أو إلى الثانيـة وأمـا الثالثة فهو موضع بنيسابور ولا يحتمل مصيرهم إليه لأنه بخراســـان فلا تعلق له بفارس قال الراوي فظفر أحمد بن الليث بجماعة من أصـــحاب يعقوب يطلبون العلف فقتل بعضـــهم وهرب منهم جماعة ووجه أحمد بن الليث برؤوس من قتل من أصـــحاب يعقوب إلى فارس فنصـــب علي بن الحسـين رؤوسـهم فبلغ الخبر يعقوب فدخل كرمان فندب علي بن الحسـين لمحاربته طوق بن المغلس في خمســـة آلاف من الأكراد ســـوى من تقدم مع أحمد بن الليث الكردي وســـار طوق حتى نزل على مدينـة إيـاس من عمـل كرمـان فورد عليـه كتاب يعقوب يعلمه أنه أخطأ إذ دخل عملا ليس إليه فرد عليه طوق أنت بعمل الصـــفر أعلم منك بعمل الحروب فعظم ذلـك على يعقوب وكـان في عســـكر طوق ثلثمـائـة رجل من الأبنـاء فوافى يعقوب مـدينـة إياس فأوقع بطوق وقتل أصـــحابه وهزم من بقي منهم وصـــبر الأبناء الثلثمائة حتى أشـــجوا يعقوب فأعطاهم الأمـان فلم يقبلوا حتى قتلوا عن آخرهم وقتـل يعقوب في هذه الوقعة ألفي رجل وأســـر ألفا وأســـر طوق بن المغلس وقيده بقيـد خفيف ووســـع عليـه في مطعمـه وغيره واســـتخرج منـه الأموال ورحـل يعقوب عن

إياس ودخل عمل فارس فخندق علي بن الحسين على نفسه بشيراز وذلك

407 في يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة خمس وخمسين ومائتين وكتب علي بن الحسين إلى يعقوب يعلمه أن طوق بن المغلس فعل ما فعل من غير أمره وأنه لم يأمره بمحاربته وقال له إن كنت تطلب كرمان فقد خلفتها وراءك وإن كنت تطلب فارس فكتاب من أمير المؤمنين بتسليم العمل لأنصرف فرد عليه يعقوب إن كتابا من السلطان معه لا يتهيأ أن يوصله حتى يدخل البلد وإنه إن أخلى له البلد فقد ودع وأزاح علته وإلا فالسيف بيننا والموعد مرج سنكان وهو مرج واسع بينه وبين شيراز ثلاثة فراسخ وكتب صاحب البريد ووجوه البلد إلى يعقوب يعلمونه أنه ما ينبغي له مع ما وهب له الله تعالى من التطوع والديانة وقتل الخوارج ونفيهم عن بلاد خراسان وسجستان التسرع إلى سفك الدماء لأن علي بن الحسين لن يسلم البلد إلا بكتاب الخليفة واعتد أهل شيراز للحصار وقد كانت المنهزمة من أصحاب طوق أسروا ثلاثة أنفس من أصحاب يعقوب فحبسهم علي بن الحسين وقد كان طوق وقت خروجه إلى يعقوب اشترى دارا بشيراز بسبعين ألف درهم وقدر للنفقة عليها مالا فكتب طوق إلى ابنه لا تقطع البناء عن الدار فإن الأمير يعقوب قد أكرمني وأحسن إلي وسأل في إطلاق الثلاثة المأسورين من

أصـــحاب يعقوب وكان يعقوب ســـأله ذلك ليطلقه إذا وافوا إليـه فقال علي بن الحســـين اكتبوا إلى يعقوب ليصلب طوق بن المغلس وإن أقل عبد من عبيده أكبر عنده منه وســـأل يعقوب طوق بن المغلس عن أمور علي بن الحسين فضعف أمره عنده فتقرب طوق إلى يعقوب بمال عنده بشـــيراز وأنه يكتب إلى أهله في حمله إليه ليقوى به على حربه فأمره يعقوب أن يفعل ذلك فكتب إلى ابنه فوقع الكتاب في يد علي بن الحسين فـأخـذ المـال وغيره من دار طوق وحملـه إلى داره وزحف يعقوب واحتشد علي بن الحسين قال أحمد بن الحكم قال لي يعقوب أخبرني عن علي بن الحســـين أمسلم

408 هو قلت نعم قال أفرأيت مســـلما يوجه بالأكراد الكفار إلى بلاد المسـلمين فيقتلونهم ويحملون نســاءهم ويأخذون أموالهم ألم تعلم أن أحمد ابن الليث الكردي قتل بكرمان ســـبعمائة إنســـان على دم واحد وافتض الأكراد مائتي بكر من أهل البيوتات وحملوا معهم نحو ألفي امرأة إلى بلادهم أفرأيـت مســـلمـا يرضـــى بهذا قال قلت فعل أحمد هذا من غير أمره ثم قال له يعقوب في بعض مناظراته قل لعلي بن الحسين إن معي قوما أحرارا جئت بهم وليس يتأتى لي ردهم إلا بما يحبون فوجه إلي بما يرضـــيهم ووجه لي في نفســـي ما يشـــبه مثلي من البر فإذا فعلت فأنا أخوك وعونك على من حاربك وأدفع لك كرمان تأكلها

وأنصرف إلى عملي وارتحل يعقوب فنزل قرية يقال لها خوزاستان ووافى أحمد بن الحكم إلى علي بن الحسين يوم الثلاثاء لثمان خلون من جمادى الأولى من السنة وعلى يده كتاب يعقوب قال ابن الحكم فلم يفهم علي بن الحسين شيئا مما جئت به من الدهش وحاصل الكتاب بعد الدعاء له فهمت كتابك وذكرك ورودي هذا البلد العظيم خطره بغير إذن أمير المؤمنين فإني لست ممن تطمع نفسه في محاولة ظلم ولا ممن يمكنه ذلك وقد أسقطت عنك مؤونة الاهتمام في هذا الباب فإن البلد لأمير المؤمنين ونحن عبيده نتصرف بأمره في أرضه وسلطانه وفي طاعة الله وطاعته وقد استمعت من رسولك ورجعت إليه في جواب ما عملته وأدائه ما يورده عليك مما رجوت لنا ولك فيه صلاحا فإن استعملته ففيه السلامة إن شاء الله تعالى وإن أبيت فإن قدر الله تعالى نافذ لا محيص عنه ونحن نعتصم بالله من الهلكة ونعوذ به من دواعي البغي ومصارع الخذلان ونرغب إليه في السلامة دينا ودنيا بلطفه مد الله في عمرك وكتب يوم الاثنين لليلة خلت من جمادى الأولى سنة خمس وخمسين ومائتين

409 ثم تزاحف الفريقان وقد اجتمع في عسكر علي بن الحسين خمسة عشر ألف إنسان ووجه أحمد بن الليث الطلائع وذلك في غداة الأربعاء لأربع خلون من الشهر المذكور ولما كان يوم الخميس وافت طلائع يعقوب ثم التقى الجيشان فحملوا حملة وفي

الثانية أزالوا أصحاب علي بن الحسين عن مواضعهم وصـــدقت المجالدة فانهزموا ومروا على وجوهم لا يلوي أحد على أحد وعلي بن الحســين يتبع أصــحابه ويصــيح فيهم أن ارجعوا وقفوا يناشــدهم الله تعالى فلم يلتفتوا إليه وبقي في عدة من أصحابه فوافت المنهزمة أبواب شيراز مع العصر يوم الخميس المذكور وكانت الوقعة بعد الظهر فضــاقت عليهم الأبواب فمروا على وجوههم في نواحي شــيراز وبلغت هزيمتهم الأهواز وكانت القتلى معهم منهم مقدار خمسة آلاف وأصابت علي بن الحســين ثلاث ضــربات واعتورته أســياف أصحاب يعقوب وسقط عن دابته فأرادوا قتله فأعلمهم أنه علي بن الحســين فأخذوا عمامته ووضــعوها في وســطه وقادوه إلى يعقوب وطلب الذي أسـره الثواب من يعقوب فأمر له بعشرة آلاف درهم فأبى أن يأخذها فقال إنما جئتني بكلب أســرته مالك عندي غيرها فانصرف الرجل وقنع يعقوب عليا عشرة أسواط بيده وأخذ حاجبه بلحيته فنتف أكثرها وأمر يعقوب أن يقيد بقيد فيه عشـرون رطلا وصـيره مع طوق بن المغلس في الخيمة وكان قد أنفذ إلى ابن المغلس وقيده أيضــا وصــار يعقوب من فوره إلى شـيراز وتفرق أصـحاب علي بن الحســين في النواحي ثم دخل يعقوب إلى شـيراز والطبول تضـرب بين يديه وظن أهل شــيراز يؤذيهم ويســتحل دماءهم وأموالهم بحربهم فلم ينطق أحد لأنه كان وعد أصــحابه إن هو ظفر أن يطلقهم

وينهب شـــيراز وبلغ القوم ذلك فلزموا بيوتهم ورجع يعقوب من ليلته إلى عسكره بعد أن طاف شيراز فلما أصـــبح نادى بالأمان ليخرجوا إلى الأســـواق فخرج الناس ونادى في كتاب

410 علي بن الحسين أن برئت الذمة ممن آواهم وحضـــرت الجمعة فأمر الخطيب فدعا للإمام المعتز بالله ولم يدع لنفسه فقيل له في ذلك فقال الأمير لم يقدم بعد وقال إنما مقامي عندكم عشـــرة أيام ثم أرجع إلى عمل سجستان وبعث أخاه إلى منزل علي بن الحسين فأحضـــر الفرش والأثاث وفتش على الأموال فلم يقف عليها فأحضر عليا فتهدده وتوعده فذكر أنه يدلهم على المال فحمل إلى منزله فاســـتخرج أربعمائة بدرة وقيل إنه أخذ منه ألف بدرة وعوض يعقوب أصـــحابه من نهب شـــيراز كل رجل ثلثمائة درهم ثم عذب يعقوب عليا بأنواع العذاب وعصر أنثييه وشد الجوزتين على صـــدغيه فقال علي قد أخذت ما أخذت أخذت مني فرشـــي وقيمته أربعون ألف دينار وألح عليه بالعذاب وأعلمه أنه لا يقنعه منه دون ثلاثين ألف ألف دينار وخلط ووسوس من شدة العذاب وقيده بأربعين رطلا فدلهم على موضـــع في داره فاســـتخرجوا منه أربعة آلاف ألف درهم وجوهرا كثيرا ثم ألح عليه بالعذاب وسلمه إلى الحسن بن درهم فضـربه وعذبه وشتمه وعذب طوق بن المغلس أيضا وحسبهما في بيت واحد وارتحل يعقوب من شيراز يوم السبت لليلتين بقيتا من

جمادى الأولى من السنة إلى بلاده وحمل علي بن
الحسين وطوق بن المغلس معه فلما أتى كرمان
ألبسهما المصبغ من الثياب وقنعهما بمقانع ونادى
عليهما وحسبهما ومضى إلى سجستان وخلع الخليفة
المعتز بالله لثلاث خلون من رجب من هذه السنة
وتولى الخلافة الإمام المهتدي بالله في ذلك اليوم وخلع
المهتدي بالله مع صلاة الظهر من يوم الثلاثاء لأربع
عشرة بقيت من رجب سنة ست وخمسين ومائتين
وبويع المعتمد على الله ولم يكن ليعقوب الصفار في
خلافة المهتدي كبير أمر بل كان

411 يغزو ويحارب من يليه من الملوك
بسجستان وأعمالها ويتطرف كور خراسان وما قرب
من قوهستان ونواحي هراة وبوشنج وما اتصل
بسجستان ثم عاد يعقوب إلى بلاد فارس وجبى
غلاتها ورجع بثلاثين ألف ألف درهم وصار إلى
سجستان وأقام محمد بن واصل بفارس يتولى الحرب
والخراج ويكاتب الخليفة ويحمل بعض ما يجبى من
الأموال فكان مقدار ما يحمل في السنة خمسة آلاف
ألف درهم من الخراج ببلاد فارس وكان مقيما بها
غلبة عليها ولو أمكن الخليفة صرفه عنها ببعض
أوليائه لما أقره ثم ورد الخبر في جمادى الآخرة من
سنة ثمان وخمسين ومائتين بدخول يعقوب مدينة بلخ
ثم خرج منها ودخل نيسابور في ذي القعدة من سنة
تسع وخمسين ومائتين واحتاط على محمد بن طاهر

الخزاعي أمير خراسان وجميع الطاهرية ثم خرج عنها في المحرم من سنة ستين ومائتين ومعه محمد بن طاهر مقيدا ونيف وستون من أهله وتوجه نحو جرجان للقاء الحسن بن زيد العلوي أمير طبرستان وجرجان ولما بلغ الحسن بن زيد أن يعقوب يقصده أخذ من أموال الخراج ثلاثة عشر ألف ألف درهم بقايا وسلفا وتخلص من جرجان إلى طبرستان ودخل يعقوب جرجان ووجه من أصحابه من أخذ سارية طبرستان وكان بجرجان يعلق على دوابه كل يوم ألف قفيز شعيرا ثم خرج يعقوب إلى طبرستان وخرج إليه الحسن بن زيد في خلق كثير وأعلم يعقوب أصحابه أنه يقتل من انهزم منهم وتقدم بنفسه للحرب فتبعه خمسمائة من عبيده فحمل على الحسن وأصحابه حملة واحدة فكانت الهزيمة على القوم وكان الحسن بن زيد قد أعد في كل قرية في طريقه لانهزامه برذونا وبغلا لأنه كان رجلا ثقيلا كثير اللحم وتلاحق أصحاب يعقوب به فتبع الحسن بن زيد في خمسة آلاف خيل جريدة وأخذ يعقوب مما كان مع الحسن بن زيد ثلثمائة وقر مالا أكثرها عين وظفر بجماعة من آل أبي طالب فأساء إليهم وأسرهم وكانت الوقعة يوم الاثنين لأربع بقين من رجب سنة ستين ومائتين

412 ثم تقدم يعقوب فدخل آمل قلت وهي بالهمزة الممدودة والميم المضمومة وبعدها لام وهي كرسي بلاد طبرستان قال وهرب الحسن بن زيد إلى

مدينة يقال لها سالوس فلم يجد من أهلها ما كان يعرفه منهم فتنحى عنهم ثم خرج يعقوب من آمل فطلب الحسن بن زيد فرحل مرحلة واحدة وبلغه الخبر أن الحسين بن طاهر بن عبد الله بن طاهر قد دخل مرو الروذ ومعه صاحب خوارزم في ألفي تركي فانزعج يعقوب لذلك وقصر من الإيغال في طلب الحسن بن زيد فرجع وكتب إلى أمير الري في ذي الحجة من سنة ستين يأمره أن يخرج من الري ويعلمه أن أمير المؤمنين قد ولاه إياه فبلغ ذلك الخليفة فأنكره وعاقب غلمانه الذين كانوا ببغداد بالحبس وأخذ الأموال ثم دخلت سنة إحدى وستين ومائتين ويعقوب ببلاد طبرستان فخرج في المحرم يريد جرجان فلحقه الحسن بن زيد من ناحية البحر فيمن اجتمع إليه من الديلم وأهل الجبال وطبرستان فشعث من يعقوب وقتل من لحق من أصحابه فانهزم يعقوب إلى جرجان فجاءت بها زلزلة عظيمة قتلت من أصحابه ألفي إنسان ورجعت طبرستان إلى الحسن بن زيد وهي آمل وسارية وما يتصل بهما وأقام يعقوب بجرجان يعسف أهلها بالخراج ويأخذ أموال الناس ودامت الزلزلة ثلاثة أيام وأتى جماعة من أهل جرجان إلى بغداد فسئلوا عن يعقوب الصفار فذكروه بالجبروت والعسف فعزم الخليفة على النهوض إليه واستعد لذلك ولما رجع الصفار إلى جوار الري ورجع الحاج عن الموسم كتب الخليفة المعتمد على الله إلى عبيد الله بن

عبد الله بن طاهر بن الحسين وهو يومئذ متولي
العراق بأن يجمع الحاج من أهل خراسان وطبرستان
وجرجان والري ويقرأ عليهم كتابا منه إليه فجمع
الحاج القادمين من أقاصي البلاد وقرأ عليهم كتاب
أمير المؤمنين بالوقوع في الصفار وعمل ثلاثين
نسخة ودفع إلى أهل كل كورة نسخة لتذيع الأخبار
بهذه النسخ في الآفاق ونمي الخبر إلى يعقوب الصفار
بما كان من حبس غلمانه وما كان من جمع الحاج في
دار عبيد الله وما دفع
413 إليه من النسخ وانكشف له رأي الخليفة في
قصده فرجع إلى نيسابور وإنما رجع لأنه لم يجد عدة
تصلح للقاء الخليفة ولما دخل إلى نيسابور أساء إلى
أهلها بأخذ الأموال ورجع يريد جهة سجستان في
جمادى الأولى من سنة إحدى وستين ومائتين ولما
رجع إلى سجستان خرجت كتب الخليفة إلى أصحاب
الممالك بخراسان وذوي الجاه والعدد بتولية كل رجل
ناحية فوردت الكتب وأصحاب الصفار متفرقون في
كور خراسان ثم إن الصفار وصل إلى عسكر مكرم
من أعمال خوزستان وكاتب الخليفة وسأله ولاية
خراسان وبلاد فارس وما كان مضموما إلى آل طاهر
بن الحسين الخزاعي من الكور وشرطتي بغداد وسر
من رأى وأن يعقد له على طبرستان وجرجان والري
وأذربيجان وقزوين وأن يعقد له على كرمان
وسجستان والسند وأن يحضر من قرئت عليهم الكتب

التي نســـخت في دار عبيد الله بن عبد الله بن طاهر
ويقرأ عليهم خلاف مـا قرىء عليهم أولا من ذكره
ليبطل ذلك الكتاب بهذا الكتاب ففعل ذلك الموفق بالله
أبو أحمد طلحة بن المتوكل على الله وهو أخو الخليفة
المعتمد على الله والد المعتضـــد بالله الخليفة القائم بعد
عمه المعتمد على الله وكان الموفق مســـتوليا على
الأمور كلها وليس للمعتمد معه سـوى اسـم الخلافة لا
غير وأجابه إلى ما طلب وجمع الناس وقرأ عليهم ما
أحبه الصـــفـار وأجيب إلى الولايـة التي طلبها
واضــطربت الموالي بسـر من رأى من إجابة الخليفة
إلى ما طلبه الصفار وتحركوا ثم إن الصفار لم يلتفت
إلى ما أجيب إليه من ذلك ودخل السـوس وهي أيضـا
مدينة من أعمال خوزسـتان بالقرب من عسـكر مكرم
ولما دخلها عزم على محاربة الخليفة المعتمد وتأهب
له الخليفة لينحدر إليه في دجلة ثم تقدم الصـفار وتقدم
إليه عسـكر الخليفة وقد كانت الموالي ارتابت واتهمت
الأمير الموفق وتوهمت أن إقبال الصفار بسبب ما أنفذ
إليه من الكتب وإلا فأي عجيب أعجب من خارج قصد
من زرنج كرسـي سـجسـتان وهي الحد الفاصـل بين
السـند والترك وخراسـان والوصـول إلى بلاد العراق
لمحاربة الخليفة وهو في جيوشه وعدده وتقادم مملكته
في شرق الأرض وغربها والصفار منفرد
414 بجيشـه ليس معه من يعضـده ولا يشاركه
في هذا الأمر ولما بلغ الخليفة ذلك دعا ببرد النبي

وقضـــيبه وأخـذ القوس ليكون أول من رمى ولعن الصفار فطابت أنفس الموالي ولما كان صبيحة الأحد لتســع خلون من رجب وردت عســاكر الصــفار في التعبية إلى موضــع يقال له اصــطربند وهي قرية بين الســيب ودير العاقول من النهروان الأوســط وجمع أصـــحابه ليحمل بهم وتقدم بنفســـه كما كان يفعل قبل ذلك وأقبل وعليه دراعة ديباج ســـوداء ولما تواقف الصـــفان خرج من الموالي خشـــتج القائد فقام بين الصــفين وقال لأصــحاب الصــفار يا أهل خراســان وســجســتان ما عرفناكم إلا بطاعة الســلطان وتلاوة القرآن وحج البيت وطلب الإنكار وإن دينكم لا يتم إلا باتباع الإمام وما نشــك أن هذا الملعون قدموه عليكم وقال لكم إن الســلطان قد كتب إليه بالحضـــور وهذا الســـلطـان قـد خرج لمحـاربتـه فمن آثر منكم الحق وتمسك بدينه وشرائع الإسلام فلينفرد عنه إذ كان شاقا للعصــا محاربا للســلطان فلم يجيبوه عن كلامه وكان هذا خشتج شجاعا مقداما ولما تخلص محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحســين أمير خراســان من أســر الصــفار وقد تقدم ذكر أســره وحمله مقيدا قال له خشتج يا آل طاهر اشتريتمونا بأموالكم وأهديتمونا إلى ولد العباس فاستخلفونا وملكونا الضياع والأموال حتى قدنا الجيوش وحاربنا عن بيضة الإسلام فلم نخرج من الدنيا حتى حاربنا الصــفار عنك يا والي خراســان مع مولانا أمير المؤمنين وخلصـــناك بعد الأســـر والقيد

الثقيل من مدينة إلى مدينة على بغل إكاف ورددناك من العراق إلى خراسـان فالحمد لله على ما تفضـل به مولانا من خلاصك وأولانا هذا الفعل الجميل فيك

415 رجعنا إلى تتمة خبر الصفار قال الراوي وحزر عسكر الصفار فكانت مساحة معسكره ميلا في ميل وكانت دوابهم في غاية الفراهة وقيل إن جمعهم كان يزيد على عشـرة آلاف إنسـان ووضـع الخليفة العطاء في الجند وقطع ما في الطريق من الشـجر والدغل واسـتعدوا للحرب وجدوا فيها وشـمروا وقيل ما هو إلا أن تنتصـروا أو تنهزموا فلا ترجع دولتكم إليكم ووقف الخليفة المعتمد بنفسـه وإلى جانب ركابه محمد بن خالد بن يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني وقد تقدم ذكر جده يزيد بن مزيد ووقف معه جماعة اكتنفوا الخليفة من أهل البأس والنجدة وتقدم بين يديه الرماة بالنشـاب وكشـف الموفق أخو الخليفة رأسـه وقال أنا الغلام الهاشـمي وحمل على أصـحاب الصـفار وقتل بين الطائفتين خلق كثير فلما رأى الصـفار تلك الحال ولى راجعا تاركا أمواله وخزائنه وذخائره ومر على وجهه فلم تتبعه العسـاكر وما أفلت من أصـحابه رجل إلا بسـهم أصـابه وأدركهم الليل فتسـاقطوا في الأنهار لازدحامهم وثقل الجراح بهم قال أبو السـاج داود ابن دوست الذي تنسب إليه الأجناد الساجية ببغداد للصفار لما انهزم ما رأيت معك شـيئا من تدبير الحروب وكيف كنت تغلب الناس فإنك جعلت ثقلك وأموالك

وأسراك أمامك وقصدت بلدا على قلة المعرفة منك به وبمغايصـــــه وأنهاره بغير دليل وقاتلت يوم الأحد والريح عليك وســـرت من الســـوس إلى واســـط في أربعين يوما وأحوال العســـاكر مختلة فلما توافت عددهم وجاءتهم أموالهم واستحكم أمرهم عليك أقبلت من واســـط إلى دير العاقول في يومين وتأخرت عند إمكان الفرصـــة وأقبلت تعدو في موضـــع التثبت فقال الصـــفار لم أعلم أني أحارب ولم أشـــك في الظفر وتوهمت أن الرســـل ترد علي فبدروا الأمر فأتيت بما قدرت عليه قلت هذا آخر ما نقلته من كلام ابن الأزهر مع الاختصار

416 ونقلت من تاريخ أبي الحسين عبيد الله بن أحمد بن أبي طاهر الذي جعله ذيلا على تاريخ أبيه في أخبار ببغداد وقد أطال القول فيه فاختصـــرته وحذفت ما تكرر منه فقال كان وثوب يعقوب بن الليث على درهم وغلبته على سجستان يوم السبت لخمس خلون من المحرم سنة سبع وأربعين ومائتين وكانت ولاية درهم بن نضـــر كذا ثلاث ســـنين بعد إخراجه صـــالح بن النضـــر وهو رجل من بني كنانة من سجستان في ذي الحجة سنة سبع وثلاثين ومائتين ولم يزل يعقوب الصفار مقيما بسجستان يحارب الشراة والأتراك ويظهر أنه متطوعي حتى كانت ســـنة ثلاث وخمســـين ومائتين فخرج إلى هراة ثم قصـــد بوشـــنج وحاصـــرها وأخذها عنوة وكان ذلك في خلافة المعتز

ومات المعتز ويعقوب على حاله ولم يزل على ذلك إلى أيام المعتمد على الله ثم دخل بلخ وخرج منها ثم وصل إلى رامهرمز وهو يظهر الطاعة للخليفة المعتمد وذلك في المحرم من سنة اثنتين وستين ومائتين ثم أرسل رسله إلى المعتمد فدخلوا بغداد لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة من السنة المذكورة ثم صار إلى واسط وأقام بها نائبا عنه ثم صار إلى دير العاقول يوم السبت لثمان خلون من رجب ثم صار إلى اصطربند فنزل بها ولما اتصل خبره بالمعتمد وأنه يقصد بغداد جمع أصحابه من الأطراف وخرج من سر من رأى قاصدا لمحاربته ودخل بغداد يوم الأحد لخمس بقين من ذي الحجة من السنة قال أبو الفرج كاتب القاضي أبي عمر لما نهض الخليفة لمحاربة الصفار لم تزل كتبه تسير إليه من الطريق يؤمر بالانصراف ويحذر سوء عاقبة فعله وأن أمير المؤمنين قد نهض إليه في العدد والعدد وكتب الصفار واردة بأني قد علمت نهوض أمير المؤمنين ليشرفني وينبه على موقعي منه ثم عبى الخليفة جيشه للقتال على القرية المذكورة وأرسلوا الماء على طريق الصفار فكان سبب هزيمته فإنهم أخذوا عليه الطريق وهو لا يدري واصطف الفريقان ولم

417 يزل القوم يحمل بعضهم على بعض حتى انهزم الصفار فغنم الناس من أثقاله غنيمة عظيمة

وتوهموا أن ذلك حيلة منه ومكر ولولا ذلك لاتبعوه ولقد حدثني من حضــــر ذلك أن رشـــق الجند الموالي كان في ذلك الوقت عشــــرين ألف ســـهم وانصــــرف الخليفة مســــرورا بما فتح الله عليه وكان ممن تخلص من أســـره ذلك اليوم أبو عبد الله محمد بن طاهر أمير خراســــان وجاء إلى الخليفة وهو في قيده ففك الخليفة عنه القيد وخلع عليه خلعة ســــلطانية وذكر المعتمد ذلك النهار أنه رأى تلك الليلة في المنام كأن إنســــانا كتب على صدره (^ إنا فتحنا لك فتحا مبينا) الفتح 1 وقص الرؤيا على خواصـــه وقال لهم قد وثقت بنصــر الله تعالى وقبل الوقعة وردت كتب الصـــفـار إلى الخليفة وفيها خضـــوع وتضـــرع ويخبر بأنه لم يجيء إلا لخدمة أمير المؤمنين والتشــــرف بالمثول بين يديه والنظر إليه وأن يموت تحت ركابه فقال المعتمد نحن في مخاريق الصــــفار بعد أعلموه أنه ما له عندي إلا الســـيف وأمر الخليفة بالكتاب إلى أبي أحمد عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وهو عم محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر يخبره بالفتح وخلاص ابن أخيه محمد بن طاهر فكتب إليه وهو يومئذ يتولى الشــرطة ببغداد نيابة عن ابن أخيه المذكور فإنه كان يتولى خراســـان وشــرطتي بغداد وســر من رأى وفي الكتاب فصـــول طويلة وحاصـــله أنه عدد ذنوب الصـــفار وما قابله به الخليفة من الإحســــان والإنعام وأنه قلده خراســـان والبلاد التي تقدم ذكرها قبل هذا وأنه رفع مرتبته

وأمر بتكنيته في كتبه وأقطعه الضياع السنية ولم يبق شـــيء مما يقدر فيه استصـلاحه إلا فعله فما زاده ذلك إلا البغي والطغيان والتمس أشـــياء إن رد عنها قصـــد أبواب أمير المؤمنين لإثـارة الفتنـة وابتغاء الغلبـة فلم ير أمير المؤمنين إجابته إلى ما التمســـــه وتابع الكتب بالرجوع إلى أعماله الجليلة التي ولاه إيا ها وحذره التعرض لزوال النعم التي أنعم الله عليه بها فقد خالفه وعصـــــاه وخرج عن طاعته وعرفه أنه إن أقام على المصـــير إلى الباب فقد عصـــاه وخرج عن طاعته ثم وجه إليه في ذلك مرة بعد أخرى مع جماعة

418 من القضاة والفقهاء والقواد وقدر بتوجههم إليه أنه يرجع إلى ما هو ألزم به وأوجب عليه فأقام على سبيل واحد في البغي والعناد والعصيان ولم يثنه الإرشـــاد ولم يزل اسـتحواذ الشـيطان عليه يقوده إلى الحين ويصده عن سبيل النجاة إلى مهاوي الهلكة فلما تبين أمير المؤمنين ذلك منه رأي أن يقضـــي عليه في أمر مثلـه فنهض متوكلا على الله تعالى معتمدا على كفايته لدفع الملعون عما يحاوله وهو يغذ الســـير إلى المصـــرع الذي ســـبق به قضـــاء الله تعالى فيه حتى توســـط الطريق بين مدينة الســـلام وواســـط وأظهر أعلاما على بعضـــها الصـلبان واسـتنجد أهل الشـرك على أهل الإيمان وبارز الله بسريرته ليسلمه بجريرته وفارق شـرائع الإسـلام وأحكامه نقضـا للعهود ونكثا وخفرا للذمة وإعلانا للمشـاقة فقدم أمير المؤمنين أخاه

الموفق بالله أحمد ولي عهد المسلمين ومعه جماعة من موالي أمير المؤمنين الذين أخلصـوا لله طاعتهم وثبت في المحـامـاة عن دولتـه بصـــائرهم وأتبعهم أمير المؤمنين الرغبة إلى الله تعالى في تأييدهم ونصــرهم على عـدوهم ولعنـه أمير المؤمنين في الأوقـات والمواقف التي علم الله صـــدق نيته فيها وألحقه وبالها ووقف أمير المؤمنين يتأمل ما يكون من أخيه ومواليه وأوليائه ويواصل الإمداد والجيوش إليهم وكان الموفق بـالله في قلـب العســكر وظهر الملعون عـدو الله في أشـياع ضــلالته قد ادرع العصــيان وتســربل البغي واعتمد على وفور حشـــده وكثرة أتباعه فلما تراءى الجمعان شــهر عدو الله وأشــياع ضــلالته الســلاح وأسرعوا إلى موالي أمير المؤمنين وأوليائه وشرعت في الملعون وضــلاله ســيوف الحق باترة ورماحه طاعنة وســهامه نافذة حتى أثخن الملعون بالجراح ورأى أتباع ضـلالته ما حل به فبادروا بالويل والثبور وأكـب عليهم موالي أمير المؤمنين وأوليـائـه يقتلون فيهم ويأســرون منهم وعجل الله إلى النار من جماعته من لا يحصـــى عدده ولم يزل الأمر كذلك حتى انتزع أبو عبد الله محمد بن طاهر مولى أمير المؤمنين سالما من أيـديهم وحســروا عن مســتقرهم فولى البـاقون منهزمين مفلولين لا يلوون على شيء وأسلم الله تعالى الملعون وهم وما كانوا حووه وملكوه في سـالف الأيام

التي أملى الله تعــالى لهم فيهــا أقطــار الأرض من الأموال والأمتعة والأثاث والإبل

419 والدواب والبغال والحمير فأفاءه الله على الموالي وســائر الأولياء وملكهم إياه وصـــاروا به إلى رحالهم وعلى الجملة فإن هذا الكاتب أطال القول في ذلك فاختصـــرته ثم كتب في آخره وكتبه عبيد الله بن يحيى يوم الأربعاء لاثنتي عشــرة ليلة خلت من رجب ســـنة اثنتين وســـتين ومائتين ثم قال هذا المؤرخ بعد هذا ومضـــى الصـــفار منهزما إلى واســـط يتخطف أصـــحابه أهل القرى وتؤخذ أســـلحتهم واسـلابهم ولم تتبعه الموالي مخافة رجعته ولاشـــتغالهم بالكســـب والنهب فأمســكوا عنه ورجع الخليفة إلى معســكره ثم رجع الصـــفار إلى الســـوس وجبى الأموال ثم قصـــد تستر وحاصرها وأخذها ورتب فيها نائبا وكثر جمعه ثم رحل إلى فارس في شـــوال وكان الخليفة قد رجع إلى المدائن وأقام بها يومين ثم رحل إلى بغداد ومنها إلى سر من رأى ودخلها يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شعبان ثم ذكر المؤرخ بعد هذا وورد الخبر على الخليفة بوفاة يعقوب بن الليث الصـــفار يوم الثلاثاء لأربع عشـــرة ليلة خلت من شـــوال والذي أصـــيب في بيوت أمواله من العين أربعة آلاف ألف دينار ومن الورق خمســـون ألف ألف درهم ووافى أحمد بن أبي الأصـــبغ يوم الخميس لســـبع بقين من شـــوال وقد كان الخليفة أنفذه ليصـــلح أمر يعقوب

فانصرف من عند يعقوب فلما قرب من واسط اتصل به وفاة يعقوب وقد كان قلد خراسان وفارس وكرمان والري وقم وأصبهان وصيرت إليه الشرطتان ببغداد وسر من رأى على أن يوليها من أحب وعلى أن يوجه ثلثي ما يجبى من خراج البلاد التي يتولاها من جميع الأعمال وتولى أخوه عمرو بن الليث مكانه باجتماع عسكر يعقوب عليه ووردت كتب عمرو إلى الموفق أخي الخليفة المعتمد على الله بالسمع والطاعة وأن يتولى ما كان أخوه يتولاه فأجيب إلى سؤاله وولاه في ذي القعدة من السنة

420 قلت سياقة هذا التاريخ يدل على أن يعقوب الصفار توفي في بقية سنة اثنتين وستين ومائتين لأنه حكى الوقعة في هذه السنة وأن يعقوب انهزم ثم قال عقيب هذا وورد الخبر بوفاة يعقوب في شوال ولم يذكر السنة فيدل على موته في تلك السنة والذي أعرفه من عدة تواريخ خلاف هذا فإن أبا الحسين السلامي ذكر في كتاب تاريخ أخبار ولاة خراسان في أول الفصل المختص بعمرو بن الليث الصفار فقال كان سبب وفاة يعقوب بن الليث أنه أصابه القولنج فأشير عليه بالعلاج فامتنع منه واختار الموت عليه فمات بجنديسابور من خوزستان يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من شوال من سنة خمس وستين ومائتين قال أبو الوفاء الفارسي رأيت على قبر يعقوب بن الليث صحيفة وقد كتبوا عليها (

ملكت خراســـانا وأكناف فارس * وما كنت من ملك العراق بآيس) (ســلام على الدنيا وطيب نســيمها * إذا لم يكن يعقوب فيهـا بجـالس) ورأيـت بخطي في جملة مسوداتي أن يعقوب بن الليث الصفار توفي سنة خمس وســتين ومـائتين بـالأهواز وحمل تـابوتـه إلى جنديســابور فدفن بها وكتب على قبره هذا قبر يعقوب المسكين وكتب بعده (أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت * ولم تخف ســـوء ما يأتي به القدر) (وســـالمتك الليالي فاغتررت بـها * وعند صـــفو الليالي يـحدث الكدر) ورأيت بخطي أيضـــا في موضـــع آخر أنه توفي بجنديسـابور ودفن بميدانه والله أعلم وهو قاصـد العراق في التاريخ المذكور وكانت وفاته بعلة القولنج وأخبره طبيبـه أن لا دواء لـه إلا الحقنـة فـامتنع منهـا واختار الموت عليها وكانت مدة علته بالقولنج والفواق ســتة عشــر يوما ومدة تغلبه على ســجســتان وتلك النواحي أربع عشرة سنة وشهورا

421 وذكر شـــيخنا ابن الأثير في تاريخه في ســنة خمس وســتين ومائتين أنه مات فيها يعقوب بن الليث في تاسـع عشـر شـوال من السـنة وذكر حديث القولنج وامتناعه من الحقنة وأنه مات بجنديسـابور من كور الأهواز قلـت وهي من أعمـال خوزســـتـان بين العراق وبلاد فارس وقال شـيخنا أيضـا وكان الخليفة المعتمد قد أنفذ إليه رســولا يترضــاه ويســتميله ويقلده أعمال فارس فوصـــل الرســـول إليه ويعقوب مريض

فجلس له وجعل عنده سيفا ورغيفا من خبز الخشكار ومعه بصل وأحضر الرسول فأدى الرسالة وقال له قل للخليفة إني عليل فإن مت فقد استرحت منك واسترحت مني وإن عوفيت فليس بيني وبينك إلا هذا السيف حتى آخذ بثأري أو تكسرني وتفقرني فأعود إلى هذا الخبز والبصل وعاد الرسول فلم يلبث يعقوب أن مات وقال بن حوقل في كتاب المسالك والممالك إن جنديسابور مدينة حصينة واسعة الخير وبها نخل وزروع كثيرة ومياه وقطنها يعقوب بن الليث الصفار لخصبها واتصالها بالمير الكثيرة وكان الحسن بن زيد العلوي يسمى يعقوب السندان لثباته وكان قل أن يرى متبسما وكان عاقلا حازما وكان يقول كل من عاشرته أربعين يوما ولا تعرف أخلاقه لا تعرفها في أربعين سنة (351) ولما تولى عمرو أحسن في التدبير والسياسة غاية الإحسان حتى يقال ما أدرك في حسن السياسة للجنود والهداية إلى قوانين المملكة منذ زمن طويل مثل عمرو بن الليث وذكر السلامي في كتاب أخبار خراسان شيئا كثيرا من كفايته ونهضته وقيامه بقواعد الولاية فتركته طلبا للاختصار وذكر أنه كان ينفق في الجند في كل ثلاثة أشهر مرة ويحضر بنفسه على ذلك وأن عارض الجيش يقعد والأموال بين يديه والجند بأسرهم حاضرون وينادي المنادي أولا باسم عمرو بن الليث فتقدم دابته إلى العارض بجميع آلة الفارس فيفتقدها ويأمر بوزن

ثلثمائة درهم باسـم عمرو فتحمل إليه في صـرة فيأخذ الصــــرة فيقبلها ويقول الحمد لله الذي وفقني لطاعة أمير المؤمنين حتى اسـتوجبت منه الرزق ثم يضــعها في خفه فتكون لمن ينزع خفه ثم يدعى بعد ذلك
422 بـأصـــحـاب الرســـوم على مراتبهم فيسـتعرضـون بآلاتهم التامة وبدوابهم الفره ويطالبون بجميع ما يحتاج إليه الفارس والراجل من صـــغير آلة وكبيرها فمن أخل بإحضـار شــيء منها حرموه رزقه فاعترض يوما فارسا كانت دابته في غاية الهزال فقال له عمرو يا هذا تأخذ مالنا تنفقه على امرأتك فتسـمنها وتهزل دابتك التي عليها تحارب وبها تجد الأرزاق امض فليس لك عندي شـيء فقال له الجندي جعلت لك الفداء لو اعترضت امرأتي لاستسمنت دابتي فضحك عمرو وأمر بإعطائه وقال اسـتبدل بدابتك قلت ذكر القاضـــي كمال الدين المعروف بابن العديم الحلبي رحمه الله تعالى في تاريخ حلب حكاية يليق أن أذكرها هاهنا لأنها مثل هذه الحكاية وهي كان كســـرى أنوشـــروان بن قباذ قد ولى رجلا من الكتاب نبيها معروفا بالعقل والكفاية يقال له بابك بن النهروان ديوان الجند فقال لكســـرى أيها الملك إنك قد قلدتني أمرا من صــــلاحه أن تحتمل لي بعض الغلظة في الأمور وهي عرض الجنود في كل أربعة أشـهر وآخذ كل طبقة بكمال آلتها ومحاســـبة المؤدبين على ما يأخذون على تأديب الرجال بالفروســـية والرمي

والنظر في مبالغتهم في ذلك وتقصيرهم فإن ذلك ذريعة إلى إجراء السياسة مجاريها فقال كسرى ما المجاب بما سأل بأحظى من المجيب لاشتراكهما في فضله وانفراد المجيب بعد بالراحة حقق مقالتك فأمر فبنيت له في موضع العرض مصطبة وبسط له عليها الفرش الفاخرة ثم جلس ونادى مناديه لا يبقين أحد من المقاتلة إلا حضر للعرض فاجتمعوا ولم ير كسرى فأمرهم فانصرفوا وفعل ذلك في اليوم الثاني ولم ير كسرى فيهم فأمرهم فانصرفوا فنادى في اليوم الثالث أيها الناس لا يتخلفن من المقاتلة أحد ولا من أكرم بالتاج والسرير فإنه عرض لا رخصة فيه ولا محاباة وبلغ كسرى ذلك فتسلح بسلاحه ثم ركب فاعترض على بابك وكان الذي يؤخذ به الفارس تجفافا ودرعا وجوشنا وبيضة ومغفرا وساعدين وساقين ورمحا وترسا وجزرا تلزمه منطقة وطبرزينا وعمودا وجعبة فيها قوسان بوتريهما وثلاثين نشابة ووترين

423 ملفوفين يعلقهما الفارس في مغفره ظهريا فاعترض كسرى على بابك بسلاح تام خلا الوترين اللذين يستظهر بهما فلم يجز بابك على اسمه فذكر كسرى الوترين فعلقهما في مغفره واعترض على بابك فأجاز على اسمه وقال لسيد الكماة أربعة آلاف درهم ودرهم وكان أكثر ماله من الرزق أربعة آلاف درهم ففضل كسرى بدرهم واحد فلما قام بابك من مجلسه دخل على كسرى فقال أيها الملك لا تلمني

على مـا كـان من إغلاظي فمـا أردت بـه إلا الـدربـة للمعدلة والإنصـاف وحسـم مادة المحاباة قال كسـرى ما أغلظ علينا أحد فيما يريد به إقامة أودنا وصـــلاح ملكنا إلا احتملنا له غلظته كاحتمال الرجل شـــرب الدواء الكريه لما يرجوه من منفعته رجعنا إلى تتمة أخبار عمرو بن الليث الصـفار قال السـلامي أيضـا كان رافع بن هرثمة تبعا لأبي ثور وكان أبو ثور أحد قواد محمـد بن طـاهر الخزاعي فلمـا وافى يعقوب الصـــفار نيســـابور كان أبو ثور من جملة من مايل يعقوب على محمد بن طاهر فلما انصرف يعقوب إلى سجستان صحبه أبو ثور ومعه رافع بن هرثمة وكان رجلا طويل اللحية كريه الوجه قليل الطلاقة فدخل يوما إلى يعقوب فلما خرج من عنده قال يعقوب إني لا أميل إلى هذا الرجل فليلحق بحيث شـــاء فباع رافع جميع آلاته ثم انصـــرف إلى منزله بيامين وهي من قرى كنج رستاق وأقام هناك إلى أن استقدمه أحمد بن عبد الله الخجستاني وخجستان من جبل هراة من قرى بادغيس وكان الخجستاني من أتباع يعقوب الصفار ثم خلع طاعته وتغلب على نيســابور وبســطام في ســنة إحدى وستين ومائتين وكان يظهر الميل إلى الطاهرية مســتميلا بذلك قلوب أهل نيســابور إليه حتى إنه كان يكتب في كتبه أحمد بن عبد الله الطاهري

424 ثم كتب الخجســـتاني إلى رافع بن هرثمة وهو في بلده يستقدمه فقدم عليه فجعله صـاحب جيشـه

وللخجستاني حروب ومواقف مشهورة وليس الغرض ذكر شـــيء منها هاهنا ثم إن غلامين من غلمانه اتفقا عليه وقتلاه وقد سـكر ونام وذلك في ليلة الأربعاء لست بقين من شوال سنة ثمان وستين ومائتين وكان رافع بن هرثمة غائبا فقدم بعد ذلك على جيش الخجسـتاني فقدموه عليهم وبايعوه بمدينة هراة وقيل بنيسـابور ثم عزل الموفق بالله عمرو بن الليث الصفار عن ولاية خراسان وجعلها لأبي عبد الله محمد بن طاهر الخزاعي في سـنة إحدى وسـبعين ومائتين وهو مقيم ببغداد فاستخلف محمد بن طاهر عليها رافع بن هرثمة ما خلا أعمال ما وراء النهر فإن الموفق بالله أقر عليها نصر بن أحمد بن أسد الساماني خليفة لمحمد بن طاهر ثم وردت كتب الموفق على رافع بقصـد جرجان وطبرسـتان وكانتا للحسـن ابن زيد العلوي وتوفي سنة سبعين ومائتين واستولى عليهما أخوه محمد ابن زيد فجاءه رافع في سنة أربع وسبعين ففارقها محمد بن زيد إلى استراباذ فحاصره بها رافع مدة سنتين ثم فارقها ليلا في نفر يسير إلى بلاد الديلم واستولى رافع على طبرستان في سنة سبع وسبعين ومائتين ثم توفي الخليفة المعتمد على الله في رجب سـنة تسـع وسـبعين ومائتين وتولى الخلافة بعده المعتضـد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق المذكور وولى المعتضد أبا إبراهيم إسماعيل بن أحمد الساماني ما وراء النهر بعد وفاة أخيه نصـر بن أحمد المذكور

قلت وكانت وفاة نصـر لسـبع بقين من جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين بسمرقند قال وعزل رافع بن هرثمة عن خراســـان وولاها عمرو بن الليـث وبقي رافع بالري ثم إنه هادن الملوك المجاورين له ليسـتعين بهم على عمرو بن الليث فلما تم له ذلك خرج إلى نيسابور فواقعه عمرو بن الليث في شـهر ربيع الآخر من سـنة ثلاث وثمانين وهزمه عمرو وتبعه إلى

425 أبيورد وقصـــد رافع أن يخرج منها إلى هراة أو مرو فعلم عمرو أن مقصده سرخس فقصدها عمرو ليأخذ عليه الطريق فعلم رافع ذلك فخرج من أبيورد ومعه دليل فأخذ به على جبال طوس حتى أورده باب نيسابور فدخلها فعاد عمرو إليها وحاصره بها فانهزم رافع وأصـــحابه ووصـــل إلى نواحي خوارزم على الجمازات وحمل ما كان معه من آلة ومال في شــرذمة قليلة وذلك يوم السـبت لخمس بقين من شــهر رمضــان سـنة ثلاث وثمانين ومائتين فوجه إليه أمير خوارزم نائبا يقوم بخدمته وما يحتاج إليه إلى أن يصـــل خوارزم فوجده النـائب في خف من أصـحابه فقتله لسبع خلون من شوال يوم الجمعة سنة ثلاث وثمانين وحز رأسـه وحمله إلى عمرو بن الليث وهو بنيسابور فأنفذ عمرو رأسه إلى المعتضد بالله ولم يكن رافع ابن هرثمة وإنما هرثمة زوج أمه فانتســب رافع إليه لأنه أشــهر ورافع ابن تومرد وقال ابن جرير الطبري في تاريخه في سنة ثلاث وثمانين وفي

يوم الجمعة لثمان بقين من ذي القعدة قرئت الكتب على المنابر بقتل رافع بن هرثمة وقدم رسول عمرو بن الليث برأس رافع إلى بغداد يوم الخميس لأربع خلون من المحرم سنة أربع وثمانين ومائتين على المعتضد فأمر بنصبه في الجانب الشرقي إلى الظهر ثم تحويله إلى الجانب الغربي بقية النهار إلى الليل ثم ردوه إلى دار السلطان قال السلامي وصفت خراسان إلى شط جيحون لعمرو بن الليث قلت وقد مدح البحتري الشاعر المشهور رافع بن هرثمة وكناه أبا يوسف في مديحه وأرسلها إليه فأرسل له عشرين ألف درهم وهو بالعراق قال السلامي ولما وجه عمرو بن الليث برأس رافع بن هرثمة إلى المعتضد سأل أن يولوه عمل ما وراء النهر مثل ما كان برسم عبد الله بن طاهر فوعدوه بذلك ثم أرسل إليه المعتضد هدايا فوصلته وهو في نيسابور فأبى أن يقبلها دون الوفاء بما وعدوه من تولية أعمال ما وراء النهر فكتب الرسول إلى المكتفي بالله بن المعتضد وكان بالري وعنده جماعة من خواص أبيه بما سأله عمرو فأنفذوا إليه العهد بها فحمل إليه العهد والهدايا التي سيرها له المعتضد بالله

426 وامتنع من أخذها وكان في الهدايا سبع دسوت خلع فوضعت بين يديه وأفاض عليه الرسول الخلع واحدة بعد أخرى وكلما لبس خلعة صلى ركعتين ثم وضع العهد قدامه فقال ما هذا قال الذي

سألته فقال عمرو ما أصنع به فإن إسماعيل ابن أحمد لا يسلم إلي ذلك إلا بمائة ألف سيف فقال أنت سألته فشمر الآن لتتولى العمل في ناحيته فأخذ العهد وقبله ووضعه بين يديه ثم أنفذ عمرو إلى الرسول ومن معه سبعمائة ألف درهم وصرفهم ثم جهز عمرو جيشا إلى إسماعيل بن أحمد فعبر إسماعيل إليهم نهر جيحون وقاتلهم فقتل بعضهم وهزم الباقين وعمرو بن الليث الصفار في نيسابور وكانت الوقعة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شوال سنة ست وثمانين ومائتين وعاد إسماعيل إلى بخارا وهي من أعمال ما وراء النهر قال السلامي انتدب عمرو بن الليث لمحاربة إسماعيل محمد بن بشر فلما عبر إسماعيل جيحون دخل موسى السجزي على محمد بن بشر وهو يحلق رأسه فقال له هل استأذنت إسماعيل في حلق رأسك يعني أن رأسه لإسماعيل لأنه انتصب لمحاربته فقال له محمد اغرب عني لعنك الله ثم تحاربوا من الغد فانكشف أصحاب بشر وقبضوا عليه وحز رأسه في جملة سائر الرؤوس وحملوها إلى إسماعيل وأدخلوا جماعة من أصحابه ليميزوا الرؤوس عن رأس ابن بشر فأعلم بعضهم إسماعيل بما قال موسى السجزي لابن بشر فتعجب مما جرى الفأل به وذكر الطبري في تاريخه في سنة سبع وثمانين ومائتين ما مثاله وفي يوم الأربعاء لخمس بقين من جمادى الأولى ورد كتاب فيما ذكر على السلطان أنه كانت بين إسماعيل

بن أحمد وبين عمرو بن الليث وقعة فأسـر عمرا واستباح عسكره وكان من خبر عمرو وإسماعيل أن عمرا سأل السلطان أن يوليه ما وراء النهر فولاه ذلك ووجه إليه وهو مقيم بنيسابور بالخلع واللواء على ما وراء النهر لمحاربة إسماعيل بن أحمد فكتب إليه إسماعيل إنك قد وليت

427 دنيا عريضة وأنا في يدي ما وراء النهر وأنا في ثغر فاقنع بما في يدك واتركني مقيما بهذا الثغر فأبى إجابته إلى ذلك وذكر له من أمر نهر بلخ وشدة عبوره فقال عمرو لو أشاء أن أسكره ببدر الأموال وأعبره لفعلت فلما يئس إسماعيل من انصرافه عنه جمع من معه من التناء والدهاقين وعبر النهر إلى الجانب الغربي وجاء عمرو بن الليث فنزل بلخ وأخذ إسماعيل عليه النواحي فصار كالمحاصر وندم على ما فعل وطلب المحاجزة فيما ذكر فأبى إسماعيل عليه ذلك ولم يكن بينهم قتال كثير حتى هزم عمرو فولى هاربا ومر بأجمة في طريقه قيل له إنها أقرب فقال لعامة من معه امضوا في الطريق الواضح ومضى في نفر يسير فدخل الأجمة ووحلت به دابته فوقعت ولم يكن له في نفسه حيلة ومضى من معه ولم يلووا عليه وجاء أصحاب إسماعيل فأخذوه أسيرا فلما بلغ المعتضد ما جرى مدح إسماعيل وذم عمرا وقال يقلد أبو إبراهيم إسماعيل كل ما في يد عمرو ويوجه إليه بالخلع ثم ذكر الطبري أيضا في سنة ثمان

وثمانين ما مثاله وفي أول جمادى الأولى يوم الخميس أدخل عمرو بن الليث بغداد وذكر لي أن إسـماعيل بن أحمد خيره بين المقام عنده أســيرا وبين توجيهه إلى أمير المؤمنين فـاختـار توجيهـه إلى أمير المؤمنين فوجهه وقال السـلامي في أخبار خراسـان ثم خرج عمرو إلى بلخ فلاقاه بها إسماعيل فهزمه وقبض عليه وذلك يوم الثلاثاء النصـف من ربيع الأول سـنة سـبع وثمانين ومائتين وأنفذه مقيدا إلى سـمرقند قلت وهي من بلاد ما وراء النهر أيضـا وهذا النهر هو جيحون قال وضم إليه أخاه أبا يوسف ليخدمه إلى أن ورد عليه من عند المعتضـد عبد الله بن الفتح بعهد خراسـان واللواء والتاج والخلع في سنة ثمان وثمانين وقدم معه إنسان ليتولى حمل عمرو بن

428 الليث إلى بغداد فسلمه إسماعيل إليه فحمله وقال ابن أبي طاهر المذكور قبل هذا في تاريخه إن عمرو بن الليث الصـفار انهزم وقتل خلق كثير من أصـحابه وكانت الوقعة على باب بلخ يوم الأربعاء لاثنتي عشـرة ليلة بقيت من ربيع الآخر سـنة سـبع وثمانين ومائتين وقبل ذلك هرب ابن أبي ربيعة كاتب عمرو بن الليث إلى إسـماعيل بن أحمد ومعه قائد من قواده في خلق كثير فأصـبح عمرو في يوم الوقعة وقد عرف الخبر ثم كثر هرب أصـحابه إلى إسـماعيل فضعف قلب عمرو وهرب واشتغل إسماعيل بالعسكر وبعث في طلب عمرو جيشـا فوجده واقفا على فرس

فقبضوا عليه وسيره إسماعيل إلى المعتضد وأخبره بما جرى وأنه سيره إلى سمرقند حتى يرد عليه أمر أمير المؤمنين فاشتد سرور الخليفة بذلك وقلد الخليفة إسماعيل ما كان مقلده عمرو مضافا إلى عمله وتوجه عبد الله بن الفتح إلى إسماعيل في طلب عمرو فلما وصل إلى إسماعيل وجه إليه فأحضر عمرا فقيده وأرسله وإلى جانبه رجل من أصحاب إسماعيل بيده سيف مشهور وقيل لعمرو إن تحرك في أمرك أحد رمينا رأسك إليهم فلم يتحرك أحد ووصلوا إلى النهروان يوم الثلاثاء لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وحل قيد عمرو فلما كان يوم الخميس مستهل جمادى الأولى ركب الجند للقائه وعمرو في القبة قد أرخى جلالها عليه فلما بلغ باب السلامة أنزل عمرو من القبة وألبس دراعة ديباج وبرنس السخط وحمل على جمل له سنامان يقال له إذا كان ضخما على هذه الصورة الفالج في غاية الارتفاع وكان عمرو قد أهداه فيما أهدى للخليفة وقد ألبس الجمل الديباج وحلي بذوائب وأرسان مفضضة وأدخل بغداد فاشتقها في الشارع الأعظم إلى دار الخليفة بقصر الحسني وعمرو رافع يديه يدعو ويتضرع دهاء منه فرقت له العامة وأمسكت عن الدعاء عليه ثم أدخل على الخليفة وقد جلس له واحتفل به فوقف بين يديه ساعة وبينهما قدر خمسين ذراعا وقال له هذا ببغيك يا عمرو ثم أخرج من

429 بين يديه إلى حجرة قد أعدت له وكان أخوه يعقوب الصــــفار قد تزوج امرأة من العرب من بلد سجستان فلما توفي يعقوب تزوجها أخوه عمرو ثم توفيت ولم تخلف ولدا وكان لها ألف وسبعمائة جارية قال بعضـــهم كنت عند أبي علي الحسـين بن محمد بن الفهم المحدث فدخل رجل من أصــــحاب الحديث فقال له يا أبا علي رأيت عمرو بن الصفار أمس على جمل فالج من الجمال التي كان أهداها عمرو منذ ثلاث سنين للخليفة فأنشد أبو علي (وحسبك بالصفار نبلا وعزة * يروح ويغدو في الجيوش أميرا) (حباهم بأجمال ولم يدر أنه * على جمل منها يقاد أســـيرا) وعمل في ذلك علي بن محمد بن نصــــر بن بســـام الشـــاعر المقدم ذكره (أيها المغتر بالدنيا * أما أبصـــرت عمرا) (أركب الفالج بعد الملك * والعزة قســرا) (وعليه برنس للسـخط * إذلالا وقهرا) (رافعا كفيه يدعو * الله إســـرارا وجهرا) (أن ينجيه من القتل * وأن يعمل صـــفرا) قال الطبري وتوفي المعتضـــد بالله ليلة الاثنين لثمان بقين من شـــهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين وتولى الخلافة ولده المكتفي بالله أبو محمد علي وكان غائبا في الرقة عند موت أبيه فقدم بغداد وأمر يوم الثلاثاء لثمان خلون من جمادى الآخرة من السنة المذكورة بهدم المطامير التي كان أبوه احتفرها لأهل الجرائم ومات عمرو بن الليث الصـــفار في غد هذا اليوم ودفن بالقرب من

القصر الحسني وقد كان المعتضد عند موته لما امتنع من الكلام أمر بقتل عمرو بالإيماء والإشارة ووضع يده على رقبته وعلى عينه أي اذبحوا الأعور

430 وكان عمرو أعور فلم يفعل صافي الحرمي ذلك وهو الذي أمره المعتضد بقتله وإنما امتنع من قتله لعلمه بحال المعتضد وقرب وفاته وكره قتل عمرو ولما دخل المكتفي بغداد سأل فيما قيل القاسم بن عبيد الله عن عمرو أحي هو فقال نعم فسر بحياته وقال أريد أن أحسن إليه وكان عمرو يهدي إلى المكتفي ويبره برا كثيرا أيام مقامه بالري في حياة أبيه المعتضد فذكر أن القاسم كره سؤاله عنه ودس إليه من قتله وكانت مدة مملكته اثنتين وعشرين سنة تقريبا قلت وإنما قيل ليعقوب الصفار لأنه كان يعمل الصفر وهو النحاس وهو بضم الصاد المهملة وسكون الفاء وبعدها راء وكان أخوه عمرو يكري الحمير حكى شيخ من الصفارين قال كان يعقوب وهو غلام في دكانه يتعلم عمل الصفر ولم أزل أتأمل بين عينيه وهو صغير ما آل أمره إليه قيل له وكيف ذلك قال ما تأملته قط من حيث لا يعلم بتأملي إياه إلا وجدته مطرقا إطراق ذي همة وفكر وروية فكان من أمره ما كان وقال علي بن المرزبان الأصفهاني الكاتب سألت بعض أصحاب بني الصفار عن عمرو بن الليث أخي يعقوب بن الليث الصفار وصناعته وعمر يومئذ محبوس بمدينة السلام فسكت عني فلما توفي عمرو

قال لي كنت سألتني عن عمرو وصناعته ولم يكن من الحزم إخبارك وهو يرجى ويخشـــى فاعلم الآن أنه لم يزل مكاريا إلى أن عظم شأن أخيه يعقوب وتمكن من خراســـان فلحق بـه وترك إكراء الحمير قلت ذكر جماعة من أرباب التواريخ في كتبهم أن أبا أحمد عبيد الله ابن عبد الله بن طاهر بن الحسـين الخزاعي المقدم ذكره في هذا الكتاب كان يقول عجائب الدنيا ثلاث جيش العباس بن عمرو الغنوي يؤســـر العباس وحده وينجو من القتل ثم يطلق ويقتل جميع جيشـــه وكانوا عشـــرة آلاف وجيش عمرو بن الليث يؤســـر عمرو وحده ويموت في السجن ويسلم جميع جيشه وكانوا

431 خمســـين ألفا وأنا أترك في بيتي بطالا

ويتولى ابني أبو العباس الجســـرين ببغداد (352)

قلت وكان من حديث العباس بن عمرو الغنوي أن القرامطة لما اشتد أمرهم وانتشـروا في البلاد وبالغوا في الفتك أرســل إليهم المعتضـــد بالله في ســنة ســبع وثمانين ومائتين جيشـا مقدمه العباس المذكور فأسـره أبو سـعيد القرمطي رئيس القرامطة في الوقعة وأسـر جميع من معه من الجيش وفي اليوم الثاني من الوقعة أحضـر أبو سـعيد القرمطي الأسـرى فقتلهم بأسـرهم وأحرقهم وأطلق العباس فجاء إلى المعتضــــد وحده وكان ذلك في آخر شعبان من السنة وكانت الوقعة بين البصـرة والبحرين وهي قصـة طويلة مشـهورة وهذا خلاصــتها إذ ليس هذا موضـــع التطويل في شــرحها

وسيأتي ذكرها مع الاستقصاء في التاريخ الكبير إن شاء الله تعالى قلت والبيتان المذكوران قبل هذا وأنهما مكتوبان على قبر يعقوب الصفار وآخر البيت الأول منهما (وما كنت من ملك العراق بآيس *) هذا نصف بيت من جملة أبيات ترنم بها معاوية بن أبي سفيان الأموي لما تغلب على الشام وجاءه جرير بن عبد الله البجلي برسالة من علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان علي إذ ذاك مقيما بالكوفة فلما أدى جرير الرسالة إلى معاوية وانفض المجلس أمر معاوية بنزول جرير في مكان قريب منه وجعل يترنم بهذه الأبيات تلك الليلة ليسمع جرير فيعيد ذلك على علي رضي الله عنه والأبيات المشار إليها هي (تطاول ليلي واعتراني وساوسي * لآت أتى بالترهات البسابس) (أتاني جرير والحوادث جمة * بتلك التي فيها اجتداع المعاطس) (أكايده والسيف بيني وبينه * ولست لأثواب الدني بلابس) (إن الشام أعطت طاعة يمنية * تواصفها أشياخها في المجالس)

432 (فإن يفعلوا أصدم عليا بجبهة * تفت عليه كل رطب ويابس) (وإني لأرجو خير ما نال نائل * وما أنا من ملك العراق بآيس) قلت الترهات بضم التاء المثناة من فوقها وتشديد الراء وبعد الهاء والألف تاء ثانية والبسابس بفتح الباء الموحدة وبعدها سين مهملة وبعد الألف باء ثانية مكسورة ثم سين ثانية وهي الباطل وأصل الترهات الطرق الصغار غير

الجادة تتشعب عنها الواحدة ترهة فارسي معرب ثم استعير في الباطل فقيل الترهات البسابس والجبهة الخيل والجبهة الجماعة من الناس أيضا فكأنه قال أصدره بالخيل والرجال والباقي معروف لا حاجة إلى تفسيره (353) ورأيت بخط بعض أهل هذا الفن أن عمرو بن الليث لما أسر ملك بعده بلاد فارس حفيده طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث المذكور لاثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر سنة ثمان وثمانين ومائتين ثم قبض عليه غلام جده سبك السبكري في سنة ست وتسعين ومائتين ومعه أخوه يعقوب بن محمد وبعث بهما إلى مدينة السلام (354) ثم ولي بعده الليث بن علي بن الليث وهو ابن أخي يعقوب وعمرو بن الليث المذكورين كان تغلب على بلاد سجستان في سنة ست وتسعين ومائتين وجرى بين سبك السبكري وطاهر بن محمد المذكور ما جرى واستقرت البلاد بيد السبكري فاستخلف الليث المذكور على سجستان أخاه المعدل بن الليث وسار إلى بلاد فارس فهرب السبكري منه يطلب من الخليفة النجدة فجرد المقتدر بالله الجيوش في شهر رمضان سنة ست وتسعين وقدم عليها مؤنسا المظفر وبدرا الكبير والحسين بن حمدان والتقوا مع الليث بن علي فانهزم جيشه وأسر هو وأخوه محمد وابنه إسماعيل وعاد مؤنس إلى بغداد ومعه الأسرى في المحرم سنة سبع وتسعين وشهر الليث بن علي على الفيل وولي المعدل ابن علي بن

الليث على سجستان فسار إليه أحمد بن إسماعيل الساماني في خلق كثير من الفارس والراجل فأخذ منه البلاد ثم ملك سبك السبكري الصفار مدة ثم حمل معه محمد بن علي بن الليث إلى بغداد وانقضى أمر الصفارية والله أعلم
*1*ج 7
@1 & حرف الياء &
2 @2@
3 829 المنصور الموحدي أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي صاحب بلاد المغرب قد تقدم ذكر جده عبد المؤمن وسيأتي ذكر أبيه يوسف إن شاء الله تعالى كان صافي السمرة جدا إلى الطول ما هو جميل الوجه أفوه أعين شديد الكحل ضخم الأعضاء جهوري الصوت جزل الألفاظ من أصدق الناس لهجة وأحسنهم حديثا وأكثرهم إصابة بالظن مجربا للأمور ولي وزارة أبيه فبحث عن الأحوال بحثا شافيا وطالع مقاصد العمال والولاة وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزيئات الأمور ولما مات أبوه في التاريخ الآتي في ترجمته إن شاء الله تعالى اجتمع رأي أشياخ الموحدين وبني عبد المؤمن على تقديمه فبايعوه وعقدوا له الولاية ودعوه أمير المؤمنين كأبيه وجده ولقبوه بالمنصور فقام بالأمر أحسن قيام وهو الذي أظهر أبهة ملكهم ورفع راية الجهاد ونصب

ميزان العدل وبسـط أحكام الناس على حقيقة الشـرع ونظر في
4 أمور الدين والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأقام الحدود حتى في أهله وعشـيرته الأقربين كما أقامها في سائر الناس أجمعين فاستقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات ولما مات أبوه كان معه في الصـحبة فباشـر تدبير المملكة من هناك وأول ما رتب قواعد بلاد الأندلس فأصلح شأنها وقرر المقاتلين في مراكزها ومهد مصالحها في مدة شهرين وأمر بقراءة البسـملة في أول الفاتحة في الصـلوات وأرسـل بذلك إلى سـائر بلاد الإسـلام التي في مملكته فـأجاب قوم وامتنع آخرون ثم عـاد إلى مراكش التي هي كرسـي ملكهم فخرج عليه علي بن إسـحاق بن محمد بن علي بن غانية الملثم من جزيرة ميورقة في شـعبان سـنة ثمانين وملك بجاية وما حولها فجهز إليه الأمير يعقوب عشرين ألف فارس وأسطولا في البحر ثم خرج بنفسه في أول سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة فاسـتعاد ما أخذ من البلاد ثم عاد إلى مراكش وفي سـنة سـت وثمانين بلغه أن الفرنج ملكوا مدينة شـلب وهي في غرب جزيرة الأندلس فتجهز إليها بنفسـه وحـاصـرها وأخذها وأنفذ في الوقت جيشـا من الموحدين ومعه جماعة من العرب ففتحوا أربع مدن من بلاد الفرنج كانوا قد أخذوها من المسلمين قبل ذلك بأربعين سـنة وخافه صـاحب طليطلة وسـأله الصـلح

فصالحه خمس سنين وعاد إلى مراكش فلما انقضت مدة الهدنة ولم يبق منها سوى القليل خرجت طائفة من الفرنج في جيش كثيف إلى بلاد المسلمين فنهبوا وسبوا وعاثوا عيثا فظيعا فانتهى الخبر إلى الأمير يعقوب وهو بمراكش فتجهز لقصدهم في جحفل عرمرم من قبائل الموحدين والعرب واحتفل وجاز إلى الأندلس وذلك في سنة

5 إحدى وتسعين وخمسمائة فعلم الفرنج به فجمعوا خلقا كثيرا من أقاصي بلادهم وأدانيها وأقبلوا نحوه قلت ورأيت بدمشق في أواخر سنة ثمان وستين وستمائة جزءا بخط الشيخ تاج الدين عبد الله بن حمويه شيخ الشيوخ كان بها وكان قد سافر إلى مراكش وأقام بها مدة وكتب فصولا تتعلق بتلك الدولة فمن ذلك فصل يتعلق بهذه الوقعة فينبغي ذكره ها هنا فقال لما انقضت الهدنة بين الأمير أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب المملكة الغربية وبين الأذفونش الفرنجي صاحب غرب جزيرة الأندلس وقاعدة مملكته يومئذ طليطلة وذلك في أواخر سنة تسعين وخمسمائة عزم الأمير يعقوب وهو حينئذ بمراكش على التوجه إلى جزيرة الأندلس لمحاربة الفرنج وكتب إلى ولاة الأطراف وقواد الجيوش بالحضور وخرج إلى مدينة سلا ليكون اجتماع العساكر بظاهرها فاتفق أنه مرض مرضا شديدا حتى أيس منه أطباؤه فتوقف الحال عن تدبير ذلك الجيش

فحمل الأمير يعقوب إلى مراكش فطمع المجاورون له من العرب وغيرهم في البلاد وعاثوا فيها وأغاروا على النواحي والأطراف وكذلك فعل الأذفونش فيما يليه من بلاد المسلمين بالأندلس واقتضى الحال تفرقة جيوش الأمير يعقوب شرقا وغربا واشتغلوا بالمدافعة والممانعة فكثر طمع الأذفونش في البلاد وبعث رسولا إلى الأمير يعقوب يتهدد ويتوعد ويطلب بعض الحصون

6 المتاخمة له من بلاد الأندلس وكتب إليه رسالة من إنشاء وزير له يعرف بابن الفخار وهي باسمك اللهم فاطر السموات والأرض وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح أما بعد فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ولا ذي عقل لازب أنك أمير الملة الحنيفية كما أني أمير الملة النصرانية وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية وإخلادهم إلى الراحة وأنا اسومهم بحكم القهر وجلاء الديار واسبي الذراري وامثل بالرجال ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا لا تستطيعون دفاعا ولا تملكون امتناعا وقد حكي لي عنك أنك أخذت في الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال وتماطل نفسك عاما بعد

عام تقدم رجلا وتؤخر أخرى فلا أدري أكان الجبن أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربك ثم قيل لي إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلا لعلة لا يسوغ لك التقحم معها وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك وأعتذر لك وعنك على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان وترسل إلى جملة من عبيدك بالمراكب والشواني والطرائد والمسطحات وأجوز بجملتي إليك وأقاتلك في أعز الأماكن لديك فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت إليك وهدية عظيمة مثلت بين يديك وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك واستحقيت إمارة
7 الملتين والحكم على البرين والله تعالى يوفق للسعادة ويسهل الإرادة لا رب غيره ولا خير إلا خيره إن شاء الله تعالى فلما وصل كتابه إلى الأمير يعقوب مزقه وكتب على ظهر قطعة منه (^ ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) النمل 37 الجواب ما ترى لا ما تسمع (ولا كتب إلا المشرفية عنده * ولا رسل إلا الخميس العرمرم) قلت وهذا البيت للمتنبي ثم أمر بكتب الاستنفار واستدعى الجيوش من الأمصار وضرب السرادقات بظاهر البلد من يومه وجمع العساكر وسار إلى البحر المعروف بزقاق سبتة فعبر فيه إلى الأندلس وسار إلى أن دخل بلاد الفرنج وقد أعتدوا واحتشدوا وتأهبوا فكسرهم كسرة شنيعة وذلك في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة انتهى ما نقلته من

الجزء المذكور قلت ثم وجدت في كتاب تذكير العاقل وتنبيه الغافل تأليف أبي الحجاج يوسف بن محمد بن إبراهيم الأنصاري البياسي هذه المكاتبة وجوابها قد كتبها الأذفونش بن فرذلند إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الآتي ذكره بعد هذا إن شاء الله تعالى وجواب يوسف على هذه الصورة أيضا والله أعلم قلت وذكر البياسي بعد هذا ما يدل على أنه نقلها من خط ابن الصيرفي الكاتب المصري فإن كان كذلك فما يمكن أن تكون هذه الرسالة إلى يعقوب ابن يوسف لأن ابن الصيرفي متقدم التاريخ على زمان يعقوب بكثير والله أعلم

8 ورأيت جماعة من فضلاء المغاربة ينكرون هذا التاريخ ويذكرون ما نشرحه إن شاء الله تعالى وهو أن الفرنج جمعوا جمعاً عظيماً وقصدوه وبلغ الأمير يعقوب خبر مسيرهم وكثرة جموعهم فما هاله ذلك وجد في السير نحوهم حتى التقوا في شمال قرطبة على قرب قلعة رباح في مرج الحديد وفيه نهر يشقه فعبر إلى منزلة الفرنج وصافهم وذلك يوم الخميس التاسع من شعبان سنة إحدى وتسعين وخمسمائة واقتفى في ذلك طريقة أبيه وجده فانهما أكثر ما كانوا يصافون يوم الخميس ومعظم حركاتهم في صفر ووقع القتال وبرزت الأبطال وصبرت الرجال فأمر الأمير يعقوب فرسان الموحدين وأمراء العرب أن يحملوا ففعلوا وانهزم الفرنج وعمل فيهم

السيف فاستأصلهم قتلاً وما نجا ملكهم إلا في نفر يسير ولولا دخول الليل لم يبق منهم أحد وغنم المسلمون أموالهم حتى قيل إن الذي حصل لبيت المال من دروعهم ستون ألف درع وأما الدواب على اختلاف أنواعها فلم يحصر لها عدد ولم يسمع في بلاد الأندلس بكسرة مثلها ومن عادة الموحدين أنهم لا يأسرون مشركاً محارباً إن ظفروا به ولو كان ملكاً عظيماً بل تضرب رقابهم كثروا أو قلوا فلما أصبح جيش المسلمين اتبعوهم فألفوهم قد أخلوا قلعة رباح لما داخلهم من الرعب فملكها الأمير يعقوب وجعل فيها والياً وجيشاً ولكثرة ما حصل له من الغنائم لم يمكنه الدخول إلى بلاد الفرنج في ذلك الوقت فعاد إلى مدينة طليطلة وحاصرها وقاتلها أشد قتال وقطع أشجارها وشن الغارات على بلادها وأخذ من أعمالها حصوناً كثيرة وقتل رجالها وسبى حريمها وخرب مبانيها وهدم أسوارها وترك الفرنج في أسوأ حال ولم يبرز إليه أحد من المقاتلة

9 ثم رجع إلى إشبيلية وأقام إلى أثناء سنة ثلاث وتسعين فعاد إلى بلاد الفرنج مرة ثالثة وفعل فيها كفعله المتقدم فلم يبق للفرنج قدرة على لقائه وضاقت عليهم الأرض بما رحبت فأرسلوا إليه يلتمسون منه الصلح فأجابهم إلى ذلك لما اتصل به من أخبار علي بن إسحاق الميورقي المقدم ذكره في هذه الترجمة فإنه كان قد خرج على بلاد إفريقية وخرب أكثر بلادها

وتوجه نحو الغرب وســـولت له نفســـه النزول على بجاية لما علمه من اشـــتغال الأمير يعقوب بجزيرة الأندلس والجهاد فيها وتأخره عن بلاد المغرب مدة ثلاث سنين فأوقع الصلح بينه وبين ملوك بلاد الأندلس جميعاً على ما اختاره لمدة خمس ســـنين ثم عاد إلى مراكش في أواخر سنة ثلاث وتسعين ولما وصل إليها أمر باتخاذ الأحواض والروايا وآلات الســـفر للتوجه إلى بلاد إفريقية فاجتمع إليه مشـــايخ الموحدين وقالوا له يا سيدنا قد طالت غيبتنا بالأندلس فمنا من له خمس ســـنين ومنا من له ثلاث ســـنين وغير ذلك فتنعم علينا بالمهلة هذا العام وتكون الحركة في أول ســـنة خمس وتســـعين فأجابهم إلى ســـؤالهم وانتقل إلى مدينة ســـلا وشـــاهد ما فيها من المتنزهات المعدة له وكان قد بنى بالقرب من المدينة المذكورة مدينة عظيمة ســـماها رباط الفتح على هيئة الاسكندرية في اتساع الشوارع وحسن التقسيم وإتقان البناء وتحسينه وتحصينه وبناها على البحر المحيط الذي هناك وهي على نهر ســـلا مقابلة لها من البر القبلي وطاف تلك البلاد وتنزه فيها ثم رجع إلى مراكش قلت وبعد هذا اختلفت الروايات في أمره فمن الناس من يقول إنه ترك ما كان فيه وتجرد وساح في الأرض حتى انتهى إلى بلاد الشرق وهو مســـتخف لا يعرف ومات خاملا ومنهم من يقول إنه لما رجع

10 إلى مراكش كما ذكرناه توفي في غرة جمادى الأولى وقيل في شهر ربيع الآخر في سابع عشرة وقيل في غرة صفر سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمراكش وقيل إنه مات بمدينة سلا والله أعلم وكانت ولادته على ما ذكر هو ليلة الأربعاء رابع شهر ربيع الأول سنة أربع وخمسين وخمسمائة رحمه الله تعالى ولم ينقل شيء من أحواله بعد ذلك إلى حين وفاته قلت ثم حكى لي جمع كثير بدمشق في شهر شوال سنة ثمانين وستمائة أن بالقرب من المجدل البليدة التي من أعمال البقاع العزيزي قرية يقال لها حمارة وإلى جانبها مشهد يعرف بقبر الأمير يعقوب ملك المغرب وكل أهل تلك النواحي متفقون على ذلك وليس عندهم فيه خلاف و هذا القبر بينه وبين المجدل مقدار فرسخين من جهتها القبلية بغرب والله أعلم وكان ملكاً جواداً عادلاً متمسكاً بالشرع المطهر يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما ينبغي من غير محاباة ويصلي بالناس الصلوات الخمس ويلبس الصوف ويقف للمرأة وللضعيف ويأخذ لهم بالحق وأوصى أن يدفن على قارعة الطريق ليرحم عليه من يمر به وسمعت عنه حكاية يليق أن نذكرها ها هنا وهي أن الأمير الشيخ ابا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص عمر والد الأمير أبي زكريا يحيى ابن عبد الواحد صاحب إفريقية كان قد تزوج أخت الأمير يعقوب المذكور وأقامت عنده ثم جرت بينهما منافرة

فجاءت إلى بيت أخيها الأمير يعقوب فسير الأمير عبد الواحد طلبها فامتنعت عليه فشـــكا الأمير عبد الواحد ذلك إلى قاضـــي الجماعة بمراكش و هو القاضـــي أبو عبد الله محمد ابن علي بن مروان فاجتمع القاضـــي المذكور بالأمير يعقوب وقال له

11 إن الشـــيخ ابا محمد عبد الواحد يطلب أهله فســـكت الأمير يعقوب ومضـــى على ذلك ايام ثم إن الشيخ عبد الواحد اجتمع بالقاضـي المذكور في قصـر الأمير يعقوب بمراكش وقال له أنت قاضـي المسلمين وقد طلبت أهلي فما جاءوني فاجتمع القاضـــي بالأمير يعقوب وقال له يا أمير المؤمنين الشـيخ عبد الواحد قد طلب أهله مرة و هذه الثانية فســـكت الأمير يعقوب ثم بعد ذلك بمدة لقي الشـيخ عبد الواحد القاضـي بالقصـر المذكور وقد جاء إلى خدمة الأمير يعقوب فقال له يا قاضـــي المســـلمين قد قلت لك مرتين و هذه الثالثة أنا أطلب أهلي وقد منعوني عنهم فاجتمع القاضي بالأمير يعقوب وقال له يا مولانا إن الشـــيخ عبد الواحد قد تكرر طلبه لأهله فإما أن تسير إليه أهله وإلا فاعزلني عن القضـــاء فســكت الأمير يعقوب وقيل إنه قال له يا أبا عبد الله ما هذا إلا جد كبير ثم اسـتدعى خادماً وقال له في السـر تحمل أهل الشـيخ عبد الواحد إليه فحملت إليه في ذلك النهار ولم يتغير على القاضـي ولا قال له شـيئا يكرهه وتبع في ذلك حكم الشـرع المطهر وانقاد لأوامره وهذه حسـنة تعد له وللقاضـي أيضـاً فإنه بالغ

في إقامة منار العدل وكان الأمير أبو يوسف يعقوب المذكور يشدد في إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس وقتل في بعض الأحيان على شرب الخمر وقتل العمال الذين تشكو الرعايا منهم وأمر برفض فروع الفقه وأن العلماء لا يفتون إلا بالكتاب العزيز والسنة النبوية ولا يقلدون أحداً من الأئمة المجتهدين المتقدمين بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس ولقد أدركنا جماعة من مشايخ المغرب وصلوا إلينا إلى البلاد وهم على ذلك الطريق مثل ابي الخطاب ابن دحية وأخيه أبي عمر ومحيي الدين ابن العربي نزيل دمشق وغيرهم

12 وكان يعاقب على ترك الصلاة ويأمر بالنداء في الأسواق بالمبادرة إليها فمن غفل عنها أو اشتغل بمعيشته عزره تعزيراً بليغاً وكان قد عظم ملكه واتسعت دائرة سلطنته حتى إنه لم يبق بجميع أقطار بلاد المغرب من البحر المحيط إلى برقة إلا من هو في طاعته وداخل في ولايته إلى غير ذلك من جزيرة الأندلس وكان محسناً محباً للعلماء مقرباً للأدباء مصغياً إلى المدح مثيباً عليه وله ألف أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي كتابه الذي سماه صفوة الأدب وديوان العرب في مختار الشعر وهو مجموع مليح احسن في اختياره كل الإحسان وإلى الأمير يعقوب تنسب الدنانير اليعقوبية المغربية وكان قد أرسل إليه

السلطان صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب الآتي ذكره إن شاء الله تعالى رسولاً من بني منقذ في سنة سبع وثمانين وخمسمائة ليستتجده على الفرنج الواصلين من بلاد المغرب إلى الديار المصرية وساحل الشام ولم يخاطبه بأمير المؤمنين بل خاطبه بأمير المسلمين فعز ذلك عليه ولم يجبه إلى ما طلبه منه (355) والرسول المذكور هو شمس الدولة أبو الحارث عبد الرحمن بن نجم الدولة أبي عبد الله محمد بن مرشد وقد سبق في ترجمة عمه أسامة بن منقذ تتمة نسبه هكذا ذكره الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري في كتاب الوفيات وقال توفي في سنة ستمائة بالقاهرة ومولده في شيزر سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة وله نظم ونثر

13 رجعنا إلى حديث يعقوب (356)) وكان من شعراء دولته أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر الأندلسي المرسي ولقد نظرت في ديوانه فوجدت أكثر مدائحه في الأمير يعقوب فمن ذلك قوله (أتراه يترك الغزلا * وعليه شب واكتهلا) (كلف بالغيد ما عقلت * نفسه السلوان مذ عقلا) (غير راض عن سجية من * ذاق طعم الحب ثم سلا) (أيها اللوام ويحكم * إن لي عن لومكم شغلا) (ثقلت عن لومكم أذن * لم يجد فيها الهوى ثقلا) (تسمع النجوى وإن خفيت * وهي ليست تسمع العذلا) (نظرت عيني لشقوتها * نظرات وافقت أجلا)

غادة لما مثلت لها * تركتني في الهوى مثلا) (هي
بزتني الشباب فقد * صار في أجفانها كحلا) (أبطل
الحق الـذي بيـدي * ســـحر عينيهـا ومـا بطلا) (
عرضــت دلا فإذ فطنت * بولوعي أعرضــت خجلا)
(وبدا لي أنها وجلت * من هنات تبعث الوجلا) (
حسبت أني سأحرقها * إذ رأت رأسي قد اشتعلا) (
يا ســـراة الحي مثلكم * يتلافى الحادث الجللا) (قد
نزلنا في جواركم * فشكرنا ذلك النزلا) (ثم واجهنا
ظباءكم * فلقينا الهول والوهلا)
14 (أضمنتم أمن جيرتكم * ثم ما آمنتم السبلا
) (واردتم غصـــب أنفســـهم * فبثثتم بينها المقلا) (
ليتنا خضنا السيوف ولم * نلق تلك الأعين النجلا) (
عارضـــتنا منكم فئة * أحدثت في عهدنا دخلا) (
ثعليات جفونهم * وهم لم يعرفوا ثعلا) (أشـــرعوا
الأعطاف ناعمة * حين أشـــرعنا القنا الذبلا) (
واســـتفزتنا عيونهم * فخلعنا البيض والأســـلا) (
ورمتنا بالسهام فلم * نر إلا الحلي والحللا) (نصروا
بالحسن فانتبهوا * كل قلب بالهوى جذلا) (عطلتني
الغيد من جلدي * وأنا حليتها الغزلا) (حملت نفسي
على فتن * ســـمتها صـــبراً فما احتملا) (ثم قالت
سوف نتركها * سلباً للحب أو نفلا) (قلت أما وهي
قد علقت * بأمير المؤمنين فلا) (ما عدا تأميلها ملكاً
* من رآه أدرك الأملا) (أودع الإحسان صفحته *
ماء بشـر ينقع الغللا) (فإذا ما الجود حركه * فاض

من يمناه فانهملا) قلت وهي قصـــيدة طويلة عدد أبياتها مائة وســـبعة ابيات فنقتصـــر منها على هذا المقدار وكانت وفاة هذا الشاعر في سنة سبع وثمانين وخمســمائة بمراكش وهو ابن ثلاث وخمســين ســنة ودخل الأديب ابو إســحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي الأسود الشاعر على الأمير يعقوب فأنشده

15 (أزال حجابـه عني وعيني * تراه من المهابة في حجاب) (وقربني تفضـلـه ولكن * بعدت مهابة عند اقترابي) وكانم : بكســم النون جنس من الســودان وهم بنو عم تكرور وكل واحدة من هاتين القبيلتين لا تنســب إلى اب ولا أم وإنما كانم اســم بلدة بنواحي غانة وهي دار ملك الســودان الذين بجنوب الغرب فسمي هذا الجنس باسم هذه البلدة وتكرور اسم للأرض التي هم فيها وســمي جنســهم باســم أرضــهم والجميع من بني كوش بن حام بن نوح عليه الســلام والله أعلم (357) ولما حضرت الوفاة الأمير يعقوب المذكور وقضـــى نحبه بايع الناس ولده أبا عبد الله محمد بن يعقوب وتلقب بالناصـــر ونهض إلى إفريقية فهزم الميورقي المـذكور وارتجع المهـدية من نوابـه وقد كان اســتولى عليها في مدة اشـتغال الأمير يعقوب بـالأعـداء ثم تحرك محمـد بن يعقوب إلى جزيرة الأندلس فكانت وقعة العقاب في ســنة تســع وســتمائة وتوفى محمد سـنة سـت عشـرة وسـتمائة لعشـر خلون من شـعبان ومولده في سـنة سـت وسـبعين وخمسـمائة

والمغاربة يقولون إن محمد بن يعقوب المذكور أوصى عبيده المشتغلين بحراسة بستانه بمراكش أن كل من ظهر لهم بالليل فهو مباح الدم لهم ثم أراد أن يختبر قدر أمره لهم فتنكر وجعل يمشي في البستان ليلاً فعندما رأوه جعلوه غرضاً لرماحهم فجعل يقول أنا الخليفة أنا الخليفة فما تحققوه حتى هلك والله أعلم بصحة ذلك (358) ثم ولي بعده ولده أبو يعقوب يوسف بن محمد بن الأمير يعقوب وتلقب

16 المستنصر بالله ومولده أول شوال سنة أربع وتسعين ولم يكن في بني عبد المؤمن أحسن وجهاً منه ولا ابلغ في المخاطبة إلا أنه كان مشغوفاً براحته فلم يبرح عن حضرته فضعفت الدولة في أيامه ومات في شوال أو ذي القعدة سنة عشرين وستمائة ولم يخلف ولداً (359) فاتفق أرباب الدولة على تولية أبي محمد عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن لكبر سنه ووفور عقله فلم يحسن التدبير ولا دارى أهل دولته فخلعوه وخنقوه بعد تسعة اشهر من ولايته ولما تولى عبد الواحد بمراكش كان بالأندلس أبو محمد عبد الله بن الأمير يعقوب المذكور فامتنع بمرسية ورأى أنه أحق بالأمر من عبد الواحد وخرج إلى ما في جهته من بلاد الأندلس فاستولى عليها بغير كلفة وتلقب بالعادل فلما خنق عبد الواحد بمراكش ثارت الفرنج بالأندلس على عبد الله المذكور وتواقعوا وانهزم أصحابه هزيمة شنيعة وهرب هو وركب البحر يريد

مراكش وترك باشبيلية أخاه ابا العلا إدريس بن الأمير يعقوب وقاســى عبد الله شـدائد في طريقه إلى مراكش من العربان فلما وصــــلها اضـــطربت أحواله وقبض عليه أهل مراكش (360) وتفاوضــوا فيمن يقدمونه فوقع اختيـارهم على أبي زكريـا يحيى بن النـاصــــر محمد بن يعقوب وهو إذ ذاك كمـا يقل وجهـه غر لم يجرب الأمور فلم يلبث إلا أياماً قلائل حتى ورد الخبر من الأنـدلس أن ابـا العلا إدريس بن الأمير يعقوب ادعى الخلافة باشبيلية وبايعه أهل الأندلس ثم آل أمره إلى أن حصـره العرب بمراكش وهزموا عسكره مرة بعد أخرى حتى ضـجر منه أهل مراكش وتشـاءموا به وأخرجوه عنهم فهرب إلى جيل درن ثم راســـل في الباطن جماعة من أهل مراكش ليعود إليها ويقتل من بـها من أعوان ابي العلا إدريس فحضــــر إليها وقتل المذكورين (361) وجاء ابو العلا من الأندلس وقد خرج عليه بها الأمير محمد بن يوسف

17 ابن هود الجـذامي ودعـا إلى بنـي العبـاس فمال إليه الناس ورجعوا عن أبي العلا إدريس فانتهى إلى مراكش ويحيى بـها فتواقعوا وانهزم يحيى من أبي العلاء إلى الجبـل واســـتولى أبو العلا على مراكش وجمع يحيى رجالاً وقصــــد ابا العلا بمراكش فهزمه أبو العلا مراراً وأضــعف جماعته فألجأته الضــرورة إلى الاســتجارة بقوم في حصــن بجهة تلمسـان وكان لغلام منهم عنده ثأر بأبيه فرصــــده يوماً وهو راكب

فطعنه فقتله واســـتبد ابو العلا بالأمر وتلقب بالمأمون وكان شـجاعاً حازماً صـارماً فتاكاً ثم إن ابا العلا مات في الغزو حتف أنفه ولم أتحقق تاريخ وفاته ثم أخبرني بعض أهل بلادهم أنه توفى سـنة ثلاثين وسـتمائة والله أعلم (362) وأخفى ولده موته حتى دبر أمره وبلغ مأمنه وهو أبو محمد عبد الواحد ابن أبي العلا إدريس وتلقب بالرشـــيد وتقدم بعد موت أبيه وغلب على أخيه الأكبر واســـتبد بالأمر وكان أبوه أبو العلاء قد أزال اسم المهدي أبي عبد الله محمد بن تومرت المقدم ذكره من الخطبة يوم الجمعة فأعاده ولده الرشـــيد المذكور واستمال به قلوب جماعته وتحبب إليهم وكان إلى سنة إحدى وأربعين وستمائة ملك المغرب الأقصى وبعض الأنـدلس ولم اعلم مـا وراء ذلـك حتى أذكره وبعـد تسطير هذه الترجمة كتب لي بعض أهل مراكش ممن عنده فضيلة ومعرفة وكان قريب عهد ببلاده فأخبرني أن الرشيد المذكور توفي غريقاً في صـهريج بستان له بحضرة مراكش في سنة أربعين وستمائة وكتم حاجبه أمره مدة فجهل لذلك شـهر وفاته (363) وولي بعده أخوه لأبيه المعتضد ويعرف بالسـعيد وهو ابو الحسن علي ابن إدريس ثم خرج إلى ناحية تلمسـان وحاصـر قلعة بينها وبين تلمسان

18 مسافة يوم واحد وقتل هناك على ظهر فرسه في صفر سنة ست وأربعين وستمائة (36) وولي بعده المرتضـــى أبو حفص عمر بن أبي إبراهيم بن

يوســف في شــهر ربيع الآخر من الســنة وفي الحادي والعشــرين من المحرم ســنة خمس وســتين وســتمائة دخل الواثق أبو العلا إدريس بن أبي عبد الله يوســـف بن عبد المؤمن المعروف بأبي دبوس مراكش وهرب المرتضى إلى آزمور وهي من نواحي مراكش فقبض عليه عامله بها وبعث إلى الواثق بذلك فأمره الواثق بقتله فقتله في العشر الأخير من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وستمائة بموضع يقال له كتامة بعده عن مراكش ثلاثة أيام (365) وأقام الواثق ثلاث ســنين وقتل في الحرب التي كانت بينه وبين بني مرين ملوك تلمســان وانقرضــت دولة بني عبد المؤمن وكان قتل الواثق في المحرم سنة ثمان وستين بموضع بينه وبين مراكش مسيرة ثلاثة أيام في جهتها الشمالية واستولى بنو مرين على ملكهم وملكهم الآن أبو يوســف يعقوب بن عبد الحق بن حمامة والله تعالى أعلم (366)

وأما علي بن إسحاق الميورقي فقد تكرر ذكره في هذه الترجمة وكان أبوه أبو إبراهيم إســحاق بن حمو بفتح الحاء المهملة وبعدها ميم مشددة مضمومة ثم واو ابن علي ويعرف بابن غانية الصــنهاجي صــاحب ميورقة ومنورقة ويابســـة وهي ثلاث جزائر متجاورة في البحر الغربي فتوفي في سنة ثمانين وخمسمائة وخلف أربعة بنين وهم أبو عبد الله محمد توجه بعد موت أبيه إلى الموحدين بالأندلس فأعطوه مدينة دانية وأحســنوا إليه غاية الإحسان وأبو الحسن علي وأبو زكريا يحيى

خرجـا إلى بلاد إفريقيـة وفعلا الأفـاعيـل العجيبـة المشـــهورة بين الناس من الحروب والعيث في البلاد فمات علي ولا أعلم تاريخ وفاته لكنه كان حياً في سنة إحدى وتسعين واستمر يحيى على حاله فطالت مدته وذكره الحـافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري في كتاب الوفيات فقال خرج من ميورقة في شعبان

19 سنة ثمانين وخمسمائة واستولى على بلاد كثيرة وكان مشـــهوراً بالشـــجاعة والإقدام وتوفي في أواخر شـوال سـنة ثلاث وثلاثين وسـتمائة في البرية من قطر تلمســان وكان خروجه على بني عبد المؤمن (367) وبقي أصـــغر الإخوة وهو أبو محمد عبد الله ملك ميورقة إلى سنة تسع وتسعين وخمسمائة فجهز إليه الناصــر محمد بن يعقوب المذكور أسـطولاً نزل بســاحل ميورقة فبرز إليهم وكان شـجاعاً كريماً فعثر به فرسـه فسقط إلى الأرض فقتلوه وحملوا رأسـه إلى مراكش وعلقوا جثتـه على الســـور وأخذوا ميورقـة وبقيت بأيديهم إلى أن تغلب الفرنج عليها في سنة سبع وعشـــرين وســـتمائة وفعلوا فيها العظائم من القتل والأسر وغير ذلك والأذفونش : بضم الهمزة وسكون الذال المعجمة وضـم الفاء وسـكون الواو وبعدها نون ثم شـــين معجمة وهو اســـم لأكبر ملوك الفرنج وهو صـــاحب طليطلة 830&&يعقوب بن داود ابو عبد الله يعقوب بن داود بن عمر بن طهمان السلمي بالولاء

مولى ابي صـــالح عبد الله بن خازم السـلمي والي خراسان كان يعقوب

20 المذكور كاتب إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي خرج هو وأخوه محمد على أبي جعفر المنصـــور بالبصـــرة ونواحيها وقتلا في ســنة خمس واربعين ومائة وقصـــتهما مشـــهورة في التواريخ وليس هذا موضـــع ذكرها وكان أبوه داود بن طهمان وإخوته كتاباً لنصر بن سيار عامل خراسان من جهة بني أمية ولما مات داود نشـأ ولداه علي ويعقوب المذكور اهل أدب وفضــل وافتنان في صـنوف العلوم ولما ظهر المنصـــور على إبراهيم بن عبد الله المذكور ظفر بيعقوب بن داود المذكور فحبسه في المطبق في سنة أربع وأربعين ومائة وقيل في سنة ست وأربعين ومائة قلت ولعله الأصـــح لأن إبراهيم قتل في ســنة خمس وأربعين كما ذكرناه إلا أن يكون قد ظفر بيعقوب قبل قتل إبراهيم وذلك في أول خروجه والله أعلم وكان يعقوب سمحاً جواداً كثير البر والصدقة واصطناع المعروف وذكره دعبل بن علي الخزاعي الشـــاعر المشهور في كتابه الذي جمع فيه أسماء الشعراء وكان مقصوداً ممدحاً مدحه أعيان شعراء عصره مثل أبي الشيص الخزاعي وسنم الخاسر وأبي حنش وغيرهم ولما مات المنصـــور وقام بالأمر ولده المهدي جعل يعقوب يتقرب إليه حتى أدناه واعتمد عليه وعلت

منزلته عنده وعظم شأنه حتى خرج كتابه إلى الدواوين أن أمير المؤمنين المهدي قد آخى يعقوب بن داود فقال في ذلك سلم بن عمرو المعروف بالخاسر (قل للإمام الذي جاءت خلافته * تهدى إليه بحق غير مردود) (نعم القرين على التقوى أعنت به * أخوك في الله يعقوب بن داود)

21 وحج المهدي في سنة ستين ومائة ويعقوب معه وفي سنة إحدى وستين تقدم إليه بتوجيه الأمناء إلى العمال في جميع الآفاق ففعل ذلك فلم يكن ينفذ شيء من الكتب للمهدي حتى يرد كتاب من يعقوب إلى أمينه بإنفاذه وكان وزير المهدي ابا عبيد الله معاوية بن عبد الله بن يسار الأشعري الطبراني صاحب مربعة عبيد الله ببغداد وكان جده يسار مولى عبد الله بن عضاه الأشعري فلم يزل الربيع بن يونس المقدم ذكره في حرف الراء يسعى به إلى المهدي وصحح على ابنه الزندقة فقتله المهدي وكان الربيع بعد ذلك يقبح أمره عنده ويقول له لا تثق به بعد قتلك ابنه ويذكر كفاية يعقوب ابن داود حتى عزله عن الوزارة وأفرده في ديوان الرسائل واستوزر يعقوب في سنة ثلاث وستين ثم إن المهدي عزل ابا عبيد الله عن ديوان الرسائل في سنة سبع وستين ورتب فيه الربيع بن يونس المذكور وكان أبو عبيد الله يصل إلى المهدي على عادته رعاية منه لخدمته فقال في ذلك علي بن الخليل الكوفي من جملة أبيات (قل للوزير

أبي عبيد الله هل من باقيه) (يعقوب يلعب بالأمور * وأنت تنظر ناحيه) (أدخلته فعلا عليك كذاك شؤم الناصيه) (وأخذت حتفك جاهداً * بيمينك المتراخية) وغلب يعقوب على أمور المهدي كلها وكان المنصور قد خلف في بيوت المال تسعمائة ألف ألف درهم وستين ألف درهم وكان الوزير ابو عبيد الله بشير على المهدي بالاقتصاد في الإنفاق وحفظ الأموال فلما عزل

22 وولي يعقوب زين له هواه فأنفق الأموال وأكب على اللذات والشرب وسماع الغناء واشتغل يعقوب بالتدبير ففي ذلك يقول بشار بن برد الشاعر المشهور المقدم ذكره في حرف الباء (بني أمية هبوا طال نومكم * إن الخليفة يعقوب بن داود) (ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا * خليفة الله بين الزق والعود) وكان أبو حارثة النهدي يتقلد خزن بيوت الأموال فلما خلت من المال دخل إلى المهدي ومعه المفاتيح وقال له إذا كنت قد أنفقت جميع الأموال فما معنى هذه المفاتيح معي مر من يقبضها مني فقال له المهدي دعها معك فإن الأموال تأتيك ثم سير في استحثاث الأموال فوردت عليه في مدة يسيرة وقصر في النفقات قليلاً فتوفرت الأموال وتشاغل أبو حارثة في قبض ما ورد عليه وتصحيحه فلم يدخل إلى المهدي ثلاثة أيام فقال المهدي ما فعل هذا الأعرابي الأحمق فخبر بالسبب في تأخره فدعا به وقال له ما أخرك عنا فقال

ورود الأموال فقال يا أحمق توهمت أن الأموال لا تأتينا فقال يا أمير المؤمنين إن الحادث لو حدث واحتيج إلى المال ولم يصلح إلا به لم ينتظر حتى يوجه في حمل الأموال وروي أن المهدي حج في بعض السنين فمر بميل وعليه كتابة فوقف وقرأه فإذا هو (لله درك يا مهدي من رجل * لولا اتخاذك يعقوب بن داود) فقال لمن معه اكتب تحته على رغم أنف الكاتب لهذا وتعساً لجده فلما انصرف وقف على الميل فقلنا لم يقف عليه إلا لشيء قد علق بقلبه من ذلك الشعر فكان كذلك لأنه أوقع بيعقوب بعد قليل

23 وكثرت الأقوال في يعقوب ووجد أعداؤه مقالاً فيه وذكروا خروجه على المنصور مع إبراهيم بن عبد الله العلوي وعرفه بعض خدمه أنه سمعه يقول بنى هذا الرجل مستنزهاً أنفق عليه خمسين ألف ألف درهم من أموال المسلمين وكان المهدي قد بنى عيسى باد وأراد المهدي أمراً فقال له يعقوب هذا يا أمير المؤمنين من السرف فقال له ويلك وهل يحسن السرف إلا بأهل الشرف وكان يعقوب قد ضجر مما كان فيه وسأل المهدي الإقالة وهو يمتنع ثم إن المهدي أراد أن يمتحنه في ميله إلى العلوية فدعا به يوماً وهو في مجلس فرشه موردة وعليه ثياب موردة وعلى راسه جارية على رأسها ثياب موردة وهو مشرف على بستان فيه شجر فيه صنوف الأوراد فقاله له يا يعقوب كيف ترى مجلسنا هذا قال على

غاية الحسن فمتع الله أمير المؤمنين به فقال له جميع ما فيه لك و هذه الجارية لك ليتم سرورك وقد أمرت لك بمائة ألف درهم فدعا له فقال له المهدي ولي إليك حاجة فقام يعقوب قائماً وقال يا أمير المؤمنين ما هذا القول إلا لموجدة وأنا أستعيذ بالله من سخطك فقال أحب أن تضمن لي قضاءها فقال السمع والطاعة فقال له والله فقال والله ثلاثاً فقال له ضع يدك على رأسي واحلف به ففعل ذلك فلما استوثق منه قال له هذا فلان بن فلان رجل من العلوية أحب أن تكفيني مؤونته وتريحني منه فخذه إليك فحوله إليه وحول إليه الجارية وما كان في المجلس والمال فلشدة سروره بالجارية جعلها في مجلس تقرب منه ليصل إليها ووجه فأحضر العلوي فوجده لبيباً فهماً فقال له ويحك يا يعقوب تلقى الله تعالى بدمي

24 وأنا رجل من ولد فاطمة رضي الله عنها بنت محمد فقال له يعقوب يا هذا أفيك خير فقال إن فعلت خيرا معي شكرت ودعوت لك فقال له خذ هذا المال وخذ أي طريق شئت فقال طريق كذا وكذا آمن لي فقال له امض مصاحبا وسمعت الجارية الكلام كله فوجهت مع بعض خدمها به وقالت قل له هذا فعل الذي آثرته على نفسك بي و هذا جزاؤك منه فوجه المهدي فشحن الطريق حتى ظفر بالعلوي وبالمال ثم وجه إلى يعقوب فأحضره فلما رآه قال ما حال الرجل قال قد أراحك الله منه قال مات قال نعم قال والله قال

والله قال فضع يدك على رأسي فوضع يده على رأسه وحلف له به فقال يا غلام أخرج إلينا من في هذا البيت ففتح بابه عن العلوي والمال بعينه فبقي يعقوب متحيرا وامتنع الكلام عليه فما دري ما يقول فقال له المهدي لقد حل دمك ولو آثرت إراقته لأرقته ولكن احبسوه في المطبق فحبسوه وامر بأن يطوى عنه خبره وعن كل أحد فأقام فيه سنتين وشهورا في أيام المهدي وجميع أيام الهادي موسى بن المهدي وخمس سنين وشهورا من أيام هارون الرشيد ثم ذكر يحيى بن خالد البرمكي أمره وشفع فيه فأمر باخراجه فأخرج وقد ذهب بصره فأحسن إليه الرشيد ورد ماله وخيره المقام حيث يريد فاختار مكة فأذن له في ذلك فأقام بها حتى مات في سنة سبع وثمانين ومائة ولما أطلق يعقوب سأل عن جماعة من إخوانه فأخبر بموتهم فقال (لكل أناس مقبر بفنائهم * فهم ينقصون والقبور تزيد) (هم جيرة الأحياء أما محلهم * فدان وأما الملتقى فبعيد) قلت هذان البيتان في باب المراثي في كتاب الحماسة

25 قلت هكذا ذكر تاريخ وفاته محمد بن عبدوس الكوفي المعروف بالجهشياري في كتابه تاريخ الوزراء وذكر غيره أن يعقوب بن داود مات في سنة اثنتين وثمانين ومائة والله أعلم بالصواب وقال عبد الله بن يعقوب بن داود أخبرني أبي أن المهدي حبسه في بئر وبنى عليها قبة قال فمكثت فيها

خمس عشـرة سـنة وكان يدلى لي فيها كل يوم رغيف خبز وكوز ماء وأوذن بأوقات الصـلوات فلما كان في رأس ثلاث عشـرة سـنة أتاني آت في منامي فقال (حنا على يوسـف رب فأخرجه * من قعر جب وبيت حوله غمم) قال فحمدت الله تعالى وقلت أتاني الفرج ثم مكثت حولا لا أرى شـيئا فلما كان رأس الحول الثاني أتاني ذلك الآتي فأنشدني (عسى فرج يأتي به الله إنه * له كل يوم في خليقته أمر) قال ثم أقمت حولا آخر لا أرى شيئا ثم أتاني ذلك الآتي بعد الحول فقال (عسى الكرب الذي أمسيت فيه * يكون وراءه فرج قريب) (فيأمن خائف ويفك عان * ويأتي أهله النائي الغريب) فلما أصـبحت نوديت فظننت أني أوذن بالصـلاة فدلي لي حبل أسـود وقيل لي اشـدد به وسـطك ففعلت وأخرجت فلما قابلت الضـوء عشـي بصري فانطلقوا بي فأدخلت على الرشيد فقيل لي سلم على أمير المؤمنين فقلـت السـلام عليـك يـا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته المهدي فقال الرشـيد لسـت به فقلت السـلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته الهادي فقال لسـت به فقلت السـلام على أمير المؤمنين ورحمة الله

26 وبركاته فقال الرشـيد فقلت الرشـيد فقال يا يعقوب بن داود إنه والله ما شفع فيك إلي أحد غير أني حملت الليلة صـبية لي على عنقي فذكرت حملك إياي على عنقك فرثيت لـك من المحل الـذي كنـت بـه

فأخرجتك وكان يعقوب يحمل الرشـــيد وهو صـــغير يلاعبه (368) ولما حبس المهدي يعقوب رتب في الوزارة أبا جعفر الفيض بن أبي صـــالح وكان من غلمان عبد الله بن المقفع وكان شـديد الكبر وكان أبوه نصـرانيا وفيه يقول الشـاعر (يا حابسـي عن حاجتي ظالما * أحوجك الله إلى الفيض) (ذاك الذي يأتيك معروفه * كأنما يمشـــي على البيض) وطهمان بفتح الطاء المهملة وسـكون الهاء وبعدها ميم وبعد الألف نون (369) وكـانـت ولادة أبي عبيد الله معـاويـة الأشعري في سنة مائة وتوفي سنة سبعين ومائة وقيل في سـنة تسـع وسـتين وقيل مات في الوقت الذي مات فيه موسى الهادي وكانت وفاته ببغداد ودفن في مقابر قريش وتوفي الفيض في سـنة ثلاث وسـبعين ومائة وتولى الوزارة بعده الربيع بن يونس وقد سـبق ذكره في ترجمة بشـار ابن برد الشـاعر وذكر أن يعقوب بن داود اعان على قتله (370) ولما مات يعقوب رثاه أبو حنش الهلالي وقيل النميري واسـمه حضـير ابن قيس البصـري وعاش مائة سـنة بأبيات هي في كتاب الحماسـة أولها (يعقوب لا تبعد وجنبت الردى * فليبكين زمانك الرطب الثرى)

27 يعقوب بن كلس أبو الفرج يعقوب بن يوسـف بن إبراهيم بن هارون بن داود بن كلس وزير العزيز نزار بن المعز العبيدي صـاحب مصـر المقدم ذكرهما كان يعقوب أولا يهوديا يزعم أنه من ولد

هارون بن عمران أخي موســـى بن عمران عليهما السـلام وقيل إنه كان يزعم أنه من ولد السـموال بن عاديا اليهودي صاحب الحصن المعروف بالأبلق وهو المشـهور بالوفاء وقصـته مع امرىء القيس الكندي الشاعر المشهور مشهورة مستفيضة بين العلماء في الوفاء له في ودائعه وكان يعقوب المذكور قد ولد ببغداد ونشأ بها عند باب القز وتعلم الكتابة والحساب وسافر به أبوه من بغداد إلى الشام وأنفذه إلى مصر سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة فانقطع إلى بعض خواص الاستاذ كافور الإخشيدي المقدم ذكره فجعله كافور على عمارة داره ثم صار ملازما لباب داره فرأى كافور من نجابته وشهامته وصيانته ونزاهته وحسن إدراكه ما نفق عليه فاستحضره وأجلسه في ديوانه الخاص وكان يقف بين يديه ويخدم ويستوفي الأعمال والحسابات ويدخل يده في كل شيء ثم

28 لم تزل أحواله تتزايد مع كافور حتى صار الحجاب والأشراف يقومون له ويكرمونه ولم تتطلع نفسه إلى اكتساب مال وأرسل له كافور شيئا فرده عليه وأخذ منه القوت خاصة وتقدم كافور إلى سائر الدواوين أن لا يمضي دينار ولا درهم إلا بتوقيعه فوقع في كل شيء وكان يبر ويصل من اليسير الذي أخذه هذا كله وهو على دينه ثم إنه أسلم يوم الإثنين لثماني عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ست وخمسين وثلثمائة ولزم الصلاة ودراسة القرآن الكريم ورتب

لنفسه رجلا من أهل العلم شيخا عارفا بالقرآن المجيد والنحو حافظا لكتاب السيرافي فكان يبيت عنده ويصلي به ويقرأ عليه ولم تزل حاله تزيد وتنمي مع كافور إلى أن توفي كافور في التاريخ المذكور في ترجمته وكان أبو الفضل جعفر بن الفرات المقدم ذكره في حرف الجيم وزير كافور يحسده ويعاديه فلما مات كافور قبض ابن الفرات على جميع الكتاب وأصحاب الدواوين وقبض على يعقوب بن كلس في جملتهم فلم يزل يتوصل ويبذل الأموال حتى أفرج عنه فلما خرج من الاعتقال اقترض من أخيه ومن غيره مالا وتجمل به وسار مستخفيا قاصدا بلاد المغرب فلقي القائد جوهر بن عبد الله الرومي مولى المعز العبيدي المقدم ذكره في الطريق وهو متوجه بالعساكر والخزائن إلى الديار المصرية ليملكها فرجع في الصحبة وقيل إنه استمر على قصده وانتهى إلى إفريقية وتعلق بخدمة المعز العبيدي المقدم ذكره ثم رجع إلى الديار المصرية ولم يزل يترقى إلى أن ولي الوزارة للعزيز نزار بن المعز معد وعظمت منزلته عنده وأقبلت عليه الدنيا وانثال الناس عليه ولازموا بابه ومهد قواعد الدولة وساس أمورها أحسن سياسة ولم يبق لأحد معه كلام وكان في أيام المعز
29 يتصرف في الخدم الديوانية ثم انتقل إلى العزيز من بعده وتولى وزارة العزيز يوم الجمعة ثامن عشر رمضان سنة ثمان وستين وثلثمائة وقال

ابن زولاق في تاريخه بعد ذكر المعز وتاريخ وفاته ما مثاله وممن وزر للمعز الوزير يعقوب بن كلس وهو اول من وزر للدولة الفاطمية في الديار المصـــرية وكان من جملة كتاب كافور فلما وصـل المعز أحسـن في خدمته وبالغ في طاعته إلى أن اسـتوزره هذا آخر كلام ابن زولاق وقال غيره كان يعقوب يحب أهل العلم ويجمع عنده العلماء ورتب لنفسه مجلسا في كل ليلة جمعة يقرأ فيه بنفســـه مصـــنفاته على الناس وتحضـــره القضـــاة والفقهاء والقراء والنحاة وجميع أرباب الفضـــائل وأعيان العدول وغيرهم من وجوه الدولة وأصـــحاب الحديث فاذا فرغ من مجلســـه قام الشـعراء ينشـدونه المدائح وكان في داره قوم يكتبون القرآن الكريم وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب حتى الطب ويعارضون ويشكلون المصاحف وينقطونها وكان من جملة جلســائه الحســين بن عبد الرحيم المعروف بالزلازلي مصـنف كتاب الأسـجاع ورتب في داره القراء والأئمة يصــلون في مســجد اتخذه في داره وأقام في داره مطابخ لنفسه ولجلسـائه ومطابخ لغلمانه وحاشـيته وأتباعه وكان ينصـب كل كل يوم خوانا لخاصته من أهل العلم والكتاب وخواص اتباعه ومن يستدعيه وينصب موائد عديدة يأكل عليها الحجاب وبقية الكتاب والحاشـية وصـنع في داره ميضـأة للطهور بثمانية بيوت تختص بمن يدخل داره من الغرباء وكان يجلس كل يوم عقب صـلاة الصـبح

ويدخل عليه الناس للسلام وتعرض عليه رقاع الناس في الحوائج والظلامات وقرر عند مخدومه العزيز جماعة جعلهم قوادا يركبون بالمواكب والعبيد ولا يخاطب واحد منهم إلا بالقائد وكان من جملة هؤلاء القواد القائد أبو الفتوح فضل بن صالح الذي تنسب إليه منية القائد فضل وهي بليدة بالأعمال الجيزية من الديار المصرية

30 ثم إن الوزير المذكور شرع في تحصين داره ودور غلمانه بالدروب والحرس والسلاح والعدد وعمرت ناحيته بالأسواق وأصناف ما يباع من الأمتعة ومن المطعوم والمشروب والملبوس ويقال إن داره كانت بالقاهرة في موضع مدرسة الوزير صفي الدين أبي محمد عبد الله بن علي المعروف بابن شكر المختصة بالطائفة المالكية وإن الحارة المعروفة بالوزيرية التي بالقاهرة داخل باب سعادة منسوبة إلى أصحابه لأنهم كانوا يسكنونها وكان الوزير أبو الفضل ابن الفرات المقدم ذكره يغدو إليه ويروح ويعرض عليه محاسبات القوم الذين يريد محاسبتهم ويعول عليه فيها ويجلس معه في مجلسه وربما حبسه لمؤاكلته فيأكل معه بعد أن جرى عليه منه ما سبق ذكره وكانت هيبته عظيمة وجوده وافراً وأكثر الشعراء من مدائحه ولقد نظرت في ديوان أبي حامد أحمد بن محمد الأنطاكي المنبوز بأبي الرقعمق الشاعر المقدم ذكره فوجدت أكثر مديحه في الوزير

المذكور والقصيدة التي نقلت بعضها في ترجمته مدح بها الوزير المذكور ورأيت في تاريخ الأمير المختار عز الملك محمد بن أبي القاسم المعروف بالمسبحي المقدم ذكره فصلاً طويلاً يتعلق بشرح حال الوزير المذكور ومعظم ما ذكرته ها هنا نقلته منه وصنف الوزير المذكور كتاباً في الفقه مما سمعه من المعز وولده العزيز وجلس في شهر رمضان سنة تسع وستين وثلثمائة مجلساً حضره العام والخاص وقرأ فيه الكتاب بنفسه على الناس وحضر هذا المجلس الوزير أبو الفضل ابن الفرات المذكور وجلس في الجامع العتيق جماعة يفتون الناس من هذا الكتاب و سمعت من جماعة من المصريين يقولون إن الوزير المذكور كانت

31 له طيور فائقة أصيلة مختارة تسبق كل طائر يسابقها وكان لمخدومه العزيز طيور أيضاً سابقة فاخرة فسابقه العزيز يوماً ببعض الطيور فسبق طائر الوزير فعز ذلك على العزيز ووجد أعداؤه سبيلاً إلى الطعن فيه فقالوا للعزيز إنه قد اختار من كل صنف أجوده وأعلاه ولم يبق منه إلا أدناه حتى الحمام وقصدوا بذلك الإغراء به حسداً منهم لعله يتغير عليه فاتصل ذلك بالوزير فكتب إلى العزيز (
قل لأمير المؤمنين الذي * له العلا والنسب الثاقب)
(طائرك السابق لكنه * جاء وفي خدمته حاجب)
فأعجبه ذلك منه وسري عنه ما كان وجده عليه هكذا

ذكره القاضي الرشيد ابن الزبير المقدم ذكره في كتاب
الجنان وذكر غيره أن هذين البيتين لولي الدولة أبي
محمد أحمد بن علي المعروف بابن خيران الكاتب
الشاعر المصري وقد سبق ذكره في ترجمة أبي
الحسن علي بن أحمد بن نوبخت الشاعر وإنما لم
أفرده بترجمة لأني لم أظفر بتاريخ وفاته وقد التزمت
في هذا الكتاب أني لا اذكر إلا من وقفت على تاريخ
وفاته وذكر أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان
الكاتب المعروف بابن الصيرفي المصري في جزء
سماه الإشارة إلى من نال الوزارة ذكر فيه وزراء
المصريين إلى عصره وابتدأ بذكر يعقوب المذكور
فقال كان كاتباً يهودياً صائناً لنفسه محافظاً على دينه
جميل المعاملة مع التجار فيما يتولاه واتصل بخدمة
كافور الإخشيدي فحمد خدمته ورد إليه زمام ديوانه
بمصر والشام فضبطه له على حسب إرادته وكان
سبب حظوته عنده أن يهودياً قال
32 له إن في دار ابن البلدي بالرملة ثلاثين ألف
دينار مدفونة وقد توفي فكتب يعقوب إلى كافور رقعة
يقول فيها إن في دار ابن البلدي بالرملة عشرين ألف
دينار مدفونة في موضع أعرفه وأنا اخرج أحملها
فأجابه إلى ذلك وأنفذ معه البغال لحملها وورد الخبر
بموت بكير بن هرواز التاجر فجعل إليه النظر في
تركته واتفق موت يهودي بالفرما ومعه أحمال كتان
فأخذها وفتحها فوجد فيها عشرين الف دينار فكتب

إلى كافور بذلك فتبرك به وكتب إليه بحملها فباع الكتان وحمل الجميع وســـار إلى الرملة فحفر الدار التي لابن البلدي وأخرج المال وهو ثلاثون ألف دينار فكتب إلى كافور عرفت الأســتاذ أنها عشـــرون ألف دينار ووجدت ثلاثين ألف دينار فازداد محله من قلبه وتصوره بالثقة ونظر في تركة ابن هرواز واستقصى وحمل منها مالاً كثيراً فأرسـل إليه كافور صـلة كثيرة فأخذ منها ألف درهم ورد الباقي وقال هذه كفايتي فزاد أمره عنده حتى إنه كان يشاوره في أكثر أموره وقال عبد الله أخو مســلم العلوي رأيت يعقوب قائماً يســار كافور فلما مضــى قال لي أي وزير بين جنبيه وسـار إلى المغرب وخـدم المعز وتولى أمور العزيز في مستهل شهر رمضان سنة ثمان وستين وثلثمائة ولقبه بالوزارة وأمر أن لا يخاطبه أحد إلا بها ولا يكاتب إلا بذلك ثم اعتقله في ســنة ثلاث وســبعين وثلثمائة في القصــر فأقام معتقلاً شــهوراً ثم أطلقه في ســنة أربع وسبعين ورده إلى ما كان عليه ووجدت رقعة في دار الوزير المذكور في ســنة ثمانين وثلثمائة وهي الســنة التي توفي فيها ونســختها (احذروا من حوادث الأزمان * وتوقوا طوارق الحدثان)

33 (قد أمنتم من الزمان ونمتم * رب خوف مكمن في أمان) فلما قرأها قال لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم واجتهد أن يعرف كاتبها فلم يقدر على ذلك ولما اعتل علة الوفاة آخر الســنة المذكورة ركب إليه

العزيز عائداً وقال له وددت أنك تباع فأبتاعك بملكي أو تفدى فأفديك بولدي فهل من حاجة توصـــي بها يا يعقوب فبكى وقبل يده وقال أما فيما يخصـــني فأنت ارعى لحقي من أن أســترعيك إياه وأرأف على من أخلفه من أن أوصـيك به ولكني أنصـح لك فيما يتعلق بدولتك ســالم الروم ما ســالموك واقنع من الحمدانية بـالـدعوة والســكـة ولا تبق على مفرج بن دغفل بن جراح إن عرضـت لك فيه فرصـة ومات فأمر العزيز أن يدفن في داره وهي المعروفة بدار الوزارة بالقاهرة داخل باب النصــر في قبة كان بناها وصـــلى عليه وألحده بيده في قبره وانصرف حزيناً لفقده وأمر بغلق الدواوين أياماً بعده وكان إقطاعه من العزيز في كل ســنة مائة ألف دينار ووجد له من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام ووجد له جوهر بأربعمائة ألف دينار وبز من كل صــنف بخمســمائة ألف دينار وكان عليه للتجار ستة عشـر ألف دينار فقضـاها عنه العزيز من بيـت المـال وفرقـت على قبره وذكره الحـافظ ابن عســاكر في تاريخ دمشـــق فقال كان يهودياً من أهل بغداد خبيثاً ذا مكر وله حيل ودهاء وفيه فطنة وذكاء وكـان في قديم أمره خرج إلى الشــــام فنزل الرملـة وصـــار بها وكيلاً فكســـر أموال التجار وهرب إلى مصــــر فتاجر كافوراً الإخشـــيدي فرأى منه فطنة وسـياســة ومعرفة بأمر الضــياع فقال لو كان مسـلماً لصــلح أن يكون وزيراً فطمع في الوزارة فأســلم يوم

جمعة في جامع مصـر فلما عرف الوزير أبو الفضـل جعفر بن الفرات أمره قصــــده فهرب إلى المغرب واتصل بيهود كانوا مع الملقب بالمعز وخرج معه إلى مصـــر فلما مات الملقب بالمعز وقام ولده الملقب بالعزيز اســتوزر ابن كلس في ســـنة خمس وســـتين وثلثمائة فلم

34 يزل مدبر أمره إلى أن هلك في ذي الحجة سنة ثمانين وثلثمائة وقال غيره ابتدأ المرض بالوزير المذكور يوم الأحد الحادي والعشـــرين من ذي القعدة سنة ثمانين وثلثمائة وأخذته سكتة ثم تزايد به المرض واشـتد وانطلق لسـانه ثم توفي ليلة الأحد على صـباح الاثنين لخمس خلون من ذي الحجـة من الســـنـة المذكورة وكفن في خمســـين ثوباً واجتمع الناس كلهم من القصـــر إلى داره وخرج العزيز وعليـه الحزن ظاهر وركب بغلته بغير مظلة وكانت عادته أنه لا يركب إلا بها وصـــلى عليه وبكى وحضـــر مواراته ويقال إنه كفن وحنط بما مبلغه عشـــرة آلاف دينار وذكر من سمع العزيز وهو يقول واطول أسفي عليك يا وزير وبكى عليه القائد جوهر بكاء شديداً وإنما كان بكاؤه على نفســـه لأنه عاش بعده ســـنة واحدة وغدا الشـعراء إلى قبره ويقال إنه رثاه مائة شـاعر وأخذت قصــــائدهم وأجيزوا وقيل إنه مات على دينه وكان يظهر الإسلام والصحيح أنه اسلم وحسن إسلامه وقال يوماً وقد ذكر اليهود في مجلســـه كلاماً يســـوء اليهود

سماعه ثم بين عوراتهم وفساد مذهبهم وأنهم على غير شيء وأن اسم النبي في التوراة وهم يجحدونه وكانت ولادته في سنة ثماني عشرة وثلثمائة ببغداد عند باب القز رحمه الله تعالى وكلس بكسر الكاف واللام المشددة وبعدها سين مهملة والسموأل بن عادياء بفتح السين المهملة والميم وسكون الواو وبعدها همزة مفتوحة ثم لام وعادياء بعين مهملة وبعد الألف دال مهملة مكسورة ثم ياء مثناة من تحتها وبعدها همزة ممدودة وأما القائد جوهر فقد تقدم ذكره في ترجمته (ِ 371) وأما القائد فضل فإنه كان رجلاً نبيلاً كريماً ممدحاً وإليه تنسب

35 منية القائد فضل البليدة التي في أعمال الجيزة التي قبالة مصر وفيه يقول ابو القاسم عبيد الغفار شاعر دولة الحاكم بن العزيز المذكور (إنما الفضل غرة * في وجوه المدائح) (أريحي رياحه * عبقات الروائح) (كعبة الجود كفه * بين غاد ورائح) (إنما تصلح الأمور * برأي ابن صالح) وكان مكيناًُ في دولة الحاكم المذكور ثم نقم عليه وحبسه وضربت عنقه في محبسه يوم السبت عشية لإحدى وعشرين ليلة خلت من ذي القعدة سنة تسع وتسعين وثلثمائة ولم يظهر منه جزع ولف في حصير وأخرج من الحجرة التي كان محبوساً بها رحمه الله تعالى (372) وأما أبو القاسم الشاعر المذكور فإن الحاكم قتله مع جماعة من الأعيان في يوم الأحد السادس

والعشـــرين من المحرم ســـنة خمس وتســـعين وثلثمائة وأحرقهم بـالنـار وكـان قتـل الجميع في حجرة واحـدة والله أعلم 83 يعقوب بن صــــابر المنجنيقي أبو يوسف يعقوب بن صابر بن بركات بن عمار بن علي بن الحســـين بن علي بن حوثرة الحراني الأصــــل البغدادي المولـد والـدار المنجنيقي الملقب نجم الـدين الشـــاعر المشـــهور ذكره أبو عبد الله محمد بن ســـعيد المعروف بـابن الـدبيثي في تـاريخـه الـذي جعلـه ذيلا لتاريخ الحافظ أبي سعد عبد الكريم بن

36 السـمعاني الذي ذيله على تاريخ بغداد تأليف الحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي وقد ســـبق ذكر كل واحد من هؤلاء الثلاثة في هذا التاريخ فقال ابن الدبيثي كان يعقوب المذكور متقدماً على أهل صناعته يعني في صنعة المنجنيق وما يتعلق به وكان فيه فضل ويقول الشعر سمع شيئاً من الحديث من أبي المظفر ابن السمرقندي وأبي منصور ابن الشطرنجي علقت عنه شيئاً من شعره أنشدني ابو يوسف يعقوب بن صـــابر لنفســـه (قبلت وجنته فألفت جيده * خجلاً ومال بعطفه المياس) (فانهل من خديه فوق عذاره * عرق يحاكي الطل فوق الآس) (فكأنني استقطرت ورد خدوده * بتصـاعد الزفرات من أنفاسـي) سـألته عن مولده فقال في ضـــحى نهار الاثنين رابع محرم سنة أربع وخمسين وخمسمائة وقال غير ابن الدبيثي كان ابن صـــابر المنجنيقي جندياً في ابتداء أمره مقدماً

على المنجنيقيين بمدينة السلام ببغداد ولم يزل مغرى بآداب السيف والقلم وصناعة السلاح والرياضة واشتهر بذلك ولم يلحقه أحد من أبناء زمانه في درايته وفهمه لذلك وصنف فيه كتاباً سماه عمدة السالك في سياسة الممالك ولم يتممه وهو مليح في معناه يتضمن أحوال الحروب وتعبيتها وفتح الثغور وبناء المعاقل وأحوال الفروسية والهندسة والمصابرة على القلاع والحصار والرياضة الميدانية والحيل الحربية وفنون العلاج بالسلاح وعمل أداة الحرب والكفاح وصنوف الخيل وصفتها وقد قسم هذا الكتاب ورتبه أبواباً كل باب منه يشتمل على فصول وكان شيخاً هشاً مليحاً لطيفاً فكهاً طيب المحاورة شريف النفس متواضعاً فيه تودد وبشر وسكون وهو مع ذلك شاعر مكثر مجيد ذو

37 معان مبتكرة يقصد الشعر ويعمل المقاطيع وجمع من شعره كتاباً مختصراً سماه مغاني المعاني ومدح الخلفاء وكانت له منزلة لطيفة عند الإمام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد خليفة العصر ذلك الوقت قلت وكانت أخباره في حياته متواصلة إلينا وأشعاره تنقلها الرواة عنه ويحكون وقائعه وماجراياته وما ينظم في ذلك من الأشعار الرائقة والمعاني البديعة ولم تتفق لي رؤيته مع المجاورة وقرب الدار من الدار لأنه كان ببغداد ونحن بمدينة إربل وهما متجاورتان لكن لكثرة اطلاعي على أخباره وما يتفق له من النظم

المنقول عنه في وقته كأني كنت معاشـــره وما زلت مشـغوفاً بشـعره مسـتعذباً أسـلوبه فيه واجتمعت بخلق كثير من أصـحابه والناقلين عنه منهم صـاحبنا الشـيخ عفيف الـدين ابو الحســـن علي بن عـدلان المعروف بالمترجم الموصــلي فإنه أنشــدني له شـيئاً كثيراً فمن ذلـك قولـه (كلفـت بعلم المنجنيق ورميـه * لهـدم الصــــياصـــــي وافتتاح المرابط) (وعدت إلى نظم القريض لشـــقوتي * فلم أخل في الحالين من قصـــد حائط) وأنشدني عنه أيضاً وذكر أنه لم يسبق إليه لا تكن واثقا بمن كظم الغيظ اغتيالا وخف غرار الغرور (فالظبا المرهفات أقتل ما كانت * إذا غاض ماؤها في الصـدور) وأنشـدني له أيضـا في جارية سـوداء كان يهواها وهي حبشـية (وجارية من بنات الحبوش * بذات جفون صـحاح مراض) (تعشـقتها للتصـابي فشـــبت * غراماً ولم أك بالشــــيب راض) (وكنت أعيرها بالسواد * فصارت تعيرني بالبياض)
38 وأنشــــدني عنه أيضـــاً (وجارية عبرت للطواف * وعبرتـها حـذراً تـدمع) (فقلـت ادخلي البيت لا تجزعي * ففيه الأمان لمن يجزع) (سدانته لبني شـيبة * فقالت ومن شـيبة افزع) وأنشـدني عنه في غلام يتعلم السـبــاحة في دجلة بغداد وقد لبس تبان أزرق وشـد على ظهره شكوة منفوخة كما جرت عادة من يتعلم العوم فقال في ذلك (يا للرجال شـكايتي من شكوة * أضحت تعانق من أحب وأعشـق) (جمعت

هوى كهواي إلا أنـها * تطفو ويثقلني الغرام فأغرق) (ويغيرنـي التبـان عنـد عنـاقـه * أردافـه فهو العـدو الأزرق) وقال صاحبنا الكمال ابن الشعار الموصلي صـاحب كتاب عقود الجمان أنشـدني ابن صـابر لنفسـه هذه الأبيات لكنه روى البيت الثاني منها على صـورة أخرى فقال (حملت هوى كهواي فهي بوصـــله * تطفو ويبكيني الغرام فـأغرق) وهـذا من المعـاني النادرة فإن العرب إذا وصفت العدو بشدة العداوة قالت هو عدو أزرق وقد جاء هذا في كلامهم وأشـــعارهم كثيراً واســتعمله الحريري في المقامة الرابعة عشــرة فقـال فمـذ أغبر العيش الأخضـــر وازور المحبوب الأصــفر اســود يومي الأبيض وابيض فودي الأســود حتى رثى لي العــدو الأزرق فحبـذا الموت الأحمر ورأيت في بعض الرسائل ولا أتحقق الآن صاحبها قد أوردنا ظبا الحديد الأخضر في ماء الوريد

39 الأحمر من عدو الله الأزرق من بني الأصفر

وهو باب متسع فلا حاجة إلى الإطالة في ذكر شواهده وأنشـدني عنه أيضـاً في جماعة من الصـوفية أضـافهم فأكلوا جميع ما قدمه لهم فكتب إلى شــيخهم يذكر حاله معهم (مولاي يا شيخ الرباط الذي * أبان عن فضل وعلياء) (إليك أشـكو جور صـوفية * باتوا ضـيوفي وأودائي) (أتيتهم بالزاد مســـتأثراً * وبت تشـــكو الجوع أحشـــائي) (مشـــوا على الخبز ومن عادة الزهاد أن يمشوا على الماء) (وهم إلى الآن ضيوفي

فجد * لهم بخبز وبحلواء) (أو لا فخذهم واكفنيهم فما * يحســـن في مثلهم رائي) وأنشـــدني عنه في الصــوفية أيضــاً (قد لبس الصــوف لترك الصـفا * مشـايخ العصر لشرب العصير) (الرقص والشـاهد من شـأنهم * شر طويل تحت ذيل قصير) وأنشدني عنه أيضــاً وهو من المعاني المســتطرفة (قالوا نراه يسل شعر عذاره * وسباله مستهتراً بزواله) (فتسل عنه وخذ حبيبا غيره * فأجبتهم لا زلت عبد وصـاله) (هل يحســن السـلوان عن حب يرى * أن لا يفارقني بنتف ســباله) وأنشــدني له غير ابن عدلان وقال لما كبر ابن صابر وضعفت حركته صار إذا مشى يتوكأ على عصا فقال في ذلك

40 (ألقيت عن يدي العصـــا * زمن الشـــبيبة للنزول) (وحملتها لما دعا * داعي المشـــيب إلى الرحيل) وكان ببغداد شـــخص يقال له ابن بشـــران وكان كثير الأراجيف فمنع من ذلك فقعد على الطريق ينجم فقال فيه ابن صـــابر (إن ابن بشـــران ولســـت ألومه * من خيفة الســـلطان صـــار منجما) (طبع المشـــوم على الفضـــول فلم يطق * في الأرض إرجافاً فأرجف في السما) قلت وأنشدني الأديب شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن يوســـف بن ســـالم المعروف بابن التلعفري لنفســـه في بعض ليالي شـــهر رمضـــان ســـنة ثمان وثلاثين وســـتمائة بالقاهرة المحروســـة وهو من شعراء العصر المجيدين (يا شيب كيف وما انقضى

زمن الصـــبا * عاجلت مني اللمة الســـوداء) (لا تعجلن فوالـذي جعل الـدجى * من ليل طرتي البهيم ضـياء) (لو أنها يوم الحســاب صــحيفتي * ما ســر قلبي كونها بيضـاء) فقلت له قد أغرت على بيت نجم الدين ابن صابر حتى إنك قد أخذت معظم لفظه وجميع معنـاه والوزن والروي وهو قولـه (لو أن لحية من يشـيب صـحيفة * لمعاده ما اختارها بيضـاء) فحلفت أنه لم يســمع هذا البيت إلا بعد عمله للأبيات المذكورة والله أعلم بذلك وهذا البيت لابن صابر من جملة أبيات وهي (قالوا بياض الشيب نور ساطع * يكسو الوجوه مهابة وضـياء) (حتى ســرت وخطاته في مفرقي * فوددت أن لا أفقد الظلماء) (وعدلت أستبقي الشباب تعللا * بخضابها فصبغتها سوداء) (لو أن لحية من يشيب صحيفة * لمعاده ما اختارها بيضاء)

41 وأخبرني بعض الأدباء أن ابن صــابر كتب إلى بعض الرؤسـاء ببغداد (ما جئت أسألك المواهب مادحاً * إني لما أوليتني لشــــكور) (لكن أتيت عن المعالي مخبراً * لك أن ســـعيك عندها مشـــكور) ووقفت بالقاهرة على كراريس فيها شــــعره وقد أجاد في كل مـا نظمـه ورأيـت فيهـا البيتين المشـــــهورين المنسـوبين إلى جماعة من الشـعراء ولا يعرف قائلهما على الحقيقة وهما (ألقني في لظى فإن أحرقتني * فتيقن أن لسـت بالياقوت) (جمع النسـج كل من حاك لكن * ليس داود فيه كالعنكبوت) فعمل ابن صــــابر

جوابهما (أيها المدعي الفخار دع الفخر لذي الكبرياء والجبروت) (نســـج داود لم يفد ليلة الغار * وكان الفخار للعنكبوت) (وبقاء الســـمند في لهب النار * مزيل فضـــيلة الياقوت) (وكذاك النعام يلتقم الجمر وما الجمر للنعام بقوت) قلت وعلى البيتين الأولين نظم جماعة من الشـــعراء المعاصـــرين لنا أبياتاً فمن ذلك قول الكمال أبي محمد القاسم بن القاسم بن عمرو بن منصـــور الواســـطي نزيل حلب صـــاحب شـــرح المقامات (حق دود القز يبني * فوقه ثم يموت) (بعد ما ســـدى وقد صـــار * يســـدي العنكبوت) وقول المهذب أبي عبد الله محمد بن أبي الحســـن بن يمن الأنصـــاري المعروف بابن الأردخل الموصـــلي نزيل ميافارقين

42 (أقول وقد قالوا نراك مقطباً * إذا ما ادعى دين الهوى غير أهله) (يحق لدود القز يقتل نفســه * إذا جاء بيت العنكبوت بمثلـه) وهذا ينظر إلى قول بعضـــهم (إذا شـــوركت في أمر بدون * فلا يلحقك عار أو نفور) (ففي الحيوان يشـــترك اضـــطراراً * أرسطاليس والكلب العقور) وقول الآخر (وللزنبور والبـازي جميعـاً * لـدى الطيران أجنحـة وخفق) (ولكن بين ما يصطاد باز * وما يصطاده الزنبور فرق) قلت وعلى ذكر دود القز ينبغي أن يـذكر مـا يقـال عن السرفة بضم السين المهملة وبعدها راء ساكنة ثم فاء قال الجوهري في كتاب الصـــحاح هي دويبة تتخذ

لنفسها بيتاً مربعاً من دقاق العيدان تضم بعضها إلى بعض بلعابها على مثال الناووس ثم تدخل فيه وتموت يقال في المثل هو أصنع من سرفة وذكر لي بعض الفضلاء أن السرفة هي الأرضة والله أعلم ومما ينبغي أن يلحق بالأبيات المقدم ذكرها قول بعضهم (إن أعوز الحاذق فاستبدلوا * مكانه أخرق لم يحذق) (فلاعب الشطرنج من دأبه * وضع حصاة موضع البيدق) والأصل في هذا كله قول المتنبي (وشر ما قنصته راحتي قنص * شهب البزاة سواء فيه والرخم) ويقرب منه قول أبي العلاء المعري أيضاً (وهل يذخر الضرغام قوتاً ليومه * إذا ادخر النمل الطعام لعامه) قلت وفي هذه الأبيات الأوائل ما يحتاج إلى زيادة إيضاح فليس

43 كل من يقف عليها يفهم معناها أما البيت الأول وما ذكره من أمر الياقوت فإن الياقوت من خاصيته أن النار لا تؤثر فيه وإلى هذا أشار الحريري في المقامة السابعة والأربعين بقوله من جملة ثلاثة أبيات (وطالما أصلي الياقوت جمر غضاً * ثم انطفا الجمر والياقوت ياقوت) وقال آخر في غلام له اسمه ياقوت (ياقوت ياقوت قلبي المستهام به * من المروءة أن لا يمنع القوت) (سكنت قلبي وما تخشى تلهبه * وكيف يخشى لهيب النار ياقوت) وقد جاء هذا كثيراً في الشعر لكن الاختصار أولى وأما قول ابن صابر في الجواب في البيت الثاني نسج داود لم

يفد ليلة الغار إلى آخره فهذا إشـــارة إلى مهاجرة النبي ومعه ابو بكر الصـديق رضـي الله عنه فإنهما خافا من مشركي مكة أن يتبعوهما فدخلا غار ثور بالثاء المثلثة وثور جبل بين مكة والمدينة بالقرب من مكة ونســـج العنكبوت في الحـال على بـاب الغـار فلمـا وصـــل المشـــركون إليه ورأوا أثر العنكبوت على الباب قالوا ليس ها هنا أحد فإنه لو دخله أحد ما كان العنكبوت نســـج عليه في الحال لأن المشـــركين بادروا إليهما ليلحقوهما فأخفى الله سبحانه وتعالى أمرهما وهي من جملة معجزات النبي وقوله في البيت الثالث وبقاء الســمند في لهب النار إلى آخره الســمند بفتح الســين المهملة والميم وبعد النون الســـاكنة دال مهملة ويقال الســـمندل أيضـــاً بزيادة اللام ذكروا أنه طائر يقع في النار فلا تؤثر فيه ويعمل من ريشة مناديل وتحمل إلى هذه البلاد فإذا اتسخت المنديل طرحت في النار فتأكل النار الوســخ الذي عليها ولا تحترق المنديل ولا تؤثر النار فيها ولقد رأيت منه قطعة ثخينة منســـوجة على هيئة حزام الدابة وهي في طول الحزام وعرضـــه فجعلوها على النار فما عملت فيه فغمسـوا أحد جوانبه في الزيت

44 ثم تركوه على فتيلة الســراج فاشــتعل وبقي زماناً طويلاً يشـتعل ثم اطفأوه وهو على حاله ما تغير فيه شـــيء ويقولون إنه يجلب من بلاد الهند وإن هذا الطائر يكون هناك وفيه نكتة ينبغي أن تذكر ها هنا

وهي أن طرف تلك القطعة لما وضعوه على السراج تركوه زماناً طويلاً والنار لا تعلق فيه فقال بعض الحاضرين هذا ما تعمل فيه النار ولكن اغمسوا هذا الطرف في الزيت ثم اجعلوه على النار ففعلوا ذلك فاشتعل فظهر من هذا أن النار لا تؤثر فيه على تجرده بل لا بد من غمسه في شيء من الأدهان ثم رأيت بخط شيخنا موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف البغدادي في كتابه الذي جعله لنفسه سيرة أنه قدم للملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب قطعة سمندل عرض ذراع في طول ذراعين فصاروا يغمسونها في الزيت ويوقدونها حتى يتقد الزيت وترجع بيضاء كما كانت والله أعلم ومثله السرفوت دويدة تعشش في كور الزجاج في حال توقده واضطرامه وتبيض فيه وتفرخ ولا تعمل بيتها إلا في موضع النار المستمرة الدائمة فسبحان خالق كل شيء وهي بفتح السين المهملة والراء وضم الفاء وسكون الواو وبعدها تاء مثناة من فوقها وأما البيت الرابع الذي ذكر فيه النعام وأنه يلتقم الجمر فهذا شيء شاهدناه كثيراً وهو معروف بين الناس وليس بغريب وبالجملة فقد خرجنا عن المقصود لكن الكلام اتصل بعضه ببعض فانتشر وتوفي ابن صابر المذكور في ليلة الثامن والعشرين من صفر من سنة ست وعشرين وستمائة ببغداد ودفن ليلة الجمعة غربيها بالمقبرة

الجديدة بباب المشـــهد المعروف بموســـى بن جعفر رضي الله عنهما

45 وأخبرني الشهاب ابن التلعفري المذكور أن مولده في الخامس والعشـــرين من جمادى الآخرة بالموصل سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة وتوفي في عاشر شوال سنة خمس وسبعين وستمائة بمدينة حماة وأنشد قبيل موته لنفسه وهو آخر شعره (إذا ما بات من ترب فراشـــي * وبت مجاور الرب الكريم) (فهنوني أصـــيحابي وقولوا * لك البشـــرى قدمت على رحيم) وحوثرة بفتح الحاء المهملة وســـكون الواو وفتح الثاء المثلثة وبعدها راء ثم هاء وهي في الأصل اسم لحشفة الذكر وبها سمي الإنسان قال ابن الكلبي في كتاب جمهرة النســـب ســـمي ربيعة بن عمرو بن عوف بن بكر بن وائل بن حوثرة لأنه حج فمر بامرأة معها لها فاســـتامها فاكثرت فقال والله لو أدخلت حوثرتي فيه يعني كمرته لملأته فســـمي حوثرة والمنجنيقي بفتح الميم وســـكون النون وفتح الجيم وكســـر النون الثانية وســـكون الياء المثناة من تحتها وبعدها قاف هذه النســـبة إلى المنجنيق وهو معروف وإذ قد جرى ذكره ينبغي الكلام عليه ففيه أشياء غريبة منها أنه من جملة الآلات المنقولة المستعملة والقاعدة في هذا الباب أن تكون ميمه مكســـورة إلا ما شـــذ عن ذلك في ألفاظ قليلة مثل منخل ومدهن ومســـعط وغير ذلك مع أبن الجواليقي في كتاب المعرب حكى فيه

أربع لغات فتح الميم وكسرها على القاعدة ومنجنوق بالواو بدل الياء ومنجليق باللام عوض النون الثانية وحكى في الميم والنون الأولى ثلاثة أقوال قيل إنهما أصليتان وقيل زائدتان وقيل الميم اصلية والنون زائدة والله أعلم وهو اسم أعجمي فإن الجيم والقاف لا يجتمعان في كلمة عربية مثل الجرموق والجردق والجوسق والجلاهق والقبج وغير ذلك وهذا باب مطرد وكذلك الجيم والصاد لا يجتمعان في كلمة عربية

46 مثل الصهريج والجص والصاج والجصطل وغير ذلك وهو أيضاً باب مطرد وإذا جمعناه حذفنا إحدى النونين فإن حذفنا النون الأولى قلنا مجانيق وإن حذفنا النون الثانية قلنا مناجيق وقال الجوهري في كتاب الصحاح الأصل في المنجنيق من جي نيك تفسيره بالعربي ما أجودني قلت فتفسير من أنا وتفسير جي أيش وتفسير نيك جيد أي أنا أيش جيد قال الجوهري ثم عرب فقيل منجنيق وذكر ابن قتيبة من كتاب المعارف وابو هلال العسكري في كتاب الأوائل أن أول من وضع المنجنيق جذيمة الأبرش ملك العرب وبلد الحيرة في ذلك الزمان وقال الواحدي في تفسيره الوسيط في سورة الأنبياء إن المشركين لما عزموا على إحراق إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وأضرموا النار لم يدروا كيف يلقونه فيها فجاءهم إبليس لعنه الله تعالى فدلهم على المنجنيق وهو

أول منجنيق وضـــع فوضـــعوه فيه ثم رموه والله أعلم
وهذا الفصــل كله وإن كان خارجاً عن المقصــود لكنه
ما يخلوا عن فائدة فلذلك بســـطت القول فيه 883
موفق الدين ابن يعيش أبو البقاء يعيش بن علي بن
يعيش بن أبي الســرايا بن محمد بن علي بن المفضــل
بن عبد الكريم بن محمد بن يحيى بن حيان القاضـــي
بن بشر بن حيان
47 الأســدي الموصــلي الأصــل الحلبي المولد
والمنشـــأ الملقب موفق الدين النحوي ويعرف بابن
الصائغ قرأ النحو على أبي السخاء فتيان الحلبي وأبي
العباس المغربي النيروزي وســـمع الحديث على ابي
الفضل عبد الله بن أحمد الخطيب الطوسي بالموصل
وعلى أبي محمد عبد الله بن عمر بن ســويدة التكريتي
وبحلــب من ابي الفرج يحيى بن محمود الثقفي
والقاضي أبي الحسن أحمد بن محمد بن الطرسوسي
وخالد بن محمد بن نصـــر بن صـــغير القيســـراني
وبدمشق على تاج الدين الكندي وغيرهم وحدث بحلب
وكان فاضــلاً ماهراً في النحو والتصــريف رحل من
حلب في صدر عمره قاصداً بغداد ليدرك أبا البركات
عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن الأنباري المقدم
ذكره وتلك الطبقة بالعراق وبلاد الجزيرة فلما وصــل
إلى الموصـــل بلغه خبر وفاته وقد ذكرت تاريخ موته
في ترجمته فأقام بالموصل مديدة وسمع الحديث بها ثم
رجع إلى حلب ولما عزم على التصدر للإقراء سافر

إلى دمشق واجتمع بالشيخ تاج الدين أبي اليمن زيد بن
الحســـن الكندي الإمام المشـــهور وقد تقدم ذكره في
حرف الزاي وســألـه عن مواضــع مشــكلة في العربية
وعن إعراب ما ذكره أبو محمد الحريري في المقامة
العاشـــرة المعروفة بالرحبية وهو قوله في أواخرها
حتى إذا لألأ الأفق ذنب الســـرحان وآن انبلاج الفجر
وحان فاســـتبهم جواب هذا المكان على الكندي هل
الأفق وذنب السرحان مرفوعان أو منصوبان أو الأفق
مرفوع وذنب السرحان منصوب أو على العكس وقال
له قد علمت قصـــدك وأنك أردت إعلامي بمكانتك من
هذا العلم وكتب له خطه بمدحه والثناء عليه ووصــف
تقدمه في الفن الأدبي قلت وهذه المســـألة يجوز فيها
الأمور الأربعة والمختار منها نصب
48 الأفق ورفع ذنب السرحان وقد ذكر ذلك تاج
الدين ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المقدم ذكره
المعروف بالبندهي في كتاب شـــرح المقامات ولولا
خوف الإطالة لبينت ذلك ولما وصلت إلى حلب لأجل
الاشـــتغال بالعلم الشـــريف وكان دخولي إليها يوم
الثلاثاء مستهل ذي القعدة سنة ست وعشرين وستمائة
وهي إذ ذاك أم البلاد مشـــحونة بالعلماء والمشـــتغلين
وكان الشـــيخ موفق الدين المذكور شـــيخ الجماعة في
الأدب لم يكن فيهم مثله فشـــرعت في القراءة عليه
وكان يقرىء بجامعها في المقصـــورة الشـــمالية بعد
العصر وبين الصلاتين بالمدرسة الرواحية وكان عنده

جماعة قد تنبهوا وتميزوا به وهم ملازمون مجلسه لا يفارقونه في وقت الإقراء وابتدأت بكتاب اللمع لابن جني فقرأت عليه معظمها مع سماعي لدروس الجماعة الحاضرين وذلك في أواخر سنة سبع وعشرين وما أتممتها إلا على غيره لعذر اقتضى ذلك وكان حسن التفهيم لطيف الكلام طويل الروح على المبتدىء والمنتهي وكان خفيف الروح ظريف الشمائل كثير المجون مع سكينة ووقار ولقد حضرت يوماً حلقته وبعض الفقهاء يقرأ عليه اللمع لابن جني فقرأ بيت ذي الرمة في باب النداء (أيا ظبية الوعساء بين جلاجل * وبين النقا آأنت أم أم سالم) فقال له الشيخ إن هذا الشاعر لشدة ولهه في المحبة وعظم وجده بهذه المحبوبة أم سالم وكثرة مشابهتها للغزال كما جرت عادة الشعراء في تشبيههم النساء الصباح الوجوه بالغزلان والمها اشتبه عليه الحال فلم يدر هل هي امرأة أم ظبية فقال آأنت أم أم سالم وأطال الشيخ موفق الدين القول في ذلك وبسطه بأحسن عبارة بحيث يفهمه البليد البعيد الذهن وذلك الفقيه منصت مقبل على كلامه بكليته حتى يتوهم من يراه على تلك الصورة أنه قد تعقل جميع ما قاله فلما فرغ الشيخ من شرحه قال له الفقيه يا مولانا أيش في المرأة الحسناء يشبه الظبية فقال له الشيخ قول منبسط تشبهها في

49 ذنبها وقرونها فضحك الحاضرون وخجل الفقيه وما عدت رايته حضر مجلسه قلت وجلاجل

بفتح الجيم وضمها اسم مكان والثانية جيم أيضا وكنا يوما نقرأ عليه بالمدرسة الرواحية فجاءه رجل من الأجناد وبيده مسطور بدين وكان الشيخ له عادة بالشهادة في المكاتيب الشرعية فقال له يا مولانا اشهد علي في هذا المسطور فأخذه الشيخ من يده وقرأ أوله أقرت فاطمة فقال له الشيخ أنت فاطمة فقال له الجندي لا يا مولانا الساعة تحضر وخرج إلى باب المدرسة فأحضرها وهو يتبسم من كلام الشيخ ويقرب من هذا ما تقدم ذكره في ترجمة عامر الشعبي أن شخصا دخل عليه وعنده امرأة فقال أيكما الشعبي فقال له هذه وكنا يوما نقرأ عليه في داره فعطش بعض الحاضرين وطلب من الغلام ماء فأحضره له فلما شرب قال ما هذا إلا ماء بارد فقال له الشيخ لو كان خبزا حارا كان احب إليك وكنا يوما عنده بالمدرسة الرواحية فجاء المؤذن وأذن قبل العصر بساعة جيدة فقال له الحاضرون أيش هذا يا شيخ واين وقت العصر فقال الشيخ موفق الدين دعوه عسى أن يكون له شغل فهو مستعجل وكان يوما عند القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد قاضي حلب الآتي ذكره إن شاء الله تعالى فجرى ذكر زرقاء اليمامة وأنها كانت ترى الشيء من المسافة البعيدة حتى قيل تراه من مسيرة ثلاثة أيام فجعل الحاضرون يقولون ما علموه من ذلك فقال الشيخ موفق الدين أنا أرى الشيء من مسافة شهرين فتعجب الكل من قوله وما أمكنهم أن يقولوا له

شـــيئا فقال له القاضــــي كيف هذا يا موفق الدين فقال
لأنـي أرى الهلال فقال
50 له كان قلت مسـافة كذا كذا سـنة قال لو قلت
هذا عرف الجماعة الحاضرون غرضي وكان قصدي
الإبهام عليهم ولـه نوادر كثيرة يطول ذكرها وكنت
يوماً عنده وقد قدم من الموصـــل رجل من فضـــلاء
المغاربـة في علم الأدب فحضـــر حلقته وبحث في
دروسـه بحث رجل فاضـل وجرى ذكر مباحث جرت
له بالموصـــل مع جماعة من أدبائها وقال كنت عند
ضـــياء الدين نصـــر الله بن الأثير الجزري قلت وقد
سبق ذكره قال فتحاورنا وتناشدنا فأنشدته قول بعض
المغاربة قلت هذه الأبيات ذكر أبو إسـحاق الحصـري
أنها لبعض مشايخ القيروان رواها عنه ولم يعينه وهي
(ومعذرين كأن نبت خدودهم * أقلام مســك تســتمد
خلوقا) (قرنوا البنفســج بالشــقيق ونضـدوا * تحت
الزبرجد لؤلؤاً وعقيقا) (فهم الذين إذا الخلي رآهم *
وجد الهوى بهم إليه طريقا) قلت ونصـــف البيت
الثاني مثل قول ابن الذروي المصـــري في أبياته التي
ســبق ذكرها في ترجمة المبارك بن منقذ وهو قوله (
جلا تحـت يـاقوت اللمى ثغر لؤلؤ * رطيبـا وابـدى
شـــارباً من زمرد) ومن المنســـوب إلى أبي محمد
الحســن بن علي المعروف بابن وكيع التنيســي المقدم
ذكره في حرف الحاء (جوهري الأوصـــاف يقصـــر
عنه * كل فهم وكل ذهن دقيق)

51 (شـــارب من زمرذ وثنايا * لؤلؤ فوقها فم من عقيق) وذكرت بهذه الأبيات بيتين كنت أحفظهما ويحســـن ذكرهما بعد هذا وهما (لما وقفنا للوداع وصار ما * كنا نظن من النوى تحقيقا) (نثروا على ورق الشقائق لؤلؤاً * ونثرت من فوقها البهار عقيقا) وكذاك بيت الوأواء الدمشـــقي (فأمطرت لؤلؤاً من نرجس فسقت * ورداً وعضـت على العناب بالبرد) وكذا قول محمد بن سعيد العامري الدمشقي وقيل إنها لابن كيغلغ (لما اعتنقنا للوداع وأعربت * عبراتنا عنا بدمع ناطق) (فرقن بين معاجر ومحاجر * وجمعن بين بنفســـج وشـــقائق) (وأنا الفداء لظبية أحداقنا * موصولة من وجهها بحدائق) وينسب إلى أبي الفتح الحســـن بن أبي حصـــينة الحلبي الشـــاعر المشـــهور من هذا أيضـاً (ولما وقفنا للوداع وقلبها * وقلبي يفيضان الصبابة والوجدا) (بكت لؤلؤاً رطباً وفاضت مدامعي * عقيقاً فصار الكل في نحرها عقدا) وأنشدني صاحبنا الحسام عيسى بن سنجر بن بهرام الحاجري الإربلي المقدم ذكره لنفســـه (ولما التقينا ومن الزمان * رأى دمع عيني دماً في المآقي)

52 (فقال وعهدي به لؤلؤاً * ايجري عقيقاً وهذا التلاقي) (فقلت حبيبي لا تعجبن * جعلت فدى لك ميتاً وباقي) (فتلك أوائل دمع الوداع * و هذي أواخر دمع الفراق) وكان الشيخ موفق الدين المذكور كثيراً ما ينشد منسوباً إلى أبي علي الحسن ابن رشيق

المقدم ذكره ثم كشــفت ديوانه فلم أجد هذه الأبيات فيه والله أعلم وهي (وقد كنت لا آتي إليك مخاتلاً * لديك ولا أثني عليك تصـــنعا) (ولكن رأيت المدح فيك فريضـــة * علي إذا كان المديح تطوعا) (فقمت بما لم يخف عنك مكانه * من القول حتى ضاق مما توسعا) (فلا تتخـالجك الظنون فـإنهـا * مـآثم واترك في للصلح موضعا) (فلو غيرك الموسوم عندي بريبة * لأعطيت فيه مدعي القول ما ادعى) (فوالله ما طولت بالقول فيكم * لساناً ولا غرضت للذم مسمعا) (ولكنني أكرمت نفسي فلم تهن * وأجللتها من أن تذل وتخضـــعا) (فباينت لا أن العداوة باينت * وقاطعت لا أن الوفاء تقطعا) قلت وقيد قيل في هذا الباب شيء كثير ولا حاجة إلى الإطالة وشرح الشيخ موفق الدين كتاب المفصل لأبي القاسم الزمخشري شرحاً مســتوفى وليس في جملة الشـــروح مثله وشـــرح تصـــريف الملوكي لابن جني شـــرحاً مليحاً وانتفع به خلق كثير من أهل حلب وغيرها حتى إن الرؤســـاء الذين كانوا بحلب ذلك الزمان كانوا تلامذته وكانت ولادته لثلاث خلون من شـــهر رمضـــان ســـنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

53 بحلب وتوفي بها في ســـحر الخامس والعشـــرين من جمادى الأولى ســـنة ثلاث وأربعين وســتمائة ودفن من يومه بتربته بالمقام المنسـوب إلى إبراهيم الخليل صلـوات الله عليه وسـلامه ورحمه الله

تعـالى 834 يموت بن المزرع أبو بكر يموت بن المزرع بن يموت بن عيسـى بن موسـى بن سـيار بن حكيم بن جبلة بن حصـن بن اسـود بن كعب بن عامر بن عدي بن الحـارث بن الديـل بن عمرو بن غنم بن وديعة بن لكيز بن أفصـى بن عبد القيس بن أفصـى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان العبدي البصـري قلت وجدت في كتاب جمهرة النســـب تـأليف ابن الكلبي عنـد ذكره حكيم بن جبلـة المذكور وقد ســاق نســبه على هذه الصــورة وفي الحـاشــية مكتوب مـا مثـالـه من ولـد حكيم بن جبلـة المذكور يموت بن المزرع ابن يموت وقد سـاق نسـبه على هذه الصـورة حتى ألحقه بحكيم بن جبلة المذكور والعهدة عليه في ذلك ورأيت بخطي في مســوداتي يموت بن المزرع بن يموت بن عدس بن ســيار بن المزرع بن الحارث بن ثعلبة بن

54 عمرو بن ضــمرة بن دلهاث بن وديعة بن بكر بن وديعة بن لكيز بن أفصــى المذكور والله أعلم بالصـواب في ذلك وكان يموت قد سمى نفسـه محمداً وذكره الخطيـب البغـدادي في تـاريخـه الكبير في المحمـدين ثم ذكره في حرف اليـاء وقـال هو يموت وهو ابن أخت أبي عثمان الجاحظ وقد تقدم ذكره قدم يموت بن المزرع بغداد في ســنة إحدى وثلثمائة وهو شــيخ كبير وحدث بهـا عن أبي عثمان المازني وأبي حاتم السـجسـتاني وأبي الفضـل الرياشـي ونصـر بن

علي الجهمضـــي وعبد الرحمن أبن أخي الأصـــمعي ومحمد بن يحيى الأزدي وأبي إســـحاق إبراهيم بن سفيان الزيادي وغيرهم روى عنه أبو بكر الخرائطي وابو الميمون ابن راشد وأبو الفضل العباس بن محمد الرقي وأبو بكر ابن مجاهد المقرىء وأبو بكر ابن الأنباري وغيرهم وكان أديباً أخبارياً وله ملح ونوادر وكان لا يعود مريضاً خوفاً أن يتطير من اسمه وكان يقول بليت بالاسم الذي سماني أبي به فاني إذا عدت مريضـــاً فاســـتأذنت عليه فقيل من هذا قلت أنا ابن المزرع وأســـقطت اســـمي ومدحه منصـــور الفقيه الضـرير الشـاعر المشـهور بقوله (أنت تحيا والذي يكره أن تحيا يموت) (أنت صـــنو النفس بل أنت لروح النفس قوت) (أنت للحكمة بيت * لا خلت منك البيوت) فمن أخباره أنه قال أخبرني أبو الفضل الرياشـــي قال ســـمعت الأصـــمعي يقول كان ســـخط هارون الرشـيد على عبد الملك بن صـالح بن علي بن عبد الله ابن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه في سنة ثمان وثمانين ومائة

55 ولقد كنت عند الرشـــيد وقد أتي بعبد الملك يرفل في قيوده فلما نظر الرشيد إليه قال له هيه يا عبد الملك كأني والله أنظر إلى شـــؤبوبها قد همع وإلى عارضـها قد لمع وكأني بالوعيد قد أقلع عن براجم بلا معاصم ورؤوس بلا غلاصم مهلا مهلا بني هاشم فبي والله ســـهل لكم الوعر وصـــفا لكم الكدر وألقت إليكم

الأمور أثناء أزمتها فخذوا حذاركم مني قبل حلول داهية خبوط باليد والرجل فقال له عبد الملك أفذاً أتكلم أم توأما فقال بل توأما فقال اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك وراقبه في رعاياك التي استرعاك فقد سهلت والله لك الوعور وجمعت على خوفك ورجائك الصدور وكنت كما قال أخو بني جعفر بن كلاب (ومقام ضيق فرجته * بلسان وبيان وجدل) (لو يقوم الفيل أو فياله * زل عن مثل مقامي وزحل) قال فأراد يحيى بن خالد البرمكي أن يضع من مقدار عبد الملك عند الرشيد فقال له يا عبد الملك بلغني أنك حقود فقال له أصلح الله الوزير إن يكن الحقد هو بقاء الخير والشر عندي فانهما لباقيان في قلبي قال الأصمعي فالتفت الرشيد إلي وقال يا أصمعي حررها فوالله ما احتج أحد للحقد بمثل ما احتج به عبد الملك ثم أمر به فرد إلى محبسه قال الأصمعي ثم التفت الرشيد إلي وقال يا أصمعي والله لقد نظرت إلى موضع السيف من عنقه مراراً ويمنعني من ذلك إبقائي على قومي في مثله قلت وعبد الله بن صالح قد ذكرته في ترجمة أبي عبادة الوليد البحتري الشاعر المشهور ونبهت على تاريخ وفاته وروى يموت بن المزرع أيضاً أن أحمد بن محمد بن عبيد الله أبا الحسن 56 الكاتب المعروف بابن المدبر الضبي الرستيساني كان إذا مدحه شاعر فلم يرض شعره قال لغلامه امض به إلى المسجد الجامع ولا تفارقه حتى

يصلي مائة ركعة ثم أطلقه فتحاماه الشعراء إلا الأفراد المجيدين فجاءه أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام المصري المعروف بالجمل فاستأذنه في النشيد فقال له قد عرفت الشرط قال نعم ثم أنشده (أردنا في أبي حسن مديحاً * كما بالمدح تنتجع الولاة) (وقلنا أكرم الثقلين طرا * ومن كفاه دجلة والفرات) (فقالوا يقبل المدحات لكن * جوائزه عليهن الصلاة) (فقلت لهم وما تغني صلاتي * عيالي إنما الشأن الزكاة) (فيأمر لي بكسر الصاد منها * فتصبح لي الصلاة هي الصلات) فضحك ابن المدبر واستظرفه وقال من اين أخذت هذا فقال من قول أبي تمام الطائي (هن الحمام فإن كسرت عيافة * من حائهن فإنهن حمام) فاستحسن ذلك وأحسن صلته (373) وكان أحمد بن المدبر يتولى الخراج بمصر فحبسه أحمد بن طولون في سنة خمسة وستين ومائتين ومات في حبسه في صفر سنة سبعين ومائتين وقيل بل قتله ابن طولون والله أعلم والمدبر بكسر الباء الموحدة المشدة وحدث ابن المزرع أيضاً عن خاله أبي عثمان الجاحظ أنه قال طلب المعتصم جارية كانت لمحمود بن الحسن الشاعر المشهور المعروف بالوراق وكانت تسمى نشوى وكان شديد الغرام بها وبذل في ثمنها سبعة آلاف

57 دينار فامتنع محمود من بيعها لأنه كان يهواها أيضاً فلما مات محمود اشتريت الجارية

للمعتصـــم من تركته بســبعمائة دينار فلما دخلت عليه قال لها كيف رأيت تركتك حتى اشـــتريتك من ســبعة آلاف بســـبعمائـة قـالت أجل إذا كـان الخليفـة ينتظر لشــهواته المواريث فإن ســبعين ديناراً لكثيرة في ثمني فضـلاً عن سبعمائة فخجل المعتصم من كلامها وقال ابن المزرع حدثني من رأى قبراً بالشـــام عليه مكتوب لا يغترن أحد بالدنيا فإني ابن من كان يطلق الريح إذا شاء ويحبسها إذا شاء وبحذائه قبر عليه مكتوب كذب الماص بظر أمه لا يظن أحد أنه ابن ســليمان بن داود عليهما الســلام إنما هو ابن حداد يجمع الريح في الزق ثم ينفخ بها الجمر قال فما رأيت قبلها قبرين يتشـــاتمان والله أعلم ولابن المزرع أخبـار وحكـايـات ونوادر ولسنا نقصد الإطاله بل الإيجار حسب الإمكان إلا أن ينتشـــر الكلام (374) وكان له ولد يدعى أبا نضـــلة مهلهل بن يموت بن المزرع وكان شاعراً مجيداً ذكره المســـعودي في كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر فقال في حقه هو من شـــعراء هذا الزمان وهو ســـنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وفيه يقول أبوه مخاطباً له (مهلهل قد حلبت شـطور دهري * وكافحني بها الزمن العنوت) (وحـاربت الرجال بكل ريع * فأذعن لي الحثـالـة والرتوت) (فـأوجع مـا أجن عليـه قلبي * كريم غته زمن غتوت) (كفى حزناً بضيعة ذي قديم * وأبناء العبيد لها البخوت)

58 (وقد أســـهرت عيني بعد غمض * مخافة أن تضـــيع إذا فنيت) (وفي لطف المهيمن لي عزاء * بمثلك إن فنيت وإن بقيت) (فجب في الأرض وابغ بها علوماً * ولا تقطعك جائحة ســبوت) (وإن بخل العليم عليك يوماً * فذل له وديدنك الســكوت) (وقل بـالعلم كـان أبي جواداً * يقـال ومن أبوك فقل يموت) (يقر لك الأباعد والأداني * بعلم ليس يجحده البهوت) وكـان يموت قد قدم مصــــر مراراً وآخر قدومه إليها في ســـنة ثلاث وثلثمائة وخرج في ســـنة اربع وثلثمائة قال ابو ســـعيد ابن يونس الصـــدفي المصـــري في تاريخه المختص بالغرباء مات يموت بن المزرع ســـنة أربع وثلثمائة بدمشـــق وقال ابو ســـليمان بن زبر في تاريخه إنه مات في ســـنة ثلاث وثلثمائة بطبرية الشـام والله أعلم وأما ولده مهلهل فإن الخطيب ذكره في تاريخ بغداد وقال هو شـــاعر مليح الشعر في الغزل وغيره وسكن بغداد وسمع منه وكتب عنه شـــعره أبو بعضـــة إبراهيم بن محمد المعروف بتوزون ثم قال الخطيب أخبرني التنوخي قال قال لنا ابو الحســـين احمد بن محمد بن العبـاس الأخبـاري حضرت في سنة ست وعشرين وثلثمائة مجلس تحفة القوالـة جـاريـة أبي عبـد الله ابن عمر البـازيـار وإلى جانبي عن يســـرتي أبو نضـــلة مهلهل بن يموت بن المزرع وعن يميني أبو القـاســـم بن أبي الحســـن البغدادي فغنت تحفة من وراء الستارة بهذه الأبيات (

بي شغل به عن الشغل عنه * بهواه وإن تشاغل عني) (ظن بي جفوة فأعرض عني * وبدا منه ما تخوف مني) (ســره أن أكون فيه حزيناًُ * فســروري إذا تضـاعف حزني) فقال لي أبو نضـلة هذا الشـعر لي فسمعه أبو القاسم وكان ينحرف

59 عن أبي نضلة فقال قل له إن كان هذا الشعر له يزيد فيه بيتا فقلت له ذلك على وجه جميل فقال (هو في الحســن فتنة قد أصــارت * فتنتي في هواه من كل فن) ومن المنســوب إلى مهلهل أيضــاً (جلت محاسنه عن كل تشبيه * وجل عن واصف في الناس يحكيه) (انظر إلى حســنه واســتغن عن صــفتي * ســبحان خالقه ســبحان باريه) (النرجس الغض والورد الجني له * والأقحوان النضير النضر في فيه) (دعا بألحاظه قلبي إلى عطبي * فجاءه مســرعاً طوعاً يلبيه) (مثل الفراشــة تأتي إذ ترى لهبا * إلى الســراج فتلقي نفســها فيه) وذكر له الخطيب شــعراً غير هذا فأضــربت عن ذكره والمزرع بضــم الميم وفتح الزاي وبعدها راء مشددة مفتوحة ثم عين مهملة هكذا قاله لي الشــيخ الحافظ زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله المنذري رحمه الله تعالى (375) وأما حكيم بن جبلة المذكور في عمود هذا النسب فإنه بفتح الحاء المهملة وكسر الكاف ويقال أيضاً بضم الحاء وفتح الكاف ويقال جبلة وجبل وكان من أعوان علي بن أبي طالب رضــي الله عنه ولما

بويع علي بالخلافة بايعه طلحة بن عبيد الله التيمي والزبير بن العوام الأسدي رضي الله عنهما فعزم علي رضي الله عنه على تولية الزبير البصرة وتولية طلحة اليمن فخرجت مولاة لعلي فسمعتهما يقولان ما بايعناه إلا بألسنتنا وما بايعناه بقلوبنا فأخبرت مولاها بذلك فقال أبعدهما الله تعالى ومن نكث فإنما ينكث على نفسه وبعث إلى البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري وإلى اليمن

60 عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه فاستعمل ابن حنيف حكيم بن جبلة المذكور على شرطة البصرة ثم إن طلحة والزبير لحقا بمكة وفيها عائشة رضي الله تعالى عنها فاتفقوا وقصدوا البصرة وفيها ابن حنيف المذكور فأتى حكيم بن جبلة إلى ابن حنيف وأشار عليه بمنعهم من دخول البصرة فأبى وقال ما أدري ما رأي أمير المؤمنين في ذلك فدخولها وتلقاهم الناس فوقفوا في مربد البصرة وتكلموا في قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه وبيعة علي رضي الله تعالى عنه فرد عليهم رجل من عبد القيس فنالوا منه ونتفوا لحيته وترامى الناس بالحجارة واضطربوا فجاء حكيم بن جبلة إلى ابن حنيف ودعاه إلى قتالهم فأبى ثم أتى عبد الله بن الزبير إلى مدينة الرزق ليرزق أصحابه من الطعام الذي فيها و غدا حكيم بن جبلة في سبعمائة من عبد القيس فقاتله فقتل حكيم وسبعون رجلاً من أصحابه وروي أن ابن جبلة

قال لامرأته وكانت من الأزد لأعملن بقومك اليوم
عملاً يكونون به حديثاً للناس فقالت له أظن قومي
سيضربونك اليوم ضربة تكون حديثاً للناس فلقيه
رجل يقال له سحيم فضرب عنقه فبقي معلقاً بجلدة
فاستدار رأسه فبقي مقبلاً بوجهه على دبره وكان ذلك
قبل وصول علي رضي الله عنه بجيوشه إليهم ثم قدم
عليهم وتقابل الجيشان يوم الخميس النصف من
جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين للهجرة عند موضع
قصر عبيد الله بن زياد ثم كانت الوقعة العظمى
المشهورة بوقعة الجمل يوم الخميس لعشر بقين من
الشهر المذكور وكان أول قدومهم وقتل حكم بن جبلة
قبل ذلك بأيام في هذا الشهر أيضاً وقتل بيبن الفريقين
مقدار عشرة آلاف آلاف وقتل طلحة والزبير رضي
الله عنهما في ذلك اليوم لكنه بغير قتال ولولا خوف
الإطالة لشرحته وقال المأموني في تاريخه وقيل إن
أهل المدينة علموا بيوم الجمل يوم الخميس قبل أن
تغرب الشمس وفيه كان القتال وذلك أن نسراً مر بما
61 حول المدينة ومعه شيء معلق فتأمله الناس
فوقع فإذا كف فيها خاتم نقشه عبد الرحمن بن عتاب
بن اسيد ثم إن كل من بين مكة والمدينة ممن قرب من
البصرة أو بعد علموا بالوقعة مما نقلت النسور إليهم
من الأيدي والأقدام قلت وذكر كشاجم في كتاب
المصايد والمطارد أن العقاب ألقت كف عبد الرحمن
بمكة وكذلك ذكره في كتاب المهذب في الفقه في باب

الصلاة على الميت وذكر ابن الكلبي وأبو اليقظان في كتابيهما أن العقاب ألقتها باليمامة والله أعلم بالصواب

835 أبو يعقوب البويطي ابو يعقوب يوسف بن يحيى المصري البويطي صاحب الشافعي رضي الله عنه كان واسطة عقد جماعته وأظهرهم نجابة اختص به في حياته وقام مقامه في الدرس والفتوى بعد وفاته سمع الأحاديث النبوية من عبد الله بن وهب الفقيه المالكي المقدم ذكره ومن الإمام الشافعي وروى عنه أبو إسماعيل الترمذي وإبراهيم بن إسحاق الحربي والقاسم بن المغيرة الجوهري وأحمد بن منصور الرمادي وغيرهم وكان قد حمل في أيام الواثق بالله من مصر إلى بغداد في مدة المحنة وأريد على القول بخلق القرآن

62 الكريم فامتنع من الإجابة إلى ذلك فحبس ببغداد ولم يزل في السجن والقيد حتى مات وكان صالحاً متنسكاً عابداً زاهداً قال الربيع بن سليمان رأيت البويطي على بغل في عنقه غل وفي رجليه قيد وبين الغل والقيد سلسلة من حديد فيها طوبة وزنها أربعون رطلاً وهو يقول إنما خلق الله سبحانه الخلق بكن فإذا كانت كن مخلوقة فكأن مخلوقاً خلق مخلوقاً فوالله لأموتن في حديدي حتى يأتي من بعدي قوم يعلمون أنه مات في هذا الشأن قوم في حديدهم ولئن أدخلت عليه لأصدقنه يعني الواثق وقال ابو عمر ابن عبد البر الحافظ في كتاب الانتقاء في فضائل الثلاثة

الفقهاء إن ابن ابي الليث الحنيفي قاضي مصر كان
يحسده ويعاديه فأخرجه في وقت المحنة في القرآن
العظيم فيمن اخرج من مصر إلى بغداد ولم يخرج من
اصحاب الشافعي غيره وحمل إلى بغداد وحبس فلم
يجب إلى ما دعي إليه في القرآن وقال هو كلام الله
غير مخلوق وحبس ومات في السجن وقال الشيخ ابو
إسحاق الشيرازي في كتاب طبقات الفقهاء كان ابو
يعقوب البويطي إذا سمع المؤذن وهو في السجن يوم
الجمعة اغتسل ولبس ثيابه ومشى حتى يبلغ باب
السجن فيقول له السجان أين تريد فيقول اجيب داعي
الله فيقول ارجع عافاك الله فيقول أبو يعقوب اللهم إنك
تعلم أني قد أجبت داعيك فمنعوني وقال أبو الوليد بن
أبي الجارود كان البويطي جاري فما كنت أنتبه ساعة
من الليل إلا سمعته يقرأ ويصلي وقال الربيع كان ابو
يعقوب أبداً يحرك شفتيه بذكر الله تعالى وما
63 رأيت أحداً أنزع بحجة من كتاب الله تعالى
من أبي يعقوب البويطي وقال الربيع أيضاً كان لأبي
يعقوب منزلة من الشافعي وكان الرجل ربما يسأله
عن المسألة فيقول له سل ابا يعقوب فإذا أجابه أخبره
فيقول هو كما قال وقال ايضاً ربما جاء رسول
صاحب الشرطة إلى الشافعي فيوجه أبا يعقوب
البويطي ويقول هذا لساني وقال الخطيب البغدادي
في تاريخه لما مرض الشافعي مرضه الذي مات فيه
جاء محمد بن عبد الحكم ينازع البويطي في مجلس

الشـــافعي فقال البويطي أنا احق به منك وقال ابن عبد الحكم أنا احق بمجلســـه منك فجاء ابو بكر الحميدي وكان في تلك الأيام بمصر فقال قال الشافعي ليس أحد أحق بمجلســـي من يوســـف بن يحيى وليس أحد من اصـــحابي أعلم منه فقال له ابن عبد الحكم كذبت فقال الحميدي كذبت أنت وكذب أبوك وكذبت أمك و غضب ابن عبد الحكم فترك مجلس الشـافعي وتقدم فجلس في الطاق وترك طاقاً بين مجلس الشافعي ومجلسه وجلس البويطي في مجلس الشـــافعي في الطـاق الذي كـان يجلس فيه وقال أبو العباس محمد بن يعقوب الأصــم رأيـت ابي في المنـام فقـال لي يـا بني عليـك بكتـاب البويطي فليس في الكتب أقل خطأ منه وقال الربيع بن سليمان كنت عند الشافعي أنا والمزني وأبو يعقوب البويطي فنظر إلينا فقال لي أنت تموت في الحديث وقال للمزني هذا لو ناظره الشـــيطان قطعه أو جدله وقال للبويطي أنت تموت في الحديد قال الربيع فدخلت على البويطي أيام المحنة فرأيته مقيداً إلى أنصـــاف ســاقيه مغلولة يداه إلى عنقه وقال الربيع ايضــاً كتب إلي أبو يعقوب من الســـجن إنه ليأتي علي أوقات لا أحس بالحديد أنه على بدني حتى تمسه يدي فاذا قرأت كتابي

64 هذا فأحسـن خلقك مع أهل حلقتك واسـتوص بالغرباء خاصــة خيراً فكثيراً ما كنت أسـمع الشـافعي رضـــي الله عنه يتمثل بهذا البيت (أهين لهم نفســـي

لأكرمهــا بهم * ولن تكرم النفس التي لا تهينهــا)
وأخبـاره كثيرة وتوفي يوم الجمعة قبل الصـــلاة في
رجب ســنة إحدى وثلاثين ومائتين في القيد والســجن
ببغداد وقيل إنه توفي سنة اثنتين وثلاثين والأول أصح
رحمـه الله تعـالى وقـال ابن القراب في تـاريخه توفي
يوم الثلاثاء في رجب والله أعلم والبويطي بضـم البـاء
الموحدة وفتح الواو وســـكون الياء المثناة من تحتها
وبعدها طاء مهملة هذه النســـبة إلى بويط وهي قرية
من أعمال الصعيد الأدنى من ديار مصر ويوسف فيه
ست لغات ضم السين وفتحها وكسرها مع الواو وضم
الســـين وفتحهـا وكســـرهـا مع الهمزة عوض الواو
فالمجموع ست لغات والياء أوله مضمومة في اللغات
الست وسيأتي نظيره في يونس

65 836 أبو القاسم ابن كج القاضي ابو القاسم
يوســف بن احمد بن يوســف بن كج الكجي الدينوري
كان أحد أئمة الشـافعية صـحب ابا الحسين ابن القطان
وحضر مجلس ابي القاسم عبد العزيز الداركي وجمع
بين رياســة العلم والدنيا وارتحل الناس إليه من الآفاق
للاشـــتغال عليه بالدينور رغبة في علمه وجودة نظره
وله وجه في مذهب الشـافعي رضـي الله عنه وصـنف
كتباً كثيرة انتفع بها الفقهاء قال أبو سعد ابن السمعاني
لما انصـرف أبو علي الحسين بن شـعيب السنجي من
عند الشـيخ أبي حامد الإسـفرايني اجتاز به فرأى علمه
وفضـلـه فقال له يا أسـتاذ الاسـم لأبي حامد والعلم لك

فقال ذاك رفعته بغداد وحطتني الدينور وتولى القضاء ببلده وكانت له نعمة كثيرة وقتله العيارون بالدينور في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة خمس وأربعمائة رحمه الله تعالى وكج بكاف مفتوحة وجيم مشددة وقد تقدم الكلام على الدينور فأغنى عن الإعادة والكجي نسبة إلى جده المذكور

66 ابن عبد البر ابو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي إمام عصره في الحديث والأثر وما يتعلق بهما روى بقرطبة عن أبي القاسم خلف بن القاسم الحافظ وعبد الوارث بن سفيان وسعيد نصر وابي محمد ابن عبد المؤمن وأبي عمر الباجي وأبي عمر الطلمنكي وأبي الوليد ابن الفرضي وغيرهم وكتب إليه من أهل المشرق أبو القاسم السقطي المكي وعبد الغني بن سعيد الحافظ وأبو ذر الهروي وابو محمد ابن النحاس المصري وغيرهم قال القاضي أبو علي ابن سكرة سمعت شيخنا القاضي أبا الوليد الباجي يقول لم يكن بالأندلس مثل أبي عمر ابن عبد البر في الحديث وقال الباجي أيضاً أبو عمر أحفظ أهل المغرب وقال أبو علي الحسين بن أحمد بن محمد الغساني الأندلسي الجياني المقدم ذكره ابن عبد البر شيخنا من أهل قرطبة بها طلب الفقه ولزم أبا عمر أحمد بن عبد الملك بن هاشم الفقيه الإشبيلي وكتب بين يديه ولزم

أبا الوليد ابن الفرضي الحافظ وعنه أخذ كثيراً من علم الحديث ودأب في

67 طلب العلم وافتن به وبرع براعة فاق فيها من تقدمه من رجال الأندلس وألف في الموطأ كتباً مفيدة منها كتاب التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ورتبه على أسماء شيوخ مالك على حروف المعجم وهو كتاب لم يتقدمه أحد إلى مثله وهو سبعون جزءاً قال أبو محمد ابن حزم لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله فكيف أحسن منه ثم صنع كتاب الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار شرح فيه الموطأ على وجهه ونسق أبوابه وجمع في أسماء الصحابة رضي الله عنهم كتاباً جليلاً مفيداً سماه الاستيعاب وله كتاب جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله وكتاب الدرر في اختصار المغازي والسير وكتاب العقل والعقلاء وما جاء في أوصافهم وله كتاب صغير في قبائل العرب وأنسابهم وغير ذلك من تواليفه وكان موفقاً في التأليف معاناً عليه ونفع الله به وكان مع تقدمه في علم الأثر وبصره بالفقه ومعاني الحديث له بسطة كبيرة في علم النسب وفارق قرطبة وجال في غرب الأندلس مدة ثم تحول إلى شرق الأندلس وسكن دانية من بلادها وبلنسية وشاطبة في أوقات مختلفة وتولى قضاء الأشبونة وشنترين في أيام ملكها المظفر بن الأفطس وصنف كتاب بهجة

المجالس وأنس المجالس في ثلاثة اسفار جمع فيه أشياء مستحسنة تصلح للمذاكرة والمحاضرة من ذلك أن النبي رأى في منامه انه دخل الجنة ورأى فيها عذقاً مدلى فأعجبه وقال لمن هذا فقيل لأبي جهل فشق ذلك عليه وقال ما لأبي جهل والجنة والله لا يدخلها أبداً فإنها لا تدخلها

68 إلا نفس مؤمنة فلما أتاه عكرمة بن أبي جهل مسلماً فرح به وقام إليه وتأول ذلك العذق عكرمة ابنه ومنه ايضاً أنه قيل لجعفر بن محمد يعني الصادق كم تتأخر الرؤيا قال رأى النبي كأن كلباً أبقع بلغ في دمه فكان شمر ابن ذي الجوشن قاتل الحسين بن علي رضي الله عنه وكان أبرص فكان تأخير الرؤيا بعد خمسين سنة ومن ذلك أيضاً أن النبي رأى رؤيا فقصها على أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال يا أبا بكر رأيت كأني أنا وأنت نرقى درجة فسبقتك بمرقاتين ونصف فقال يا رسول الله يقبضك الله تعالى إلى رحمته ومغفرته وأعيش بعدك سنتين ونصفا ومن ذلك أن بعض أهل الشام قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه رأيت كأن الشمس والقمر اقتتلا ومع كل واحد منهما فريق من النجوم قال مع أيهما كنت قال مع القمر قال مع الآية الممحوة لا عملت لي عملاً أبداً فعزله وقتل مع معاوية بن أبي سفيان بصفين وقالت عائشة رضي الله عنها رأيت كأن ثلاثة أقمار سقطن في حجري فقال لها أبوها أبو بكر الصديق

رضـــي الله عنه إن صــدقت رؤياك دفن في بيتك ثلاثة من خير أهل الأرض فلما دفن النبي في بيتها قال لها ابو بكر هذا أحد أقمارك وهو خيرها ومنه أيضـــاً أن أعرابياً وقيل هو الحطيئة الشـــاعر أراد ســـفراً فقال لامرأته (عدي الســـنين لغيبتي وتصـــبري * وذري الشـــهور فإنهم قصـــار) فأجابته (اذكر صـــبابتنا إليك وشـــوقنا * وارحم بناتك إنهن صـــغار) فأقام وترك سفره

69 وقال الهيثم بن عدي قال لي صالح بن حيان من أفقه الشـــعراء فقلت اختلف في ذلك فقال أفقه الشـــعراء وضـــاح اليمن حيث يقول (إذا قلت هاتي نوليني تبسمت * وقالت معاذ الله من فعل ما حرم) (فما نولت حتى تضرعت عندها * وأعلمتها ما أرخص الله في اللمم) ومنه أيضـــاً قيل لأســـلم بن زرعة إن انهزمت من أصـــحاب مرداس غضـــب عليك الأمير عبيد الله بن زياد فقال لأن يغضـــب علي وأنا حي خير من أن يرضـــى عني وأنا ميت ومنه أيضـــاً ســـب أعرابي أعرابياً فسكت فقيل له لم سكت عنه فقال ليس لي علم بمســـاويه وكرهت أن ابهته بما ليس فيه (ثالبني عمرو وثالبته * قد أثم المثلوب والثالب) قلت له خيراً وقال الخنا * كل على صـــاحبه كاذب) وقال علي بن الحسين رضي الله عنهما إذا قال فيك رجل ما لا يعلم من الخير أوشـــك أن يقول فيك ما لا يعلم من الشـــر ومنه أيضـــاً ذكر المغيرة بن شـــعبة عمر بن

الخطاب رضـــي الله عنه فقال كان والله أفضــل من أن يخدع وأعقل من أن يخدع ومنه أيضـــاً روي أنه لما أهبط الله تعـالى آدم عليـه الســـلام إلى الأرض أتـاه جبريل عليه الســـلام فقال يا آدم إن الله عز وجل قد أحضـــرك ثلاث خصـــال لتختار منهن واحدة وتتخلى عن ثنتين قال وما هن قال الحياء والدين والعقل قال آدم إني قد اخترت العقل فقال جبريل للحياء والدين ارتفعـا فقـد اختـار العقـل قـالا لا لا نرتفع قـال ولم أعصـــيتما قالا لا ولكن أمرنا أن لا نفارق العقل حيث كان

70 وقال عبد الملك بن عبد الحميد من أبيات (الماء في دار عثمان له ثمن * والخبز فيها له شأن من الشان) (عثمان يعلم أن الحمد ذو ثمن * لكنه يشتهي حمداً بمجان) (والناس أكيس من أن يحمدوا أحداً * حتى يروا عنده آثار إحســـان) ومن كتـاب بهجة المجالس أيضـــاً قال الرياشـــي خرج الناس بالبصـــرة ينظرون هلال شـــهر رمضـــان فرآه رجل واحد منهم ولم يزل يومـىء إليه حتى رآه معه غيره وعاينوه فلما كان هلال الفطر جاز الجماز صاحب النوادر إلى ذلك الرجل فدق عليه الباب فقال قم أخرجنا مما أدخلتنا فيه (376) قلت وهذا الجماز هو أبو عبد الله محمد بن عمرو بن حمـاد بن عطـاء ابن ريـان مولى ابي بكر الصـديق رضـــي الله عنه وهو ابن أخت سـلم الخاسـر قال السمعاني في حقه كان خبيث اللسان حسن النادرة

وكان أكبر من أبي نواس وقيل في نسـبه غير ذلك والجماز لقبه وهو بفتح الجيم وتشديد الميم وبعد الألف زاي فمن نوادره أنه قال أصبحت في يوم مطير فقالت لي امرأتي أي شـيء يطيب في هذا اليوم فقلت لها الطلاق فسـكتت عني ودخل عليه يوماً بعض إخوانه وقد طبخ وغرف الطعام فقال الداخل سـبحان الله ما أعجب أسـباب الرزق فقال الجماز الحرمان والله أعجب منه امرأته طالق إن ذقته وقال له السـروي الشـاعر ولدت امرأتي البارحة ولداً كأنه دينار منقوش فقال له الجماز لاعن أمه وللجماز شـعر أيضـاً ذكره في كتاب الورقة فمن ذلك ما كتبه إلى صـاحب له وكان يلازم الجامع ثم انقطع عنه (هجرت المسـجد الجامع والهجر له ريبه)

71 (فلا نافلة تأتي * ولا تشـهد مكتوبه) (وأخبارك تأتينا * على الأعلام منصوبه) (فإن زدت من الغيبة زدناك من الغيبه) ومنه أيضاً قال أردشير احذروا صولة الكريم إذا جاع واللئيم إذا شبع واعلموا أن الكرام أصبر نفوساً واللئام أصبر أجساماً قلت هذا كله نقلته من بهجة المجالس وفيه كفاية فلا حاجة إلى الإطالة وتوفي الحافظ أبو عمر المذكور يوم الجمعة آخر يوم من شـهر ربيع الآخر سـنة ثلاث وسـتين وأربعمائة بمدينة شـاطبة من شـرق الأندلس وقال صـاحبه أبو الحسـن طاهر بن مفوز المعافري وهو الذي صـلى عليه سـمعت أبا عمر ابن عبد البر يقول

ولـدت يوم الجمعـة والإمـام يخطـب لخمس بقين من
شـهر ربيع الآخر سنة ثمان و ستين وثلثمائة رحمه الله
تعالى وقد تقدم في ترجمة الخطيب أبي بكر أحمد بن
علي بن ثابت البغدادي الحافظ أنه كان حافظ الشـــرق
وابن عبد البر حافظ الغرب وماتا في سنة واحدة وهما
إمــامــان في هــذا الفن والنمري بفتح النون والميم
وبعدها راء هذه النسبة إلى النمر بن قاسط بفتح النون
وكسـر الميم وإنما تفتح الميم في النسـبة خاصــة وهي
قبيلة كبيرة مشـــهورة وقد تقدم الكلام على القرطبي
وشــاطبة فأغنى عن الإعادة وذكر أبو عمر المذكور
أن والده أبا محمد عبد الله بن محمد بن عبد البر توفي
في شـهر ربيع الآخر سنة ثمانين وثلثمائة ومولده سنة
ثلاثين وثلثمائة رحمه الله تعالى (377) وكان ولده
ابو محمد عبد الله بن يوسف من أهل الأدب البارع
72 والبلاغة وله رسائل وشعر فمن شعره قوله
(لا تكثرن تـأملا * واحبس عليك عنـان طرفك) (
فلربما أرســـلته * فرماك في ميدان حتفك) قيل إنه
مات ســنة ثمان وخمســين وأربعمائة 838 ابو محمد
يوسف بن الحسن السيرافي أبو محمد يوسف بن أبي
الحســـن بن عبد الله بن المرزبان الســـيرافي النحوي
اللغوي الإخباري الفاضـــل ابن الفاضـــل قد تقدم ذكر
أبيه الحســـن في حرف الحاء كان أبو محمد المذكور
عالماً بالنحو وتصــــدر في مجلس أبيه بعد موته في
التاريخ المذكور في ترجمته وخلفه على ما كان عليه

وقد كان يفيد الطلبة في حياة أبيه وأكمل كتاب ابنه الذي سماه الإقناع وهو كتاب جليل نافع في بابه فإن أباه كان قد شرح كتاب سيبويه كما تقدم في ترجمته وظهر له بالاطلاع والبحث في حال التصنيف ما لم يظهر لغيره ممن يعاني هذا الشأن وصنف بعد ذلك الإقناع فكأنه ثمرة استفادته حال البحث والتصنيف ومات قبل إتمامه فكمله ولده يوسف المذكور وإذا تأمله المنصف لم يجد بين اللفظين والقصدين تفاوتاً كثيراً ثم صنف يوسف المذكور عدة كتب في شرح أبيات استشهادات كتب مشهورة مثل شرح أبيات كتاب سيبويه وهو الغاية في بابه وبسطه وشرح

73 أبيات إصلاح المنطق وأجاد فيه وشرح أبيات المجاز لأبي عبيدة وأبيات معاني الزجاج وشرح ابيات غريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام إلى غير ذلك وكانت كتب اللغة تقرأ عليه مرة رواية ومرة دراية وقرىء عليه كتاب البارع للمفضل بن سلمة وهو كتاب كبير في عدة مجلدات هذب به كتاب العين في اللغة المنسوب إلى الخليل بن احمد المقدم ذكره وأضاف إليه من اللغة طرفاً صالحاً ونقل من ظهر نسخه بكتاب إصلاح المنطق قال ابو العلاء المعري حدثني عبد السلام البصري خازن دار العلم ببغداد وكان لي صديقاً صدوقاً قال كنت في مجلس أبي سعيد السيرافي وبعض أصحابه يقرأ عليه المنطق لابن السكيت فمضى بيت حميد بن ثور (ومطوية

الأقراب أما نهارها * فسبت وأما ليلها فذميل) فقال ابو سعيد ومطوية اصلحه بالخفض ثم التفت إلينا فقال هذه واو رب فقلت أطال الله بقاء القاضي إن قبله ما يدل على الرفع فقال وما هو فقلت (أتاك بي الله الذي أنزل الهدى * ونور وإسلام عليك دليل) ومطوية الأقراب فعاد وأصلحه وكان ابنه أبو محمد حاضراً فتغير وجهه لذلك فنهض لساعته ووقته والغضب يستطير في شمائله إلى دكانه وكان سماناً فباعها واشتغل بالعلم إلى أن برع فيه وبلغ الغاية فعمل شرح إصلاح المنطق قال ابو العلاء وحدثني من رآه وبين يديه أربعمائة ديوان وهو يعمل هذا الكتاب ولم يزل أمره على سداد واشتغال وإفادة إلى أن توفي ليلة الأربعاء لثلاث

74 بقين من شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين وثلثمائة وعمره خمس وخمسون سنة وشهور ودفن من الغد وصلى عليه أبو بكر محمد بن موسى الخوارزمي ذكر ذلك هلال بن المحسن ابن الصابي الكاتب في تاريخه وقال غيره مولده في سنة ثلاثين وثلثمائة وتوفي يوم الاثنين لثلاث بقين من الشهر المذكور والله أعلم رحمه الله تعالى وكان ديناً صالحاً ورعاً متقشفاً وكان بينه وبين أبي طالب أحمد بن بكر العبدي النحوي المقدم ذكره مباحث ومناظرات منقولة بين الناس وليس هذا موضع ذكرها وقد تقدم الكلام في ترجمة أبيه على السيرافي فلا حاجة إلى إعادته ها

هنا وقال ابن حوقل في كتاب المســـالك والممالك ســـيراف فرضـــة عظيمة لفارس وهي مدينة جليلة أبنيتها ســـاج متصـــل إلى جبل يطل على البحر وليس بها ماء ولا زرع ولا ضـــرع وهي من أغنى بلاد فـارس بـالقرب من جنـابـة ونجيرم والله أعلم ومن سيراف ينتهي الإنسان على ساحل البحر إلى حصن ابن عمارة وهو حصـــن منيع على نحر البحر وليس بجميع فارس حصـــن أمنع منه ويقال إن صـــاحبه هو الذي قال الله تعالى في حقه (^ وكان وراءهم ملك يأخذ كل ســـفينة غصـــبا) الكهف 79 وقال غير ابن حوقل كان اســـم هذا الملك الجلندى بضـــم الجيم واللام وســـكون النون وفتح الدال المهملة وبعدها ألف وإليه أشـــار بعضـــهم يخاطب بعض الظلمة (كان الجلندى ظالماً * وأنت منه أظلم) وقيل غير ذلك والله أعلم

75 يوســـف النجيرمي ابو يعقوب يوســـف بن يعقوب بن إســـمـاعيل بن خرزاذ النجيرمي اللغوي البصري نزيل مصر هو من أهل بيت فيه جماعة من الفضـــلاء الأدباء ما منهم إلا من هو ماهر في اللغة كامل الأدوات متقن لها روى ابو يعقوب المذكور عن أبي يحيى زكريا بن يحيى بن خلاد الســـاجي وطبقته وروى عنه أبو الفضـــل محمد بن جعفر الخزاعي وغيره وكان يوســـف أمثل أهل بيته وله خط ليس بالجيد في الصـــورة وهو في غاية الصـــحة وكذلك خطوط جماعته قريبة منه ولأهل مصر رغبة وتنافس

كثير في خطه حتى بلغت نســـخة من ديوان جرير بخطه عشـرة دنانير وأكثر ما تروى الكتب القديمة في اللغـة والأشــــعـار العربيـة وأيـام العرب في الـديـار المصــــرية من طريقه فإنه كان راوية لـها عارفاً بـها وكـان أهـل بيتـه يرتزقون بمصـــــر من التجـارة في الخشـــب وكان أبو عبد الله محمد بن بركات بن هلال السعيدي النحوي المصـري قد أخذ اللغة من أصحاب أبي يعقوب المذكور وأدرك أبا يعقوب ولم يأخذ عنه شـــيئاً لأنه رآه وهو صـــبي قال الموفق أبو الحجاج يوسف بن الخلال المصري كاتب الإنشاء الآتي ذكره إن شاء الله تعالى قال لي ابن بركات

76 رأيـت أبـا يعقوب وهو مـاش في طريق القرافة وهو شـــيخ أســـمر اللون كث اللحية مدور العمامة بيده كتاب وهو يطالع فيه في مشـــيته وهذا الذي ذكره ابن بركات فيه نظر فان الحافظ أبا إسحاق إبراهيم بن ســـعيد بن عبد الله المعروف بالحبال ذكره في كتاب الوفيات الذي جمعه فقال توفي أبو يعقوب بن خرزاذ النجيرمي يوم الثلاثاء رابع المحرم ســـنة ثلاث وعشـــرين وأربعمائة وقال غيره ولد أبو يعقوب يوسـف النجيرمي يوم عرفة من سـنة خمس وأربعين وثلثمائة رحمه الله تعالى وابن بركات المذكور ولد بمصر في سنة عشرين وأربعمائة وتوفي بها في سنة عشـــرين وخمســـمائة وكان نحوي مصـــر هكذا قاله الموفق ابن الخلال المذكور فكيف يمكن أن يرى أبا

يعقوب وقد كان ابن بركات في تاريخ وفاة النجيرمي في الســـنة الثالثة من عمره لكن لعله رأى ولده والله أعلم وقال القاضي الفاضل ليس في شعر ابن بركات المذكور أحســن من هذين البيتين وعملهما في مســافر العطار (يا عنق الإبريق من فضة * ويا قوام الغصن الرطب) (هبك تجافيت فأقصيتني * تقدر أن تخرج من قلبي) وكان ابن بركات قد أخذ النحو عن ابن بابشــاذ النحوي المقدم ذكره في حرف الطاء وذكره القاضي الرشيد بن الزبير في كتاب الجنان وأثنى عليه وخرزاذ بضــم الخاء المعجمة والراء المشــددة وبعدها زاي وبعد الألف ذال معجمة قلت هكذا يضــــبط أهل الحديث هذا الاســـم وهو لفظ أعجمي وتفســـير زاذ بالعربي ابن وأما خر بتشديد الراء فليس له معنى
77 إلا أن يكون أهل العربية قد غيروه كما جرت عادتهم في ذلك فيكون اصـــله خار بالألف وهو الشوك فيكون خارزاذ معناه ابن الشوك وخرشيذ أيضاً الشـــمس فان كانوا أرادوا هذا وحذفوا شـــيذ فيحتمل وعلى الجملة فانهم يتلاعبون بالأســـماء العجمية والله أعلم بالصـــواب ثم وجدت في كتاب البلدان تأليف البلاذري في الفصـــل المتضـــمن حديث بلاد فارس وأعمالها أرض أردشــير خره ثم قال ومعنى أردشــير خره ولد أردشير بها قلت وأردشير بن بابك بن ساسان أول ملوك الفرس كما هو مشـــهور بين الناس وعلى هذا يكون معنى خرزاذ بها ولد كما هو عادتهم في

التقديم والتأخير وتقدير الكلام ولد بها أي بالناحية أو غير ذلك والله أعلم والنجيرمي بفتح النون وكسر الجيم وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الراء وفي آخرها ميم هذه النسبة إلى نجيرم ويقال نجارم قال أبو سعد السمعاني في كتاب الأنساب هي محلة بالبصرة وقال غيره هي قرية في بر البصرة في طريق فارس عند سيراف والله أعلم بالصواب وكذا هي في كتب المسالك والممالك وهي على بحر فارس وظاهر الحال أن جماعة من أهلها دخلوا البصرة وسكنوا هذا المحلة فسميت باسم بلدهم والله أعلم

78 يوسف بن وهرة الهمذاني يوسف بن أيوب بن يوسف بن الحسين بن وهرة ابو يعقوب الهمذاني الفقيه العالم الزاهد الجليل الرباني صاحب المقامات والكرامات قدم بغداد في صباه بعد الستين وأربعمائة ولازم الشيخ إبا إسحاق الشيرازي المقدم ذكره وتفقه عليه حتى برع في أصول الفقه والمذهب والخلاف وسمع الحديث من القاضي أبي الحسين محمد بن علي ابن المهتدي بالله وأبي الغنائم عبد الصمد بن علي بن المأمون وأبي جعفر محمد بن أحمد بن المسلمة وطبقتهم وسمع بأصبهان وسمرقند وكتب أكثر ما سمعه ثم زهد في ذلك ورفضه واشتغل بالزهد والعبادة والرياضة والمجاهدة حتى صار علماً من أعلام الدين يهتدي به الخلق إلى الله تعالى وقدم بغداد في سنة خمس عشرة وخمسمائة وحدث بها وعقد بها

مجلس الوعظ بالمدرسة النظامية وصادف بها قبولا عظيماً من الناس قال أبو الفضل صافي بن عبد الله الصوفي الشيخ الصالح حضرت مجلس شيخنا يوسف الهمذاني في النظامية وكان قد اجتمع العالم فقام فقيه يعرف بابن السقاء وآذاه وسأله عن مسألة فقال له الإمام يوسف اجلس فإني أجد من كلامك رائحة الكفر ولعلك تموت على غير دين الإسلام قال أبو الفضل

79 فاتفق أنه بعد هذا القول بمدة قدم رسول نصراني من ملك الروم إلى الخليفة فمضى إليه ابن السقاء وسأله أن يستصحبه وقال له يقع لي أن أترك دين الإسلام وادخل في دينكم فقبله النصراني وخرج معه إلى القسطنطينية والتحق بملك الروم وتنصر ومات على النصرانية قال الحافظ أبو عبد الله محمد بن محمود المعروف بابن النجار البغدادي في تاريخ بغداد في ترجمة يوسف الهمذاني المذكور سمعت أبا الكرم عبد السلام بن أحمد المقرىء يقول كان ابن السقاء قارئاً للقرآن الكريم مجوداً في تلاوته حدثني من رآه بالقسطنطينية ملقى على دكة مريضاً وبيده خلق مروحة يدفع بها الذباب عن وجهه قال فسألته هل القرآن باق على حفظك فقال ما اذكر منه إلا آية واحدة (^ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) الحجر 2 والباقي أنسيته نعوذ بالله من سوء القضاء وزوال نعمته وحلول نقمته ونسأله الثبات على دين الإسلام آمين آمين آمين قال أبو سعد ابن السمعاني

يوسف بن أيوب الهمذاني من أهل بوزنجرد قرية من قرى همذان مما يلي الري الإمام الورع التقي المتنسك العامل بعلمه والقائم بحقه صاحب الأحوال والمقامات الجليلة وإليه انتهت تربية المريدين الصادقين واجتمع برباطه بمدينة مرو جماعة من المنقطعين إلى الله تعالى ما لا يتصور أن يكون في غيره من الربط مثلهم وكان من صغره إلى كبره على طريقة مرضية وسداد واستقامة خرج من قريته إلى بغداد وقصد الإمام ابا إسحاق الشيرازي وتفقه عليه ولازمه مدة مقامه ببغداد حتى برع في الفقه وفاق أقرانه خصوصاً في علم النظر وكان الشيرازي يقدمه على جماعة كثيرة من اصحابه مع صغر سنه لعلمه بزهده وحسن سيرته واشتغاله بما يعنيه ثم ترك كل ما كان فيه من المناظرة وخلا بنفسه واشتغل بما هو الأهم من عبادة الله تعالى ودعوة الخلق إليها وإرشاد الأصحاب

80 إلى الطريق المستقيم نزل مرو وسكنها وخرج إلى هراة وأقام بها مدة ثم سئل الرجوع إلى مرو في آخر عمره فأجاب ورجع إليها وخرج إلى هراة ثانياً وعزم على الرجوع إلى مرو في آخر عمره وخرج منها متوجهاً إلى مرو فأدركته منيته بباميين بين هراة وبغشور في شهر ربيع الأول سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ودفن ثم نقل بعد ذلك إلى مرو وكان مولده تقديراً لا تحقيقاً في سنة اربعين أو إحدى وأربعين وأربعمائة ببوزنجرد رحمه الله تعالى قلت

هذا كله نقلته من تاريخ ابن النجار المذكور مقتضـــباً وفيه الفاظ تحتاج إلى إيضـــاح أما وهرة فهو بفتح الواو والهاء والراء وفي آخره هاء ثانية وهو اسم جده المذكور ولا أعرف معناه بالعربي والقســطنطينية بضم القاف وسكون السين المهملة وفتح الطاء المهملة وسكون النون وكسر الطاء الثانية وسكون الياء المثناة من تحتها وكســر النون وفتح الياء الثانية وفي آخرها هاء ســاكنة وهي أعظم مدائن الروم بناها قســطنطين ملك الروم وهو أول من تنصر من ملوك الروم فنسبت المدينة إليه وأما بوزنجرد فهو بضـــم الباء الموحدة وسكون الواو وفتح الزاي والنون وكسر الجيم وسكون الراء وبعدها دال مهملة وهي قرية من قرى همذان على مرحلة منها مما يلي ســـاوة كذا قال أبو ســـعد السمعاني في كتاب الأنساب وأما مرو فقد تقدم الكلام عليها وأما باميين بالباء الموحدة وبعد الألف ميم مفتوحة ثم ياء مثناة من تحتها مكســـورة وبعدها ياء ثانية ساكنة ثم نون فهي بليدة بخراسان كما ذكرها

81 وهراة قد تقدم الكلام عليها وأنها إحدى كراســي خراســان فإنها أربعة نيســابور وهراة ومرو وبلخ وبغشـــور بفتح الباء الموحدة وســـكون الغين المعجمة وضم الشين المعجمة وبعد الواو الساكنة راء وهي بليدة بخراســان أيضــاً بين مرو وهراة وقد تقدم في ترجمة الحسين بن مسعود الفراء الفقيه البغوي أنه منســوب إليها 841 الاعلم الشــنتمرى أبو الحجاج

يوســـف بن ســـليمان بن عيســـى النحوي المعروف بالأعلم من أهل شـنتمرية الغرب رحل إلى قرطبة في ســنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة وأقام بها مدة وأخذ عن أبي القاسـم إبراهيم بن محمد بن زكرياء الإفليلي وأبي سـهل الحراني وأبي بكر مسلم بن أحمد الأديب وكان عالماً بالعربية واللغة ومعاني الأشـعار حافظاً لجميعها كثير العناية بها حسـن الضـبط لها مشـهوراً بمعرفتها وإتقانها أخذ الناس عنه كثيراً وكانت الرحلة في وقته إليه وقد أخذ عنه أبو علي الحسـين بن محمد بن أحمد الغساني الجياني المقدم ذكره وغيره وكف بصره في آخر عمره وشـرح كتاب الجمل في النحو لأبي القاسـم الزجاجي وشـرح ابيات الجمل في كتاب مفرد وسـاعد شـيخه ابن الإفليلي المذكور على شـرح ديوان المتنبي وغالب ظني أنه شرح الحماسة فقد

82 كان عندي شـرح الحماسـة للشـنتمري في خمس مجلدات وقد غاب عني الآن من كان مصـنفه وأظنه هو والله أعلم وقد أجاد فيه وتوفي سـنة سـت وسبعين وأربعمائة بمدينة إشبيلية من جزيرة الأندلس وكانت ولادته في سـنة عشـر وأربعمائة رحمه الله تعالى وذكر أبو الحسـن شـريح بن محمد بن شـريح الرعيني الإشـبيلي خطيب جامعها قال مات أبي أبو عبد الله محمد بن شـريح يوم الجمعة منتصـف شـوال سنة ست وسبعين وأربعمائة فسرت إلى الشيخ الأستاذ أبي الحجاج الأعلم فأعلمته بوفاته فانهما كانا

كالأخوين محبة ووداداً فلما أعلمته انتحب وبكى كثيراً واسـترجع ثم قال لا أعيش بعده إلا شـهراً فكان كذلك ورأيت بخط الرجل الصـالح العالم محمد بن خير المقرىء الأندلسـي رحمه الله تعالى أن أبا الحجاج المذكور إنما قيل له الأعلم لأنه كان مشـقوق الشـفة العليا شـقاً فاحشـاً قلت ومن كان مشـقوق الشـفة العليا يقال له أعلم والفعل الماضـي منه علم بكسر اللام يعلم بفتحها علماً بفتحها أيضـاً والمرأة علماء إذا كانت كذلك فان كان مشقوق الشفة السفلى يقال له أفلح بالفاء والحاء المهملة والفعل منه كما تقدم في الأعلم يقال فلح بكسـر اللام يفلح فلحاً بفتحها فيهما وهذه القاعدة مطردة في العيوب والعاهات كلها أن تكون عين الفعل الماضـي مكسورة وفي المضـارع والمصدر مفتوحة تقول خرس يخرس خرسـاً وبرص يبرص برصـاً وعمي يعمى عمى وكذلك جميعه واسـم الفاعل منه على أفعل مثل أخرس وأبرص وأعمى وكذلك أعلم وافلح (378) وكـان أبو يزيـد سـهيـل بن عمرو القرشـي العامري رضـي الله عنه أعلم فلما أسـر يوم بدر قال عمر بن الخطاب رضـي الله عنه لرسـول الله دعني أنزع ثنيته فلا يقوم عليك خطيباً أبدا قال دعه فعسـى أن يقوم مقاماً تحمده وكان سـهيل من الخطباء الفصحاء

83 البلغاء وهو الذي جاء في صـلح الحديبية وعلى يده انبرم الصـلح ثم إنه أسـلم وحسـن إسـلامه

والمقام الذي وعد به لســـهيل هو أنه لما قبض كان سهيل بمكة فارتدت جماعة من العرب وحصل عندهم اختلاف فقام ســهيل خطيباً وســكن الناس ومنعهم من الاختلاف فكان هذا هو المقام المحمود وقول عمر رضــي الله عنه دعني أنزع ثنيته فلا يقوم عليك خطيباً أبداً فإنما قال ذلك لأنه إذا كان مشــقوق الشــفة العليا ونزعت ثنيته تعذر عليه الكلام إلا بمشــقة وكلفة فهذا الذي قصده عمر رضي الله عنه وكان عنترة بن شداد العبســي الفارس المشــهور أفلح فكان يقال له الفلحاء لفلحة كانت به وإنما ذهبوا به إلى تأنيث الشــفة والله أعلم وشــنتمرية بفتح الشــين المعجمة وسكون النون وفتح التاء المثناة من فوقها والميم وكسر الراء وبعدها ياء مشــددة مثناة من تحتها وبعدها هاء ســاكنة وهي مدينة بالأندلس في غربها والحديبية بضــم الحاء المهملة وفتح الدال المهملة وبعدها ياء ساكنة مثناة من تحتها ثم باء موحدة مكسورة ثم ياء ثانية مفتوحة وفي آخرها هاء ساكنة وهو موضع بين مكة والمدينة كانت به بيعة الرضوان ويروى بتشديد الياء الأخيرة أيضاً

84 بهاء الدين عرف بابن شــداد ابو المحاســن

يوســف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد بن عتاب الأسدي قاضي حلب المعروف بابن شداد الملقب بهاء الدين الفقيه الشافعي توفي ابوه وهو صغير السن فنشأ عند أخواله بني شداد فنسب إليهم وكان شداد جده لأمه وكان يكنى أولاً أبا العز ثم غير كنيته وجعلها أبا

المحاسن كما ذكرته ولد بالموصل ليلة العاشر من
شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة وحفظ بها
القرآن الكريم في صغره ثم قدم الشيخ أبو بكر يحيى
بن سعدون القرطبي المقدم ذكره إلى الموصل فلازمه
وقرأ عليه بالطرق السبع وأتقن عليه فن القراءات قال
أبو المحاسن المذكور في بعض تواليفه أول من أخذت
عنه شيخي الحافظ صائن الدين ابو بكر يحيى بن
سعدون بن تمام بن محمد الأزدي القرطبي رحمه الله
تعالى فاني لازمت القراءة عليه إحدى عشرة سنة
فقرأت عليه معظم ما رواه من كتب القراءات وقراءة
القرآن العظيم ورواية الحديث وشروحه والتفسير
حتى كتب لي حظه شهد لي بأنه ما قرأ عليه أحد أكثر
مما قرأت وعندي خطه بجميع ما قرأت عليه في
قريب من كراسين وفهرست ما رواه جميعه عندي
وأنا أرويه عنه ومما يشتمل عليه فهرست البخاري
ومسلم من عدة طرق وغالب كتب
85 الحديث و غالب كتب الأدب وغيره وآخر
روايتي عنه شرح الغريب لأبي عبيد القاسم بن سلام
قرأته عليه في مجالس آخرها في العشر الأخير من
شعبان سنة سبع وستين وخمسمائة قلت وهي السنة
التي مات فيها الشيخ القرطبي حسبما ذكرته في
ترجمته (379) ثم قال ومنهم الشيخ ابو البركات
عبد الله بن الخضر بن الحسين المعروف بابن
الشيرجي سمعت عليه بعض تفسير الثعلبي وأجازني

أن أروي عنــه جميع مــا رواه على اختلاف أنواع الروايات وكتب لي خطه بذلك في فهرســت ســماعي مؤرخاً بخامس جمادى الأولى ســـنة ســـت وســـتين وخمســمائة وكان مشــهوراً بعلمي الحديث والفقه ولي قضـــاء البصـــرة ودرس بـالأتـابكيـة القديمـة يعني بالموصـــل (380) ومنهم الشـــيخ مجد الدين أبو الفضـــل عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد القاهر الطوســي الخطيب بالموصــل وهو مشــهور بالرواية حتى يقصــد لها من الآفاق وعاش نيفاً وتســعين ســنة قلت وكانت ولادة أبي الفضــل ابن الطوســي الخطيب المذكور في منتصـــف صـــفر ســـنة ســـبع وثمانين وأربعمائة ببغداد بباب المراتب وتوفي ليلة الثلاثاء رابع عشـــر شـــهر رمضـــان ســـنة ثمان وســـبعين وخمسمائة بالموصل ودفن بمقبرة باب الميدان رحمه الله تعالى رجعنا إلى تتمة كلام أبي المحاسن ابن شداد وســـمعت عليه يعني على الخطيب المذكور كثيراً من مســـموعاته وأجاز لي جميع ما رواه في الســـادس والعشـرين من رجب سـنة ثمان وخمسـين وخمسـمائة ومنهم القاضي فخر الدين ابو الرضا سعيد بن عبد الله بن القاسـم الشــهرزوري سـمعت عليه مسند الشـافعي رضـــي الله عنه ومســـند أبي عوانة ومســـند أبي يعلى الموصــلي وســنن أبي داود وكتب لي خطه بذلك وهو في فهرستي

86 وسمعت عليه الجامع لأبي عيسى الترمذي وأجاز لي رواية ما رواه وكتب لي خطة بذلك في شوال سنة سبع وستين وخمسمائة (381) ومنهم الحافظ مجد الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن علي الأشيري الصنهاجي أجاز لي جميع ما يرويه على اختلاف أنواعه وفي فهرستي خطه بذلك مؤرخاً بشهر رمضان سنة تسع وخمسين وخمسمائة وفهرسته عندي بذلك قلت توفي ابو محمد عبد الله الأشيري المذكور في شوال سنة إحدى وستين وخمسمائة بالشام ودفن ببعلبك رحمه الله تعالى ظاهر باب حمص شمالي البلد ومنهم الحافظ سراج الدين ابو بكر محمد بن علي الجياني قرأت عليه صحيح مسلم من أوله إلى آخره بالموصل والوسيط للواحدي وأجاز لي رواية ما يرويه في تاريخ سنة تسع وخمسين وخمسمائة فهذه أسماء من حضر في خاطري وقد سمعت من جماعة لم يحضرني روايتهم عند جمع هذا الكتاب كشهدة الكاتبة في بغداد وأبي المغيث في الحربية والشيخ رضي الدين القزويني المدرس بالنظامية وجماعة شذت عني طرقهم فلم أذكرهم إذ كان في هؤلاء غنية هذا آخر ما ذكره عن نفسه وقال غيره إنه قرأ الفقه على أبي البركات عبد الله ابن االشيرجي المذكور فقيه الموصل وكان عالماً زاهداً متقشفاً وتوفي في جمادى الأولى سنة أربع وسبعين وخمسمائة بالموصل ودفن بظاهرها ثم

اشتغل بالخلاف على الضياء ابن أبي حازم صاحب
محمد بن يحيى الشهيد النيسابوري ثم باحث في
الخلاف متفنني أصحابه كالفخر النوقاني والبروي
والعماد النوقاني والسيف الخواري والعماد الميانجي
ثم انحدر إلى بغداد بعد التأهل التام ونزل بالمدرسة
النظامية وترتب فيها
87 معيداً بعد وصوله إليها بقليل وأقام معيداً
نحو أربع سنين والمدرس بها يوم ذاك أبو نصر أحمد
بن عبد الله بن محمد الشاشي وكانت ولاية ابن الشاشي
المذكور التدريس بالنظامية في شهر ربيع الآخر من
سنة ست وستين وخمسمائة وعزل عنها في سلخ شهر
رجب سنة تسع وستين وتولاها بعده رضي الدين أبو
الخير أحمد بن إسماعيل القزويني في التاريخ المذكور
وابو المحاسن المذكور مستمر بها على الإعادة وكان
رفيقه في الإعادة السديد محمد السلماسي وقد تقدم
ذكره ثم اصعد إلى الموصل في سنة تسع وستين
فترتب مدرساً في المدرسة التي أنشأها القاضي كمال
الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزوري المقدم ذكره
ولازم الاشتغال وانتفع به جماعة ولـه كتاب في
الأقضية سماه ملجأ الحكام عند التباس الأحكام ذكر
في أوائله أنه حج في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة
وزار البيت المقدس والخليل عليه أفضل الصلاة
والسلام بعد الحج والزيارة للرسول ثم دخل دمشق
والسلطان صلاح الدين محاصر قلعة كوكب فذكر أنه

سمع بوصوله فاستدعاه إليه فظن أنه يسأله عن كيفية قتل الأمير شمس الدين ابن المقدم فإنه كان أمير الحاج في تلك السنة من جهة صلاح الدين وقتل على جبل عرفات لأمر يطول شرحه وليس هذا موضع ذكره فلما دخل عليه ذكر أنه قابله بالإكرام التام وما زاد على السؤال عن الطريق ومن كان فيه من مشايخ العلم والعمل وسأله عن جزء من الحديث ليسمعه عليه فأخرج له جزءاً جمع فيه أذكار البخاري وأنه قرأه عليه بنفسه فلما خرج من عنده تبعه عماد الدين الكاتب الأصفهاني وقال له السلطان

88 يقول لك إذا عدت من الزيارة وعزمت على العود تعرفنا بذلك فلنا إليك مهم فأجابه بالسمع والطاعة فلما عاد عرفه بوصوله فاستدعاه وجمع له في تلك المدة كتاباً يشتمل على فضائل الجهاد وما أعد الله سبحانه وتعالى للمجاهدين يحتوي على مقدار ثلاثين كراسة فخرج إليه واجتمع به على بقيعة حصن الأكراد وقدم له الكتاب الذي جمعه وقال إنه كان عزم على الإنقطاع في مشهد بظاهر الموصل إذا وصل إليها ثم إنه اتصل بخدمة صلاح الدين في مستهل جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وخمسمائة ثم ولاه قضاء العسكر والحكم بالقدس الشريف ولما كنت متولي الحكم بدمشق المحروسة جاءني في بعض شهور سنة ست وستين وستمائة إسجال قد ثبت مضمونه عند القاضي أبي المحاسن المذكور وهو

يومئذ قاضي العسكر الصلاحي وقد انقطع ثبوته بموت شهوده فتعذر إثباته عندي لذلك وتأملته إلى آخره لأنني استغربته فقد كان شيخنا وأخذنا عنه كثيراً وحصل الانتفاع بصحبته عدنا إلى بقية ما ذكره أبو المحاسن المذكور فقال إنه كان قد حضر إلى خدمة صلاح الدين في صحبة شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل والقاضي محيي الدين ابن الشهرزوري لما وصلا إليه في رسالة واتفق في تلك الدفعة وفاة البهاء الدمشقي المدرس كان بمصر في مدرسة منازل العز وخطيب مصر وأن صلاح الدين عرض عليه تدريس المدرسة المذكورة فلم يفعل وأنه حضر عند السلطان دفعة ثانية في رسالة من الموصل وهو على حران وكان صلاح الدين مريضاً يومئذ وذكر أنه لما توفي صلاح الدين كان حاضراً وتوجه إلى حلب لجمع كلمة الإخوة أولاد صلاح الدين وتحليف بعضهم لبعض وأن الملك الظاهر غياث الدين بن صلاح الدين صاحب حلب كتب إلى أخيه الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين صاحب دمشق يطلبه منه فأجابه إلى ذلك فأرسله الظاهر إلى مصر لاستحلاف أخيه الملك العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح

89 الدين وعرض عليه الظاهر الحكم بحلب فلم يوافق على ذلك فلما عاد من هذه الرسالة كان القاضي بحلب قد مات فعرض عليه فأجاب هكذا ذكره في

كتابه ملجأ الحكام وذكر القاضـــي كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد المعروف بابن العديم في تاريخه الصـــغير الذي ســـماه زبدة الحلب في تاريخ حلب ما مثاله وفي سنة إحدى وتسعين يعني وخمسمائة اتصل القاضـــي بهاء الدين ابو المحاسـن يوسـف بن رافع بن تميم بخدمة الملك الظاهر وقدم إليه إلى حلب وولاه قضـــاءها ووقوفها وعزل عن قضـــائها زين الدين ابا البيان نبا ابن البانياســـي نائب محيي الدين ابن الزكي وحل عنده بهاء الدين في رتبة الوزارة والمشـــاورة انتهى كلامه قلت وهذا القاضي نبا هو ابن الفضل بن سليمان الحميري يعرف بيتهم بدمشق ببيت البانياسـي وكان السـلطان صــلاح الدين قد ولى القاضــي محيي الدين أبا المعالي محمد بن الزكي الدمشـــقي المقدم ذكره القضـــاء بحلب فاســتناب فيها زين الدين نبا ابن البانياســي المذكور واســتمر بها إلى التاريخ المذكور وكانت حلب في ذلك الزمان قليلة المدارس وليس بها من العلماء إلا نفر يسير فاعتنى أبو المحاسن المذكور بترتيب أمورها وجمع الفقهاء بها وعمرت في أيامه المـدارس الكثيرة وكـان الملـك الظـاهر قـد قرر لــه إقطاعاً جيداً يحصـــل منه جملة مســـتكثرة ولم يكن له خرج كثير فانه لم يولد له ولا كان له أقارب فتوفر له شيء كثير فعمر مدرسة بالقرب من باب العراق قبالة مدرســـة نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالى الشـــافعية ورأيت تاريخ عمارتها مكتوباً على ســـقف

مسجدها وهو الموضع المعد لإلقاء الدروس وذلك في سنة إحدى وستمائة ثم عمر في جوارها داراً للحديث النبوي وجعل بين المكانين تربة برسم دفنه فيها ولها بابان باب إلى المدرسة

90 وباب إلى دار الحديث وشباكان إلى الجهتين وهما متقابلان بحيث إن الذي يقف في أحد المكانين يرى من يكون في المكان الآخر ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدها الفقهاء من البلاد وحصل بها الاشتغال والاستفادة وكثر الجمع بها وكان بين والدي رحمه الله تعالى وبين القاضي أبي المحاسن المذكور مؤانسة كثيرة وصحبة صحيحة المودة من زمن الاشتغال بالموصل فجئت إليه وكان أخي قد سبقني بمدة قليلة وكتب سلطان بلدنا الملك المعظم مظفر الدين ابو سعيد كوكبوري بن علي بن بكتكين رحمه الله تعالى المقدم ذكره في حرف الكاف كتاباً بليغاً في حقنا يقول فيه أنت تعلم ما يلزم من أمر هذين الولدين وأنهما ولدا أخي وولدا أخيك ولا حاجة مع هذا إلى تأكيد وصية وأطال القول في ذلك فتفضل القاضي أبو المحاسن وتلقانا بالقبول والإكرام وأحسن حسب الإمكان وعمل ما يليق بمثله وأنزلنا في مدرسته ورتب لنا أعلى الوظائف وألحقنا بالكبار مع الشبيبة في السن والابتداء في الاشتغال وقد تقدم في ترجمة الشيخ موفق الدين ابن يعيش النحوي تاريخ دخولي إلى حلب فأغنى عن الإعادة ولم نزل عنده إلى أن

توفي في التاريخ الآتي ذكره ولم يكن بمدرستــه في ذلك الزمان درس عام لأنه كان المدرس بنفسه وكان قد طعن في السن وضعف عن الحركة وحفظ الدروس وإلقائها فرتب أربعة من الفقهاء الفضلاء برسم الإعادة والجماعة يشتغلون عليهم وكنت أنا وأخي نقرأ على الشيخ جمال الدين أبي بكر الماهاني لأنه كان من بلدنا ورفيق والدنا في الاشتغال عند الشيخ عماد الدين أبي حامد محمد بن يونس المقدم ذكره فمات في ثالث شوال سنة سبع وعشرين وستمائة وقد نيف على ثمانين سنة فترددت إلى الشيخ نجم الدين ابي عبد الله محمد بن أبي بكر بن علي المعروف بابن الخباز الموصلي الفقيه

91 الإمام وهو إذ ذاك مدرس المدرسة السيفية فقرأت عليه من أول كتاب الوجيز للغزالي إلى الإقرار وعلى الجملة فقد خرجنا عما نحن بصدده بسبب اتصال الكلام وكان القاضي أبو المحاسن المذكور بيده حل الأمور وعقدها لم يكن لأحد معه في الدولة كلام وكان سلطانها الملك العزيز ابا المظفر محمد بن الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين وهو صغير السن تحت حجر الطواشي شهاب الدين أبي سعيد طغرل وهو أتابكة ومتولي تدبير الدولة باشارة القاضي أبي المحاسن لا يخرج عنهما شيء من الأمور وكان للفقهاء في أيامه حرمة تامة ورعاية كبيرة خصوصاً جماعة مدرسته فانهم كانوا يحضرون

مجالس السلطان ويفطرون في شهر رمضان على
سماطه وكنا نسمع عليه الحديث ونتردد إليه في داره
فقد كانت له قبة تختص به وهو شتوية لا يجلس في
الصيف والشتاء إلا فيها لأن الهرم كان قد أثر فيه
حتى صار كفرخ الطائر من الضعف لا يقدر على
الحركة للصلاة وغيرها إلا بمشقة عظيمة وكانت
النزلات تعتريه في دماغه فلا يفارق تلك القبة وفي
الشتاء يكون عنده منقل كبير عليه من الفحم والنار
شيء كثير ومع هذا كله فلا يزال مزكوماً وعليه
الفرجية البرطاسي والثياب الكثيرة وتحته الطراحة
الوثيرة فوق البسط ذوات الخمائل الثخنية بحيث إنا
كنا نجد عنده الحر والكرب وهو لا يشعر به لكثرة
استيلاء البرودة عليه من الضعف وكان لا يخرج
لصلاة الجمعة إلا في شدة القيظ وإذا قام إلى الصلاة
بعد الجهد يكاد يسقط ولقد كنت أنظر إلى ساقيه إذا
وقف للصلاة وكأنهما عودان رقيقان لا لحم عليهما
وكان عقيب صلاة الجمعة يسمع المصلون عنده
الحديث عليه وكان يعجبه ذلك وكان حسن المحاضرة
جميل المذاكرة والأدب غالب عليه وكان كثيراً ما
ينشد في مجالسه (إن السلامة من ليلى وجارتها *
أن لا تمر على حال بناديها)
92 وكان يتمثل أيضاً كثيرا بقول صردر
الشاعر المقدم ذكره في حرف العين وهذا البيت من
جملة قصيدة طويلة وهو (وعهودهم بالرمل قد

نقضـــت * وكذاك ما يبنى على الرمل) فأنشـــده في بعض الأيام فقال له بعض أصـــحابنا الحاضــــرين يا مولانـا قد اســـتعمل ابن المعلم العراقي هـذا المعنى استعمالاً مليحاً فقال ابن المعلم هو أبو الغنائم فقال نعم فقال صــاحبنا كان كيف قال فأنشــده (نقضــوا العهود وحق ما يبنى على * رمل اللوى بيد الهوى أن ينقضـا) فقال ما أقصـــر ولقد تلطف في قوله بيد الهوى فقال له يا مولانا وقد استعمله في قصـيدة أخرى فقال هات فأنشـده (ولم يبن على الرمل * فكيف انتقض العهد) فاســتحســنه وكان كثيراً ما ينشــد أبيات أبي الفوارس ســـعد بن محمد المعروف بحيص بيص المقدم ذكره وكان يقول إنه ســـمعها منه ويرويها عنه وقد تقدم ذكرها في ترجمة الحيص بيص فـأغنى عن الإعـادة وأولها (لا تضع من عظيم قدر وإن كنت مشاراً إليه بالتعظيم) وكان يقول أنشـــدني القاضـــي الفاضـــل لبعضهم ونحن نزول على قلعة صفد (قلت للنزلة لما * أن المت بلهاتي) (بحياتي خل حلقي * فهو دهليز حياتي) قلت هذان البيتان منســوبان إلى ابن الهبارية المقدم ذكره والله أعلم

93 وكان كلما نظر إلى نفســـه على تلك الحال من الضـــعف والعجز عن القيام والقعود والصـــلاة وســـائر الحركات ينشـــد (من يتمن العمر فليدرع * صـبراً على فقد أحبائه) (ومن يعمر ير في نفســه * ما يتمنـاه لأعدائه) ثم وجدت هذين البيتين للظهير

أبي إســحاق إبراهيم بن نصــر بن عســكر قاضــي السـلامية المقدم ذكره في هذا الكتاب والله أعلم ذكر ذلك صـاحبنا الكمال ابن الشـعار الموصـلي في كتابه عقود الجمان في ترجمة الظهير المذكور وهذا ينظر إلى قول أبي العلاء المعري (تـدعو بطول العمر أفواهنا * لمن تناهى القلب في وده) (يســر إن مد بقاء له * وكل ما يكره في مده) والأصــل في هذا قول لبيد بن ربيعة العامري (كانت قناتي لا تلين لغامز * فألانها الإصباح والإمساء) (ودعوت ربي بالسلامة جاهداً * ليصحني فإذا السلامة داء) ودخل عليه يوماً رجل من أهل الغرب يقال له ابو الحجاج يوســف وكان قريب العهد ببلاده ورد حلب في تلك الأيام وكان فاضــلا في الأدب والحكمة فلما رآه على تلك الهيئة من الهزال والنحافة أنشده (لو يعلم الناس ما في أن تعيش لهم * بكوا لأنك من ثوب الصــبا عاري) (ولو أطاقوا انتقاصاً من حياتهم * لما فدوك بشيء غير أعمار)

94 فأعجبه ذلك ودمعت عيناه وشـكر له وقال لي بعض أصـحابنا سـمعته يوماً وهو يحكي للجماعة الحاضــرين عنده قال لما كنا في المدرســة النظامية ببغداد اتفق أربعة خمســة من الفقهاء المشـتغلين على اســتعمال حب البلاذر لأجل ســرعة الحفظ والفهم فاجتمعوا ببعض الأطباء وسألوه عن مقدار ما يستعمل الإنسان منه وكيف يستعمله ثم اشتروا القدر الذي قال

لهم الطبيب وشـربوه في موضـع خارج عن المدرسـة فحصل لهم الجنون وتفرقوا وتشتتوا ولم يعلم ما جرى عليهم وبعد ايام جاء إلى المدرســـة واحد منهم وكان طويلاً وهو عريان ليس عليه شــيء يســتر عورته وعلى رأســه بقيار كبير له عذبة طويلة خارجة عن العادة وقد ألقاها وراءه فوصلت إلى كعبه وهو ساكت عليه الســكينة والوقار لا يتكلم ولا يعبث فقام إليه من كان حاضــراً من الفقهاء وسـألوه عن الحال فقال لهم كنا قد اجتمعنا وشربنا حب البلاذر فأما أصحابي فانهم جنوا وما سـلم منهم إلا أنا وحدي وصـار يظهر العقل العظيم والسكون وهم يضحكون منه وهو لا يشعر بهم ويعتقد أنه سـالم مما أصـاب أصـحابه وهو على تلك الحالة لا يفكر فيهم ولا يلتفت إليهم وأخبرني جماعة مما كانوا عنده قبل وصــولنا إليه أنه قدم عليه الأديب نظام الدين أبو الحســن علي بن محمد بن يوســف بن مســعود القيســي القرطبي المعروف بـابن خروف الشـاعر المعروف فكتب إليه رسـالة وفي أولها أبيات يستجديه فروة قرظ وهي (بهاء الدين والدنيا * ونور المجد والحسب) (طلبت مخافة الأنواء * من نعماك جلد أبي) (وفضلك عالم أني * خروف بارع الأدب) (حلبت الدهر أشطره * وفي حلب صفا حلبي)

95 ذو الحسـب الباهر والنسـب الزاهر يسـحب ذيول ســيراء الســراء ويحب النحاة من أجل الفراء ويمن على الخروف النبيه بجلد أبيه قانيء الصـــباغ

قريب عهد بالدباغ ما ضل طالب قرظه ولا ضاع بل ذاع ثناء صانعه وضاع أثيث خمائل الصوف يهزأ من الرياح بكل هوجاء عصــــوف إذا طهر إهابه يخافه البرد ويهابه ما في الثياب له ضـــريب إذ نزل الجليد والضـريب ولا في اللباس له نظير إذا عري من ورقه الغصن النضير لا كطيلسان ابن حرب ولا جلد عمرو الممزق بالضـــرب كأنه من جلد حمل الجرباء الذي يراعي البدر والنجم لا من جلد الســـخلة الجرباء التي ترعى الشـــجر والنجم فرجي النوع أرجى الضــــوع ليكون تارة لحافاً وتارة برداً وهو في الحالين يحيى حراً ويميت برداً لا زال مهديه ســـعيداً ينجز للأولياء وعداً وللأعداء وعيداً إن شاء الله تعالى والسلام قلت وقد ذكرت في ترجمة أبي الفتح محمد ســـبط ابن التعاويذي رســـالة كتبها إلى عماد الدين الكاتب الأصـــفهاني المقدم ذكره يطلب منه فروة قرظ أيضـــاً وكل واحدة من الرســـالتين بديعة في بابها وفي هذه الرسالة كلام يحتاج إلى إيضاح وهو قوله لا كطيلسان ابن حرب وهو مثل مشـــهور بين الأدباء فاذا كان الشيء بالياً شبهوه بطيلسان ابن حرب ولذلك سبب لا بد من ذكره وهو أن أحمد بن حرب ابن أخي يزيد المهلبي أعطى أبا علي إســـماعيل بن إبراهيم بن حمدويه البصـري الحمدوي الشـاعر الأديب طيلسـاناً خليعاً فعمل فيه الحمدوي مقاطيع عديدة ظريفة سارت عنه وتناقلتها الرواة فمن ذلك قوله من أبيات

96 (يا ابن حرب كسوتني طيلساناً * مل من صحبة الزمان فصدا) (طال ترداده إلى الرفو حتى * لو بعثناه وحده لتهدى) وقوله أيضاً من ابيات (لقد حالف الرفاء حتى كأنه * يحاول منه أن يعلمه الرفوا) وقوله أيضاً (يا ابن حرب كسوتني طيلسانا * أنحلته الأزمان فهو سقيم) (فإذا ما رفوته قال سبحانك * محيي العظام وهي رميم) وقوله أيضاً (يا ابن حرب أطلت وتري برفوى * طيلساناً قد كنت عنه غنيا) (فهو في الرفو آل فرعون في العرض * على النار بكرة وعشيا) وله فيه أيضاً ((رأينا طيلسانك يا ابن حرب * يزيد المرء ذا الضعة اتضاعا) (إذا الرفاء أصلح منه بعضاً * تداعى بعضه الباقي انصداعا)) (يسلم صاحبي فيقد شبراً * به وأقد في ردي ذراعا) (أجيل الطرف في طرفيه طولاً * وعرضاً ما ارى إلا رقاعا) (فلست أشك أن قد كان دهراً * لنوح في سفينته شراعا) (وقد غنيت إذ أبصرت منه * بقاياه على كتفي تداعى) (قفي قبل التفرق يا ضباعا * ولا يك موقف منك الودا عا) وقال فيه أيضاً وكتبها إلى بعض الرؤساء (دعني أبكي كسوتي إذ ودعت * فلأزمعن على البكا إذ أزمعت) (يا ابن الحسين أما ترى دراعتي * سملاً تردت بالبلى وتدرعت)

97 (فيها من التمزيق ما لو أنه * مرت بها ريح الصبا لتقشعت) (تحكي تخرق طيلساني إنها *

منه تعلمت البلى فتضـــعضـــعت) (لا فرج الرحمن عنه إنه * أعدى ثيابي كلها فتقطعت) (فلتحمد الله الجبال فإنها * لو قارنته تخشعت وتصدعت) (وله فيه أيضـــاً (يا ابن حرب كسـوتني طيلســانا * يزرع الرفو فيه وهو ســـباخ) (مات رفاؤه ومات بنوه * وبدا الشـــيب في بنيهم وشـــاخوا) وقال فيه أيضـــاً (طيلسـان لو كان لفظاً إذن ما * شك خلق في أنه بهتان) (فهو كالطور إذ تجلى له الله فدكت قواه والأركان) (كم رفوناه إذ تمزق حتى * بقي الرفو وانقضـــــى الطيلســـان) وله فيه أيضـــاً (يا ابن حرب إني أرى في زوايا * بيتنا مثل من كسوت جماعه) (طيلسـان رفوته ورفوت الرفو منه وقد رقعت رقاعه) (فأطاع البلى فصـــــار خليعـاً * ليس يعطي الرفـاء في الرفو طاعه) (فإذا سائل رآني فيه * ظن أني فتى من أهل الصناعة) (وله فيه أيضاً (قل لابن حرب طيلسانك * قوم نوح منه أحدث) (هو طيلسان لم يزل * عمن مضـــى من قبل يورث) (فإذا العيون لحظنه * فكأنه بـاللحظ يحرث) (يودي إذا لم أرفـه * فـإذا رفوت فليس يلبث) (كالكلب إن تحمل عليه الدهر أو تتركه يلهث)

98 ويقال إنه عمل في هذا الطيلســـــان مائتي مقطوع في كل مقطوعة معنى بديع (وكان الأصـــل الذي حمل الحمدوي المذكور على عمل هذه المقاطيع أنه وقف على أبيات عملها أبو حمران السـلمي بضـم

الحاء المهملة في طيلســـانه وكان قد أخلق حتى بلي فقال فيه (يا طيلســـان أبي حمران قد برمت * منك الحياة فما تلتذ بالعمر) (في كل يومين رفاء يجدده * هيهات ينفع تجديد مع الكبر) (إذا ارتداه لعيد أو لجمعته * تنكب الناس لا يبلى من النظر) وهذا البيت الثالث أخذه من قول النظام بفتح النون وتشــديد الظاء المعجمة أبي إســحاق إبراهيم بن ســيار البلخي المتكلم المعتزلي في وصف غلام رقيق البشرة (رق فلو بزت سرابيله * علقه الجو من اللطف) (يجرحه الناس بألحاظهم * ويشتكي الإيماء بالكف) وأنشدني بعض الأدباء بمدينة الموصل في شهر رمضان سنة ست وعشرين وستمائة في هذا المعنى لبعض الشعراء (توهمها طرفي فأصبح خدها * وفيه مكان الوهم من نظري أثر) (وصـــافحها قلبي فأدمى بنانها * فمن لمس قلبي في أناملها عقر) وأنشــدني الشــيخ أيدمر الصوفي المسمى إبراهيم لنفسه دوبيت في هذا المعنى (كلفت صــبا العراق لما خطرت * أن تحمل لي تحية ما قدرت) (قالت لي خيفتي على وجنته * إن جزت بها جرحتها فاعتذرت) ولبعض الأدباء الفقراء من جملة أبيات شــكا فيها رقة حاله ورثاثة ثيابه ما يقرب من هذا المعنى وهو قوله (ولي ثياب رثاث لســت أغسلها * أخاف أعصرها تجري مع الماء)

99 وقد قيل في هذا المعنى شــيء كثير والاختصــار أولى والله أعلم وأما قوله ولا جلد عمرو

الممزق بالضرب فيريد قول النحاة ضرب زيداً عمراً فإنهم أبداً يستعملون هذا المثال ولا يمثلون بغيره فكأنهم يمزقون جلده بكثرة الضرب عدنا إلى ما كنا عليه وكان القاضي أبو المحاسن المذكور يسلك طريق البغاددة في ترتيبهم وأوضاعهم وحتى إنه كان يلبس ملبوسهم والرؤساء الذين يترددون إليه كانوا ينزلون عن دوابهم على قدر أقدارهم لكل واحد منهم مكان معين لا يتعداه ثم إنه تجهز إلى الديار المصرية لإحضار ابنة الملك الكامل ابن الملك العادل للملك العزيز صاحب حلب وكان قد عقد نكاحه عليها فسافر في أول سنة تسع وعشرين أواخر سنة ثمان وعشرين وستمائة وعاد وقد جاء بها في شهر رمضان من السنة ولما وصل كان قد استقل الملك العزيز بنفسه ورفعوا عنه الحجر ونزل الأتابك طغرل من القلعة إلى داره تحت القلعة واستولى على الملك العزيز جماعة من الشباب الذي كانوا يعاشرونه ويجالسونه فاشتغل بهم ولم ير القاضي أبو المحاسن وجهاً يرتضيه فلازم داره إلى حين وفاته وهو باق على الحكم وإقطاعه جار عليه غاية ما في الباب أنه لم يبق له حديث في الدولة ولا كانوا يراجعونه في الأمور فصار يفتح بابه لإسماع الحديث كل يوم بين الصلاتين وظهر عليه الخرف بحيث إنه صار إذا جاءه الإنسان لا يعرفه وإذا عاد قام يسأل عنه ولا يعرفه واستمر على هذه الحال مديدة ثم مرض أياماً قلائل وتوفي يوم

الأربعاء رابع عشر صفر سنة اثنتين وثلاثين وستمائة رحمه الله تعالى بحلب ودفن في التربة المقدم ذكرها وحضـــرت الصـــلاة عليه ودفنه وما جرى بعد ذلك (وصـــنف كتاب ملجأ الحكام عند التباس الأحكام يتعلق بالأقضـــية في مجلدين وكتاب دلائل الأحكام تكلم فيه على الأحاديث المستنبط

100 منها الأحكام في مجلدين وكتاب الموجز الباهر في الفقه وغير ذلك وكتاب سيرة صلاح الدين ابن أيوب رحمه الله تعالى وجعل داره خانقاه للصوفية لأنه لم يكن له وارث ولازم الفقهاء والقراء تربته مدة طويلة يقرأون عند قبره وكان قد قرر قدام كل واحد من الشـــباكين المذكورين اللذين للتربة ســـبعة قراء وكان غرضـــه أن يقرأ عنده كل ليلة ختمة كاملة فكان كل واحد من القراء الأربعة عشر يقرأ نصف سبع بعد صلاة العشاء الآخرة وفارقت حلب متوجهاً إلى الديار المصرية في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة خمس وثلاثين وســـتمائة والأمور جارية على هذه الأوضـــاع ثم بعد ذلك تغيرت تلك الأمور وانتقضـــت قواعدها وزال جميع ذلك على ما بلغني (382)

وتوفي الشيخ نجم الدين ابن الخباز المذكور في السابع من ذي الحجة ســـنة إحدى وثلاثين وســـتمائة بحلب ودفن ظاهرها خارج باب أربعين وحضـــرت الصـــلاة عليه ودفنه رحمه الله تعالى وكان مولده في التاســـع والعشـــرين من شـــهر ربيع الأول ســـنة ســـبع وخمســـين

وخمسمائة بالموصل (383) وتوفي الأتابك شهاب الدين طغرل المذكور ليلة الإثنين الحادية عشـــرة من محرم ســـنة إحدى وثلاثين وســـتمائة بحلب ودفن بمدرســـته الحنفية خارج باب أربعين وكان خادماً أرمني الجنس أبيض حســـن الســـيرة محمود الطريقة وحضرت الصلاة عليه ودفنه رحمه الله تعالى (384) وتوفي أبو الحســـن ابن الخروف الأديب المذكور بحلب في سنة أربع وستمائة مترديا في جب

101 يوسف بن عمر الثقفي أبو عبد الله يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل بن مســـعود الثقفي وقد تقدم ذكر بقية نســـبه في ترجمة الحجاج بن يوســـف الثقفي فإنه ابن ابن عم الحجاج يجتمعان في الحكم بن أبي عقيل قال خليفة بن خياط ولى هشـــام بن عبد الملك يوســـف بن عمر اليمن فقدمها لثلاث بقين من شـــهر رمضـــان ســـنة ســـت ومائة فلم يزل والياً بها حتى كتب إليه هشـــام في ســـنة عشـــرين ومائة بولايته على العراق فاســـتخلف على اليمن ابنه الصـــلت ابن يوســـف وقال البخاري كانت ولاية يوســـف بن عمر العراق ســـنة إحدى وعشـــرين ومائة إلى ســـنة أربع وعشـــرين وقال غيره لما أراد هشـــام بن عبد الملك صـــرف خالد بن عبد الله القســـري عن العراق كان قد جاءه رســـول يوســـف ابن عمر الثقفي من اليمن فدعا هشـــام بالرســـول وقال له إن صـــاحبك قد تعدى طوره وسأل فوق قدره وأمر بتخريق ثيابه وضربه أسواطاً

وقال له امض إلى صاحبك فعل الله به وصنع ودعا بسالم اليمامي مولى سالم بن عنبسة بن عبد الملك وكان على ديوان الرسائل وقال له اكتب إلى يوسف ابن عمر بشيء أمره به واعرض الكتاب علي فمضى سالم ليكتب ما أمره به وخلا هشام بنفسه وكتب كتاباً صغيراً بخطه إلى يوسف بن عمر

102 وفيه سر إلى العراق فقد وليتك إياه وإياك أن يعلم بك أحد واشفني من ابن النصرانية يعني خالداً ومن عماله وأمسك الكتاب بيده وحضر سالم بالكتاب الذي كتبه وعرضه عليه فغافله وجعل الكتاب الصغير في طية وختمه ودفعه إلى سالم وقال له ادفعه إلى رسول يوسف ففعل ذلك وانفصل الرسول فلما وصل إلى يوسف قال له ما وراءك قال الشر أمير المؤمنين ساخط عليك وقد أمر بتخريق ثيابي وضربي ولم يكتب جواب كتبك وهذا كتاب بخط صاحب الديوان ففض الكتاب وقرأه فلما بلغ إلى آخره وقف على الكتاب الصغير فاستخلف ابنه الصلت وسار إلى العراق وقد كان يخلف سالماً الكاتب على ديوان الرسائل بشير بن أبي طلحة من أهل الأردن وكان فطناً فلما وقف على ما كان من هشام قال هذه حيلة وقد ولي يوسف بن عمر العراق فكتب إلى عياض عامل أجمة سالم وكان واداً له إن أهلك قد بعثوا إليك بالثوب اليماني فإذا أتاك فالبسه واحمد الله تعالى وأعلم طارقاً بذلك وكان عامل خالد بن عبد الله القسري على

الكوفة وما يليها ثم ندم بشـــير على ما كان منه فكتب إلى عياض إن القوم قد بدا لهم في البعثة إليك بالثوب اليماني فعرف عياض أيضـــاً طارقاً بذلك فقال طارق الخبر في الكتاب الأول ولكن صـــاحبك ندم وخاف أن يظهر أمره وركب من ســـاعته إلى خالد فخبره الخبر فقال له فما ترى قال أرى أن تركب من ســـاعتك هذه إلى أمير المؤمنين فإنه إذا رآك اســـتحيا منك وزال شـــيء إن كان في نفســـه عليك فلم يقبل ذلك فقال له فتأذن لي أن أصير إلى حضرته وأضمن له مال جميع هذه الســـنة قال وما مبلغ ذلك قال مائة ألف ألف درهم وآتيك بعهدك قال ومن أين هذه الأموال والله ما أملك عشـــرة آلاف درهم فقال أتحمل أنا وســـعيد بن راشـــد أربعين ألف ألف درهم وكان سـعيد يتقلد سـقي الفرات والزينبي وابـان بن الوليـد عشـــرين ألف ألف درهم ونفرق الباقي على باقي العمال فقال له إني إذاً للئيم أن أسوغ قوماً شيئاً ثم ارجع عليهم

103 به فقال له إنما نقيك ونقي أنفســـنا ببعض أموالنا وتبقى النعمة عليك وعلينا بك ونســـتأنف طلب الدنيا خير من أن نطالب بالأموال وقد حصـــلت عند تجار أهل الكوفة فيتقاعســـوا عنا ويتربصـــوا بنا فنقتل وتذهب أنفسنا وتحصل الأموال لهم يأكلونها فأبى خالد ذلك عليه فودعه وقال هذا آخر العهد بك ووافاهم يوســـف بن عمر فمات طارق في العذاب ولقي خالد وجميع عماله كل شـــر ومات منهم في العذاب بشـــر

كثير وكان ما استخرج يوسف من خالد وأسبابه تسعين ألف ألف درهم قلت وقد تقدم طرف من خبر خالد بن عبد الله القسري في ترجمته فتطلب منه وقد تقدم في ترجمة عيسى بن عمر الثقفي النحوي ذكر يوسف ابن عمر المذكور وما جرى له معه في الوديعة وقال أبو بكر أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري في كتاب أنساب الأشراف وأخبارهم إن هشام بن عبد الملك كان قد تغير على خالد بن عبد الله القسري أمير العراق لأمور نقلت عنه فحقد عليه منها كثرة أمواله وأملاكه ومنها أنه كان يطلق لسانه في حق هشام بما يكرهه وغير ذلك من الأسباب فعزم على عزله وأخفى ذلك وكان يوسف بن عمر الثقفي عامله على اليمن فكتب هشام إليه بخطه يأمره أن يقبل في ثلاثين من أصحابه إلى الكوفة وكتب مع الكتاب بعهده على العراق فخرج يوسف حتى صار إلى الكوفة في سبعة عشر يوماً فعرس قريباً منها وقد ختن طارق خليفة خالد القسري على الخراج ولده فأهدي إليه ألف عتيق وألف وصيف وألف وصيفة سوى المال والثياب وغير ذلك فجاء رجل إلى طارق فقال له إني رأيت قوماً أنكرتهم وزعموا أنهم سفار وصار يوسف بن عمر إلى دور بني ثقيف فأمر بعض الثقفيين فجمع له من قدر عليه من مضر ففعل فدخل يوسف المسجد مع الفجر فأمر المؤذن بالإقامة فقال حتى يأتي الإمام

104 فانتهره فأقام وتقدم يوسف فصلى وقرأ (^ إذا وقعت الواقعة) الواقعة 1 و (^ سأل سائل) المعارج 1 ثم أرسل إلى خالد وطارق وأصحابهما فأخذوا وإن القدور لتغلي وقال أبو عبيدة حبس يوسف خالداً فصالحه أبان بن الوليد عنه وعن أصحابه على تسعة آلاف ألف درهم ثم ندم يوسف وقيل له لو لم تقبل هذا المال لأخذت منه مائة ألف ألف درهم فقال ما كنت لأرجع عن شيء رهنت به لساني وأخبر أصحاب خالد خالداً فقال أسأتم حين أعطيتموه هذا المال في أول وهلة ما يؤمنني أن يأخذها ثم يرجع عليكم فارجعوا إليه فأتوه فقالوا إنا أخبرنا خالداً بما فارقناك عليه من المال فذكر أنه ليس عنده فقال أنتم أعلم وصاحبكم فأما أنا فلا أرجع عليكم وإن رجعتم لم أمنعكم قالوا فإنا قد رجعنا قال فوالله لا أرضى بتسعة آلاف ألف ولا بمثلها ومثلها فذكر ثلاثين ألف ألف ويقال مائة ألف ألف وقال أشرس مولى بني اسد وكان تاجراً ليوسف بن عمر أتانا كتاب هشام فقرأه يوسف فكتمنا ما فيه وقال أريد العمرة فخرج وأنا معه واستخلف ابنه الصلت على اليمن فما كلم أحداً منا بكلمة واحدة حتى انتهى إلى العذيب فأناخ وقال يا أشرس أين دليلك فقلت هو ذا فسأله عن الطريق فقال هذه طريق المدينة وهذه طريق العراق فقلت والله ما هي بأيام عمرة فلم يتكلم حتى أناخ بين الحيرة والكوفة في بعض الليل ثم استلقى على ظهره ورفع إحدى

رجليه على الأخرى وقال (فما لشتنا العيس أن قذفت بنا * نوى غربة والعهد غير قديم) ثم قال يا اشرس ابغني إنساناً أسائله فأتيته برجل فقال سله عن ابن النصرانية يعني خالداً القسري فقلت ما فعل خالد قال في الحمة اشتكى فخرج إليها فقال سله عن طارق فقال ختن بنيه فهو يطعم الناس بالحيرة وخليفته عطية بن مقلاص يطعم الناس بالكوفة

105 قال خل عن الرجل ثم ركب فأناخ بالرحبة ودخل المسجد فصلى يوسف ثم استلقى على ظهره فمكثنا ليلاً طويلاً ثم جاء المؤذنون وزياد بن عبيد الله الحارثي يومئذ على الكوفة خليفة لخالد فأذنوا ثم سلموا وخرج زياد فأقيمت الصلاة فذهب زياد ليتقدم فقال يوسف يا أشرس نحه فقلت يا زياد تأخر الأمير فتأخر زياد وتقدم يوسف وكان حسن القراءة فصيحاً فقرأ (إذا وقعت الواقعة) (^ سأل سائل بعذاب واقع) فصلى الفجر وتقدم القاضي فحمد الله وأثنى عليه ودعا للخليفة وقال ما اسم أميركم فأخبر فدعا له بالصلاح فما تفرق أهل الصلاة حتى جاء الناس ولم يبرح يوسف حتى بعث إلى خالد وإلى ابان بن الوليد بفارس وإلى بلال بن أبي بردة بالبصرة وإلى عبد الله بن أبي بردة بسجستان وأمر هشام أن تعزل عمال خالد جميعهم إلا الحكم بن عوانة وكان على السند فأقره حتى قتل هو وزيد بن علي في يوم واحد قتله ناكهر ولما أتى خالد قيل له الأمير يوسف قال دعوني

من أميركم أحي هو أمير المؤمنين قيل نعم فقال لا بأس علي فلما قدم بخالد على يوسف حبسه وضرب يزيد بن خالد ثلاثين سوطاً فكتب هشام إلى يوسف أعطي الله عهداً لئن شاكت خالداً شوكة لأضربن عنقك فخل سبيله بثقله وعياله فأتى الشام فلم يزل مقيماً به يغزو الصوائف حتى مات هشام وقيل إن يوسف استأذن هشاماً في بسط العذاب على خالد فلم يأذن له حتى ألح عليه بالرسل واعتل بانكسار الخراج لما صار إليه وإلى عماله منه فإذن له فيه مرة واحدة وبعث حرسياً يشهد ذلك وحلف لئن أتى على خالد أجله ليقتلنه به فدعا به يوسف وجلس على دكان بالحيرة وحضر الناس وبسط عليه العذاب فلم يكلمه خالد حتى شتمه يوسف وقال يا ابن الكاهن يعني شقاً أحد أجداد خالد وهو الكاهن المشهور قلت كما تقدم في ترجمة خالد قال فقال له خالد إنك لأحمق تعيرني بشرفي لكنك ابن السباء إنما كان أبوك يسبأ الخمر قلت معناه يبيع الخمر قال ثم رد خالداً إلى محبسه فأقام ثمانية عشر شهراً ثم كتب إليه هشام

106 يأمره بتخلية سبيله في شوال سنة إحدى وعشرين ومائة وخرج خالد ومعه جماعة من أهله وغيرهم حتى أتى القرية وهي من أرض الرصافة فأقام بها بقية شوال وذا القعدة وذا الحجة والمحرم وصفر لا يأذن له هشام في القدوم عليه قال الهيثم بن عدي وخرج زيد بن زين العابدين علي بن الحسين بن

علي ابن أبي طالب رضـــي الله عنه على يوســـف بن عمر فكتب يوســـف إلى هشـــام إن أهل هذا البيت من بني هاشم قد كانوا هلكوا جوعاً حتى كانت همة أحدهم قوت يومه فلما ولي خالد العراق قواهم بالأموال حتى تاقت أنفسـهم إلى طلب الخلافة وما خرج زيد إلا بإذن خالد وما مقامه بالقرية إلا لأنها مدرجة الطريق فهو يســأل عن أخباره فقال هشــام للرســول كذبت وكذب صاحبك ومهما اتهمنا به خالداً فإنا لا نتهمه في طاعته وأمر بالرسـول فوجئت عنقه وبلغ الخبر خالداً فصــار إلى دمشـق وقال أبو الحسـن المدائني أمر يوسـف بن عمر ببلال بن أبي بردة بن أبي موســـى الأشــــعري رضـــي الله عنه وكان بلال عامل خالد القســـري على البصـــرة فعذب فضـــمن ثلثمائة ألف درهم وأخذ منه كفلاء فأخفرهم وهرب إلى الشـام فيقال إن غلامه أراد أن يشـتري له دراجاً فعرف ويقال بل شـوى له غلامه دراجاً فأحرقه فضــربه فســعى به فأتي به يوســف بن عمر فأمر به فأقيم في الشـــمس فقال أدنوني من أمير المؤمنين فله علي ما طلب فابى ورده إلى يوســـف فعذبه حتى قتله وقال أخوه عبد الله بن أبي بردة للســجان ارفع اســمي في الموتى فرفعه فقال يوســف أرنيه ميتاً فغمه السـجان حتى مات ويقال بل كان بلال الذي سأل السجان رفع اسمه في الموتى والمقتول في العذاب عبد الله والله أعلم بذلك وقال يونس النحوي ما

قتل بلالاً إلا دهاؤه سأل السجان أن يرفع اسمه في الموتى

107 ويعطيه مالاً فقال يوسف اعرض الموتى علي فغمه حتى مات وعرضه عليه ميتاً وقال المدائني ولى يوسف بن عمر صالح بن كريز ولاية فخرجت عليه ثلاثون ألفاً فحبس بها وبلال بن أبي بردة يومئذ محبوس فقال له بلال إن على العذاب سالما ويلقب رتبيل فإياك أن تقول له رتبيل فإنه يكره ذلك وجعل بلال يردد عليه القول في ذلك فعذبه سالم فنسي اسمه وكنيته وجعل يقول له يا رتبيل اتق الله يا رتبيل اتق الله وكرر عليه القول في ذلك من ألم العذاب وهو يقول اقتل من غيظه عليه فلما خلي عنه قال له بلال الم أنهك عن رتبيل فقال وهل أوقعني في رتبيل غيرك أنا ما كنت أعرف رتبيل لولا أنت وما تدع شرك في سراء ولا ضراء وقال المدائني ايضاً كان على شرط يوسف بن عمر العباس بن سعد المري وكان كاتبه قحذم بن سليمان بن ذكوان وزياد بن عبد الرحمن مولى ثقيف وعلى حرسه وحجابته جندب وفيه يقول الشاعر (أتانا أمير شديد النكال * لحاجب حاجبه حاجب) وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في تاريخ دمشق بلغني أن يوسف بن عمر كان قد أخذ مع آل الحجاج بن يوسف الثقفي ليعذب ويطلب منه المال فقال أخرجوني لأسأل فدفع إلى الحارث بن مالك الجهضمي يطوف به وكان مغفلاً فانتهى به إلى

دار لها بابان فقال يوسف دعني أدخل هذه الدار فإن فيها عمة لي أسألها فأذن له فدخل وخرج من الباب الآخر وهرب وذلك في خلافة سليمان بن عبد الملك وكان يوسف يسلك طرائق ابن عم أبيه الحجاج بن يوسف في الصرامة والشدة في الأمور وأخذ الناس بالمشاق ولم يزل على ذلك إلى حين عزله وذكر عمر بن شبة النميري في كتاب أخبار البصرة أن يوسف بن عمر وزن درهماً فنقص حبة فكتب إلى دور الضرب بالعراق فضرب

108 أهلها فأحصي في تلك الحبة مائة ألف سوط ضربها الناس وكان يوسف مذموماً في عمله أخرق سيء السيرة وكان جواداً فكان يطعم الناس على خمسمائة خوان أقصاها وأدناها سواء يأكل منها الشامي والعراقي وعلى كل خوان فرنية عليها السكر فنفد السكر من فرنية فتكلم أهلها فضرب الخباز ثلثمائة سوط والناس يأكلون فكان الخباز يتخذ الخرائط فيها السكر فكلما نفد زادوا وروى الحكم بن عوانة الكلبي عن أبيه قال لم يؤيد الملك بمثل كلب ولم تعل المنابر بمثل قريش ولم تطلب الترات بمثل تميم ولم ترع الرعايا بمثل ثقيف ولم تسد الثغور بمثل قيس ولم تهج الفتن بمثل ربيعة ولم يجب الخراج بمثل اليمن وقال الأصمعي قال يوسف بن عمر لرجل ولاه عملاً يا عدو الله أكلت مال الله فقال له فمال من آكل منذ خلقت وإلى الساعة والله لو سألت الشيطان درهماً

واحداً ما أعطانيه وكان يوسف بن عمر قد استعمل على خراسان نصر بن سيار الليثي وبقي إلى آخر ايام بني أمية وقضاياه ووقائعه مع أبي مسلم الخراساني مشهورة في مواضعها وفيه وفي يوسف يقول سوار بن الأشعر (أضحت خراسان بعد الخوف آمنة * من ظلم كل غشوم الحكم جبار) (لما أتى يوسفاً أخبار ما لقيت * اختار نصراً لها نصر بن سيار) وقال سماك بن حرب بعث إلي يوسف بن عمر وهو أمير العراق أن عاملاً لي كتب إلي إني قد زرعت لك كل خق ولق فما هما فقلت إن الخق ما اطمأن من الأرض واللق ما ارتفع منها انتهى كلامه قلت وذكر الجوهري في كتاب الصحاح أن الخق الغدير إذا جف وتقلع واللق الشق المستطيل وقيل الخق حفرة غامضة في الأرض والخق بضم الخاء المعجمة وتشديد القاف واللق بضم اللام وتشديد القاف والله أعلم

109 وكان يوسف بن عمر من أعظم الناس لحية وأصغرهم قامة كانت لحيته تجوز سرته وكان يضرب به المثل في التيه والحمق وذكر ذلك حمزة الأصبهاني في كتاب الأمثال فقال قولهم أتيه من أحمق ثقيف هو يوسف ابن عمر كان أتيه أحمق عربي أمر ونهى في دولة الإسلام فمن حمقه أن حجاماً أراد أن يحجمه فارتعدت يده فقال لحاجبه قل لهذا البائس لا تخف وما رضي أن يقول له بنفسه وكان الخياط إذا أراد أن يفصل ثيابه فإن قال يحتاج إلى زيادة ثوب

آخر أكرمه وحباه وإن فضل شيء أهانه وأقصاه لأنه يكون قد نبه على قصـــره ودمامته واســـتمر يوســـف على ولاية العراق بقية مدة هشــــام بن عبد الملك فلما توفي في يوم الأربعاء لســـت خلون من ربيع الآخر ســـنة خمس وعشـــرين ومائة بالرصــــافة من أرض قنسـرين وبها قبره وكان عمره خمساً وخمسين سنة وقيل أربعاً وخمسين وقيل اثنتين وخمسين سنة والله أعلم وكنيته أبو الوليد تولى ابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك بعده فأقر يوســـف ابن عمر على ولايته بالعراق وقتل الوليد المذكور يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة وكان قد عزم على عزل يوسف ابن عمر وتولية عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوســـف الثقفي وكانت أم الوليد بن يزيد المذكور أم الحجاج بنت محمد بن يوســـــف فالحجاج عمها فكتب الوليد إلى يوسف بن عمر إنك قد كنت كتبت إلي تذكر أن خالد بن عبد الله القســـري أخرب العراق وكنت مع ذلك تحمل إلى هشــــام ما تحمل وينبغي أن تكون قد عمرت البلاد حتى رددتها إلى ما كانت عليه فاشخص إلينا وصدق ظننا بك فيما تحمله إلينا بعمارتك البلاد حتى نعرف فضـــلك على غيرك لما بيننا وبينك من القرابة فانك خالنا وأحق الناس بالتوفير علينا وقد علمت ما زدنا لأهل الشام في العطاء وما وصلنا أهل بيتنا به لجفوة هشام إياهم حتى أضر ذلك ببيوت الأموال

110 فخرج يوسف بن عمر بنفسه إلى الوليد بن يزيد وحمل من الأموال والأمتعة والآنية ما لم يحمل من العراق مثله فقدم وخالد بن عبد الله القسري محبوس فلقيه حسان النبطي ليلاً وأخبره أن الوليد قد عزم على تولية عبد الملك بن محمد بن الحجاج وأنه لا بد له من إصلاح أمر وزرائه فقال يوسف ليس عندي شيء فقال له حسان عندي خمسمائة ألف درهم فإن شئت فهي لك وإن شئت فارددها إذا تيسرت فقال له يوسف أنت أعلم بالقوم ومنازلهم من الوليد ففرقها على قدر علمك فيهم ففعل فقدم يوسف والقوم يعظمونه وقرر يوسف بن عمر مع أبان بن عبد الرحمن النميري أن يشتري خالد بن عبد الله القسري بأربعين ألف ألف درهم فقال الوليد ليوسف ارجع إلى عملك فقال أبان له ادفع إلي خالداً وأدفع إليك أربعين ألف ألف درهم فقال الوليد ومن يضمن عنك هذا المال فقال يوسف فقال ليوسف أتضمن عنه فقال يوسف ادفعه إلي فأنا أستأديه خمسين ألف ألف درهم فدفعه إليه فحمله في محمل بغير وطاء وقدم به إلى العراق فقتله كما شرحته في ترجمته ولما قتل الوليد بن يزيد وتولى بعده ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك وأطاعه أهل الشام وانبرم له الأمر ندب لولاية العراق عبد العزيز بن هارون ابن عبد الملك بن دحية بن خليفة الكلبي فقال له عبد العزيز لو كان معي جند لقبلت فتركه وولاها منصور بن جمهور وأما أبو

مخنف فإنه قال قتل الوليد بن يزيد بالبخراء في التاريخ المذكور وبويع يزيد بن الوليد بدمشق وسار منصور بن جمهور من البخراء في اليوم الذي قتل فيه الوليد إلى العراق وهو سابع سبعة فبلغ خبره يوسف بن عمر فهرب وقدم منصور بن جمهور الحيرة في أيام خلت من رجب فأخذ بيوت الأموال وأخرج العطاء لأهل العطاء والأرزاق وولى العمال بالعراق وأقام بقية أيام رجب وشعبان ورمضان وانصرف لأيام بقيت منه ولما هرب يوسف بن عمر سلك طريق السماوة حتى أتى إلى البلقاء فاستخفى بها وكان أهله مقيمين فيها فلبس زي النساء وجلس بينهن

111 وبلغ يزيد بن الوليد خبره فأرسل إليه من يحضره فوصلوا إليه فوجدوه بعد أن فتشوا عليه كثيراً جالساً على تلك الهيئة بين نسائه وبناته فجاء به في وثاق فحبسه يزيد عند الحكم وعثمان ابني الوليد بن يزيد وكان يزيد ابن الوليد قد حبسهما عند قتله أباهما في الخضراء وهي دار بدمشق مشهورة قبلي جامعها وقد خربت الآن ومكانها معروف عندهم ثم إن يزيد بن الوليد عزل منصور بن جمهور عن ولاية العراق وولاها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فأقام يوسف بن عمر في السجن بقية مدة يزيد بن الوليد إلى أن مات في ذي الحجة على الخلاف الكثير فيه هل مات في أول الشهر أو في عاشره أو بعد العاشر أو في سلخ ذي القعدة سنة ست وعشرين ومائة وجعل ولي

عهده أخاه إبراهيم بن الوليد ومن بعده عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك واستمر يوسف بن عمر في سجنه مدة ولاية إيراهيم بن الوليد فجاء مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية بأهل الجزيرة الفراتية وقنسرين وغلب على الأمر وخلع إبراهيم بن الوليد وتولى مكانه وقتل عبد العزيز بن الحجاج ابن عبد الملك وكانت ولاية إبراهيم أربعة أشهر وخلع في شهر ربيع الآخر سنة سبع وعشرين ومائة وقيل كانت ولايته سبعين يوماً لا غير وكان يزيد بن خالد بن عبد الله القسري مع إبراهيم بن الوليد فلما ظهر أمر مروان بن محمد والتقى عسكره وعسكر إبراهيم وهرب عسكر إبراهيم ودخلوا دمشق ومروان وراءهم خافت جماعة إبراهيم أن يدخل مروان فيخرج الحكم وعثمان ابني الوليد من السجن ويجعل لهما الأمر فلا يستبقيا أحداً ممن أعان على قتل أبيهما فأجمع رأيهم على قتلهما فأرسلوا يزيد بن خالد القسري ليتولى فانتدب يزيد المذكور مولى أبيه وهو أبو الأسد في جماعة من أصحابه فدخلوا السجن وشدخوا الغلامين بالعمد وأخرجوا يوسف بن عمر فضربوا عنقه لكونه قتل خالد ابن عبد الله القسري والد يزيد المذكور كما شرحناه في ترجمة خالد وذلك في سنة سبع وعشرين ومائة وهو ابن نيف وستين سنة ولما قتل أخذوا رأسه عن جسده وشدوا في رجليه حبلا فجعل الصبيان يجرونه

112 في شـوارع دمشـق فتمر المرأة به فترى جسـداً صـغيراً فتقول في أي شـيء قتل هذا الصـبي المسكين لما ترى من صـغر جثته قال بعضـهم رأيت يوسـف بن عمر وفي مذاكيره حبل وهو يجر بدمشـق ثم رأيت بعد ذلك يزيد ابن خالد القسـري قاتله وفي مذاكيره حبل وهو يجر في ذلك الموضـع وقد قيل إنه قتل في العشـر الوسـط من ذي الحجة سـنة سـت وعشرين ومائة والله أعلم 844 يوسف بن تاشفين أبو يعقوب يوسـف بن تاشـفين اللمتوني أمير المسـلمين وملك الملثمين وهو الذي اختط مدينة مراكش وقد تقدم في ترجمة المعتمد محمد بن عباد والمعتصم محمد بن صـمادح الملكين ببلاد الأندلس طرف من أخباره وما جرى لهما معه وكيف أخذ بلادهما واستأسر ابن عباد وحبسـه في أغمات وقد اسـتوفيت الكلام عليه هناك ونبهت عليه الآن ليعلم الواقف عليه أن هذا الملك هو ذلك وأنه عظيم الشـان كبير السـلطان ذكر أرباب التواريخ شـيئاً من أحواله فاخترت في هذا الكتاب ما وجدته في كتاب المعرب عن سـيرة ملك المغرب لأنه أوعب في حديثه من غيره لكنه لم يذكر مؤلفه حتى أذكره غير أنه قال في أول النسخة التي

113 نقلت منها هذا الفصـل إنه كتبها في سـنة تسـع وسـبعين وخمسـمائة وفرغ منها في غرة ذي القعدة من السنة بالموصل وهو في مجلد واحد لطيف فاخترت منه مقتضـباً ما مثاله كان بر المغاربة

الجنوني لقبيلة تســـمى زنانة برابر فخرج عليهم من جنوبي المغرب من البلاد المتاخمة لبلاد الســـودان الملثمون يقدمهم أبو بكر ابن عمر منهم وكان رجلاً ســـاذجاً خير الطباع مؤثراً لبلاده على بلاد المغرب غير ميال إلى الرفاهية وكانت ولاة المغرب من زنانة ضـــعفاء لم يقاوموا الملثمين فأخذوا البلاد من أيديهم من باب تلمسان إلى ساحل البحر المحيط فلما حصلت البلاد لأبي بكر ابن عمر المذكور سمع أن عجوزاً في بلاده ذهبت لها ناقة في غارة فبكت وقالت ضيعنا أبو بكر ابن عمر بدخوله إلى بلاد المغرب فحمله ذلك على أن استخلف على بلاد المغرب رجلاً من أصحابه اســـمه يوســـف بن تاشـــفين ورجع إلى بلاده الجنوبية وكان يوســـف هذا رجلاً شـــجاعاً عادلاً مقداماً اختط بالمغرب مدينة مراكش وكان موضـــعها مكمناً للصوص وكان ملكاً لعجوز مصمودية تمدنه منها فلما تمهدت له البلاد تاق إلى العبور إلى جزيرة الأندلس وكانت محصنة بالبحر فأنشأ شواني ومراكب وأراد العبور إليها فلما علم ملوك الأندلس بما يروم من ذلك أعدوا له عدة من المراكب والمقاتلة وكرهوا إلمامه بجزيرتهم إلا أنهم اســـتهولوا جمعه واســـتصـــعبوا مدافعته وكرهوا أن يصـــبحوا بين عدوين الفرنج من شـــماليهم والملثمون من جنوبيهم وكانت الفرنج تشـــد وطأتها عليهم إلا أن ملوك الأندلس كانت ترهب الفرنج باظهار تشد موالاتهم لملك المغرب يوسف بن

تاشفين وكان له اسم كبير لنقله دولة زناته وملك الغرب إليه في اسرع وقت وكان قد ظهر لأبطال الملثمين في المعارك ضربات بالسيوف تقد الفارس وطعنات تنظم الكلى فكان لهم بذلك ناموس ورعب في قلوب المنتدبين لقتالهم وكان ملوك الأندلس يفيئون إلى ظل يوسف بن تاشفين ويحذرونه على

114 ملكهم مهما عبر إليهم وعاين بلادهم فلما رأوا عزيمته متقدمة على العبور أرسل بعضهم إلى بعض وكاتبوهم يستنجدون آراءهم في أمره وكان مفزعهم في ذلك إلى المعتمد بن عباد لأنه كان أشجع القوم وأكبرهم مملكة فوقع اتفاقهم على مكاتبته وقد تحققوا أنه يقصدهم يسألونه الإعراض عنهم وأنهم تحت طاعته فكتب عنهم كاتب من أهل الأندلس كتابا هو أما بعد فانك إن أعرضت عنا نسبت إلى كرم ولم تنسب إلى عجز وإن أجبنا داعيك نسبنا إلى عقل ولم ننسب إلى وهن وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتينا فاختر لنفسك أكرم نسبتيك فانك بالمحل الذي لا يجب أن تسبق فيه إلى مكرمة وإن في استبقائك ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت والسلام فلما جاءه الكتاب مع تحف وهدايا وكان يوسف بن تاشفين لا يعرف اللسان العربي لكنه كان يجيد فهم المقاصد وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية فقال له أيها الملك هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظمونك فيه ويعرفونك أنهم أهل دعوتك وتحت طاعتك

ويلتمسون منك ألا تجعلهم في منزلة الأعادي فإنهم مسلمون وهم من ذوي البيوتات فلا تغير بهم وكفى بهم من وراءهم من الأعداء الكفار وبلدهم ضيق لا يحتمل العساكر فأعرض عنهم إعراضك عمن أطاعك من أهل المغرب فقال يوسف بن تاشفين لكاتبه فما ترى أنت فقال أيها الملك اعلم أن تاج الملك وبهجته وشاهده الذي لا يرد بابه خليق بما حصل في يده من الملك أن يعفو إذا استعفي وأن يهب إذا استوهب وكلما وهب جزيلا كان اعظم لقدره فاذا عظم قدره تأصل ملكه وإذا تأصل ملكه تشرف الناس بطاعته وإذا كانت طاعته شرفا جاءه الناس ولم يتجشم المشقة إليهم وكان وارث الملك من غير إهلاك لآخرته واعلم أن بعض الملوك الأكابر والحكماء البصراء بطريق تحصيل الملك قال من جاد ساد ومن ساد قاد ومن قاد ملك البلاد فلما ألقى الكاتب هذا الكلام إلى يوسف بن تاشفين بلغته فهمه وعلم أنه صحيح فقال للكاتب أجب القوم واكتب بما يجب في ذلك واقرأ

115 علي كتابك فكتب الكاتب بسم الله الرحمن الرحيم من يوسف بن تاشفين سلام عليكم ورحمة الله وبركاته تحية من سالمكم وسلم إليكم وحكمه التأييد والنصر فيما حكم عليكم وإنكم مما بأيديكم من الملك في أوسع إباحة مخصوصون منا بأكرم وإيثار وسماحة فاستديموا وفاءنا بوفائكم واستصلحوا إخاءنا باصلاح إخائكم والله ولي التوفيق لنا ولكم والسلام

فلما فرغ من كتابه قرأه على يوسف بن تاشفين بلسانه فاستحسنه وقرن به يوسف بن تاشفين درقا لمطية مما لا يكون إلا في بلاده قلت اللمطية بفتح اللام وسكون الميم وبعدها طاء مهملة ثم ياء مشددة مثناة من تحتها وبعدها هاء ساكنة هذه النسبة إلى لمطة وهي بليدة عند السوس الأقصى بينها وبين سجلماسة عشرون يوما قاله ابن حوقل في كتاب المسالك والممالك وهي معدن الدرق اللمطية ولا يوجد مثلها في الدنيا على ما يقال والله أعلم قال وأنفذ ذلك إليهم فلما وصلهم كتابه أحبوه وعظموه وفرحوا بولايته ملك المغرب وتقوت نفوسهم على دفع الفرنج وأزمعوا إن رأوا من ملك الفرنج ما يريبهم أن يجيزوا إليه يوسف بن تاشفين ويكونوا من أعوانه على ملك الفرنج فتحصل ليوسف بن تاشفين برأي وزيره ما أراد من محبة أهل الأندلس له وكفاه الحرب لهم وإن الأذفونش بن فرذلند صاحب طليطلة قاعدة ملك الفرنج أخذ يجوس خلال الديار ويفتتح بلاد الأندلس ويشتط على ملوكهم بطلب البلاد منهم وخصوصا المعتمد بن عباد فإنه كان مقصودا فيه وقد تقدم في ترجمة المعتمد ذكر تاريخ أخذه طليطلة والأبيات التي قيلت في ذلك فنظر المعتمد في أمره فرأى أن الأذفونش قد داخله طمع فيما يلي بلاده فأجمع أمره على استدعاء يوسف بن تاشفين على العبور على ما فيه من الخطر وعلم أن مجاورة غير الجنس مؤذنة بالبوار وأن الفرنج والملثمين ضدان له

إلا أنه قال إن دهينا من مداخلة الأضـــداد لنا فأهون الأمرين أمر الملثمين ولأن يرعى أولادنـا جمـالهم أحب إليهم من أن يرعوا خنازير الفرنج ولم يزل هذا الرأي نصب عينيه مهما اضطر إليه

116 وأن الأذفونش خرج في بعض الســنين يتخلل بلاد الأندلس في جمع كبير من الفرنج فخافه ملوك الأنـدلس على البلاد وأجفل أهـل القرى والرســاتيق من بين يديه ولجأوا إلى المعاقل فكتب المعتمد بن عباد إلى يوســف بن تاشــفين يقول له إن كنت مؤثرا للجهاد فهذا اوانه فقد خرج الأذفونش إلى البلاد فأســرع في العبور إليه ونحن معاشــر أهل الجزيرة بين يديك وكان يوســف بن تاشــفين على أتم أهبة فشــرع في عبور عســاكره فلما أبصــر ملوك الأندلس عبور أهل المغرب يطلبون الجهاد وكانوا قد وعدوا من أنفسهم بالمساعدة أعدوا أيضا للخروج فلما رأى الأذفونش اجتماع العزائم على مناجزته علم أنه عام نطاح فاستنفر الفرنجية للخروج فخرجوا في عدد لا يحصــيه إلا الله تعالى ولم تزل الجموع تتألف وتتدارك إلى أن امتلأت جزيرة الأندلس خيلا ورجلا من الفريقين كل أناس قد التفوا على ملكهم فلما عبرت جيوش يوسف بن تاشفين عبر في آخرها وامر بعبور الجمال فعبر منها ما أغص الجزيرة وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء ولم يكن أهل الجزيرة رأوا قط جملا ولا كانت خيلهم قد رأت صورها ولا سمعت أصواتها

وكانت تذعر منها وتقلق وكان ليوسف بن تاشفين في عبورها رأي مصيب كان يحدق بها معسكره وكان يحضرها الحرب فكانت خيل الفرنج تحجم عنها فلما تكاملت العساكر بالجزيرة قصدت الأذفونش وكان نازلا بمكان أفيح من الأرض يسمى الزلاقة بالقرب من بطليوس قال البياسي بين المكانين أربعة فراسخ وقال أيضا إن يوسف بن تاشفين قدم بين يدي حربة كتابا على مقتضى السنة يعرض عليه الدخول في الإسلام أو الحرب أو الجزية ومن فصول كتابه وبلغنا يا أذفونش أنك دعوت في الاجتماع بك وتمنيت أن يكون لك فلك تعبر البحر عليها إلينا فقد أجزناه إليك وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك وسترى عاقبة دعائك (^ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) غافر 50 فلما سمع الأذفونش ما كتب إليه جاش بحر غيظه وزاد في طغيانه وأقسم أنه لا يبرح من موضعه حتى يلقاه

117 ثم إن ابن تاشفين ومن معه قصدوا الزلاقة فلما وافاها المسلمون نزلوا تجاه الفرنج بها فاختار المعتمد بن عباد أن يكون هو المصادم لهم أولا وأن يكون يوسف بن تاشفين إذا انهزم المعتمد بعسكره بين أيديهم وتبعوه يميل عليهم بعساكره وتتألف معه عساكر الأندلس فلما عزموا على ذلك وفعلوه خذل الفرنج وخالطتهم عساكر المسلمين واستحر القتل فيهم فلم يفلت منهم غير الأذفونش في دون الثلاثين من

أصحابه فلحق ببلده على أسوأ حال فغنم المسلمون من أسلحته وخيله وأثاثه ما ملأ أيديهم خيرا قلت وكانت الوقعة في يوم الجمعة الخامس عشر من رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة وقيل في شهر رمضان في العشر الأواخر من السنة والله أعلم وقال البياسي كان حلول العساكر الإسلامية بالجزيرة الخضراء في المحرم سنة تسع وسبعين وأربعمائة فحكي أن موضع المعترك على اتساعه ما كان فيه موضع قدم إلا على جسد أو دم وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام حتى جمعت الغنائم فلما حصلت عف عنها يوسف بن تاشفين وآثر بها ملوك الأندلس وعرفهم ان مقصوده إنما كان الغزو لا الذهب فلما رأت ملوك الأندلس إيثار يوسف ابن تاشفين لهم بالمغانم استكرموه وأحبوه وشكروا له ثم إن يوسف بن تاشفين أزمع الرجوع إلى بلاده وكان عند قصده ملاقاة الأذفونش تحرى المسير بالعراء من غير أن يمر بمدينة أو رستاق حتى نزل الزلاقة تجاه الأذفونش وهناك اجتمع بعساكر الأندلس وذكر أبو الحجاج يوسف بن محمد البياسي في كتاب تذكير العاقل وتنبيه الغافل أن ابن تاشفين نزل على أقل من فرسخ من عسكر العدو في يوم الأربعاء وكان الموعد في المناجزة يوم السبت الأدنى فغدو الأذفونش ومكر فلما كان سحر يوم الجمعة منتصف رجب من العام أقبلت طلائع ابن عباد والروم في أثرها والناس على طمأنينة

فبادر ابن عباد للركوب وانبث الخبر في العساكر فماجت بأهلها ووقع البهت ورجفت الأرض وصارت الناس

118 فوضى على غير تعبية ولا أهبة ودهمتهم خيل العدو فقمرت ابن عباد وحطمت ما تعرض لها وتركت الأرض حصيداً خلفها وصرع ابن عباد وأصابه جرح أشواه وفر رؤساء الأندلس وأسلموا محلاتهم وظنوا أنها وهية لا ترفع ونازلة لا تدفع وظن الأذفونش أن أمير المسلمين في المنهزمين ولم يعلم أن العاقبة للمتقين فركب أمير المسلمين وأحدق به أنجاد خيله ورجاله من صنهاجة ورؤساء القبائل فعمدوا إلى محلة الأذفونش فاقتحموها ودخلوها وقتلوا حاميتها وضربت الطبول فاهتزت الأرض وتجاوبت الآفاق وتراجع الروم إلى محلتهم بعد أن علموا أن أمير المسلمين فيها فصدموا أمير المسلمين فافرج لهم عنها ثم كر فأخرجهم منها ثم كروا عليه فأفرج لهم عنها ولم تزل الكرات بينهم تتوالى إلى أن أمر أمير المسلمين حشمة السودان فترجل منهم زهاء أربعة آلاف ودخلوا المعترك بدرق اللمط وسيوف الهند ومزاريق الزان فطعنوا الخيل فرمحت بفرسانها وأحجمت عن أقرانها وتلاحق الأذفونش بأسود نفدت مزاريقه بالقذف فأهوى ليضربه بالسيف فلصق به الأسود وقبض على أعنته وانتضى خنجراً كان منتطقاً به فأثبته في فخذه فهتك حلق درعه وشك فخذه مع

بداد ســـرجه وكان وقوت الزوال من ذلك اليوم فهبت ريح النصـر وأنزل الله سكينته على المسلمين ونصـر دينـه وصـــدقوا الحملـة على الأذفونش وأصـــحـابـه فــأخرجوهم عن محلتهم فولوا ظهورهم وأعطوا أعناقهم والسيوف تصفعهم إلى أن لحقوا بربوة لجأوا إليها واعتصموا بها وأحدقت بهم الخيل فلما أظلم الليل انســاب الأذفونش وأصــحابه من الربوة وأفلتوا بعدما نشبت فيهم أظفارهم واستولى المسلمون على ما كان في محلتهم من الأثاث والآنية والمضــارب والأسـلحة وأمر ابن عباد بضـــم رءوس قتلى الروم فنشـــر منها أمامه كالتل العظيم ثم كتب ابن عباد إلى ولده الرشـــيد كتاباً وأطار به الحمام يوم السبت سادس عشر المحرم يخبره بالنصـــر وقد روي أيضـــاً أن أمير المســـلمين طلـب من أهل البلاد المعونـة على مـا هو بصــــدده فوصـــل كتابه إلى المرية في هذا المعنى وذكر فيه أن جماعة أفتوه

119 بجواز طلب ذلك اقتداء بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال أهل المرية لقاضي بلدهم وهو ابو عبد الله ابن الفراء أن يكتب جوابه وكان هذا القاضـــي من الدين والورع على ما ينبغي فكتب إليه أما بعد ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخري عن ذلك وأن ابا الوليد الباجي وجميع القضـــاة والفقهاء بالعدوة والأندلس أفتوا بأن عمر بن الخطاب رضـــي الله عنه اقتضـاها وكان صـاحب رسول الله وضـجيعه

في قبره ولا يشـــك في عدله فليس أمير المســـلمين بصـاحب رسـول الله ولا بضـجيعه في قبره ولا من لا يشـــك في عدله فان كان الفقهاء والقضـــاة أنزلوك بمنزلته في العدل فالله ســـائلهم عن تقلدهم فيك وما اقتضـاها عمر حتى دخل مسـجد رسـول الله وحلف أن ليس عنده درهم واحد من بيت مال المســـلمين ينفقه عليهم فلتدخل المسجد الجامع هنالك بحضرة أهل العلم وتحلف أن ليس عندك درهم واحد ولا في بيت مـال المسلمين وحينئذ تسـتوجب ذلك والسـلام ولما قضـى أمير المسـلمين من هذه الوقعة ما قضــى أمر عسـاكره بالمقام وأن تشن الغارات على بلاد الفرنج وأمر عليهم سـير ابن أبي بكر وطلب الرجوع في طريقه فتكرم له المعتمد بن عباد فعرج به إلى بلاده وســـأله أن ينزل عنده فأجابه يوســـف إلى ذلك فلما انتهى إلى إشـــبيلية مدينة المعتمد وكانت من أجمل المدن منظراً ونظر إلى موضـــوعها على نهر عظيم مســـتبحر تجري فيه السفن بالبضـائع جالبة من بر المغرب وحاملة إليه فر في غربية رستاق عظيم مسيرة عشرين فرسخاً يشتمل على آلاف من الضــياع كلها تين وعنب وزيتون وهذا الموضـــع هو المســـمى شـــرف إشـــبيلية وتمير بلاد المغرب كلها من هذه الأصـــناف وفي جانب المدينة قصور المعتمد وأبيه المعتضد في غاية الحسن والبهاء وفيها أنواع ما يحتاج إليه من المطعوم والمشـــروب والملبوس والمفروش وغير ذلك فأنزل المعتمد يوسف

بن تاشــــفين في أحدها وتولى من إكرامه وخدمته ما أوســـع شـــكر ابن تاشــفين له وكان مع ابن تاشـــفين أصحاب له ينبهونه على تأمل تلك الحال وما هي عليه من النعمة والإتراف

120 ويغرونه باتخاذ مثلها لنفسه ويقولون له إن فـائدة الملـك قطع العيش فيـه بـالتنعم واللـذة كمـا هو المعتمد وأصحابه وكان يوسف بن تاشفين مقتصداً في أموره غير متطـاول ولا مبـذر متنوق في صـــنوف الملاذ بالأطعمة وغيرها وكان قد ذهب صـــدر عمره في بلاده في شـــظف العيش فأنكر على مغريه بذلك الإســـراف وقال الذي يلوح من أمر هذا الرجل يعني المعتمد أنـه مضـــيع لمـا في يـده من الملـك لأن هـذه الأموال التي تعينـه على هـذه الأحوال لا بـد أن يكون لهـا أربـاب لا يمكن أخـذ هـذا القـدر منهم على وجـه العدل أبـداً فـأخـذه بـالظلم وأخرجـه في هـذه الترهـات وهذا من افحش الاســـتهتار ومن كانت همته في هذا الحد من التصـرف فيما لا يعدو الاجوفين متى يسـتجد همة في حفظ بلاده وضـــبطها وحفظ رعيته والتوفر على مصـــالحها ثم إن يوســف بن تاشــفين ســأل عن أحوال المعتمد في لذاته هل تختلف فتنقص عما هي عليه في بعض الأوقات فقيل له بل كل زمانه على هذا قال أفكل أصـحابه وأنصـاره على عدوه ومنجديه على الملـك ينـال حظـاً من ذلـك قـالوا لا قـال فكيف ترون رضـــاهم عنه قالوا لا رضـــا لهم عنه فاطرق يوســـف

وسكت فأقام يوسف عند المعتمد على تلك الحال أياما وفي بعض تلك الأيام استأذن رجل على المعتمد فدخل وهو ذو هيئة رثة وكان من أهل البصائر فلما دخل عليه قال له أصلحك الله أيها الملك إن من أوجب الواجبات شكر النعمة وإن من شكر النعمة إهداء النصائح وإني رجل من رعيتك حالي في دولتك إلى الاختلال أقرب منها إلى الاعتدال لكنني ملتزم لك من النصيحة ما يستوجبه الملك على رعيته فمن ذلك خبر وقع في أذني من بعض أصحاب ضيفك هذا يوسف بن تاشفين يدل على أنهم يرون أنفسهم وملكهم أحق بهذه النعمة منك وقد رأيت رأيا فإن آثرت الإصغاء إليه قلته قال له المعتمد قله قال رأيت أن هذا الرجل الذي أطلعته على ملكك رجل مستأسد على الملوك قد حطم ببر العدوة زناتة وأخذ الملك من أيديهم ولم يبق على أحد منهم ولا يؤمن أن يطمح إلى الطماعية في ملكك بل في ملك جزيرة الأندلس كلها بما قد عاينه من بلهنية

121 عيشك وإنه لمتخيل في مثل حالك سائر ملوك الأندلس وإن له من الولد والأقارب ممن يؤثر مسراتهم من يود له الحلول بما أنت فيه من خصب الجناب وقد أودى الأذفونش وجيشه واستأصل شأفتهم وأعدمك منه أقوى ناصر عليه لو احتجت إليه فقد كان لك منه أقوى عضد وأوقى مجن وبعد أن فات الأمر في الأذفونش لا يفتك الحزم فيما هو ممكن اليوم قال

لـه المعتمـد ومـا هو الحزم اليوم قـال أن تجمع أمرك على قبض ضـــيفك هذا واعتقاله في قصـــرك وتجزم أنك لا تطلقه حتى يأمر كل من بجزيرة الأندلس من عســـكره أن يرجع من حيث جاء حتى لا يبقى منهم بـالجزيرة طفـل ثم تتفق أنــت وملوك الجزيرة على حراسة هذا البحر من سفينة تجري فيه بغزاة له ثم بعد ذلك تستحلفه بأغلظ الإيمان ألا يضمر في نفسـه عوداً إلى هذه الجزيرة إلا باتفاق منكم ومنه وتأخذ منه على ذلك رهائن فإنه يعطيك من ذلك ما تشــاء فنفســـه أعز عليه من جميع ما تلتمس منه فعند ذلك يقنع هذا الرجل ببلاده التي لا تصـــلح إلا له وتكون قد اســـترحت منه بعدما استرحت من الأذفونش وتقيم في موضعك على خير حــال ويرتفع ذكرك عنـد ملوك الأنـدلس وأهـل الجزيرة ويتســـع ملكك وتنســـب بهذا الاتفاق لك إلى ســـعادة وحزم وتهابك الملوك ثم اعمل بعد هذا ما يقتضـــيه حزمك في محاورة من عاملته هذه المعاملة واعلم أنه قد تهيأ لك من هذا أمر سـماوي تتفانى الأمم وتجري بحار الدم دون حصـــول مثله فلما ســـمع المعتمد كلام الرجل استصـوبه وجعل يفكر في انتهاز هذه الفرصـــة وكان للمعتمد ندماء قد انهمكوا معه في اللذات فقال أحدهم لهذا الرجل الناصح ما كان المعتمد على الله وهو إمام أهل المكرمات ممن يعامل بالحيف ويغدر بالضـــيف فقال له الرجل إنما الغدر أخذ الحق من يد صـــاحبه لا دفع الرجل عن نفســـه المحذور إذا

ضــاق به قال ذلك النديم لضــيم مع وفاء خير من حزم مع جفاء ثم إن ذلك الناصـــح اســتدرك الأمر وتلافاه فشكر له المعتمد ووصله بصلة وانصرف واتصل هذا الخبر بيوسف بن تاشفين فأصبح عادياً فقدم له المعتمد الهدايا السنية والتحف الفاخرة فقبلها

122 ثم رحل فعبر من الجزيرة الخضـــراء إلى ســبتة قلت وهو المكان المعروف بزقاق ســبتة يعدي الناس فيه من أحد البرين إلى الآخر أعني بر الأندلس وبر العدوة وقد تقدم الكلام على هذا المكان قال ولما عبر يوســـف إلى بر العدوة اقام عســـكره بجزيرة الأندلس ريثما اســـتراح ثم تبع آثار الأذفونش فتوغل في بلاده ولما رجع الأذفونش إلى موضـــعه ســـأل عن أصـــحابه وشــجعانه وأبطال عســكره فوجد أكثرهم قد قتلوا ولم يســـمع إلا نياح الثكالى عليهم فلم يأكل ولم يشـــرب حتى مات هماً وغماً ولم يخلف إلا بنتاً جعل الأمر إليها فتحصــنت بمدينة طليطلة وأما عسـكر ابن تاشـفين فإنهم في غارتهم هذه كسـبوا من المغانم ما لا يحد ولا يوصــف وأنفذوا ذلك إلى بر العدوة واســتأذن أميرهم سير ابن أبي بكر يوسف بن تاشفين في المقام بجزيرة الأندلس وأعلمه أنه قد افتتح معاقل في الثغور ورتب بها مســـتحفظين ورجالاً يغنون فيها وأنه لا يســـتقيم لهذه الجيوش أن تقيم بالثغور في ضـــنك من العيش تصــابح العدو وتماســيه وتحظى ملوك الأندلس من الأرياف برغد العيش فكتب إليه ابن تاشـفين يأمره

باخراج ملوك الأندلس من بلادهم وإلحاقهم بالعدوة فمن استعصى عليه منهم قاتله ولا ينفس عنه حتى يخرجه وليبدأ منهم بمجاوري الثغور ولا يتعرض للمعتمد بن عباد ما لم يستول على البلاد ثم يولي تلك البلاد أمراء عسكره وأكابرهم فابتدأ سير ابن أبي بكر بملوك بني هود من ملوك الأندلس ليستنزلهم من معقلهم وهي روطة قلت هي بضم الراء وسكون الواو ثم طاء مهملة بعدها هاء قلعة منيعة من عاصمات الذرا ماؤها ينبوع في أعلاها وكان بها من الأقوات والذخائر المختلفات ما لا تفنيه الأزمان فلم يقدر عليها فرحل عنها ثم جند أجناداً على صور الفرنج وأمرهم أن يقصدوا هذه القلعة مغيرين عليها ويكمن هو وأصحابه بالقرب منها ففعلوا ذلك فرآهم صاحب القلعة فاستضعفهم ونزل في طلبهم فخرج سير ابن أبي بكر فقبض عليه وتسلم القلعة ثم نازل بني طاهر بشرق الأندلس فسلموا إليه ولحقوا بالعدوة ثم نازل بني صمادح بالمرية وكانت قلعتهم حصينة
123 إلا أنهم لم يكن عندهم أجناد ولا أنجاد من الرجال فزحفوا عليهم وغلبوهم فلما علم المعتصم بن صمادح أنه مغلوب دخل قصره فأدركه أسف قضى عليه فمات من ليلته فاشتغل أهله به فسلموا المدينة ثم نازلوا المتوكل عمر بن الأفطس ببطليوس وكان رجلاً شجاعاً عظيم القدر كبير البيت وكان أبوه المظفر بالله أبو بكر محمد بن عبد الله بن مسلمة

التجيبي من فحول العلماء وكان ملكاً له تصـــانيف أعظمها وأشهرها الكتاب المنسوب إليه وهو المظفري في علم التاريخ وكانت مدينته بطليوس من أجمل البلاد لم يذعن ولا أقبل على غير المدافعة والقتال إلى أن خامر عليه أصحابه فقبض عليه باليد وعلى ولدين له فقتلوا صـبراً وحمل أولاده الأصــاغر إلى مراكش وســائر ملوك الجزيرة سـلموا وتحولوا إلى بر العدوة إلا ما كان من المعتمد بن عباد فإن ســير ابن أبي بكر لما فرغ من ملوك الجزيرة كتب إلى يوسف بن تاشفين أنه لم يبق بالجزيرة من ملوكها غير المعتمد بن عباد فارســم في أمره بما تراه فأمره بقصـــده وأن يعرض عليه التحول إلى بر العدوة بأهله وماله فإن فعل فبها ونعمت وإن أبى فنازله فلما عرض عليه سير ابن أبي بكر ذلك لم يعطه جواباً فنازله وحاصــره اشـــهراً ثم دخل عليه البلد قهراً واســتخرجه من قصــره قســراً فحمل إلى العدوة مقيداً فأنزل بأغمات وأقام بها إلى أن مات ولم يعتقل من ملوك الأندلس غيره وتسـلم سـير ابن أبي بكر الجزيرة كلها واســتحوذ عليها فمات يوسف بن تاشفين في التاريخ الآتي ذكره إن شاء الله تعالى وأفضـــى الملك إلى ولده أبي الحســن علي بن يوســف وكان رجلا حليماً وقوراً صـــالحاً عدلاً منقاداً للحق والعلماء تجبى إليـه الأموال من البلاد لم يزعزعه عن ســـريره قط حادث ولا طاف به مكروه قلت قد تقدم في ترجمة أبي نصـــر الفتح بن محمد بن

عبيد الله بن خاقان القيسـي صـاحب قلائد العقيان أنه جمع الكتاب المذكور باسـم إبراهيم بن يوسـف بن تاشفين

124 وأن الذي أشـار بقتل الفتح المذكور هو علي بن يوسف بن تاشفين المذكور ثم ولي بعده ولده تاشـفين بن علي بن يوسـف وعلى يده انقرض ملكهم وسيأتي شرح ذلك مفصلاً إن شاء الله تعالى وقد تقدم في أوائل هذه الترجمة أن يوسف بن تاشفين هو الذي اختط مدينة مراكش قال صـاحب هذا الكتاب الذي نقلت منه هذه الترجمة في آخر الكتاب إن مراكش مدينة عظيمة بناها الأمير يوسف بن تاشفين بموضع كان اسمه مراكش معناه امش مسرعاً بلغة المصامدة كان ذلك الموضع مأوى اللصوص وكان المارون فيه يقولون لرفقائهم هذه الكلمة فعرف الموضع بها وقال غير مؤلف هذا الكتاب بنى ابن تاشفين مدينة مراكش في سنة خمس وستين وأربعمائة قاله أبو الخطاب ابن دحية في كتابه الذي سـماه النبراس في خلافة القائم بأمر الله قال وكانت مزرعة لأهل نفيس فاشـتراها منهم بماله الذي خرج به من الصـحراء ونفيس بفتح النون وتشديد الفاء وسكون الياء المثناة من تحتها جبل مطل على مراكش قلت وهي بنواحي أغمات في المغرب الأقصـى وذلك أنه لما توطنت نفسـه على الملك وأطاعته قبائل البربر وذهب من يخالفه من لمتونة سـمت همته إلى بناء هذه المدينة وكان في

موضعها قرية صغيرة في غابة من الشجر وبها قوم من البربر فاختطها يوسف وبنى بها القصور والمساكن الأنيقة وهي في مرج فسيح وحولها جبال على فراسخ منها وبالقرب منها جبل لا يزال عليه الثلج وهو الذي يعتدل مزاجها وحرها وفي سنة أربع وستين وأربعمائة نزل يوسف على مدينة فاس وكانت إذ ذاك من قواعد بلاد المغرب العظام وضيق على أهلها ثم أخذها فأقر العامة بها ونفى البربر والجند بعد أن حبس بعضهم وقتل بعضهم فعند ذلك قوي شأنه وتمكن بالمغرب الأقصى والأدنى سلطانه مع ما صار بيده من بلاد جزيرة الأندلس كما شرحناه وكان حازماً سائساً للأمور ضابطاً

125 لمصالح مملكته مؤثراً لأهل العلم والدين كثير المشورة لهم وبلغني أن الإمام حجة الإسلام أبا حامد الغزالي تغمده الله تعالى برحمته لما سمع ما هو عليه من الأوصاف الحميدة وميله إلى أهل العلم عزم على التوجه إليه فوصل إلى الإسكندرية وشرع في تجهيز ما يحتاج إليه فوصله خبر وفاته فرجع عن ذلك العزم وكنت وقفت على هذا الفصل في بعض الكتب وقد ذهب عني في هذا الوقت أين وجدته وكان يوسف معتدل القامة أسمر اللون نحيف الجسم خفيف العارضين دقيق الصوت وكان يخطب لبني العباس وهو أول من تسمى بأمير المسلمين ولم يزل على حاله وعزه وسلطانه إلى أن توفي يوم الاثنين لثلاث

خلون من المحرم سنة خمسمائة وعاش تسعين سنة ملك منها مدة خمسين سنة رحمه الله تعالى وذكر شيخنا عزالدين بن الأثير في تاريخه الكبير ما مثاله سنة خمسمائة فيها توفي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ملك المغرب والأندلس وكان حسن السيرة خيراً عادلاً يميل إلى أهل العلم والدين ويكرمهم ويحكمهم في بلاده ويصدر عن آرائهم وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام فمن ذلك أن ثلاثة نفر اجتمعوا فتمنى أحدهم ألف دينار يتجر بها وتمنى الآخر عملا يعمل فيه لأمير المسلمين وتمنى الآخر زوجته وكانت أحسن من النساء ولها الحكم في بلاده فبلغه الخبر فأحضرهم وأعطى متمني المال ألف دينار واستعمل الآخر وقال للذي تمنى زوجته يا جاهل ما حملك على هذا الذي لا تصل إليه ثم أرسله إليها فتركته في خيمة ثلاثة أيام تحمل إليه في كل يوم طعاماً واحداً ثم أحضرته وقالت له ما أكلت في هذه الأيام قال طعاماً واحداً فقالت له كل النساء شيء واحد وأمرت له بمال وكسوة وأطلقته (385) وأما ولده علي المذكور فانه توفي لسبع خلون من رجب سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ومولده في حادي عشر رجب سنة ست وسبعين وأربعمائة

126 وقد سبق ذكر طرف من حديثه في ترجمة محمد بن تومرت المهدي فيكشف عنه ولما خرج عبد المؤمن بن علي المقدم ذكره قاصداً جهة البلاد

المغربية ليأخذها من علي بن يوسف بن تاشفين المذكور كان مسيره على طريق الجبال فسير علي بن يوسف ولده تاشفين ليكون في قبالة عبد المؤمن ومعه جيش فساروا في السهل وأقاموا على هذا مدة فتوفي علي بن يوسف في أثنائها في التاريخ المذكور فقدم أصحابه ولده إسحاق بن علي وجعلوه نائب أخيه تاشفين على مراكش وكان صبياً وظهر أمر عبد المؤمن ودانت له الجبال وفيها غمارة وتالدة والمصامدة وهم أمم لا تحصى فخاف تاشفين بن علي واستشعر القهر وتيقن أن دولتهم ستزول فأتى مدينة وهران وهي على البحر وقصد أن يجعلها مقره فإن غلب عن الأمر ركب منها في البحر إلى برالأندلس يقيم بها كما أقامت بنو أمية بالأندلس عند انقراض دولتهم بالشام وبقية البلاد وفي ظاهر وهران ربوة على البحر تسمى صلب الكلب وبأعلاها رباط يأوي إليه المتعبدون وفي ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة صعد تاشفين إلى ذلك الرباط ليحضر الختم في جماعة يسيرة من خواصه وكان عبد المؤمن بجمعه في تاجرة وهي وطنه كما ذكرته في ترجمته واتفق أنه أرسل منسراً إلى وهران فوصلوها في اليوم السادس والعشرين من شهر رمضان ومقدمهم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى صاحب المهدي فكمنوا عشية وأعلموا بانفراد تاشفين في ذلك الرباط فقصدوه وأحاطوا به وأحرقوا

بابه فأيقن الذين فيه بالهلاك فخرج تاشفين راكباً فرسه وشــد الركض عليه ليثب الفرس النار وينجو فترامى الفرس نازيا لروعته ولم يملكه اللجام حتى تردى من جرف هنالك إلى جهة البحر على حجارة في وعر فتكسـر تاشـفين وهلك في الوقت وقتل الخواص الذين كانوا معه وكان عســكره في ناحية أخرى لا علم لهم بما جرى في الليل

127 وجاء الخبر بذلك إلى عبد المؤمن فوصل إلى وهران وســمى ذلك الموضــع الذي فيه الرباط صــلب الفتح ومن ذلك الوقت نزل عبد المؤمن من الجبل إلى الســهل ثم توجه إلى تلمســان وهي مدينتان قديمة ومحدثة بينهما شــوط فرس ثم توجه إلى فاس فحاصرها وأخذها في سنة أربعين وخمسمائة ثم قصد مراكش في سنة إحدى وأربعين فحاصرها أحد عشر شــهراً وفيها إســحاق بن علي وجماعة من مشــايخ دولتهم قدموه بعد موت أبيه علي بن يوسف بن تاشفين نائباً عن أخيه تاشـفين فأخذها وقد بلغ القحط من أهلها الجهد وأخرج إليه إســحاق بن علي ومعه ســير بن الحاج وكان من الشــجعان وخواص دولتهم وكانا مكتوفين وإســحاق دون البلوغ فعزم عبد المؤمن أن يعفو عن إسحاق لصغر سنه فلم يوافقه خواصه وكان لا يخالفهم فخلى بينهم وبينهما فقتلوهما ثم نزل عبد المؤمن في القصــر وذلك في ســنة اثنتين وأربعين وخمســمائة وانقرضــت دولة بني تاشــفين قلت وقد

ذكرت في ترجمة المعتمد بن عباد أن يوسف بن تاشفين عاد إلى الأندلس في العام الثاني من وقعة الزلاقة وذكرت ها هنا ما يدل على أنه ما عاد إليها وإنما نوابه هم الذين أخذوا بلاد الأندلس له فقد يعتقد الواقف على هذا الكتاب أن هذا متناقض والعذر في هذا أنني وجدته في ترجمة ابن عباد على تلك الصورة ووجدته في هذه الترجمة على هذه الصورة والله أعلم بالصواب ثم رأيت في كتاب تذكير العاقل تأليف أبي الحجاج يوسف البياسي أن ابن تاشفين لما جاز البحر قصد إشبيلية فخرج ابن عباد إلى لقائه ومعه الضيافة والإقامة ثم خرج من إشبيلية بقضه وقضيضه قاصداً بطليوس وجرت الواقعة المذكورة ثم عاد ابن تاشفين إلى بلاده وان ابن عباد جاز البحر ومضى إليه في سنة إحدى وثمانين واستنجده على ما يجاوره من بلاد العدو فأكرمه ابن تاشفين وأجابه إلى إنجاده ثم عاد ابن عباد إلى بلاده واستعد للعدو ولحقه ابن تاشفين في رجب من سنة إحدى وثمانين ثم خرج الأذفونش في جيش كثيف وكان ملوك الأندلس قد اجتمعوا عند
128 ابن تاشفين فلما رأى ما فعله من الاستعداد بالجمع الكثير رحل عن مكانه وأوهمه خواصه أن ملوك الأندلس يفرون عنه ويخلون بينه وبين الأذفونش فأصغى إلى كلامهم وعمل في نفسه قولهم فأخذ في الحركة إلى البرية وتحرك الجميع بحركته وجاز البحر عائداً إلى بلاده وقد وغر صدره على

ملوك الأندلس وتبين لهم تغيره عليهم وخافوه فشرعوا في تحصين بلادهم وتحصيل القوات وراسل بعضهم الأذفونش ليكون عوناً له خوفاً من ابن تاشفين فأجابه الأذفونش بالإعانة والمساعدة وكان قد سير له هدايا وألطافاً كثيرة فقبلها منه وحلف له على جميع ما التمس منه واتصل ذلك بابن تاشفين فاستشاط غيظاً ثم إبن تاشفين جاز البحر مرة ثالثة وقصد قرطبة وهي لابن عباد فوصلها في جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وقد سبقه إليها ابن عباد فخرج إليه بالضيافة وجرى معه على عادته ثم ان ابن تاشفين أخذ غرناطة من صاحبها عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس وحبسه فطمع ابن عباد في غرناطة وأن ابن تاشفين يعطيه إياها فعرض له بذلك فأعرض عنه ابن تاشفين وخاف ابن عباد منه وعمل على الخروج عنه فقال له إنه جاءته كتب من إشبيلية وهم خائفون من العدو المجاور لهم واستأذنه في العود إليها فأذن له فعاد ثم رجع ابن تاشفين إلى بلاده وجاز البحر في شهر رمضان من سنة ثلاث وثمانين وأقام ببلاده إلى أن دخلت سنة أربع وثمانين ثم عزم على العبور إلى الأندلس لمنازلة ابن عباد وبلغ ذلك ابن عباد فأخذ في التأهب والاستعداد ووصل ابن تاشفين إلى سبتة وجمع العساكر الكثيرة وقدم عليهم سير بن أبي بكر فجازوا البحر وضايقوا بلاد ابن عباد فاستصرخ بالأذفونش فلم يلتفت إليه وكان ما ذكرته والله أعلم وفي هذه

الترجمة ذكر الملثمين فيحتاج إلى الكلام عليه والذي
وجدته أن أصـــل هؤلاء القوم من حمير بن سـبأ وهم
أصـــحاب خيل وإبل وشـــاء ويســـكنون الصـــحارى
الجنوبيـة وينتقلون من مـاء إلى مـاء كـالعرب وبيوتهم
من الشـــعر والوبر وأول من جمعهم وحرضـــهم على
القتال وأطعمهم في تملك
129 البلاد عبد الله بن ياســـين الفقيه وقتل في
حرب جرت مع برغواطـة وقـام مقـامـه أبو بكر ابن
عمر الصـــنهاجي الصـــحراوي المقدم ذكره ومات في
حرب الســـودان وقد ذكرنا حديث يوسـف بن تاشـفين
وسبب تقدمه وهو الذي سمى أصحابه المرابطين وهم
قوم يلتثمون ولا يكشـــفون وجوههم فلذلك ســـموهم
الملثمين وذلك ســـنة لهم يتوارثونها خلفاً عن ســـلف
وســـبب ذلك على ما قيل أن حمير كانت تتلثم لشـــدة
الحر والبرد يفعله الخواص منهم فكثر ذلك حتى صار
يفعله عامتهم وقيل كان ســـببه أن قوماً من أعدائهم
كانوا يقصـــدون غفلتهم إذا غابوا عن بيوتهم فيطرقون
الحي فيـأخذون المـال والحريم فـأشـــار عليهم بعض
مشـــايخهم أن يبعثوا النســـاء في زي الرجال إلى ناحية
ويقعدوا هم في البيوت ملثمين في زي النســـاء فـإذا
أتاهم العدو ظنوهم النساء فيخرجون عليهم ففعلوا ذلك
وثاروا عليهم بالسـيوف فقتلوهم فلزموا اللثام تبركاً بما
حصـل لهم من الظفر بالعدو وقال شـيخنا الحافظ عز
الدين ابن الأثير في تاريخه الكبير ما مثاله وقيل إن

سـببب اللثام لهم أن طائفة من لمتونة خرجوا مغيرين على عدو لهم فخالفهم العدو إلى بيوتهم ولم يكن بها إلا المشايخ والصبيان والنساء فلما تحقق المشايخ أنه العدو أمروا النســاء أن تلبس ثياب الرجال ويتلثمن ويضـيقنه حتى لا يعرفن ويلبسن السـلاح ففعلن ذلك وتقدم المشــايخ والصــبيان أمامهن واسـتدار النســاء بالبيوت فلما اشــرف العدو رأى جمعاً عظيماً فظنه رجالاً وقالوا هؤلاء عند حريمهم يقاتلون عنهن قتال الموت والرأي أن نســوق النعم ونمضـــي فإن اتبعونا قاتلناهم خارجاً عن حريمهم فبينما هم في جمع النعم من المراعي إذ أقبل رجال الحي فبقي العدو بينهم وبين النســاء فقتلوا من العدو وأكثروا وكان من قبل النساء أكثر فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه فلا يعرف الشيخ من الشاب ولا يزيلونه ليلاً ولا نهاراً

130 ومما قيل في اللثام (قوم لهم درك العلا في حمير * وإن انتموا صنهاجة فهم هم) (لما حووا إحراز كل فضـــيلة * غلب الحياء عليهم فتلثموا) وكان يوسف بن تاشفين مقدم جيش أبي بكر ابن عمر الصـــنهاجي وخرج من ســـجلماســـة في ســـنة اربع وخمســـين وأربعمائة وكان أبو بكر ابن عمر قد أتى سجلماسة في سنة ثلاث وخمسين وحاصرها وقاتل أهلها أشـــد قتال وأخذها ثم رتب عليها يوسـف بن تاشـــفين فكان ما كان 845 يوســف بن عبد المؤمن صــاحب المغرب أبو يعقوب يوســف بن أبي محمد

عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي صاحب المغرب
وقد تقدم ذكر أبيه عبد المؤمن في حرف العين وذكر
ولده يعقوب قبل هذا ولما توفي والده في التاريخ
المذكور في ترجمته وخلع محمد بن عبد المؤمن
استقل ولده يوسف بالملك وكان ولي العهد قبله أخوه
محمد بن عبد المؤمن ونقش على الدنانير اسمه وكان
ذلك باستخلاف أبيه وتحليفه الجند له فظهر منه
اشتغال بالراحة وانهماك في البطالة فخلعه يوسف
وكان له اخ آخر اسمه أبو حفص عمر ولاه جزيرة
الأندلس وكان يوسف المذكور فقيهاً حافظاً متقناً لأن
أباه هذبه وقرن به وباخوته أكمل رجال الحرب
والمعارف فنشأوا في ظهور الخيل بين أبطال الفرسان
وفي قراءة العلم بين أفاضل العلماء وكان ميله إلى
الحكمة والفلسفة أكثر
131 من ميله إلى الأدب وبقية العلوم وكان
جماعاً مناعاً ضابطاً لخراج مملكته عارفاً بسياسة
رعيته وكان ربما يحضر حتى لا يكاد يغيب ويغيب
حتى لا يكاد يحضر وله في غيبته نواب وخلفاء
وحكام قد فوض الأمور إليهم لما علم من صلاحهم
لذلك والدنانير اليوسفية المغربية منسوبة إليه فلما
مهدت له الأمور واستقرت قواعد ملكه دخل إلى
جزيرة الأندلس لكشف مصالح دولته وتفقد أحوالها
وكان ذلك في سنة ست وستين وخمسمائة وفي
صحبته مائة ألف فارس من العرب والموحدين فنزل

باشـــبيلية (386) فخافه الأمير أبو عبد الله محمد بن سـعد بن محمد بن سـعد المعروف بابن مردنيش صـاحب شـرق الأندلس مرسـية وما انضـاف إليها وحمل على قلبه فمرض مرضاً شديداً ومات وقيل إن أمه سـقته السـم لأنه كان قد أساء العشـرة مع أهله وخواصـه وكبراء دولته فنصـحته وأغلظت عليه في القول فتهددها وخافت بطشـه فعملت عليه فقتلته بالسم وكان موته في التاسع والعشرين من رجب سنة سبع وسـتين وخمسـمائة باشـبيلية ومولده في سـنة ثماني عشـرة وخمسـمائة في قلعة من أعمال طرطوشـة يقال لها بنشكله وهي من الحصون المنيعة ولما مات محمد بن سعد جاء أولاده وقيل إخوته إلى الأمير يوسف ابن عبد المؤمن وهو باشبيلية فسلموا إليه جميع بلاد شرق الأندلس التي كانت لأبيهم وقيل لأخيهم فأحسـن إليهم الأمير يوسـف وتزوج أختهم وأصـبحوا عنده في أعز مكان ثم إن الأمير يوسـف شـرع في اسـترجاع بلاد المسـلمين من أيدي الفرنج وكانوا قد اسـتولوا عليها فاتسـعت مملكته بالأندلس وصـارت سـراياه تصـل مغيرة إلى باب طليطلة وهي كرسـي بلادهم وأعظم قواعدهم ثم إنه حاصـرها فاجتمع الفرنج كافة عليه واشـتد الغلاء في عسـكره فرجع عنها وعاد إلى مراكش وفي سـنة خمس وسـبعين قصـد بلاد إفريقية وفتح مدينة قفصـة ثم دخل حزيرة الأندلس في سـنة ثمانين ومعه جمع كثيف وقصد غربي بلادها

132 فحاصر مدينة شنترين شهراً فأصابه مرض فمات منه في شهر ربيع الأول سنة ثمانين وخمسمائة وحمل في تابوت إلى إشبيلية رحمه الله تعالى وكان قد استخلف ولده أبا يوسف يعقوب بن يوسف المقدم ذكره وذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه أن يوسف مات من غير وصية بالملك لأحد من أولاده فاتفق رأي قواد الموحدين وأولاد عبد المؤمن على تمليك ولده يعقوب فملكوه في الوقت الذي مات فيه ابوه لئلا يكونوا بغير ملك يجمع كلمتهم لقربهم من بلاد العدو وكان خلع أخيه أبي عبد الله محمد بن عبد المؤمن في شعبان سنة ثمان وخمسين واستبد يوسف حينئذ بالأمر واجتمع أكابر أصحابهم على خلعه وتولية الأمير يوسف وقد روي له شعر لكنه ليس بالجيد فلم أذكر منه شيئاً وأما محمد بن سعد ابن مردنيش المذكور فيروى له (وحقها إنها جفون * تسل من لحظها المنون) (لا صبر عنها ولا عليها * الموت من دونها يهون) (لأركبن الهوى إليها * يكون في ذاك ما يكون) (387) قلت ثم وجدت هذه الأبيات في كتاب الملح لابن القطاع وقد نسبها إلى أبي جعفر أحمد بن صمادح البني والله أعلم وقال البياسي في حماسته هو أبو جعفر أحمد بن الحسين بن خلف بن البني اليعمري الأبدي والله أعلم إلا إنه لم يذكر هذه الأبيات ثم أورد البياسي لأبي جعفر المذكور (صدني عن حلاوة التشييع *

اجتنابي مرارة التوديع) (لم يقم أنس ذا بوحشـــة هذا * فرأيت الصواب ترك الجميع)
133 وله في صفة قنديل (وقنديل كأن الضوء فيه * محاســـن من أحب وقد تجلى) (اشـــار إلى الدجى بلســـان أفعى * فشـــمر ذيله فرقاً وولى) ولما مات ابو يعقوب المذكور رثاه الأديب أبو بكر يحيى بن مجبر الشـــاعر المقدم ذكره في ترجمة يعقوب بن يوســـف هذا بقصـــيدة طويلة أجاد فيها وأولها (جل الأســـى فأسـل دم الأجفان * ما ذي الشـؤون لغير هذا الشـــان) ومردنيش بفتح الميم وســـكون الراء وفتح الدال المهملة وكســـر النون وســـكون الياء المثناة من تحتها وبعدها شـــين معجمة وهو بلغة الفرنج اســـم العذرة وبنشـكله بضـم الباء الموحدة والنون وسـكون الشـــين المعجمة وضـــم الكاف وفتح اللام وبعدها هاء والباقي معروف لا حاجة إلى ضبطه والبني في نسب الشـــاعر المذكور بكســـر الباء الواحدة وتشـــديد النون والأبدي بضـــم الهمزة وتشـــديد الباء الموحدة وبعدها دال مهملة هذه النســـبة إلى بلدة بالأندلس من كورة جيان بناها عبد الرحمن بن الحكم وجددها ابنه محمد قلت ولما فرغت من ترجمة يوســـف بن عبد المؤمن صـــاحب هذه الترجمة وجدت مجموعاً بخط العماد بن جبريل أخي العلم المصـــري ناظر بيت المال بالديار المصـــرية وقد تقدم ذكره في ترجمة أبي إســـحاق العراقي الفقيه المذكور في أوائل هذا الكتاب وفيه

فوائد من أخبار المغاربة وغيرهم فنقلت منه ما يضاف إلى هذه الترجمة وهو

134 أن عبد المؤمن كان في حياته قد عهد إلى أكبر أولاده وهو محمد وبايعه الناس وكتب ببيعته إلى البلاد فلما مات عبد المؤمن لم يتم له الأمر لأنه كان على أمور لا يصلح معها للمملكة من إدمان شرب الخمر واختلال الرأي وكثرة الطيش وجبن النفس ويقال إنه مع هذا كله كان به ضرب من الجذام واضطرب أمره واختلف الناس عليه فخلع وكانت مدة ولايته خمسة وأربعين يوماً وذلك في شعبان من سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وكان الذي سعى في خلعه أخويه يوسف وعمر ابني عبد المؤمن ولما تم خلعه دار الأمر بين الأخوين المذكورين وهما من نجباء أولاد عبد المؤمن ومن ذوي الرأي وتأخر عنهما أبو حفص عمر وسلم الأمر إلى أخيه يوسف فبايعه الناس واتفقت عليه الكلمة وكان أبيض تعلوه حمرة شديد سواد الشعر مستدير الوجه أفوه اعين إلى الطول ما هو في صوته جهارة رقيق حواشي اللسان حلو الألفاظ حسن الحديث طيب المجالسة أعرف الناس كيف تكلمت العرب وأحفظهم لأيامها في الجاهليه والإسلام صرف عنايته إلى ذلك ولقي فضلاء إشبيلية أيام ولايته لها ويقال إنه كان يحفظ صحيح البخاري وكان شديد الملوكية بعيد الهمة سخياً جواداً استغنى الناس في أيامه وكان يحفظ القرآن العظيم مع جملة

من الفقه ثم طمح إلى علم الحكمة وبدأ من ذلك بعلم الطب وجمع من كتب لحكمة شـــيئاً كثيراً (388) وكان ممن صـــحبه من العلماء بهذا الشـــأن أبو بكر محمد بن الطفيل كان متحققاً لجميع أجزاء الحكمة قرأ على جماعة من أهلها منهم أبو بكر ابن الصـــائغ المعروف بـابن بـاجـة وغيره ولابن الطفيـل هـذا تصانيف كثيرة وكان

135 حريصـــاً على الجمع بين علم الشـــريعة والحكمة وكان مفذناً ولم يزل يجمع إليه العلماء من كل فن من جميع الأقطار ومن جملتهم أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشـد الأندلسـي ولما اسـتوثق ليوســف الأمر وملك بلاد مردنيش من الأندلس خرج من إشـبيلية قاصـداً بلاد الأذفونش من الأندلس أيضـاً فنزل على مدينة له تســمى وبذة فأقام محاصـــراً لها شهوراً إلى أن اشتد عليهم الحصار وعطشوا فراسلوه في تســليم المدينة وأن يعطيهم الأمان على نفوســـهم فامتنع عن ذلك فلما اشـــتد بهم العطش ســـمع لهم في بعض الليالي لغط عظيم واصـــوات هائلة وذلك أنهم اجتمعوا بأسـرهم ودعوا الله تعالى فجاءهم مطر عظيم ملأ ما كان عندهم من الصهاريج فارتووا وتقووا على المسـلمين فانصـرف عنهم إلى إشـبيلية بعد أن هادنهم مدة سبع سنين وكان يرتفع إليه في كل سنة من خراج إشبيلية وقر مائة وخمسين بغلاً خارجاً عما يرتفع إليه من خراج بقية البلاد في بر العدوة وفي بر الأندلس

وفي سنة تسع وسبعين تجهز للغزو في جيش عظيم وعبر إلى جزيرة الأندلس ونزل إشبيلية كعادتهم في إصلاح شأنهم ثم رحل إلى شنترين وهي بليدة في غرب الأندلس وهي في غاية المنعة والحصانة فحاصرها وضيق عليها فلم يقدر عليها وهجم الشتاء وخاف المسلمون من البرد وزيادة مد النهر فلا يقدرون على العبور وتنقطع عنهم المادة فأشاروا عليه بالرجوع إلى إشبيلية فاذا طاب الزمان عاد غليها فقبل ذلك منهم وقال نحن راحلون غداً إن شاء الله تعالى ولم ينتشر هذا الحديث لأنه قاله في مجلس الخاصة فكان أول من قوض ورحل أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الرحمن الخطيب

136 المالقي وكان من أهل العلم والفضل فلما رآه الناس قد قوض خباءه قوضوا أيضاً ثقة به لمكانه من الدولة ومعرفته بأسرارها فعبر تلك الليلة أكثر العسكر على النهر خشية الزحام وطلباً لجيد المنازل ولم يبق إلا من كان بقرب خباء الأمير يوسف بن عبد المؤمن ولا علم له بذلك فلما رأى الروم عبور العسكر وبلغهم من جواسيسهم ما عزم عليه الأمير يوسف وأصحابه خرجوا منتهزين الفرصة وحملوا حتى انتهوا إلى جهة الأمير يوسف فقتل على بابه خلق كثير من أعيان الجند وخلصوا إلى الأمير يوسف فطعنوه تحت سرته طعنة كانت سبب منيته وتداركهم الناس فانهزم الروم وجعل الأمير يوسف في محفة

وعبر به النهر ولم يسر به سوى ليلتين ومات في الثالثة فلما وصلوا به إلى إشبيلية صبروه وصيروه في تابوت وحملوه إلى تين مل ودفن هناك عند أبيه عبد المؤمن والمهدي محمد بن تومرت وكانت وفاته يوم السبت لسبع خلون من رجب سنة ثمانين وخمسمائة وكان قبل موته بأشهر ينشد هذا البيت ويردده في أوقات كثيرة (طوى الجديدان ما قد كنت أنشره * وأنكرتني ذوات الأعين النجل) وقام بعده بالأمر ولده أبو يوسف يعقوب بويع في حياة أبيه وقيل إن اشياخ الدولة اتفقوا على تقديمه بعد وفاة ابيه والله اعلم (389) وكان الأديب ابو العباس أحمد بن عبد السلام الكواريي وكواريا قبيلة من البربر منازلهم بضواحي مدينة فاس وقيل إن هذه القبيلة إنما يقال لها جراوة بفتح الجيم وقد تبدل الجيم كافاً فيقال لها كراوة والنسبة إليها جراوي وكراوي وكان هذا الأديب نهاية في حفظ الأشعار القديمة والمحدثة وتقدم في هذا الشأن وجالس به عبد المؤمن ثم ولده يوسف ثم ولده يعقوب

137 وجمع كتاباً يحتوي على فنون الشعر على وضع الحماسة لأبي تمام الطائي وسماه صفوة الأدب وديوان العرب وهو كثير الوجود بأيدي الناس وهو عند اهل المغرب كالحماسة عند أهل المشرق والمقصود من ذكر هذا الأديب أنه كانت له نوادر نادرة وملح مستظرفة عند أهل الأدب فمن ذلك أنه

حضـــر يوماً إلى باب دار الأمير يوســـف المذكور وهناك الطبيب ســـعيد الغماري وغمارة بضـــم الغين المعجمة قبيلة من البربر أيضـــا فقال الأمير يوســـف لبعض خدمه انظر من بالباب من الأصـــحاب فخرج الخـادم إلى البـاب ثم عـاد إليـه فقـال أحمـد الكواريي وسـعيد الغماري فقال الأمير يوسـف من عجائب الدنيا شـــاعر من كورايـا وطبيـب من غمـارة فبلغ ذلـك الكواريي فقال (^ وضرب لنا مثلا ونسي خلقه) يس 78 أعجـب منهمـا والله خليفـة من كوميـة فيقـال إن الأمير يوســـف لما بلغه ذلك قال أعاقبه بالحلم عنه والعفو ففيه تكذيبه ومن شـعره من جملة قصـيدة مدح بـها الأمير يوســـف المذكور وهو بديع غريب (إن الإمام هو الطبيب وقد شـــفى * علل البرية ظاهراً ودخيلا) (حمل البســـيطة وهي تحمل شـــخصـــه * كالروح توجد حاملاً محمولا) ومن شـعره ايضـاً في ذم أهل فـاس وهي مدينـة بـالمغرب فيمـا بين ســـبتـة ومراكش (مشـــى اللؤم في الدنيا طريداً مشـــرداً * يجوب بلاد الله شـرقاً ومغربا) (فلما اتى فاسـاً تلقاه أهلها * وقالوا لـه أهلا وسهلا ومرحبا) ولـه كل شعر مليح وكان شـيخاً مسـناً جاوز ثمانين سـنـة وتوفي في آخر أيام الأمير يعقوب ابن الأمير يوسـف وقد ذكرت وفاة الأمير يعقوب في ترجمته فيكشف منها ولـه مديح في الأمير عبد المؤمن بن علي وأولاده إلى آخر زمنه رحمه الله تعالى

138 وأما شنترين بفتح الشين المعجمة وسكون النون وفتح التاء المثناة من فوقها وكسر الراء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون فهي مدينة في غرب الأندلس وذكر ابن حوقل في كتاب المسالك والممالك أن شنترين على البحر المحيط وبها يقع العنبر ولا يعلم ببلد الروم والمحيط عنبر يقع في غير هذا الموضع وشيء وقع بالشام ويقع بشنترين في وقت من السنة دابة تحك الحجارة في وسط البحر فيقع بها وبرة في لين الخز ولون الذهب فيجمع منه ما يغزل وينسج ثياباً ويتلون الثوب ألواناً وتحجر عليه ملوك بني أمية بالأندلس فلا ينقل ولا يشترى فتزيد قيمة الثوب على ألف دينار لعزته وحسنه والله أعلم قلت وحكى لي بعض الفضلاء من أهل الأندلس أنه رأى قطعة من هذه الثياب هناك وأراد أن يصفها لي فما قدر أن يعبر عنها ثم قال لكنها أرفع وانعم من نسج العنكبوت فتعالى الله ما أجل قدرته وألطف حكمته وأحسن صنعته وكيف خص كل صقع بنوع من الغرائب سبحانه وتعالى ولله در ابي نواس حيث قال (وفي كل شيء له آية * تدل على أنه واحد)

139 السلطان صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي الملقب الملك الناصر صلاح الدين صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والفراتية واليمنية قد تقدم في هذا الكتاب ذكر أبيه أيوب وجماعة من أولاده وعمه أسد الدين شيركوه أخيه

الملك العادل أبي بكر محمد وجماعة من أولاده وغيرهم من أهل بيته وصلاح الدين كان واسطة العقد وشهرته أكبر من أن تحتاج إلى التنبيه عليه اتفق أهل التاريخ على أن اباه وأهله من دوين بضم الدال المهملة وكسر الواو وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون وهي بلدة في آخر عمل أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج وأنهم أكراد روادية بفتح الراء والواو وبعد الألف دال مهملة ثم ياء مثناة من تحتها مشددة وبعدها هاء والروادية بطن من الهذبانية بفتح الهاء والذال المعجمة وبعد الألف نون مكسورة ثم ياء مشددة مثناة من تحتها وبعدها هاء وهي قبيلة كبيرة من الأكراد وقال لي رجل فقيه عارف بما يقول وهو من أهل دوين إن على باب دوين قرية يقال لها أجدانقان بفتح الهمزة وسكون الجيم وفتح الدال المهملة وبعد الألف نون مفتوحة وقاف مفتوحة وبعد الألف الثانية نون أخرى وجميع أهلها أكراد روادية ومولد ايوب والد صلاح الدين

140 بها وشاذي أخذ ولديه اسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب وخرج بهما إلى بغداد ومن هناك نزلوا تكريت ومات شاذي بها وعلى قبره قبة داخل البلد ولقد تتبعت نسبتهم كثيراً فلم اجد أحداً ذكر بعد شاذي ابا آخر حتى إني وقفت على كتب كثيرة بأوقاف وأملاك باسم شيركوه وأيوب فلم أر فيها سوى شيركوه بن شاذي وأيوب بن شاذي لا غير وقال لي

بعض كبراء بيتهم هو شـــاذي بن مروان وقد ذكرت ذلك في ترجمة ايوب وشـــيركوه ورأيت مدرجاً رتبة الحســن بن غريب بن عمران الحرشـــي يتضـــمن أن أيوب بن شـــاذي بن مروان بن أبي علي بن عنترة بن الحســن بن علي بن أحمد بن أبي علي بن عبد العزيز بن هدبة بن الحصـين بن الحارث بن سـنان بن عمرو بن مرة بن عوف بن اســـامـة بن بيهس بن الحـارث صـــاحب الحمالة ابن عوف بن أبي حارثة بن مرة بن نشبة بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد ابن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن الياس ابن مضــــر بن نزار بن معد بن عدنان ثم رفع بعد هذا النسب حتى انتهى إلى آدم عليه السلام ثم ذكر بعد ذلك أن علي بن أحمد بن أبي علي بن عبدالعزيز يقال إنه ممدوح المتنبي ويعرف بالخراســـاني وفيه يقول من جملة قصيدته (شرق الجو بالغبار إذا سار * علي بن أحمد القمقام) وأما حارثة بن عوف بن أبي حارثة صـاحب الحمالة فهو الذي حمل الدماء بين عبس وذبيان وشــاركه في الحمالة خارجة بن ســنان أخو هرم بن

141 ســـنان وفيهما قال زهير بن ابي ســـلمى المزني قصـــائد منها قوله (على مكثريهم حق من يعتريهم * وعند المقلين الســـماحة والبذل) (و هل ينبت الخطي إلا وشـــيجه * وتغرس إلا في منابتها النخل) هذا آخر ما ذكره في المدرج وكان قد قدمه

إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق وسمعه عليه هو وولده الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر داود ابن الملك المعظم وكتب لهما بسماعهما عليه في آخر رجب سنة تسع عشرة وستمائة والله أعلم انتهى ما نقلته من المدرج ورأيت في تاريخ حلب الذي جمعه القاضي كمال الدين ابو القاسم عمر بن أحمد المعروف بابن العديم الحلبي بعد أن ذكر الاختلاف في نسبهم فقال وقد كان المعز إسماعيل بن سيف الإسلام ابن أيوب ملك اليمن ادعى نسباً في بني أميه وادعى الخلافة وسمعت شيخنا القاضي بهاء الدين عرف بابن شداد يحكي عن السلطان صلاح الدين أنه أنكر ذلك وقال ليس لهذا أصل اصلاً قلت ذكر شيخنا الحافظ عز الدين أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري صاحب التاريخ الكبير في تاريخه الصغير الذي صنفه للدولة الأتابكية ملوك الموصل في فصل يتعلق بأسد الدين شيركوه ومسيره إلى الديار المصرية فقال كان أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب وهو الأكبر ابنا شاذي من بلد دوين وأصلهما من الأكراد الروادية قد قدما العراق وخدما مجاهد الدين بهروز بن عبد الله الغياثي شحنة بالعراق (390) قلت وهذا مجاهد الدين كان خادماً رومياً أبيض اللون تولى شحنة بالعراق من جهة السلطان مسعود بن غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقي المقدم

142 ذكره وذكر والده وجماعة من أهل بيته
وكان صاحب همة في عمل المصالح الجليلة وعمارة البلاد واسع الصدر والصبر في البذول والإنفاقات والمطاولة والمراجعة إذا امتنع عليه الغرض وكانت تكريت إقطاعاً له وكان خادم السلطان محمد والد مسعود المذكور وبنى في بغداد رباطاً وقف عليه وقفاً جيداً ومات يوم الأربعاء الثالث والعشرين من رجب سنة أربعين وخمسمائة وبهروز بكسر الباء الموحدة وسكون الهاء وضم الراء وسكون الواو وبعدها زاي وهو لفظ عجمي معناه يوم جيد على التقديم والتأخير على عادة كلام العجم قال شيخنا ابن الأثير فرأى مجاهد الدين في نجم الدين أيوب عقلاً ورأياً حسناً وحسن سيرة فجعله دزدار تكريت إذ هي له قلت دزدار بضم الدال المهملة وسكون الزاي وفتح الدال المهملة وبعد الألف راء وهو لفظ عجمي معناه حافظ القلعة وهو الوالي ودزه بالعجمي القلعة ودار الحافظ فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين شيركوه فلما انهزم اتابك الشهيد عماد الدين زنكي بالعراق من قراجا قلت وهي وقعة مشهورة خلاصتها أن مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي المقدم ذكره وعماد الدين زنكي صاحب الموصل قصدا حصار بغداد في أيام الإمام المسترشد فأرسل إلى قراجا الساقي واسمه برس صاحب بلاد فارس وخوزستان يستنجد به فأتاه وكبس عسكرهما وانهزما بين يديه وانكسرا وذكر في تاريخ

الدولة السلجوقية أنها كانت في شهر ربيع الآخر يوم الخميس ثاني عشر الشهر المذكور من سنة ست وعشرين وخمسمائة على تكريت وقال أسامة بن منقذ المقدم ذكره في كتابه الذي ذكر فيه البلاد وملوكها الذين كانوا في زمانه إنه حضر هذه الوقعة مع زنكي في التاريخ المذكور ذكر ذلك في موضعين أحدهما في ترجمة إربل والثاني في ترجمة تكريت

143 رجعنا إلى ما كنا فيه فوصل زنكي إلى تكريت فخدمه نجم الدين أيوب وأقام له السفن فعبر دجلة هناك وتبعه أصحابه فأحسن نجم الدين إليهم وسيرهم وبلغ ذلك بهروز فسير إليه وأنكر عليه وقال له كيف ظفرت بعدونا فأحسنت إليه وأطلقته ثم إن أسد الدين قتل إنسانا بتكريت لكلام جرى بينهما فأرسل مجاهد الدين إليهما فأخرجهما من تكريت فقصدا عماد الدين زنكي قلت وكان إذ ذاك صاحب الموصل قال فأحسن عماد الدين إليهما وعرف لهما خدمتهما وأقطعهما إقطاعا حسنا وصارا من جملة جنده فلما فتح عماد الدين زنكي بعلبك جعل نجم الدين دزدارها فلما قتل زنكي قلت وقد سبق ذكر ذلك في ترجمته قال فحصره عسكر دمشق قلت وكان صاحب دمشق يومئذ مجير الدين أبق بن محمد بن بوري ابن الأتابك ظهير الدين طغتكين وهو الذي حاصره نور الدين محمود بن زنكي في دمشق وأخذها منه قال شيخنا ابن الأثير فأرسل نجم الدين أيوب إلى سيف الدين

غازي بن زنكي صاحب الموصل وقد قام بالملك بعد والده ينهي إليه الحال ويطلب منه عسكرا ليرحل صاحب دمشق عنه وكان سيف الدين في ذلك الوقت في أول ملكه وهو مشغول بإصلاح ملوك الأطراف المجاورين له فلم يتفرغ له وضاق الأمر على من في بعلبك من الحصار فلما رأى نجم الدين أيوب الحال وخاف أن تؤخذ قهرا أرسل في تسليم القلعة وطلب إقطاعا ذكره فأجيب إلى ذلك وحلف له صاحب دمشق عليه وسلم القلعة ووفى له صاحب دمشق بما حلف عليه من الإقطاع والتقدم وصار عنده من أكبر الأمراء واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بالخدمة النورية بعد قتل أبيه زنكي قلت هو نور الدين محمد بن زنكي صاحب حلب وكان يخدمه في أيام والده فقربه نور الدين وأقطعه وكان يرى منه في الحروب آثارا

144 يعجز عنها غيره لشجاعته وجرأته فصارت له حمص والرحبة وغيرهما وجعله مقدم عسكره قلت ثم خرج شيخنا ابن الأثير بعد هذا إلى حديث سفر أسد الدين إلى الديار المصرية وما تجدد لهم هناك وليس هذا موضع هذا الفصل بل نتم حديث صلاح الدين صاحب هذه الترجمة من مبدأ أمره حتى نصير إلى آخره إن شاء الله تعالى ويندرج فيه حديث المملكة وما صار حالهم إليه وإن كان قد سبق في ترجمة أسد الدين شيركوه طرف من أخبارهم لكن ما

أستوفيته هناك اعتمادا على استيفائه ها هنا إن شاء الله تعالى قلت اتفق أرباب التواريخ أن صلاح الدين مولده سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة بقلعة تكريت لما كان أبوه وعمه بها والظاهر انهم ما أقاموا بها بعد ولادة صلاح الدين إلا مدة يسيرة لأنه قد سبق القول أن نجم الدين وأسد الدين لما خرجا من تكريت كما شرحناه وصلا إلى عماد الدين زنكي فأكرمهما وأقبل عليهما ثم إن عماد الدين زنكي قصد حصار دمشق فلم تحصل له فرجع إلى بعلبك فحصرها أشهرا وملكها في رابع عشر صفر سنة أربع وثلاثين وخمسمائة كما ذكره أسامة بن منقذ المقدم ذكره في كتابه الذي ذكر فيه البلاد وملوكها وذكر أبو يعلى حمزة بن أسد المعروف بابن القلانسي الدمشقي في تاريخه الذي جعله ذيلا على تاريخ أبي الحسين هلال ابن الصابي أن عماد الدين حاصر بعلبك يوم الخميس العشرين من ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين ثم ذكر في مستهل سنة أربع وثلاثين أنه ورد الخبر بفراغ عماد الدين من ترتيب بعلبك وقلعتها وترميم ما تشعث منها والله اعلم وإذا كان كذلك فيكون قد خرجوا من تكريت في بقية سنة اثنتين وثلاثين التي ولد فيها صلاح الدين أو في سنة ثلاث وثلاثين لأنهما أقاما عند عماد الدين بالموصل ثم لما حاصر دمشق وبعدها بعلبك وأخذها رتب فيها نجم الدين أيوب وذلك في أوائل سنة أربع وثلاثين

145 كما شرحته فيتعين أن يكون خروجهم من تكريت في المدة المذكورة تقديرا والله أعلم قلت ثم أخبرني بعض أهل بيتهم وقد سألته هل تعرف متى خرجوا من تكريت فقال سمعت جماعة من أهلنا يقولون إنهم أخرجوا منها في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين فتشاءموا به وتطيروا منه فقال بعضهم لعل فيه الخيرة وما تعلمون فكان كما قال والله أعلم ولم يزل صلاح الدين تحت كنف أبيه حتى ترعرع ولما ملك نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي دمشق في التاريخ المذكور في ترجمته لازم نجم الدين أيوب خدمته وكذلك ولده صلاح الدين وكانت مخايل السعادة عليه لائحة والنجابة تقدمه من حالة إلى حالة ونور الدين يرى له ويؤثره ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف والاجتهاد في أمور الجهاد حتى تجهز للمسير مع عمه شيركوه إلى الديار المصرية كما سنشرحه إن شاء الله تعالى وجدت في بعض تواريخ المصريين أن شاور المقدم ذكره هرب من الديار المصرية من الملك المنصور أبي الأشبال ضرغام بن عامر بن سوار الملقب فارس المسلمين اللخمي المنذري لما استولى على الدولة المصرية وقهره وأخذ مكانه في الوزارة كعادتهم في ذلك وقتل ولده الأكبر طي بن شاور فتوجه شاور إلى الشام مستغيثا بالملك العادل نور الدين أبي القاسم محمود بن زنكي وذلك في شهر رمضان سنة ثمان وخمسين

وخمسمائة ودخل دمشق في الثالث والعشرين من ذي القعدة من السنة فوجه نور الدين معه الأمير أسد الدين شيركوه بن شاذي في جماعة من عسكره كان صلاح الدين في جملتهم في خدمة عمه وهو كاره للسفر معهم وكان لنور الدين في إرسال هذا الجيش غرضان أحدهما قضاء حق شاور لكونه قصده ودخل عليه مستصرخا والثاني أنه أراد استعلام أحوال مصر فإنه كان يبلغه أنها ضعيفة من جهة الجند وأحوالها في غاية الاختلال فقصد الكشف عن حقيقة ذلك

146 وكان كثير الاعتماد على شيركوه لشجاعته ومعرفته وأمانته فانتدبه لذلك وجعل أسد الدين شيركوه ابن أخيه صلاح الدين مقدم عسكره وشاور معهم فخرجوا من دمشق في جمادى الأولى سنة تسع وخمسين فدخلوا مصر واستولوا على الأمر في رجب من السنة وقال شيخنا القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف المعروف بابن شداد المقدم ذكره في كتابه الذي وسمه باسيره صلاح الدين إنهم دخلوا مصر في ثاني جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين وخمسمائة والقول الأول أصح لأن الحافظ أبا طاهر السلفي ذكر في معجم السفر أن الضرغام بن سوار قتل في سنة تسع وخمسين وخمسمائة وزاد غيره فقال يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة من السنة عند مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها فيما بين القاهرة ومصر واحتز رأسه وطيف به على رمح

وبقيت جثته هناك ثلاثة أيام تأكل منها الكلاب ثم دفن عند بركة الفيل وعمرت عليه قبة قلت والقبة إلى الآن باقية في موضعها تحت الكبش المستجد بناؤه ورأيت فيها جماعة من الفقراء الجوالقية مقيمين وقد قيل إن الضرغام إنما قتل في رجب من سنة تسع وخمسين وقد اتفقوا على أن الضرغام إنما قتل عند قدوم اسد الدين شيركوه وشاور إلى مصر فما يمكن أن يكون دخولهم مصر في سنة ثمان وخمسين لأن الضرغام لا خلاف في قتله في سنة تسع وخمسين وأنه كان في أول وصولهم والحافظ السلفي أخبر بذلك لأنه كان مقيما في البلاد أول وصولهم وهو اضبط لهذه الأمور من غيره لأن هذا فنه وهو من أقعد الناس به ولما وصل أسد الدين وشاور إلى الديار المصرية واستولوا عليها وقتلوا

147 الضرغام وحصل لشاور مقصودة وعاد إلى منصبه وتمهدت قواعده واستمرت أموره غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد بالفرنج عليه وحصروه في بلبيس وكان أسد الدين قد شاهد البلاد وعرف أحوالها وأنها مملكة بغير رجال تمشي الأمور فيها بمجرد الإيهام والمحال فطمع فيها وعاد إلى الشام في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وخمسين وقال شيخنا ابن شداد في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين بناء على ما قرره أولا أن دخولهم البلاد كان في سنة ثمان وخمسين وأقام أسد

الدين بالشـــام مدة مفكرا في تدبير عوده إلى مصــــر محدثا نفسه بالملك لها مقررا قواعد ذلك مع نور الدين إلى سـنة اثنتين وسـتين وخمسـمائة وبلغ شـاور حديثه وطمعه في البلاد فخاف عليها وعلم أن أسـد الدين لا بـد لـه من قصــــدها فكـاتب الفرنج وقرر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ويمكنهم منـهـا تمكينـا كليـا ليعينوه على اسـتئصـال أعدائه وبلغ نور الدين وأسـد الدين مكاتبة شـاور للفرنج وما تقرر بينهم فخافا على الديار المصـــرية أن يملكو ها ويملكوا بطريقها جميع البلاد فتجهز أســد الدين وأنفذ معه نور الدين العســاكر وصلاح الدين في خدمة عمه أسد الدين وكان توجههم من الشـام في شـهر ربيع الأول سـنة اثنتين وسـتين وخمسـمائة وكان وصـول أسـد الدين إلى البلاد مقارنا لوصـول الفرنج إليها واتفق شـاور والمصـريون بأسرهم والفرنج على أسد الدين وجرت حروب كثيرة ووقعات شـديدة وانفصـل الفرنج عن البلاد وانفصـل أسـد الدين أيضـا راجعا إلى الشـام وكان سـبب عود الفرنج أن نور الدين جرد العسـاكر إلى بلادهم وأخذ المنيطرة منهم في رجب من هذه السـنة وعلم الفرنج ذلك فخافوا على بلادهم فعادوا إليها وكان سـبب عود أسـد الدين إلى الشـام ضـعف عسـكره بسـبب مواقعة الفرنج والمصريين وما عانوه من الشدائد وعاينوه من الأهوال وما

148 عاد حتى صالح الفرنج على أن ينصرفوا كلهم عن مصر وعاد إلى الشام في بقية السنة وقد انضاف إلى قوة الطمع في الديار المصرية شدة الخوف عليها من الفرنج لعلمه بأنهم قد كشفوها كما قد كشفها وعرفوها كما عرفها فأقام بالشام على مضض وقلبه قلق والقضاء يقوده إلى شيء قدر لغيره وهو لا يشعر بذلك وكان عوده في ذي القعدة من هذه السنة إلى الشام وقيل إنه عاد في ثامن عشر شوال من السنة والله أعلم ورأيت في بعض المسودات التي بخطي ولا أعلم من أين نقلته أن أسد الدين لما طمع في الديار المصرية توجه إليها في سنة اثنتين وستين وسلك طريق وادي الغزلان وخرج عند إطفيح فكانت فيها وقعة البابين عند الأشمونين وتوجه صلاح الدين إلى الإسكندرية فاحتمى بها وحاصره شاور في جمادى الآخرة من السنة ثم عاد أسد الدين من جهة الصعيد إلى بلبيس وتم الصلح بينه وبين المصريين وسيروا له صلاح الدين فساروا إلى الشام ثم إن أسد الدين عاد إلى مصر مرة ثالثة قال شيخنا ابن شداد وكان سبب ذلك أن الفرنج جمعوا فارسهم وراجلهم وخرجوا يريدون الديار المصرية ناكثين لجميع ما استقر مع المصريين وأسد الدين طمعا في البلاد فلما بلغ ذلك أسد الدين ونور الدين لم يسعهما الصبر دون أن سارعا إلى قصد البلاد أما نور الدين فبالمال والرجال ولم يمكنه المسير بنفسه خوفا على البلاد من الفرنج

ولأنه كان قد حدث له نظر إلى جانب الموصل بسبب وفاة علي بن بكتكين قلت هو زين الدين والد السلطان مظفر الدين كوكبوري صـــاحب إربل وقد تقدم ذكره في ترجمـة ولـده كوكبوري قـال فـإنـه توفي في ذي الحجة سنة ثلاث وستين وخمسمائة وسلم ما كان في يده من الحصـون لقطب الدين أتابك ما عدا إربل فإنها كانت له من أتابك زنكي وأما اسد الدين فبنفسـه وماله وإخوته وأهله ورجاله ولقد

149 قال لي السـلطان صــلاح الدين قدس الله روحه كنت أكره الناس للخروج في هذه الدفعة وما خرجت مع عمي باختياري و هذا معنى قوله تعالى (^ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) البقرة 216 وكان شـاور لما أحس بخروج الفرنج إلى مصـر على تلك القاعدة سير إلى أسد الدين يستصرخه ويستنجده فخرج مسرعا وكان وصوله إلى مصر في شهر ربيع الأول سـنة أربع وسـتين وخمسـمائة ولما علم الفرنج بوصـول أسـد الدين إلى مصـر على اتفاق بينه وبين أهلها رحلوا راجعين على اعقابهم ناكصين وأقام أسد الدين بها يتردد إليه شـــاور في الأحيان وكان وعدهم بمال في مقابله ما خسـروه من النفقة فلم يوصـل إليهم شـيئا وعلقت مخاليب أسـد الدين في البلاد وعلم أنه متى وجد الفرنج رخصة أخذوا البلاد وأن شاور يلعب به تارة وبالفرنج أخرى وملاكها فقد كانوا على البدعة المشهورة وتحقق أسد الدين انه لا سبيل إلى الاستيلاء

على البلاد مع بقاء شاور فأجمع رأيه على القبض
عليه إذا خرج إليه وكان الأمراء الواصلون مع أسد
الدين يترددون إلى خدمة شاور وهو يخرج في
الأحيان إلى أسد الدين يجتمع به وكان يركب على
عادة وزرائهم بالطبل والبوق والعلم ولم يتجاسر على
قبضه أحد من الجماعة إلا السلطان بنفسه وذلك أنه
لما سار إليهم تلقاه راكبا وسار إلى جانبه وأخذ بتلابيبه
وأمر العسكر بأن قصدوا أصحابه ففروا ونهبهم
العسكر وأنزل شاور إلى خيمة مفردة وفي الحال ورد
توقيع على يد خادم خاص من جهة المصريين يقول لا
بد من رأسه جريا على عادتهم في وزرائهم فحز
رأسه وأرسل إليهم وسيروا إلى أسد الدين خلع
الوزارة فلبسها وسار ودخل القصر وترتب وزيرا
وذلك في سابع عشر ربيع الأول سنة أربع وستين
وخمسمائة ودام آمرا وناهيا والسلطان صلاح الدين
رحمه الله تعالى مباشر الأمور مقرر لها لمكان كفايته
ودرايته وحسن رأيه وسياسته إلى الثاني والعشرين
من جمادى الآخرة من السنة المذكورة فمات أسد
الدين قلت وقد تقدم حديث أسد الدين
150 وصورة موته فلا حاجة إلى شرحها ها
هنا وكذلك وفاة شاور وهذا كله نقلته من كلام شيخنا
ابن شداد في سيرة صلاح الدين ولكنني أتيت منه
بالمقصود وحذفت الباقي ورأيت بخطي في جملة
مسوداتي أن أسد الدين دخل القاهرة يوم الأربعاء

سابع شهر ربيع الآخر من سنة أربع وستين وخمسمائة وخرج إليه العاضد عبد الله العبيدي آخر ملوك مصر المقدم ذكره وتلقاه وحضر يوم الجمعة التاسع من الشهر إلى الإيوان وجلس إلى جانب العاضد وخلع عليه وأظهر له شاور ودا كثيرا فطلب منه أسد الدين مالا ينفقه في عسكره فدافعه فأرسل إليه أن الجند تغيرت قلوبهم عليه بسبب عدم النفقة فاذا خرجت فكن على حذر منهم فلم يكترث شاور بكلامه وعزم أن يعمل دعوة يستدعي إليها أسد الدين والعساكر الشامية ويقبض عليهم فأحس أسد الدين بذلك فاتفق صلاح الدين وعز الدين جورديك النوري وغيرهما على قتل شاور وأعلموا أسد الدين فنهاهم عنه وخرج شاور إلى أسد الدين وكانت خيامهم على شاطيء النيل بالمقس فلم يجده في جهته وكان قد راح إلى زيارة تربة الإمام الشافعي رضي الله عنه بالقرافة فقال شاور نمضي إليه فالتقوه فساروا جميعا فاكتنفه صلاح الدين وجورديك وأنزلاه عن فرسه وكتفوه فهرب أصحابه فأخذوه أسيرا ولم يمكنهم قتله بغير إذن نور الدين وجعلوه في خيمة ورسموا عليه جماعة فأرسل العاضد يأمرهم بقتله فقتلوه وسيروا رأسه على رمح إلى العاضد وذلك يوم السبت لسبع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة وقيل إن أسد الدين لم يحضر ذلك بل لما قصد شاور جهة أسد الدين لقيه صلاح الدين وجورديك ومعهما بعض

العسكر فسلم بعضهم على بعض وساروا ثم فعلا به
هذه الفعلة والله أعلم ثم إن العاضد استدعى أسد الدين
عقيب قتل شاور وكان في الخيم
151 فدخل القاهرة فرأى جمعا كبيرا من من
العامة فخافهم فقال لهم إن مولانا العاضد امركم بنهب
دار شاور فتفرقوا ومضوا لنهبها ودخل على العاضد
فتلقاه وأفاض عليه خلع الوزارة ولقبه الملك المنصور
أمير الجيوش ثم إنه مات يوم الأحد لسبع بقين من
جمادى الآخرة من السنة المذكورة بعلة الخوانيق وقيل
إنه سم في حنك الوزارة لما خلع عليه وكانت وفاته
بالقاهرة ودفن بدار الوزارة ثم نقل إلى المدينة النبوية
على ساكنها افضل الصلاة والسلام فكانت مدة وزارته
شهرين وخمسة أيام وقيل إن أسد الدين دخل على
العاضد يوم الإثنين التاسع عشر من شهر ربيع الآخر
من السنة المذكورة والله أعلم قلت قد تقدم في ترجمة
كل واحد من شاور وأسد الدين ذكر شيء من هذه
الأمور التي ذكرتها ها هنا وإنما أعدت الكلام فيها
لأني استوفيتها ها هنا أكثر من هناك وأيضا فان
المقصود في هذا كله ذكر سيرة صلاح الدين وتنقلاته
وما جرى له من أول أمره إلى آخره فأحببت ذكر ذلك
على سياقة واحدة كي لا ينقطع الكلام فيبقى أبتر
فأقول ذكر المؤرخون أن أسد الدين لما مات استقرت
الأمور بعده للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب
وتمهدت القواعد ومشى الحال على أحسن الأوضاع

وبذل الأموال وملك قلوب الرجال وهانت عنده الدنيا فملكها وشكر نعمة الله تعالى عليه فتاب عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص بقميص الجد والاجتهاد وما زال على قدم الخير وفعل ما يقربه إلى الله تعالى إلى أن مات قال شيخنا ابن شداد سمعته يقول رحمه الله تعالى لما يسر لي الله الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك في نفسي ومن حين استتب له الأمر ما زال يشن الغارات على الفرنج إلى الكرك والشوبك وبلادهما

152 وغشي الناس من سحائب الإفضال والإنعام ما لم يؤرخ عن غير تلك الأيام وهذا كله وهو وزير متابع القوم لكنه يقول بمذهب أهل السنة غارس في البلاد أهل الفقه والعلم والتصوف والدين والناس يهرعون إليه من كل صوب ويفدون عليه من كل جانب وهو لا يخيب قاصدا ولا يعدم وافدا إلى سنة خمس وستين وخمسمائة ولما عرف نور الدين استقرار أمر السلطان بمصر أخذ حمص من نواب أسد الدين وذلك في رجب سنة أربع وستين ولما علم الفرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم وما تم للسلطان من استقامة الأمر بالديار المصرية علموا أنه يملك بلادهم ويخرب ديارهم ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة والملك واجتمع الفرنج والروم جميعا وقصدوا الديار المصرية فقصدوا دمياط ومعهم آلات الحصار وما يحتاجون إليه من العدد ولما سمع فرنج

الشام ذلك اشتد امرهم فسرقوا حصن عكار من المسلمين وأسروا صاحبها وكان مملوكا لنور الدين يقال له خطلخ العلم دار وذلك في شهر ربيع الآخر من سنة خمس وستين ولما رأى نور الدين ظهور الفرنج ونزولهم على دمياط قصد شغل قلوبهم فنزل على الكرك محاصرا لها في شعبان من السنة المذكورة فقصده فرنج الساحل فرحل عنها وقصد لقاءهم فلم يقفوا له ثم بلغه وفاة مجد الدين ابن الداية وكانت وفاته بحلب في شهر رمضان سنة خمس وستين فاشتغل قلبه لأنه كان صاحب أمره وعاد يطلب الشام فبلغه أمر الزلازل بحلب التي أخربت كثيرا من البلاد وكانت في ثاني عشر شوال منها فسار يطلب حلب فبلغه خبر موت أخيه قطب الدين بالموصل قلت وقد ذكرت ذلك في ترجمته واسمه مودود قال وبلغه الخبر وهو بتل باشر فسار من ليلته طالبا بلاد الموصل ولما بلغ صلاح الدين قصد الفرنج دمياط استعد لهم بتجهيز الرجال وجميع
153 الآلات إليها ووعدهم بالإمداد بالرجال إن نزلوا عليهم وبالغ في العطايا والهبات وكان وزيرا متحكما لا يرد أمره في شيء ثم نزل الفرنج عليها واشتد زحفهم وقتالهم عليها وهو رحمه الله يشن عليهم الغارات من خارج والعسكر يقاتلهم من داخل ونصر الله تعالى المسلمين به وبحسن تدبيره فرحلوا عنها خائبين فأحرقت مناجيقهم ونهبت آلاتهم وقتل من

رجالهم خلق كثير واســـتقرت قواعد صـــلاح الدين
وســـير طلب والده نجم الدين أيوب ليتم له الســـرور
وتكون قصــته مشــاكلة لقصــة يوسـف الصـديق عليه
الســلام فوصـل والده إليه في جمادى الآخرة من سـنة
خمس وستين قلت هكذا ذكر ابن شداد تاريخ وصـوله
إلى مصـر والصـواب فيه هو الذي ذكرته في ترجمته
وسلك معه من الأدب ما جرت به عادته وألبسه الأمر
كله فأبى أن يلبســـه وقال يا ولدي ما اختارك الله لهذا
الأمر إلا وأنت كفء له ولا ينبغي أن يغير موضـــع
الســعادة فحكمه في الخزائن كلها ولم يزل وزيرا حتى
مات العاضـــد في التاريخ المقدم ذكره قلت أكثر ما
ذكرته في هذا الفصل منقول من كلام شيخنا ابن شداد
في سـيرة صـلاح الدين وفيه زوائد من غيرها والذي
ذكره شـيخنا الحافظ عز الدين ابن الأثير المذكور قبل
هذا في تاريخه الأتابكي أن كيفية ولاية صـــلاح الدين
أن جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصـــر
طلبوا التقدم على العســـاكر وولاية الوزارة يعني بعد
موت أســـد الدين منهم الأمير عين الدولة الياروقي
وقطـب الـدين حســـرو بن تليـل وهو ابن أخي أبي
الهيجاء الهذباني الذي كان صـــاحب إربل قلت هو
صــاحب المدرســة القطبية التي بالقاهرة ومنهم ســيف
الدين علي بن أحمد الهكاري وجده كان صاحب القلاع
الهكارية قلت هو المعروف بالمشـــطوب والد عماد

الدين أحمد بن المشـــطوب وقد تقدم ذكره في ترجمة مستقلة

154 قال ومنهم شـــهاب الدين محمود الحارمي وهو خال صـــلاح الدين وكل واحد من هؤلاء يخطبها لنفسه وقد جمع ليغالب عليها فأرسل العاضد صاحب مصر غلى صلاح الجين وأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ويوليه الأمر بعد عمه وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين فإنه ظن أنه إذا لوي صـــلاح الدين وليس له عســـكر ولا رجال كان في ولايته مستضعفا يحكم عليه ولا يجسر على المخالفة وأنه يضـــع على العســـكر الشـــامي من يســـتميلهم إليه فاذا صـــار معه البعض أخرج الباقين وتعود البلاد إليه وعنده من العســـاكر الشـــامية من يحميها من الفرنج ونور الدين والقصة مشهورة أردت عمرا وأراد الله خارجة قلت هذا المثل مشـــهور بين العلماء وســـيأتي الكلام عليه بعد الفراغ من هذه الترجمة إن شاء الله تعالى عدنا إلى تمام الكلام الأول فامتنع صـــلاح الدين وضـــعفت نفســـه عن هذا المقام فألزمه وأخذ كارها إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل فلما حضر في القصر خلع عليه خلع الوزارة الجبة والعمامة وغيرهما ولقب الملك الناصر وعاد إلى دار أســـد الدين فأقام بها ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفســـهم ولا خدموه وكان الفقيه ضـــياء الدين عيســـى الهكاري معه

قلت وقد سبق ذكره في ترجمة مفردة قال ابن الأثير فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه وقال له إن هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل فمال إلى صلاح الدين ثم قصد شهاب الدين الحارمي وقال له إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك وملكه لك وقد استقام الأمر له فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه ولا يصل إليك ولم يزل به حتى أحضره أيضا عنده وحلفه له ثم عدل إلى

155 قطب الدين وقال له إن صلاح الدين قد أطاعه الناس ولم يبق غيرك وغير الياروقي وعلى كل حال فيجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد فلا يخرج الأمر عنه إلى الأتراك ووعده وزاد في إقطاعه فأطاع صلاح الدين أيضا وعدل على عين الدولة الياروقي وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعا فلم تنفعه رقاه ولا نفذ فيه سحره وقال أنا لا أخدم يوسف أبدا وعاد إلى نور الدين ومعه غيره فأنكر عليهم فراقه وقد فات الأمر ليقضي الله أمرا كان مفعولا وثبت قدم صلاح الدين ورسخ ملكه وهو نائب عن الملك العادل نور الدين والخطبة لنور الدين في البلاد كلها ولا يتصرفون إلا عن أمره وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الاصفهسلار ويكتب علامته في الكتب تعظما أن يكتب اسمه وكان لا يفرده في كتاب بل يكتب الأمير الإصفهسلار صلاح الدين

وكافة الأمراء بالديار المصـــرية يفعلون كذا وكذا
واستمال صـلاح الدين قلوب الناس وبذل الأموال مما
كان أســد الدين قد جمعه وطلب من العاضـــد شـــيئا
يخرجه فلم يمكنه منعه فمال الناس إليه وأحبوه وقويت
نفســه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه وضـعف أمر
العاضد فكان كالباحث عن حتفه بظلفه قال ابن الأثير
في تاريخه الكبير قد اعتبرت التواريخ ورأيت كثيرا
من التواريخ الإســلامية فرأيت كثيرا ممن يبتدىء
الملك تنتقل الدولة عن صــلبه إلى بعض أهله وأقاربه
منهم في أول الأســلام معاوية بن أبي ســفيان أول من
ملك من أهل بيته فانتقل الملك عن أعقابه إلى بني
مروان من بني عمه ثم من بعده الســفاح أول من ملك
من بني العباس انتقل الملك من أعقابه إلى أخيه
المنصـور ثم الســامانية أول من اسـتبد فيهم نصـر بن
أحمد فانتقل الملك عنه إلى أخيه إســماعيل بن أحمد
وأعقابه ثم يعقوب بن الليث الصفار وهو أول
156 من ملك من أهل بيته وانتقل الملك عنه إلى
أخيه عمرو واعقابه ثم عماد الدولة بن بويه أول من
ملك من أهل بيته ثم انتقل الملك عنه إلى أخويه معز
الدولة وركن الدولة ثم الســلجوقية أول من ملك منهم
طغرل بك ثم انتقل الملك إلى أولاد أخيه داود ثم هذا
شــيركوه كما ذكرناه انتقل الملك إلى ولد أخيه نجم
الدين أيوب ولولا خوف الإطالة لذكرنا أكثر من هذا
والذي اظنه الســبب في ذلك أن الذي يكون أول دولته

يكثر القتل فيأخذ الملك وقلوب من كان فيه متعلقة به فلهذا يحرم الله أعقابه ويفعل ذلك لأجلهم عقوبة له نعود إلى ذكر صلاح الدين وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه أخوته فلم يجبه إلى ذلك وقال أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر فسير نور الدين العساكر وفيهم إخوة صلاح الدين منهم شمس الدولة توران شاه بن أيوب قلت وقد تقدم ذكره في ترجمة مستقلة قال وهو اكبر من صلاح الدين فلما أراد أن يسير قال له نور الدين إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تسر فإنك تفسد البلاد وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه وإن كنت تنظر إليه صاحب مصر وقائم مقامي وتخدمه بنفسك كما تخدمني فسر إليه واشدد أزره وساعده على ما هو بصدده فقال أفعل معه من الخدمة والطاعة ما يتصل بك إن شاء الله تعالى فكان معه كما قال ثم قال شيخنا ابن الأثير بعد هذا بأوراق في فصل يتعلق بانقراض الدولة المصرية وإقامة الدولة العباسية بها في المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة فقال

157 قطعت خطبة العاضد صاحب مصر وخطب فيها للإمام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين وكان السبب في ذلك أن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبت قدمه في مصر وزال المخالفون له وضعف

أمر العاضد ولم يبق من العساكر المصرية أحد كتب إليه الملك العادل نور الدين محمود يأمره بقطع الخطبة العاضدية وإقامة الخطبة العباسية فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الإجابة إلى ذلك لميلهم إلى دولة المصريين فلم يصغ نور الدين إلى قوله وأرسل إليه يلزمه بذلك إلزاما لا فسحة له فيه واتفق أن العاضد مرض وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة فاستشار أمراءه كيف الإبتداء بالخطبة العباسية فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها ومنهم من خاف ذلك إلا أنه لا يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين وكان قد دخل إلى مصر إنسان عجمي يعرف بالأمير العالم وقد رأيناه بالموصل كثيرا فلما رأى ما هم فيه من الإحجام قال أنا أبتدىء بها فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بأمر الله فلم ينكر أحد ذلك فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله ففعلوا ذلك ولم ينتطح فيها عنزان وكتب بذلك إلى سائر ديار المصرية وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك وقالوا إن سلم فهو يعلم وإن توفي فلا ينبغي أن ننغص عليه هذه الأيام التي بقيت من أجله فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصره وجميع ما فيه وكان

قد رتب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش وهو خصـــي يحفظه قلت وقد تقدم ذكره في ترجمة أيضـــا قال وجعله كأســـتاذ دار العاضـــد فحفظ ما فيه حتى تسلمه صلاح الدين ونقل أهل العاضد إلى مكان منفرد ووكل بحفظهم وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم

158 في إيوان في القصـــر وجعل عندهم من يحفظهم وأخرج من كـان من العبيـد والإمـاء فـأعتق البعض ووهب البعض وباع البعض وأخلى القصـــر من أهله وسكانه فسبحان من لا يزول ملكه ولا يغيره ممر الأيام وتعاقب الدهور ولما اشـتد مرض العاضـد أرسـل يسـتدعي صـلاح الدين فظن أن ذلك خديعة فلم يمض إليه فلما توفي علم صـــدقة فندم على تخلفه عنه وكان ابتداء الدولة العبيدية بافريقية والمغرب في ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين وأول من ظـهر منهم المهدي أبو محمد عبيد الله وبنى المهدية وملك إفريقية كلها قلت هكذا ذكر شـيخنا ابن الأثير تاريخ اسـتيلاء المهدي عبيد الله على إفريقية والصـواب فيه هو الذي ذكرته في ترجمته فيكشـــف منه ثم إنه قال ولما مات المهدي عبيد الله قام بالأمر بعده ولده القائم أبو القاسـم محمد ثم ذكرهم واحدا واحدا حتى انتهى إلى العاضـد المذكور فقال وانقرضـــت دولتهم فكانت مدة دولتهم مائتي سـنة وسـتا وسـتين سـنة وكان مقامهم بمصـر مائتي سـنة وثماني سنين وملك منهم أربعة عشر وهم المهدي والقائم والمنصـــور والمعز والعزيز والحاكم

والظاهر والمستنصر والمستعلي والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد آخرهم قلت وقد ذكرت كل واحد من هؤلاء بترجمة مستقلة في هذا الكتاب فمن اختار الوقوف على احوالهم فليطلبه في اسمه ولا حاجة إلى ذكره ها هنا قال شيخنا ابن الأثير وقد أتينا على ذكر ما اجملناه مستقصى في التاريخ الكبير يعني كتابه الذي سماه الكامل وهو مشهور ومن أنفع الكتب في بابه قال ولما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره اختار منه منه ما أراد وو هب اهله وأمراءه وباع منه كثيرا وكان فيه من الجواهر والأعلاق النفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك قد جمع على طول السنين وممر الدهور فمنه القضيب الزمرذ طوله نحو قبضة ونصف والجبل

159 الياقوت وغيرهما ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد ولما خطب للمستضيء بأمر الله بمصر أرسل نور الدين إليه يعرفه ذلك فحل عنده أعظم محل وسير إليه الخلع الكاملة مع عماد الدين صندل المقتفوي إكراما له لأن عماد الدين كان كبير المحل في الدولة العباسية وكذلك أيضا سير خلعا لصلاح الدين إلا أنها أقل من خلع نور الدين وسيرت الأعلام السود لتنصب على المنابر وكانت هذه أول أهبة عباسية دخلت مصر بعد استيلاء العبيدين عليها انتهى ما قاله شيخنا ابن الأثير قلت ولما وصل الخبر إلى الإمام المستضيء

بأمر الله أبي محمد الحسـن ابن الإمام المسـتنجد وهو
والد الإمام الناصـر لدين الله بما تجدد من أمر مصـر
وعود الخطبة والسكة بها باسمه بعد انقطاعها بمصر
هذه المدة الطويلة نظم أبو الفتح محمد سـبط ابن
التعاويذي المقدم ذكره قصـيدة طنانة مدح بها الإمام
المسـتضـيء وذكر هذا الفتوح المتجدد له وفتوح بلاد
اليمن أيضـا وهلاك الخارجي بها الذي سـمى نفسـه
المهدي وذلك في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة وكان
صـلاح الدين قد أرسـل له من ذخائر مصـر وأسـلاب
المصـريين شـيئا كثيرا وأولها (قل للسـحاب إذا
مرتهيد الجنائب فارجحن) (عج باللوى فاسـمح
بدمعك للمعاهد والدمن) (يا منزل الأنس الجميع
وملعب الحي الأغن) (سـكنت بك الآرام من بعد
الأحبة والسكن) (أين استقلت بالحبيب ركابة ومتى
ظعن) (شـوقي إلى زمن الحمى سـقي الغوادي من
زمن)
160 (شـوق المغرب شـردته يد البعاد عن
الوطن) (ولقد عهدتك والزمان * بشملنا بك ما فطن
) (وثراك ما اغبرت مسارحه * وماؤك ما أجن) (
وظباؤك الأتراب لي * وطر وتربك لي وطن) (لام
العذول وما درى * وجدي وبلبالي بمن) (وجدي
بمن فضح القضيب وأخجل الرشأ الأغن) (ما ضر
من هو فتنتي * لو كان يرحم من فتن) (دمعي طليق
في محبته * وقلبي مرتهن) (يا محنتي أودى

الصـــدود * بعاشــق بك ممتحن) (غاذرته وقفاً على
العبرات بعدك والحزن) (كلف الفؤاد معذباً * بين
الإقامة والظعن) (عطفاً على قرح الجفون * بعيد
عهد بالوســــن) (لا تبخلي فالبخل يذهب * بهجة
الوجه الحســــن) (ولرب ليل بت فيه صـــريع باطية
ودن) (أختال من مرح وأسحب فضل ذيلي والردن
) (مع مخطف لدن القوام * إذا انثنى رخص البدن)
(لكنني كفرت ليلة زرته عني وعن) (بمدائحي
للمســـتضـــيء * أبي محمد الحســــن) (المســـتقر من
الخلافة * في الشواهق والقنن) ومنها (يا جارياً في
العدل من * ســنن النبي على ســنن) (يا جامعاً خلق
النبوة * والخلافة في قرن)
161 (دانت لهيبتك الممالك * والمعاقل والمدن
) (بالمشرفيات الصوارم * والمثقفة اللدن) (وأتتك
اســـلاب الملوك * من الصــــعيد إلى عدن) (ســــلب
الدعي بأرض مصـــــر والمضـــــلل في اليمن) (مما
اقتناه ذو رعين في القديم وذو يزن) (وشـــفيت منهم
بالظبا * تلك الضـــغائن والاحن) (لم تغن عنهم حين
رعتهم الحصون ولا الجنن) (أمست سباياهم تقاد *
أذلة قود البدن) (غادرت عرض بلادهم * غرض
النوائب والمحن) (في كل يوم من جيوشـــك * غارة
فيها تشــــن) (وأعدت ســـــر الأولياء * المؤمنين بها
علن) (ورحضــت ما ابقته آثار * الخوارج من درن
) (فكأن دعوتهم على * تلك المنابر لم تكن) وهي

طويلة فتقتصـر منها على هذا القدر ففيه كفاية ومدحه أيضـاً بقصـيدة أخرى اشـار فيها إلى هذا المعنى وليس على خاطري من هذه القصـيدة سـوى غزلها فأحببت ذكره لكونه في غاية الحسـن واللطافة وهو (أهلا بطلعة زائر * فضح الدجى بضيائها) (سمح الزمان بوصـلها * فدنت على عدوائها) (باتت تعاطيني المدام * وكنت من أكفائها) (فسـكرت من ألحاظها * وغنيت عن صـهبائها) (بيضـاء قتلي دأبها * في نأيها وثوائها)

162 (فإذا دنت بجفونها * وإذا نأت بجفائها) (لا تلتقي ابداً مواعدها * بيوم وفائها) (الشمس من ضراتها * والبدر من رقبائها) (والصبح فوق لثامها * والليل تحت ردائها) (مضـرية تنمى إذا انتسـبت إلى حمرائها) (بـاتـت وأطراف الرمـاح * تجول حول خبائها) (فالموت دون فراقها * والموت دون لقائها) (ولقد مررت بربعها * بعد النوى وفنائها) (والعين في الأطلال سـاكنة * على أطلائها) (فوقفت أنشـد في مطالعها * بدور سـمائها) (وبكيت حتى كدت أعطف بانتي جرعائها) (يا موحش العين التي * أنسـت بطول بكائها) (غادرت بين جوانحي * نفسـاً تموت بدائها) (تشـتاق عيني أن تراك * وأنت في سـودائها) (فاذا بخلت بنظرة * سـمحت بجمة مائها) (فكأنها كف الخليفة أسـلبت بعطائها) وبعد هذا شرع في المديح وابدع فيها جميعها وسأذكر

بعد هذا عند أواخر هذه الترجمة شـــيئاً من مدائحه في صلاح الدين إن شاء الله تعالى فقد كان يسير قصائده إليه من بغداد فتصل أولاً إلى القاضي الفاضل ومعها مديح للفاضل وهو الذي يعرض قصائده على صلاح الدين رحمه الله تعالى ثم ذكر شـــيخنا ابن الأثير بعد هذا فصــلاً يتضــمن حصــول الوحشــة بين نور الدين وصلاح الدين باطناً فقال وفي سنة سبع وستين ايضاً حدث

163 ما أوجب نفرة نور الدين عن صلاح الدين

وكان الحادث أن نور الدين أرســل إلى صـــلاح الدين يأمره بجمع العســاكر المصــرية والمسـير بها إلى بلد الفرنج والنزول على الكرك ومحاصـــرته ليجمع هو ايضــاً عســاكره ويسـير إليه ويجتمعا هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشـرين من المحرم وكتب إلى نور الدين يعرفه أن رحيله لا يتأخر وكان نور الدين قد جمع عسـاكره وتجهز وأقام ينتظر ورود الخبر من صــلاح الدين برحيله ليرحل هو فلما أتاه الخبر بذلك رحل من دمشـــق عازماً على قصــد الكرك فوصــل إليه وأقام ينتظر وصــول صــلاح الدين أليه فأرسـل كتابه يعتذر فيه عن الوصول باختلال البلاد المصرية لأمور بلغته عن بعض شيعة العلويين وأنهم عازمون على الوثوب بها وأنه يخاف عليها مع البعد عنها فعاد إليها فلم يقبل نور الدين عذره وكان ســبب تقاعده أن أصـــحابه

وخواصــــه خوفوه من الاجتماع بنور الدين فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده وعزم على الدخول إلى مصـــر وإخراج صـــلاح الدين عنها فبلغ الخبر إلى صـــلاح الدين فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين ايوب وخاله شـــهاب الدين الحارمي ومعهم ســـائر الأمراء وأعلمهم ما بلغه عن عزم نور الدين على قصده وأخذ مصر منه واستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشيء فقام تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين قلت وقد تقدم ذكره في ترجمة مســـتقلة قال وقال إذا جاء قاتلناه وصـــددناه عن البلاد ووافقه غيره من أهله فشـتمهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واسـتعظمه وكان ذا رأي ومكر وعقل وقال لتقي الدين اقعد وســبه وقال لصــلاح الدين أنا ابوك وهذا شــهاب الدين خالك أتظن أن في هؤلاء كلهم من يحبـك ويريـد لـك الخير مثلنـا فقال لا فقال والله لو رأيت أنا وهذا خالك شـهاب الدين نور الدين لم يمكنا إلا أن نترجل له ونقبل الأرض بين يديه ولو أمرنا أن نضرب عنقك
164 بالســـيف لفعلنا فاذا كنا نحن هكذا كيف يكون غيرنا وكل من تراه من الأمراء والعســـاكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاســـر على الثبات على سـرجه ولا وسـعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه وهذه البلاد له وقد اقامك فيها وإن أراد عزلك فأي حاجة لـه إلى المجيء يأمرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ويولي بلاده من يريد وقال للجماعة كلهم

قوموا عنا ونحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد فتفرقوا على هذا وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر ولما خلا أيوب بابنه صلاح الدين قال له أنت جاهل قليل المعرفة تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما في نفسك فاذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه عن البلاد جعلك أهم الأمور إليه وأولاها بالقصد ولو قصدك لم تر معك أحداً من هذا العسكر وكانوا أسلموك إليه وأما الآن بعد هذا المجلس فسيكتبون إليه ويعرفونه قولي وتكتب أنت إليه وترسل في المعنى وتقول أي حاجة إلى قصدي يجبي نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك واستعمل ما هو أهم عنده والأيام تتدرج والله في كل وقت في شان والله لو أراد نور الدين قصبة من قصب سكرنا لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو اقتل ففعل صلاح الدين ما اشار به والده فلما رأى نور الدين الأمر هكذا عدل عن قصده وكان الأمر كما قال نجم الدين أيوب وتوفي نور الدين ولم يقصده وهذا كان من أحسن الآراء وأجودها انتهى ما ذكره ابن الأثير وقال شيخنا ابن شداد في السيرة لم يزل صلاح الدين على قدم بسط العدل ونشر الإحسان وإفاضة الإنعام على الناس إلى سنة ثمان وستين وخمسمائة فعند ذلك خرج بالعسكر يريد بلاد الكرك والشوبك وإنما بدأ بها لأنها كانت اقرب إليه وكانت في الطريق تمنع من يقصد

الديار المصرية وكان لا يمكن أن تعبر قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها فأراد
165 توسيع الطريق وتسهيلها فحاصرها في هذه السنة وجرى بينه وبين الفرنج وقعات وعاد ولم يظفر منها بشيء ولما عاد بلغه خبر وفاة والده نجم الدين أيوب قبل وصوله إليه قلت وقد ذكرت تاريخ وفاته في ترجمته قال ولما كانت سنة تسع وستين رأى قوة عسكره وكثرة عدده وكان بلغه أن باليمن إنساناً استولى عليها وملك حصونها يسمى عبد النبي بن مهدي فسير أخاه توران شاه فقتله وأخذ البلاد منه وقد بسطت القول في ذلك في ترجمته ثم توفي نور الدين في سنة تسع وستين حسبما شرحته في ترجمته فلا حاجة إلى الإعادة وبلغ صلاح الدين أن إنساناً يقال له الكنز جمع بأسوان خلقاً عظيماً من السودان وزعم أنه يعيد الدولة المصرية وكان أهل مصر يؤثرون عودهم فانضافوا إلى الكنز المذكور فجهز صلاح الدين إليه جيشاً كثيفاً وجعل مقدمه أخاه الملك العادل وساروا فالتقوا وكسروهم وذلك في السابع من صفر سنة سبعين وخمسمائة واستقرت له قواعد الملك وكان نور الدين رحمه الله قد خلف ولده الملك الصالح إسماعيل المذكور في ترجمة ابيه وكان بدمشق عند وفاة ابيه وكان بقلعة حلب شمس الدين علي بن الداية وشاذبخت وكان ابن الداية قد حدث نفسه بأمور فسار الملك الصالح من دمشق إلى حلب فوصل إلى ظاهرها

في المحرم من سنة سبعين ومعه سابق الدين فخرج بدر الدين حسن ابن الداية فقبض على سابق الدين ولما دخل الملك الصالح القلعة قبض على شمس الدين وأخيه حسن المذكور وأودع الثلاثة السجن وفي ذلك اليوم قتل ابو الفضل ابن الخشاب لفتنة جرت بحلب وقيل بل قتل قبل قبض أولاد الداية بيوم لأنهم تولوا تدبير ذلك ثم إن صلاح الدين بعد وفاة نور الدين علم أن ولده الملك الصالح صبي

166 لا يستقل بالأمر ولا ينهض بأعباء الملك واختلفت الأحوال بالشام وكاتب شمس الدين ابن المقدم صلاح الدين فتجهز من مصر في جيش كثيف وترك بها من يحفظها وقصد دمشق مظهراً أنه يتولى مصالح الملك الصالح فدخلها بالتسليم في يوم الثلاثاء سلخ شهر ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة وتسلم قلعتها وكان أول دخوله دار أبيه قلت وهي الدار المعروفة بالشريف العقيقي وهي اليوم في قبالة المدرسة العادلية مشهورة هناك بالعقيقي قال واجتمع الناس إليه وفرحوا به وأنفق في ذلك اليوم مالاً جليلاً واظهر السرور بالدمشقيين وصعد القلعة وسار إلى حلب فنازل حمص وأخذ مدينتها في جمادى الأولى من السنة ولم يشتغل بقلعتها وتوجه إلى حلب ونازلها في يوم الجمعة سلخ جمادى الأولى من السنة وهي الوقعة الأولى ثم إن سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي صاحب الموصل لما

أحس بما جرى علم أن الرجل قد استفحل أمره وعظم شأنه وخاف إن غفل عنه استحوذ على البلاد واستقرت قدمه في الملك وتعدى الأمر إليه فأنفذ عسكراً وافراً وجيشاً عظيماً وقدم عليه أخاه عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود وساروا يريدون لقاءه ليردوه عن البلاد فلما بلغ صلاح الدين ذلك رحل عن حلب في مستهل رجب من السنة عائداً إلى حماة ورجع إلى حمص فأخذ قلعتها ووصل عز الدين مسعود إلى حلب وأخذ معه عسكر ابن عمه الملك الصالح بن نور الدين صاحب حلب يومئذ وخرجوا في جمع عظيم فلما عرف صلاح الدين بمسيرهم سار حتى وافاهم على قرون حماة وراسلهم وراسلوه واجتهد أن يصالحوه فما صالحوه ورأوا أن ضرب المصاف معه ربما نالوا به غرضهم والقضاء يجر إلى أمور وهم بها لا يشعرون فتلاقوا فقضى الله تعالى أن انكسروا بين يديه واسر جماعة منهم فمن عليهم وذلك في تاسع شهر رمضان من

167 السنة عند قرون حماة ثم سار عقيب كسرتهم ونزل على حلب وهي الدفعة الثانية فصالحوه على أخذ المعرة وكفر طاب وبارين ولما جرت هذه الوقعة كان سيف الدين غازي يحاصر أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار وعزم على أخذها منه لأنه كان قد انتمى إلى صلاح الدين وكان قد قارب أخذها فلما بلغه الخبر وأن عسكره انكسر خاف أن

يبلغ أخاه عماد الدين الخبر فيشتد أمره ويقوى جأشه فراسله وصالحه ثم سار من وقته إلى نصيبين واهتم بجمع العساكر والإنفاق فيها وسار إلى البيرة وعبر الفرات وخيم على الجانب الشامي وراسل ابن عمه الصالح بن نور الدين صاحب حلب حتى تستقر له قاعدة يصل عليها ثم إنه وصل إلى حلب وخرج الملك الصالح إلى لقائه واقام على حلب مدة وصعد قلعتها جريدة ثم نزل وسار إلى تل السلطان قلت وهي منزلة بين حماة وحلب قال ومعه جمع كبير وأرسل صلاح الدين إلى مصر طلب عسكرها فوصل إليه وسار به حتى نزل على قرون حماة ثم تصافوا بكرة نهار الخميس العاشر من شوال سنة إحدى وسبعين وجرى قتال عظيم وانكسرت ميسرة صلاح الدين بمظفر الدين بن زين الدين قلت هو صاحب إربل المقدم ذكره قال فإنه كان على ميمنة سيف الدين فحمل صلاح الدين بنفسه فانكسر القوم وأسر منهم جمعاً من كبار الأمراء فمن عليهم واطلقهم وعاد سيف الدين إلى حلب فأخذ منها خزائنه وسار حتى عبر الفرات وعاد إلى بلاده ومنع صلاح الدين من تتبع القوم ونزل في بقية ذلك اليوم في خيامهم فانهم تركوا أثقالهم وانهزموا ففرق صلاح الدين الاصطبلات ووهب الخزائن وأعطى خيمة سيف الدين لابن أخيه عز الدين فرخشاه قلت هو ابن شاهان شاه ابن أيوب وهو أخو تقي الدين عمر صاحب حماة وفرخشاه صاحب

بعلبك وهو والد الملك الأمجد بهرام شـــاه صـــاحب بعلبك قال وسـار إلى منبج فتسـلمها ثم سـار إلى قلعة عزاز يحاصرها وذلك

168 في رابع ذي القعدة من سنة إحدى وسبعين وعليها وثب جماعة من الإســماعيلية على صـــلاح الدين فنجاه الله ســبحانه منهم وظفره بهم وأقام عليها حتى أخذها في رابع عشـــر ذي الحجة من الســنة ثم سار فنزل على حلب في سادس عشر الشهر المذكور وأقام عليها مدة ثم رحل عنها وكانوا قد أخرجوا له ابنة صغيرة لنور الدين سألته عزاز فوهبها لها ثم عاد صــلاح الدين إلى مصــر ليتفقد أحوالها وكان مســيره إليها في شــهر ربيع الأول من ســنة اثنتين وســبعين وكان أخوه شمس الدولة توران شاه قد وصل إليه من اليمن فاسـتخلفه بدمشـق ثم تأهب للغزاة وخرج يطلب السـاحل حتى وافى الفرنج على الرملة وذلك في أوائل جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وكانت الكسرة على المسلمين في ذلك اليوم قلت وذلك لأمر يطول شـرحه قال فلما انهزموا لم يكن لهم حصـــن قريب يأوون إليه فطلبوا جهة الديار المصـــرية وضـــلوا في الطريق وتبددوا وأسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى الهكاري وكان ذلك وهناً عظيماً جبره الله تعالى بوقعة حطين المشـــهورة وأما الملك الصـــالح صـــاحب حلب فانه تخبط أمره وقبض على كمشـــتكين صـــاحب دولته وطلب منه تسـليم حارم إليه فلم يفعل فقتله فلما ســمع

الفرنج بقتلـه نزلوا على حـارم طمعـاً فيهـا وذلـك في جمادى الآخرة من الســنة فلما راى أهل قلعتها الخطر من جهة الفرنج سلموها إلى الملك الصـالح في العشـر الأواخر من شــهر رمضــان من الســنة فرحل الفرنج عنها واقام صلاح الدين بمصر حتى لم شعثه وشعث أصـــحابه من اثر كســرة الرملة ثم بلغه تخبط الشـــام فعزم على العود إليه واهتم بالغزاة فوصله رسول قليج أرسـلان صـاحب الروم يلتمس الصـلح ويتضـرر من الأرمن فعزم على قصـد بلاد ابن لاون قلت وهي بلاد سيس الفاصلة بين حلب والروم من جهة السـاحل قال لينصر قليج ارسلان عليه فتوجه إليه واستدعى عسكر حلب لأنه كان في الصلح أنه متى استدعاه حضر إليه ودخل بلد ابن لاون واخذ في طريقه حصـــنا واخربه ورغبوا إليه في الصلح فصالحهم ورجع عنهم ثم سأله قليج أرسلان في صلح الشرقيين بأسرهم فأجاب إلى
169 ذلك وحلف صلاح الدين في عاشر جمادى الأولى سنة ست وسبعين وخمسمائة ودخل في الصالح قليج أرسـلان والمواصـلة وعاد بعد تمام الصـلح إلى دمشـق ثم منها إلى مصـر ثم توفي الملك الصـالح بن نور الدين في التاريخ المذكور في ترجمة والده وكان قد اسـتحلف أمراء حلب وأجنادها لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل قلت وقد تقدم ذكره وهو ابن قطب الدين مودود فلما مات ســيف الدين في التاريخ المذكور في ترجمته قام مقامه أخوه عز الدين مسـعود

المذكور قال فلما بلغ عز الدين خبر موت الملك
الصالح وانه أوصى له بحلب بادر إلى التوجه إليها
خوفاً أن يسبقه صلاح الدين فيأخذها فكان أول قادم
إليها مظفر الدين بن زين الدين قلت هو صاحب إربل
وكان إذ ذاك صاحب حران وهو مضاف إلى
المواصلة لأن تلك البلاد كانت لهم قال فوصلها مظفر
الدين في ثالث شعبان سنة سبع وسبعين وفي العشرين
منه وصلها عز الدين مسعود وصعد إلى القلعة
فاستولى على ما فيها من الحواصل وتزوج أم الملك
الصلح في خامس شوال من السنة قلت ثم إن شيخنا
ابن شداد ذكر بعد هذا أموراً ذكرتها في ترجمة عز
الدين مسعود بن مودود وترجمة أخيه عماد الدين
زنكي وترجمة تاج الملوك بوري أخي صلاح الدين
فلا حاجة إلى إعادتها ها هنا فمن أراد الوقوف عليها
يكشفها في هذه التراجم قلت وحاصل الأمر أن عز
الدين مسعوداً قايض اخاه عماد الدين زنكي
170 صاحب سنجار عن حلب بسنجار وخرج
عزالدين عن حلب ودخلها عماد الدين زنكي فجاءه
صلاح الدين وحاصره فلم يقدر عماد الدين على حفظ
حلب وكان نزول صلاح الدين على حلب في السادس
والعشرين من المحرم سنة تسع وسبعين وخمسمائة
وقال ابن شداد نزل عليها في سادس عشر المحرم
والله أعلم فتحدث عماد الدين زنكي مع الأمير حسام
الدين طمان بن غازي بن يلمي بن تنجول من جبل

سلور بحلب في السر بما يفعله فأشار عليه بأن يطلب منه بلاداً وينزل له عن حلب بشرط أن يكون له جميع ما في القلعة من الأموال فقال له عماد الدين و هذا كان في نفسي ثم اجتمع حسام الدين طمان بصلاح الدين في السر على تقرير القاعدة في ذلك فأجابه صلاح الدين إلى ما طلب ودفع له سنجار والخابور ونصيبين وسروج ودفع لطمان الرقة لسفارته بينهما وحلف صلاح الدين على ذلك في سابع عشر صفر من السنة وكان صلاح الدين قد نزل على سنجار وأخذها في ثامن شهر رمضان سنة ثمان و سبعين وأعطاها لابن أخيه تقي الدين عمر فلما جرى الصلح على هذه الصورة أعطاها عماد الدين وتسلم صلاح الدين قلعة حلب وصعد إليها يوم الاثنين السابع والعشرين من صفر سنة تسع وسبعين وخمسمائة وأقام بها حتى رتب أمورها ثم رحل عنها في الثاني والعشرين من شهر ربيع الاخر من السنة وجعل فيها ولده الملك الظاهر المقدم ذكره في ترجمة مستقلة وكان صبياً وولى القلعة سيف الدين يازكوج الأسدي وجعله يرتب مصالح ولده ثم سار صلاح الدين إلى دمشق في التاريخ المذكور قال ابن شداد وتوجه من دمشق لقصد محاصرة الكرك في الثالث من رجب من السنة وسير إلى أخيه الملك العادل و هو بمصر يستدعيه ليجتمع به على الكرك فسار إليه بجمع كثير وجيش عظيم واجتمع به على الكرك في رابع شعبان من السنة فلما

بلغ الفرنج الخبر حشدوا خلقاً كثيراً وجاءوا إلى الكرك ليكونوا في
171 قبالة عسكر المسلمين فخاف صلاح الدين على الديار المصرية فسير إليها ابن أخيه تقي الدين عمر ورحل عن الكرك في سادس عشر شعبان من السنة واستصحب اخاه الملك العادل معه ودخل دمشق في الرابع والعشرين من شعبان من السنة وأعطاه حلب ودخلها في يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رمضان من السنة وخرج الملك الظاهر ويازكوج ودخلا دمشق في يوم الاثنين الثامن والعشرين من شوال من السنة وكان الملك الظاهر أحب أولاده إليه لما فيه من الخلال الحميدة ولم يأخذ منه حلب إلا لمصلحة رآها في ذلك الوقت وقيل إن العادل أعطاه على أخذ حلب ثلثمائة ألف دينار يستعين بها على الجهاد والله أعلم ثم إن صلاح الدين رأى أن عود الملك العادل إلى مصر وعود الملك الظاهر إلى حلب أصلح قيل كان سبب ذلك أن الأمير علم الدين سليمان بن جندر قال لصلاح الدين وكان بينهما مؤانسة قبل أن يتملك البلاد وقد سايره يوماً وكان من أمراء حلب والملك العادل لا ينصفه ويقدم عليه غيره وكان صلاح الدين قد مرض على حصار الموصل وحمل إلى حران وأشفى على الهلاك فلما عوفي رجع إلى الشام واجتمعا في المسير قال له وكان صلاح الدين قد أوصى لكل واحد من أولاده بشيء من البلاد

بأي رأي كنت تظن أن وصيتك تمضى كأنك كنت
خارجاً إلى الصيد وتعود فلا يخالفونك أما تستحي أن
يكون الطائر أهدى منك إلى لمصلحة قال وكيف ذاك
وهو يضحك قال إذا أراد الطائر أن يعمل عشاً لفراخه
قصد أعالي الشجر ليحمي فراخه وأنت سلمت
الحصون إلى أهلك وجعلت أولادك على الأرض هذه
حلب وهي أم البلاد بيد أخيك وحماة بيد ابن اخيك تقي
الدين وحمص بيد ابن أسد الدين وابنك الأفضل مع
تقي الدين بمصر يخرجه متى شاء وابنك الآخر مع
أخيك في خيمة يفعل به ما أراد فقال له صدقت واكتم
هذا الأمر ثم أخذ حلب من أخيه وأعطاها ابنه الملك
الظاهر وأعطى الملك العادل بعد ذلك حران والرها
172 وميافارقين ليخرجه من الشام ويتوفر
الشام على أولاده فكان ما كان قلت وقد تقدم في
ترجمة عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود
صاحب الموصل فصل يتعلق بنزول صلاح الدين
على الموصل وحصارها ثلاث مرار ولم يقدر عليها
قال شيخنا ابن الأثير في تاريخه إنه نزل عليها في
الدفعة الثالثة وكان زمن الشتاء وعزم على المقام
وإقطاع جميع بلاد الموصل وكان نزوله في شعبان
من سنة إحدى وثمانين وخمسمائة فأقام شعبان وشهر
رمضان وترددت الرسل بينه وبين صاحبها فبينما هو
كذلك مرض صلاح الدين فعاد إلى حران ولحقته
الرسل بالإجابة إلى ما طلب وتم الصلح على أن يسلم

إليه صــاحب الموصــل شــهرزور وأعمالها وولاية القرابلي وما وراء الزاب من الأعمال وأن يخطب له على المنابر وينقش اسمه على السكة فلما حلف أرسل صــلاح الدين نوابه وتسلم البلاد التي استقرت القاعدة على تسليمها وطال المرض على صلاح الدين بحران واشــتد به حتى أيســوا منه فحلف الناس لأولاده وكان عنده منهم الملك العزيز عماد الدين عثمان وأخوه العادل جاءه من حلب وهو ملكها يومئذ وجعل لكل واحد شــيئا من البلاد وجعل الملك العادل وصــياً على الجميع ثم إنه عوفي وعاد إلى دمشــق في المحرم من سنة اثنتين وثمانين ولما كان مريضاً بحران كان عنده ناصــر الدين محمد ابن عمه شــيركوه وله من الإقطاع حمص والرحبة فســـار من عنده إلى حمص واجتاز بحلب وأحضر جماعة من الأحداث ووعدهم وأعطاهم مالاً ولما وصـــل إلى حمص راســـل جماعة من أهل دمشق ووعدهم على تسليم دمشق إليه إذا مات صلاح الدين فعوفي ولم يمض قليل حتى مات ناصـــر الدين ليلة عيد النحر من السنة فإنه شرب

173 الخمر فأكثر منه فأصـــبح ميتاً وقيل إن صــلاح الدين وضــع عليه إنســاناً فحضــر عنده ونادمه وسقاه سماً فلما اصبحوا من الغد لم يروا ذلك الشخص وكان يقال له الناصــح بن العميد فسـألوا عنه فقالوا إنه ســار من ليلته وكان هذا مما قوى الظن والله أعلم فلما توفي أعطى إقطاعه لولده شيركوه وعمره اثنتا عشرة

سـنة وخلف من الأموال والدواب والأثاث شـيئاً كثيراً فحضـر صـلاح الدين إلى حمص واسـتعرض تركته وأخذ أكثرها ولم يترك إلا ما لا خير فيه ثم قال شيخنا بعد هذا كله وبلغني أن شـيركوه حضـر عند صـلاح الدين بعد موت ابيه بسـنة فقال له إلى أين بلغت في القرآن فقال لـه (^ إن الـذين يـأكلون أموال اليتـامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً) النسـاء 10 فعجب الجماعة وصـلاح الدين من ذكائه والله أعلم بصـحة ذلك قال ابن شداد ولما وصل صلاح الدين إلى دمشق عقيب مرضـه وإبلاله سـير طلب أخاه الملك العادل فخرج من حلب جريدة ليلة السـبت الرابع والعشـرين من شـهر ربيع الأول من سـنة اثنتين وثمانين ومضـى إلى دمشـق فأقام في خدمة السـلطان صـلاح الدين وجرت بينهما احاديث ومراجعات وقواعد تتقرر إلى جمادى الآخرة من السـنة فاسـتقر الأمر على عود الملك العادل إلى مصر وأخذت حلب منه وسار الملك الظاهر إليها فدخل قلعتها يوم السـبت سـنة اثنتين وثمانين وخمسـمائة وقد ذكرت في ترجمة الملك الظاهر أنه دخل حلب مالكاً لها في مثل يوم وفاته وعينت هناك التاريخ واسـم اليوم هكذا وجدته وما أدري من اين نقلته وسلم السلطان ولده الملك العزيز إلى العادل وجعله أتابكه قال ابن شـداد قال لي الملك العادل لما استقرت هذه القاعدة اجتمعت بخدمة

174 الملك العزيز والملك الظاهر وجلست بينهما وقلت للملك العزيز اعلم يا مولاي ان السلطان أمرني أن أسير في خدمتك إلى مصر وأنا أعلم أن المقدمين كثير وما يخلو أن يقال عني ما لا يجوز ويخوفوك مني فإن كان لك عزم أن تسمع منهم فقل لي حتى لا أجيء فقال كيف يتهيأ لي أن أسمع منهم أو أرجع إلى رأيهم ثم التفت إلى الملك الظاهر وقلت له أنا أعرف أن أخاك ربما سمع في أقوال المقدمين وأنا فما لي إلا أنت وقد قنعت منك بمنبج متى ضاق صدري من جانبه فقال مبارك وذكر لي كل خير وزوج السلطان ولده الملك الظاهر غازية خاتون ابنة أخيه الملك العادل ودخل بها يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر رمضان من السنة ثم كانت وقعة حطين المباركة على المسلمين قال وكانت في يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة في وسط نهار الجمعة وكان كثيراً ما يقصد لقاء العدو في يوم الجمعة عند الصلاة تبركاً بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر فسار في ذلك الوقت بمن اجتمع له من العساكر الإسلامية وكانت تجوز العد والحصر على تعبية حسنة وهيئة جميلة وكان قد بلغه عن العدو أنه اجتمع في عدة كثيرة بمرج صفورية بأرض عكا عندما بلغهم اجتماع العساكر الإسلامية فسار ونزل على بحيرة طبرية ثم رحل ونزل على طبرية على سطح الجبل ينتظر قصد

الفرنج لـه إذا بلغهم نزولـه بـالموضـــع المـذكور فلم يتحركوا ولا خرجوا من منزلتهم وكـان نزولـهم بالموضع المذكور يوم الأربعاء الحادي والعشرين من شـــهر ربيع الاخر فلما رآهم لا يتحركون نزل جريدة على طبريـة وترك الأطلاب على حـالها قبـالـة العدو ونـازل طبريـة وهجمها وأخـذها في ســـاعـة واحدة وانتهـب النـاس مـا بهـا وأخـذوا في القتـل والســـبي والحريق وبقيت القلعة محتمية بمن فيها

175 ولما بلغ العدو ما جرى على طبرية قلقوا لذلك ورحلوا نحو ها فبلغ الســـلطان ذلك فترك على طبرية من يحاصــــر قلعتها ولحق بالعســـكر فالتقى بالعدو على ســـطح جبل طبرية الغربي منها وذلك في يوم الخميس الثاني والعشــرين من شـــهر ربيع الآخر وحال الليل بين العسكرين قياما على مصاف إلى بكرة يوم الجمعة الثالث والعشــرين منه فركب العســكران وتصادما والتحم القتال واشتد الأمر وذلك بأرض قرية تعرف بلوبيا وضاق الخناق بالعدو وهم سائرون كأنهم يســـاقون إلى الموت وهم ينظرون وقد أيقنوا بالويل والثبور وأحســـت نفوســـهم أنهم في غد يومهم ذلك من زوار القبور ولم تزل الحرب تضــطـرم والفارس مع قرنه يصــطـدم ولم يبق إلا الظفر ووقع الوبال على من كفر فحـال بينهم الليـل بظلامـه وبـات كل واحد من الفريقين في سلاحه إلى صبيحة يوم السبت فطلب كل من الفريقين مقامه وتحقق المســـلمون أن من ورائهم

الأردن ومن بين أيديهم بلاد العدو وأنهم لا ينجيهم إلا الاجتهاد في الجهاد فحملت أطلاب المسلمين من جميع الجوانب وحمل القلب وصاحوا صيحة رجل واحد فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين وكان حقا عليه نصر المؤمنين ولما أحس القومص بالخذلان هرب منهم في أوائل الأمر وقصد جهة صور وتبعه جماعة من المسلمين فنجا منهم وكفى الله شره وأحاط المسلمون بالكافرين من كل جانب وأطلقوا عليهم السهام وحكموا فيهم السيوف وسقوهم كأس الحمام وانهزمت طائفة منهم فتبعها أبطال المسلمين فلم ينج منها أحد واعتصمت طائفة منهم بتل يقال له تل حطين وهي قرية عندها قبر النبي شعيب عليه السلام فضايقهم المسلمون وأشعلوا حولهم النيران واشتد بهم العطش وضاق بهم الأمر حتى كانوا يستسلمون للأمر خوفا من القتل لما مر بهم فأسر

176 مقدموهم وقتل الباقون وكان ممن سلم من مقدميهم الملك جفري وأخوه والبرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك وابن الهنفري وابن صاحبه طبرية ومقدم الديوية وصاحب جبيل ومقدم الاسبتار قال ابن شداد ولقد حكي لي من أثق به أنه رأى بحوران شخصا واحدا معه نيف وثلاثون أسيرا قد ربطهم بطنب خيمة لما وقع عليهم من الخذلان ثم إن القومص الذي هرب في أول الأمر وصل إلى طرابلس فأصابه ذات الجنب فهلك منها وأما مقدما الاسبتار

والديوية فان السلطان قتلهما وقتل من بقي من صنفهما حيا وأما البرنس أرناط فان السلطان كان قد نذر أنه إن ظفر به قتله وذلك لأنه كان قد عبر به عند الشوبك قوم من الديار المصرية في حال الصلح فغدر بهم وقتلهم فناشدوه الصلح الذي بينه وبين المسلمين فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي وبلغ السلطان فحملته حميته ودينه على أن يهدر دمه ولما فتح الله تعالى عليه بنصره جلس في دهليز الخيمة لأنها لم تكن نصبت بعد وعرضت عليه الأسارى وسار الناس يتقربون إليه بمن في أيديهم منهم وهو فرح بما فتح الله تعالى على يده للمسلمين ونصبت له الخيمة فجلس فيها شاكرا لله تعالى على ما أنعم به عليه واستحضر الملك جفري وأخاه والبرنس أرناط وناول السلطان جفري شربة من جلاب وثلج فشرب منها وكان على أشد حال من العطش ثم ناولها البرنس وقال السلطان للترجمان قل للملك أنت الذي سقيته وإلا أنا فما سقيته وكان من جميل عادة العرب وكريم اخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره أمن فقصد السلطان بقوله ذلك ثم أمر بمسيرهم إلى موضع عينه لهم فمضوا بهم إليه فأكلوا شيئا ثم عادوا بهم ولم يبق عنده سوى بعض الخدم فاستحضرهم

177 وأقعد الملك في دهليز الخيمة واستحضر البرنس أرناط وأوقفه بين يديه وقال له ها أنا أنتصر لمحمد منك ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل فسل

النيمجاه فضـــربه بها فحل كتفه وتمم قتله من حضـــر وأخرجـت جثتـه ورميـت علـى بـاب الخيمـة فلمـا رآه الملك على تلك الحـال لم يشــــك في أنـه يلحقـه بـه فاسـتحضـره وطيب قلبه وقال له لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك وأما هذا فإنه تجاوز الحد وتجرأ على الأنبياء صــــلوات الله عليهم وبات الناس في تلك الليلة على أتم ســـرور ترتفع أصـــواتهم بحمد الله وشـــكره وتهليله وتكبيره حتى طلع الفجر ثم نزل السلطان على طبرية يوم الأحد الخامس والعشــرين من شـــهر ربيع الآخر وتسلم قلعتها في ذلك النهار وأقام عليها إلى يوم الثلاثـاء ثم رحـل طـالبـا عكـا فكـان نزولـه عليهـا يوم الأربعاء ســـلخ شـــهر ربيع الآخر وقاتلها بكرة يوم الخميس مســـتهل جمادى الأولى ســـنة ثلاث وثمانين فأخذها واســـتنقذ من كان بها من أســـارى المســـلمين وكانوا أكثر من أربعة آلاف نفس واســـتولى على ما فيها من الأموال والذخائر والبضـائع لأنها كانت مظنة التجار وتفرقت العســـاكر في بلاد الســـاحل يأخذون الحصـــون والقلاع والأمـاكن المنيعة فـأخذوا نـابلس وحيفا وقيســـارية وصـــفورية والناصـــرة وكان ذلك لخلوها من الرجال لأن القتل والأســـر أفنى كثيرا منهم ولما استقرت قواعد عكا وقسم أموالها وأساراها سار يطلب تبنين فنزل عليها يوم الأحد حادي عشر جمادى الأولى وهي قلعة منيعة فنصب عليها المناجيق وضيق بـالزحف خنـاق من فيهـا وكـان فيهـا أبطـال معدودون

وفي دينهم متشــددون فقاتلوا قتالا شــديدا ونصــره الله سـبحانه عليهم فتسـلمها منهم يوم الأحد ثامن عشـرة عنوة وأســر من بقي فيها بعد القتل ثم رحل عنها إلى صــيدا فنزل عليها وتســلمها في غد يوم نزوله عليها وهو يوم الأربعاء العشــرون من جمادى الأولى وأقام عليها ريثما قرر قواعدها وســار حتى أتى بيروت فنازلها ليلة الخميس الثاني والعشــرين من جمادى الأولى وركب عليها المجانيق وداوم الزحف والقتال حتى أخذها في يوم الخميس التاســع والعشــرين من الشهر المذكور

178 وتسـلم أصـحابه جبيل وهو على بيروت ولما فرغ باله من هذا الجانب رأى قصد عسقلان ولم ير الاشـتغال بصـور بعد ان نزل عليها ثم رأى أن العسكر قد تفرق في الساحل وذهب كل واحد يحصل لنفسه وكانوا قد ضرسوا من القتال وملازمة الحرب والنزال وكان قد اجتمع في صور من بقي في الساحل من الفرنج فرأى أن قصده عسقلان أولى لأنها ايسر من صـور فاتى عسـقلان ونزل عليها يوم الأحد السادس عشر من جمادى الآخرة من السنة وتسلم في طريقه إليها مواضع كثيرة كالرملة والداروم وأقام في عسقلان المناجيق وقاتلها قتالا شديدا وتسلمها في يوم السبت سلخ جمادى الآخرة من السنة وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة وبيت جبريل والنطرون بغير قتال وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها من

المسلمين خمس وثلاثون سنة فإنهم كانوا أخذوها من المسلمين في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة هكذا ذكره شيخنا ابن شداد في السيرة وذكر الشهاب ياقوت الحموي في كتابه الذي سماه المشترك وضعا المختلف صقعا أنهم أخذوها من المسلمين في رابع عشر جمادى الآخرة من السنة قال ابن شداد لما تسلم عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساق الجد والاجتهاد في قصد القدس المبارك واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل فسار نحوه معتمدا على الله تعالى مفوضا أمره إليه منتهزا الفرصة في فتح باب الخير الذي حث على انتهازه بقوله من فتح له باب خير فلينتهزه فإنه لا يعلم متى يغلق دونه وكان نزوله عليه في يوم الأحد الخامس عشر من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وكان نزوله بالجانب الغربي وكان معه من كان مشحونا بالمقاتلة من الخيالة والرجالة وحزر أهل الخبرة ممن كان معه من كان فيه من المقاتلة فكانوا يزيدون على ستين ألفا خارجا عن النساء والصبيان ثم انتقل

179 لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي في يوم الجمعة العشرين من رجب ونصب المناجيق وضايق البلد بالزحف والقتال حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذي لا مدفع له عنهم وظهرت لهم أمارات فتح

المدينة وظهور المسلمين عليهم وكان قد اشتد روعهم لما جرى على أبطالهم وحماتهم من القتل والأسر وعلى حصونهم من التخريب والهدم وتحققوا أنهم صائرون إلى ما صار أولئك إليه فاستكانوا وأخلدوا إلى طلب الأمان واستقرت القاعدة بالمراسلة من الطائفتين وكان تسلمه في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب وليلته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن الكريم فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب كيف يسر الله تعالى عوده إلى المسلمين في مثل زمان الإسراء بنبيهم وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى وكان فتحه عظيما شهده من أهل العلم خلق ومن أرباب الخرق والزهد عالم وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسره الله تعالى على يده من فتوح الساحل وقصده القدس قصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف أحد منهم وارتفعت الأصوات بالضجيج بالدعاء والتهليل والتكبير وصليت فيه الجمعة يوم فتحه وخطب الخطيب قلت وقد تقدم في ترجمة القاضي محيي الدين محمد بن علي المعروف بابن الزكي ذكر الخطبة التي خطب بها ذلك اليوم فيكشف منه ورأيت في رسالة القاضي الفاضل المعروفة بالقدسية أن الخطبة أقيمت يوم الجمعة رابع شعبان والله أعلم وإذ قد ذكرنا فتوح القدس وقد تقدم ذكر الخطبة التي خطب يوم الجمعة بها يليق أن نذكر الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل

إلى الإمام الناصـــر لدين الله أبي العباس أحمد ابن الإمام المستضيء بأمر الله تتضمن الفتوح فإنها بديعة بليغة في بابها ولم أذكرها بكمالها بل اخترت منها أحسنها وتركت الباقي لأنها طويلة وهي

180 أدام الله تعالى أيام الديوان العزيز النبوي ولا زال مظفر الجد بكل جاحد غنيا بالتوفيق عن رأي كل رائد موقوف المساعي على اقتناء مطلقات المحامد مستيقظ النصر والنصل في جفنه راقد وارد الجود والسحاب على الأرض غير وارد متعدد مساعي الفضل وإن كان لا يلقى إلا بشكر واحد ماضي حكم العدل بعزم لا يمضي إلا بنبل غوي وريش راشد لا زالت غيوث فضله إلى الأولياء أنواء إلى المراتع وأنوارا إلى المساجد وبعوث رعبه إلى الإعداء خيلا إلى المراقب وخيالا إلى المراقد كتب الخادم هذه الخدمة تلو ما صدر عنه مما كان يجري مجرى التباشير لصبح هذه العزمة والعنوان لكتاب وصف النعمة فإنها بحر للأقلام فيه سبح طويل ولطف لحمل الشكر فيه عبء ثقيل وبشرى للخواطر في شرحها مآرب ويسرى للأسرار في إظهارها مسارب ولله تعالى في إعادة شكره رضا وللنعمة الراهنة به دوام لا يقال معه هذا مضى ولقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها وقد استتبت عقائد أهله على أبين بصائرها وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط وصدق الله أهل دينه فلما وقع الشرط وقع المشروط وكان

الدين غريبا فهو الآن في وطنه والفوز معروضـــا فقد بذلت الأنفس في ثمنه وأمر أمر الحق وكان مستضعفا وأهل ربعه وكان قد عيف حين عفا وجاء أمر الله وأنوف أهل الشـــرك راغمة وأدلجت الســـيوف إلى الآجال وهي نائمة وصـــدق وعد الله في إظهار دينه على كل دين واستطارت له أنوار أبانت أن الصـــباح عندها جنان الجنين واسترد المسلمون تراثا كان عنهم آبقا وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفا على النـأي طـارقـا واســـتقرت على الأعلى أقدامهم وخفقت على الأقصـى أعلامهم وتلاقت على الصـخرة قبلهم وشـفيت بها وإن كانت صـخرة كما تشـفى بالماء غللهم ولما قدم الدين عليها عرف منها ســـويداء قلبه وهنأ كفؤها الحجر الأســـود بين عصـــمتها من الكافر بحربه

181 وكان الخادم لا يســـعى ســـعيه إلا لهذه العظمى ولا يقاسـى تلك البؤسـى إلا رجاء هذه النعمى ولا يناجز من يســـتمطله في حربه ولا يعاتب بأطراف القنـا من يتعـادى في عتبـه إلا لتكون الكلمـة مجموعـة فتكون كلمـة الله هي العليـا وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا وكانت الألســـن ربما سـلقته فأنضـــج قلوبها بالاحتقار وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فأطفأها بالاحتمال والاصـــطبار ومن طلب خطيرا خاطر ومن رام صفقة رابحة جاسر ومن سـما لأن يجلي غمرة غامر وإلا فإن القعود يلين تحت

نيوب الأعداء المعاجم فيعضها ويضعف في أيديها مهز القوائم فيفضها هذا إلى كون القعود لا يقضى به فرض الله في الجهاد ولا يرعى به حقه في العباد ولا يوفى به واجب التقليد الذي يطوقه الخادم من أئمة قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون وخلفاء كانوا في مثل هذا اليوم يسألون لا جرم أنهم أورثوا سرهم وسريرهم خلفهم الأطهر ونجلهم الأكبر وبقيتهم الشريفة وطليعتهم المنيفة وعنوان صحيفة فضلهم لا عدم سواد القلم وبياض الصحيفة فما غابوا لما حضر ولا غضوا لما نظر بل وصلهم الأجر لما كان به موصولا وشاطروها العمل لما كان عنه منقولا ومنه مقبولا وخلص إليهم إلى المضاجع فاطمأنت به جنوبها وإلى الصحائف ما عبقت به جيوبها وفاز منها بذكر لا يزال الليل به سميرا والنهار به بصيرا والشرق يهتدي بأن داره بل إن بدا نور من ذاته هتف به الغرب بأنواره فإنه نور لا تكنه أغساق السدف وذكر لا توازيه أوراق الصحف وكتب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته شققا وطارت

182 فرقه فرقا وفل سيفه فصار عصا وصدعت حصاته وكان الأكثر عددا وحصى وكلت حملاته وكان قدرا يضرب فيه العنان بالعنان وعقوبة من الله ليس لصاحب يديها يدان وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كثيفة ونام جفن سيفه وكانت يقظته

تريق نطف الكرى من الجفون وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شـــامخة بالمنى أو راعفة بالمنون وأصـبحت الأرض المقدسـة الطاهرة وكانت الطامث والرب الفرد الواحد وكان عندهم الثالث وبيوت الكفر مهدومة ونيوب الشـــرك مهتومة وطوائفه المحامية مجمعة على تسليم القلاع الحامية وشـجعانه المتوافية مذعنة لبذل القطائع الوافية لا يرون في ماء الحديد لهم عصرة ولا في نار الأنفة لهم نصرة قد ضربت عليهم الذلة والمسـكنة وبدل الله مكان السـيئة الحسـنة ونقل بيت عبادته من أيدي أصـــحاب المشـــأمة إلى أيدي أصـــحاب الميمنة وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى فأمده الله بمداركته وأنجده بملائكته فكسرهم كسرة ما بعدها جبر وصرعهم صرعة لا ينتعش بعدها بمشيئة الله كفر وأسر منهم من أسرت به السلاسل وقتل منهم من قتلت به المناصـل وأجلت المعركة عن صـــرعى من الخيل والسـلاح والكفار وعن أصـناف يخيل بأنه قتلهم بالسـيوف الأفلاق والرماح الأكسـار فنيلوا بثار من السلاح ونالوه أيضا بثار فكم أهله سيوف تقارضن الضـــراب بها حتى عادت كالعراجين وكم أنجم قنا تبادلت الطعان حتى صـارت كالمطاعين وكم فارسـية ركض عليها فارسها الشهم إلى اجل فاختلسه وفغرت تلك القوس فاها فإذا فوها قد نهش القرن على بعد المسافة وافترسه فكان اليوم مشـهودا وكانت الملائكة شهودا وكان الضلال صارخا وكان الإسلام

183 مولودا وكانت ضـــلوع الكفار لنار جهنم وقودا وأســـر الملك وبيده أوثق وثائقه وآكد وصـــله بالدين وعلائقه وهو صـــليب الصـــلبوت وقائد أهل الجبروت مـا دهموا قط بـأمر إلا وقـام بين دهمـائهم يبســـط لهم باعه وكان مد اليدين في هذه الدفعة وداعه لا جرم أنهم يتهافت على ناره فراشـهم ويجتمع في ظل ضـلاله خشـاشـهم ويقاتلون تحت ذلك الصـليب أصلب قتال وأصـــدقه ويرونه ميثاقا يبنون عليه أشـــد عهد وأوثقه ويعدونه ســورا تحفر حوافر الخيل خندقه وفي هذا اليوم أســـرت ســـراتهم ودهيت دهاتهم ولم يفلت منهم معروف إلا القومص وكـان لعنـه الله مليـا يوم الظفر بالقتال ومليا يوم الخذلان بالاحتيال فنجا ولكن كيف وطار خوفا من أن يلحقه منســـر الرمح أو جناح الســـيف ثم أخذه الله تعالى بعد أيام بيده وأهلكه لموعده فكان لعدتهم فذلك وانتقل من ملك الموت إلى مالك وبعد الكســـرة مر الخادم على البلاد فطواها بما نشـــر عليها من الراية العباســـية الســـوداء صـــبغا البيضـــاء صـــنعا الخافقة هي وقلوب أعدائها الغالبة هي وعزائم أوليائها المســـتضـــاء بأنوارها إذا فتح عينها النشـــر وأشـــارت بأنامل العذبات إلى وجه النصـــر فافتتح بلاد كذا وكذا وهذه كلها أمصـــار ومدن وقد تســـمى البلاد بلادا وهي مزارع وفدن كل هذه ذوات معاقل ومعاقر وبحـار وجزائر وجوامع ومنـابر وجموع وعســـاكر يتجاوزها الخادم بعد أن يحرزها ويتركها وراءه بعد

أن ينتهزها ويحصـــد منها كفرا ويزرع إيمانا ويحط
من جوامعها صـــلبا ويرفع أذانا ويبدل المذابح منابر
والكنـائس مســـاجد ويبوىء أهـل القرآن بعـد أهـل
الصـــلبان للقتال عن دين الله مقاعد ويقر عينه وعيون
أهل الإسـلام أن يعلق النصـر منه ومن عسـكره بجار
ومجرور وأن يظفر بكل ســـور ما كان يخاف زلزاله
ولا زياله إلى يوم النفخ في الصـــور ولما لم يبق إلا
القدس وقد اجتمع إليه كل طريد منهم وشريد واعتصم
184 بمنعتها كل قريب منهم وبعيد وظنوا أنها
من الله مانعتهم وأن كنيســـتها إلى الله شـــافعتهم فلما
نزلها الخادم رأى بلدا كبلاد وجمعا كيوم التناد وعزائم
قد تألبت وتألفت على الموت فنزلت بعرصـــته وهان
عليها مورد السيف وأن تموت بغصته فزاول البلد من
كل جانب فإذا أودية عميقة ولجج وعر غريقة وســور
قد انعطف عطف الســوار وأبرجة قد نزلت مكان
الواســـطة من عقر الدار فعدل إلى جهة أخرى كان
للطـالع عليها معرج وللخيل فيها متولج فنزل عليها
وأحاط بها وقرب منها وضـــرب خيمته بحيث يناله
الســـلاح بأطرافه ويزاحمه الســـور باكنافه وقابلها ثم
قاتلها ونزلها ثم نازلها وبرز إليها ثم بارزها وحاجزها
ثم ناجزها وضـمها ضـمة ارتقب بعدها الفتح وصـدع
جمعها فإذا هم لا يبصـــبرون على عبودية الحد عن
عنق الصـفح فراسـلوه ببذل قطيعة إلى مدة وقصـدوا
نظرة من شـدة وانتظارا لنجدة فعرفهم الخادم في لحن

القول وأجابهم بلســــان الطول وقدم المنجنيقات التي
تتولى عقوبات الحصـــون عصــيها وحبالها وأوتر لهم
قســـيها التي ترمي ولا تفارقها ســـهامها ولكن تفارق
سهامها نصالها فصافحت السور فإذا سهمها في ثنايا
شـرفاتها سـواك وقدم النصـر نسـرا من المنجنيق يخلد
إخلاده إلى الأرض ويعلو علوه إلى الســـماك فشـــج
مرادع أبراجها وأسمع صوت عجيجها صم أعلاجها
ورفع منـار عجاجهـا فـأخلى الســـور من الســـيارة
والحرب من النظارة وأمكن النقاب أن يســـفر للحرب
النقاب وأن يعيد الحجر إلى سـيرته الأولى من التراب
فتقدم إلى الصـــخر فمضـــغ ســـرده بأنياب معوله وحل
عقده بضـــربه الأخرق الدال على لطافة انملة وأســـمع
الصـــخرة الشـريفة أنينه واسـتغاثته إلى أن كادت ترق
لمقتله وتبرأ بعض الحجارة من بعض واخذ الخراب
عليها موثقا فلن تبرح الأرض وفتح من الســـور باب
سد من نجاتهم أبوابا
185 وأخذ ينقب في حجره فقال عنده الكافر يا
ليتني كنت ترابا فحينئذ يئس الكفار من اصحاب الدور
كما يئس الكفار من أصـــحاب القبور وجاء أمر الله
وغرهم بالله الغرور وفي الحال خرج طاغية كفرهم
وزمام أمرهم ابن بارزان ســائلا أن يؤخذ البلد بالسـلم
لا بالعنوة وبالأمان لا بالسـطوة وألقى بيده إلى التهلكة
وعلاه ذل الهلكة بعد عز المملكة وطرح جنبه على
التراب وكان جنبا لا يتعاطاه طارح وبذل مبلغا من

القطيعة لا يطمح إليها أمل طامح وقال ها هنا اسارى مسلمون يتجاوزون الألوف وقد تعاقد الفرنج على أنهم إن هجمت عليهم الدار وحملت الحرب على ظهورهم الأوزار بدىء بهم فعجلوا وثنى بنساء الفرنج وأطفالهم فقتلوا ثم استقتلوا بعد ذلك فلا يقتل خصم إلا بعد أن ينتصف ولا يفل سيف من يد إلا بعد أن تقطع أو ينقصف فأشار الأمراء بأخذ الميسور من البلد المأسور فإنه لو أخذ حربا فلا بد أن يتقحم الرجال الأنجاد ويقال كفوا عنها في آخر أمر قد نيل من أوله المراد وكانت الجراح في العساكر قد تقدم منها ما اعتقل الفتكات وأثقل الحركات فقبل منهم المبذول عن يد وهم صاغرون وانصرف أهل الحرب عن قدرة وهم ظاهرون وملك الإسلام خطة كان عهده بها دمنة سكان فخدمها الكفر إلى أن صارت روضة جنان لا جرم أن الله تعالى أخرجهم منها وأهبطهم وأرضى أهل الحق وأسخطهم فإنهم خذلهم الله حموها بالأسل والصفاح وبنوها بالعمد والصفاح وأودعوا الكنائس بها وبيوت الديوية والاسبتارية فيها بكل غريبة من الرخام الذي يطرد ماؤه ولا ينطرد لألاؤه قد لطف الحديد في تجزيعه وتفتن في توشيعه إلى أن صار الحديد الذي فيه بأس شديد كالذهب الذي فيه نعيم عتيد فما ترى إلا مقاعد كالرياض لها من بياض الترخيم رقراق وعمدا كالأشجار لها من التنبيت أوراق

وأوعز الخادم برد الأقصى إلى عهده المعهود وأقام له
من الأئمة من
186 يوفيه ورده المورود وأقيمت الخطبة يوم
الجمعة رابع شعبان فكادت السموات يتفطرن للسجود
لا للوجوم والكواكب منها تنتثر للطرب لا للرجوم
ورفعت إلى الله كلمة التوحيد وكانت طريقها مسدودة
وطهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدودة
وأقيمت الخمس وكان التثليث يقعدها وجهرت الألسنة
بالله أكبر وكان سحر الكفر يعقدها وجهر باسم أمير
المؤمنين في وطنه الأشرف من المنبر فرحب به
ترحيب من بر بمن بر وخفق علماه في حفافيه فلو
طار سروراً لطار بجناحيه وكتاب الخادم وهو مجد
في استفتاح بقية الثغور واستشراح ما ضاق بتمادي
الحرب من الصدور فان قوى العساكر قد استنفدت
مواردها وايام الشقاء قد مردت مواردها والبلاد
المأخوذة المشار إليها قد جاست العساكر خلالها
ونهبت ذخائرها وأكلت غلالها فهي بلاد ترفد ولا
تسترفد وتجم ولا تستنفد ينفق عليها ولا ينفق منها
وتجهز الأساطيل لبحرها وتقام المرابط بساحلها
ويدأب في عمارة اسوارها ومرمات معاقلها وكل
مشقة بالإضافة إلى نعمة الفتح محتملة وأطماع الفرنج
بعد ذلك غير مرجئة ولا معتزلة فان يدعوا دعوة
يرجو الخادم من الله أنها لا تسمع ولن يكفوا ايديهم من
اطراف البلاد حتى تقطع وهذه البشائر لها تفاصيل لا

تكاد من غير الألسنة تتشخص ولا بما سوى المشافهة تتخلص فلذلك نفذ الخادم لساناً شارحاً ومبشراً صادحاً يطالع بالخبر على سياقته ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ســاقته وهو فلان والله الموفق هذا آخر الرســالة الفاضــلية وكان في عزمي اختصــارها والاقتصــار على محاسـنها فلما شــرعت فيها قلت في نفســي عســى أن يقف عليها من يؤثر الوقوف على جميعها فأكملتها ورجعت عن الرأي الأول وهي قليلة الوجود

187 في ايدي الناس وكانت النســخة التي نقلتها منها ســقيمة ولقد اجتهدت في تحريرها حتى صــحت على هذه الصـــورة حســـب الإمكان وقد عمل عماد الدين الأصــبهاني الكاتب رســالة في فتح القدس ايضــاً فلم أر التطويل بكتابتها فتركتها وجمع كتاباً سماه الفتح القســي في الفتح القدســي وهو في مجلدين ذكر فيه جميع مـا جرى في هـذه الواقعـة ورأيـت منـذ زمـان رســالة مليحة أنشــأها ضــياء الدين ابو الفتح نصــر الله المعروف بابن الأثير الجزري رحمه الله تعالى المقدم ذكره في حرف النون تتضــمن فتح القدس أيضــاً وكل واحد من أرباب صـــناعة الإنشـــاء كان يريد يمتحن خاطره بما يعمل في ذلك والقاضي الفاضل رئيس هذا الفن وإذا شرع في شيء من هذا الباب لا يستطيع أحد أن يجاريه ولا يباريه فلهذا اثبت رســالته ورفضــت غيرها خوف الإطالة وكان قد حضــر الرشــيد أبو

محمد عبد الرحمن بن بدر بن الحسن بن مفرج
النابلسي الشاعر المشهور هذا الفتح فأنشد السلطان
صلاح الدين قصيدته التي أولها (هذا الذي كانت
الآمال تنتظر * فليوف لله أقوام بما نذروا) وهي
طويلة تزيد على مائة بيت يمدحه ويهنيه بالفتح وإذ
قد نجز المطلوب من هذا الأمر فلنرجع إلى تتمة ما
ذكره شيخنا بهاء الدين بن شداد في السيرة الصلاحية
قال ونكس الصليب الذي كان على قبة الصخرة وكان
شكلاً عظيماً ونصر الله الإسلام على يده نصراً عزيزاً
188 قلت وقد تقدم في ترجمة أرتق طرف من
أخبار القدس وأن الأفضل أمير الجيوش بمصر أخذه
من ولديه سقمان وإيل غازي ثم إن الفرنج استولوا
عليه يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان سنة
اثنتين وتسعين وأربعمائة وقيل في ثاني شعبان وقيل
يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر رمضان من
السنة ولم يزل بأيديهم حتى استنقذه منهم صلاح الدين
في التاريخ المذكور نعود إلى كلام ابن شداد وكانت
قاعدة الصلح أنهم قطعوا على نفسهم عن كل رجل
عشرين ديناراً وعن كل امرأة خمسة دنانير صورية
عن كل صغير ذكر أو أنثى ديناراً واحداً فمن أحضر
قطيعته نجا بنفسه وإلا أخذ أسيراً وأفرج عمن كان
بالقدس من اسارى المسلمين وكانوا خلقاً عظيماً وأقام
به يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والرجال
ويحبو بها الفقهاء والعلماء والزهاد والوافدين عليه

وتقدم بايصـــال من قام بقطيعته إلى مأمنه وهي مدينة صـــور ولم يرحل عنه ومعه من المال الذي جبي له شـــيء وكان يقارب مائتي ألف دينار وعشـــرين الفاً وكان رحيله عنه يوم الجمعة الخامس والعشـــرين من شـعبان من السـنة ولما فتح القدس حسـن عنده قصـد صـور وعلم أنه إن أخر أمرها ربما عسـر عليه فسـار نحوها حتى أتى عكا فنزل عليها ونظر في أمورها ثم رحل عنها متوجهاً إلى صـــور في يوم الجمعة خامس شـــهر رمضـــان من الســـنة فنزل قريباً منها وســـير لإحضار آلات القتال ولما تكاملت عنده نزل عليها في ثاني عشـــر الشـــهر المذكور وقاتلها وضـــايقها قتالاً عظيماً واستدعى أصطول مصر فكان يقاتلها في البر والبحر ثم سير من حاصـر هونين فسـلمت في الثالث والعشـــرين من شـوال من الســنة ثم خرج أصـطول صور في الليل فكبس أصطول المسلمين وأخذوا

المقدم والريس وخمس قطع للمســـلمين 189

وقتلوا خلقاً كثيراً من رجال المسلمين وذلك في السابع والعشـــرين من الشـــهر المذكور وعظم ذلك على السلطان وضاق صدره وكان الشتاء قد هجم وتراكمت الأمطار وامتنع الناس من القتال لكثرة الأمطار فجمع الأمراء واستشـارهم فيما يفعل فأشـاروا عليه بالرحيل لتسـتريح الرجال ويجتمعوا للقتال فرحل عنها وحملوا من آلات الحصـــــار ما أمكن وأحرقوا الباقي الذي عجزوا عن حمله لكثرة الوحل والمطر وكان رحيله

يوم الأحد ثاني ذي القعدة من السنة وتفرقت العساكر وأعطى كل طائفة منها دستوراً وسار كل قوم إلى بلادهم وأقام هو مع جماعة من خواصه بمدينة عكا إلى أن دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة ثم نزل على كوكب في أوائل المحرم من السنة ولم يبق معه من العسكر إلا القليل وكان حصناً حصيناً وفيه الرجال والأقوات فعلم أنه لا يؤخذ إلا بقتال شديد فرجع إلى دمشق ودخلها في سادس عشر شهر ربيع الأول من السنة قال ابن شداد ولما كان على كوكب وصلت إلى خدمته ثم فارقته ومضيت لزيارة القدس والخليل عليه أفضل الصلاة والسلام ودخلت دمشق يوم دخول السلطان إليها قلت وقد ذكرت هذا في ترجمته قال وأقام بدمشق خمسة ايام ثم بلغه أن الفرنج قصدوا جبيل واغتالوها فخرج مسرعاً وكان قد سير يستدعي العساكر من جميع المواضع وسار يطلب جبيل فلما عرف الفرنج بخروجه كفوا عن ذلك وكان بلغه وصول عماد الدين صاحب سنجار ومظفر الدين بن زين الدين وعسكر الموصل إلى حلب قاصدين خدمته والغزاة معه فسار نحو حصن الأكراد
190 قال ابن شداد في السيرة إنه اتصل بخدمة السلطان في مستهل جمادى الأولى من سنة أربع وثمانين وجميع ما ذكرته فهو بروايتي عمن أثق به ومن ها هنا ما اسطر إلا ما شاهدته أو أخبرني به من اثق إليه خبراً يقارب العيان قال لما كان يوم الجمعة

رابع جمادى الأولى دخل السلطان بلاد العدو على تعبية حسنة ورتب الأطلاب وسارت الميمنة أولاً ومقدمها عماد الدين زنكي والقلب في الوسط والميسرة في الأخير ومقدمها مظفر الدين ابن زين الدين فوصل إلى انطرسوس ضاحي نهار الأحد سادس جمادى الأولى فوقف قبالتها ينظر إليها لأن قصده كان جبلة فاستهان بأمرها وعزم على قتالها فسير من رد الميمنة وامرها بالنزول على جانب البحر والميسرة على الجانب الآخر ونزل هو موضعه والعساكر محدقة بها من البحر إلى البحر وهي مدينة راكبة على البحر ولها برجان كالقلعتين فركبوا وقاربوا البلد وزحفوا واشتد القتال وباغتوها فما استتم نصب الخيام حتى صعد لمسلمون سورها وأخذوها بالسيف وغنم المسلمون جميع من بها وما بها وأحرق البلد واقام عليها إلى رابع عشر جمادى الأولى وسلم أحد البرجين إلى مظفر الدين فما زال يحاربه حتى أخربه واجتمع به ولده الملك الظاهر لأنه كان قد طلبه فجاءه في عسكر عظيم ثم سار يريد جبلة وكان وصوله إليها في ثاني عشر جمادى الأولى وما استتم نزول العسكر عليها حتى أخذ البلد وكان فيه مسلمون مقيمون وقاض يحكم بينهم وقوتلت القلعة قتالاً شديداً ثم سلمت بالأمان في يوم السبت تاسع عشر جمادى الأولى من السنة واقام عليها إلى الثالث والعشرين منه ثم سار عنها إلى اللاذقية وكان نزوله عليها يوم

الخميس الرابع والعشرين من جمادى الأولى وهو بلد مليح خفيف على القلب غير مسور وله ميناء مشهور وله قلعتان متصلتان على تل يشرف على البلد واشتد القتال إلى
191 آخر النهار فأخذ البلد دون القلعتين وغنم الناس منه غنيمة عظيمة لأنه كان بلد التجار وجدوا في أمر القلعتين بالقتال والنقوب حتى بلغ طول النقب ستين ذراعاً وعرضه أربعة اذرع فلما رأى أهل القلعتين الغلبة لاذوا بطلب الأمان وذلك في عشية يوم الجمعة الخامس والعشرين من الشهر والتمسوا الصلح على سلامة نفوسهم وذراريهم ونسائهم وأموالهم ما خلا التظال والذخائر والسلاح وآلات الحرب فأجابهم إلى ذلك ورفع العلم الإسلامي عليها يوم السبت وأقام عليها إلى يوم الأحد السابع والعشرين من الشهر فرحل عنها إلى صهيون فنزل عليها يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من الشهر واجتهد في القتال فأخذ البلد يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة ثم تقدموا إلى القلعة وصدقوا القتال فلما عاينوا الهلاك طلبوا الأمان فأجابهم إليه بحيث يؤخذ من الرجل عشرة دنانير ومن المرأة خمسة دنانير ومن كل صغير ديناران الذكر والأنثى سواء واقام السلطان بهذه الجهة حتى أخذ عدة قلاع منها بلاطنس وغيرها من الحصون المنيعة المتعلقة بصهيون ثم رحل عنها وأتى بكاس وهي قلعة حصينة على العاصي ولها نهر يخرج من تحتها

وكان النزول عليها يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخرة وقاتلوها قتالاً شديداً إلى يوم الجمعة تاسع الشهر ثم يسر الله فتحها عنوة فقتل أكثر من بها وأسر الباقون وغنم المسلمون جميع ما كان فيها ولها قليعة تسمى الشغر وهي في غاية المنعة يعبر إليها منها بجسر وليس عليها طريق فسلطت المناجيق عليها من جميع الجوانب ورأوا أنهم لا ناصر لهم فطلبوا الأمان وذلك يوم الثلاثاء ثالث عشر الشهر ثم سألوا المهلة ثلاثة ايام فأمهلوا وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطاني على قلتها يوم الجمعة سادس عشر الشهر ثم سار إلى برزية وهي من الحصون المنيعة في غاية القوة يضرب بها
192 المثل في بلاد الفرنج تحيط بها أودية من جميع جوانبها وعلوها خمسمائة ونيف وسبعون ذراعاً وكان نزوله عليها يوم السبت الرابع والعشرين من الشهر ثم اخذها عنوة يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه ثم سار إلى دربساك فنزل عليها يوم الجمعة ثامن رجب وهي قلعة منيعة وقاتلها قتالاً شديداً ورقي العلم الإسلامي عليها يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب وأعطاها الأمير علم الدين سليمان بن جندر وسار عنها بكرة يوم السبت الثالث والعشرين من الشهر ونزل على بغراس وهي قلعة حصينة بالقرب من أنطاكية وقاتلها مقاتلة شديدة وصعد العلم الإسلامي عليها في ثاني شعبان وراسله أهل أنطاكية

في طلب الصلح فصالحهم لشدة ضجر العسكر من البيكار وكان الصلح معهم لا غير على أن يطلقوا كل أسير عندهم والصلح إلى سبعة أشهر فإن جاءهم من ينصرهم وغاإا سلموا البلد ثم رحل السلطان فسأله ولده الملك الظاهر صاحب حلب أن يجتاز به فأجابه إلى ذلك فوصل حلب في حادي عشر شعبان واقام بالقلعة ثلاثة ايام وولده يقوم بالضيافة حق القيام وسار من حلب فاعترضه تقي الدين عمر ابن أخيه وأصعده إلى قلعة حماة وصنع له طعاماً وأحضر له سماعاً من جنس ما تعمل الصوفية وبات فيها ليلة واحدة وأعطاه جبلة واللاذقية وسار على طريق بعلبك ودخل دمشق قبل شهر رمضان بأيام يسيرة ثم سار في أوائل شهر رمضان يريد صفد فنزل عليها ولم يزل القتال حتى تسلمها بالأمان في رابع عشر شوال وفي شهر رمضان المذكور سلمت الكرك سلمها نواب صاحبها وخلصوه بذلك لأنه كان في الأسر من نوبة حطين

193 قلت هكذا ذكره وهذا لا ينتظم مع ما قبله فقد تقدم قبل هذا أن البرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك أسر في وقعة حطين ثم قتله السلطان بيده فيكشف عن ذلك في مكان آخر ليحقق قال ثم سار إلى كوكب وضايقوها وقاتلوها مقاتلة شديدة والأمطار متواترة والوحول متضاعفة والرياح عاصفة والعدو متسلط بعلو مكانه فلما تيقنوا أنهم مأخوذون طلبوا

الأمان فأجابهم إليه وتسلمها منهم في منتصف ذي القعدة من السنة ثم نزل إلى الغور وأقام بالمخيم بقية الشهر وأعطى الجماعة دستورا وسار مع أخيه الملك العادل يريد زيارة القدس ووداع أخيه لأنه كان متوجهاً إلى مصر ودخل القدس في ثامن ذي الحجة وصلى بها العيد وتوجه في حادي عشر ذي الحجة إلى عسقلان لينظر في أمورها وأخذها من أخيه العادل وعوضه عنها الكرك ثم مر على بلاد الساحل يتفقد أحوالها ثم دخل عكا فاقام بها معظم المحرم من سنة خمس وثمانين يصلح أمورها ورتب بها الأمير بهاء الدين قراقوش والياً وامره بعمارة سورها وسار إلى دمشق فدخلها في مستهل صفر من السنة وأقام بها إلى شهر ربيع الأول من السنة ثم خرج إلى شقيف أرنون وهو موضع حصين فخيم في مرج عيون بالقرب من الشقيف في سابع عشر شهر ربيع الأول وأقام أياماً يباشر قتاله كل يوم والعساكر تتواصل إليه فلما تحقق صاحب الشقيف أنه لا طاقة له به نزل إليه بنفسه فلم يشعر به إلا وهو قائم على باب خيمته فأذن له

194 في دخوله إليه واكرمه واحترمه وكان من أكبر الفرنج وعقلائهم وكان يعرف بالعربية وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث وكان حسن التأتي لما حضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام ثم خلا به وذكر أنه مملوكه وتحت طاعته وأنه يسلم إليه المكان من غير تعب واشترط أن يعطى موضعاً

يســـكنه بدمشـــق فإنه بعد ذلك لا يقدر على مســـاكنه الفرنج وإقطاعاً يقوم به وبأهله وشـــروطاً غير ذلك فأجابه إلى ذلك وفي أثناء شـــهر ربيع الأول وصـــله الخبر بتسليم الشوبك وكان السلطان قد اقام عليه جمعاً يحاصرونه مدة سنة كاملة إلى أن نفذ زاد من كان فيه فسلموه بالأمان ثم ظهر للسلطان بعد ذلك أن جميع ما قاله صــاحب الشـقيف كان خديعة فرسـم عليه ثم بلغه أن الفرنج قصـــدوا عكا ونزلوا عليها يوم الاثنين ثالث عشـر رجب سـنة خمس وثمانين وفي ذلك اليوم سـير صاحب الشقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة وأتى عكا ودخلها بغتة لتقوى قلوب من بها وسـير اسـتدعى العساكر من كل ناحية فجاءته وكان العدو بمقدار ألفي فارس وثلاثين ألف راجل ثم تكاثر الفرنج واســـتفحل أمرهم وأحاطوا بعكا ومنعوا من يدخل إليها ويخرج وذلك يوم الخميس سلخ رجب فضـاق صدر السلطان لذلك ثم اجتهد في فتح الطريق إليها لتســتمر الســـابلة بالميرة والنجدة وشــاور الأمراء فاتفقوا على مضــايقة العدو لينفتح الطريق ففعلوا ذلك وانفتح الطريق وسلكه المسـلمون ودخل السـلطان عكا فأشـرف على أمورها ثم جرى بين الفريقين مناوشـــات في عدة ايام وتأخر الناس إلى تل العياضــية وهو مشـــرف على عكا وفي هذه المنزلة توفي الأمير حســـام الدين طمان المقدم ذكره في هذه الترجمة وذلك ليلة نصـــف شـــعبان من سنة خمس وثمانين وخمسمائة وكان من الشجعان

195 ثم إن شيخنا ابن شداد ذكر بعد هذا وقعات ليس لنا غرض في ذكرها وتطول هذه الترجمة باستيفاء الكلام فيها إذ ليس الغرض سوى المقاصد لا غير وإنما ذكرت فتوحات هذه الحصون لأن الحاجة قد تدعو إلى الوقوف على تواريخها مع أني لم أذكر إلا ما يكثر التطلع إلى الوقوف عليه وأضربت عن الباقي قال ابن شداد سمعت السلطان ينشد وقد قيل له إن الوخم قد عظم بمرج عكا وإن الموت قد فشا في الطائفتين (اقتلاني ومالكا * واقتلا مالكا معي) يريد بذلك أنه قد رضي أن يتلف إذا أتلف الله أعداءه قلت وهذا البيت له سبب يحتاج إلى شرح وذلك أن مالك بن الحارث المعروف بالأشتر النخعي كان من الشجعان والأبطال المشهورين وهو من خواص أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله عنه تماسك في يوم وقعة الجمل المشهورة هو وعبد الله بن الزبير بن العوام وكان ايضاً من الأبطال وابن الزبير يومئذ مع خالته عائشة أم المؤمنين وطلحة والزبير رضي الله عنهم أجمعين وكانوا يحاربون علياً رضي الله عنه فلما تماسكا صار كل واحد منهما إذا قوي على صاحبه جعله تحته وركب صدره وفعلا ذلك مراراً وابن الزبير ينشد (اقتلاني ومالكا * واقتلا مالكا معي) يريد الأشتر النخعي هذه خلاصة القول في ذلك وإن كانت القصة طويلة وهي في التواريخ مبسوطة وقال عبد الله بن الزبير لاقيت الأشتر

النخعي يوم الجمل فما ضـربته ضـربة حتى ضـربني ستا أو سبعاً ثم أخذ برجلي فألقاني في الخندق وقال
196 والله لولا قرابتك من رسـول الله ما اجتمع منك عضو إلى عضو ابداً وقال أبو بكر بن أبـي شيبة أعطت عائشـة رضـي الله عنها الذي بشرها بسـلامة ابن الزبير لما لاقى الأشـتر عشـرة آلاف درهم وقيل أيضاً إن الأشتر دخل على عائشة رضي الله عنها بعد وقعة الجمل فقالت له يا أشتر أنت الذي أردت قتل ابن أختي يوم الوقعة فأنشــدها (أعائش لولا أنني كنت طاويا * ثلاثا لألفيت ابن أختك هالكا) (غداة ينادي والرماح تنوشــه * بآخر صــوت اقتلوني ومالكا) (فنجاه مني أكله وشبابه * وخلوة جوف لم يكن متماسكا) وقـال زجر بن قيس دخلـت مع عبـد الله بن الزبير الحمام فاذا في رأسه ضربة لو صب فيها قارورة دهن لاستقر فقال لي أتدري من ضـربني هذه الضـربة قلت لا قال ابن عمك الأشــتر النخعي رجعنا إلى ما كنا عليه قال ابن شـــداد ثم إن الفرنج جاءهم الأمداد من داخل البحر واستظهروا على الجماعة الإسلامية بعكا وكان فيهم الأمير سيف الدين علي بن أحمد المعروف بـالمشــطوب الهكـاري والأمير بهـاء الـدين قراقوش الخادم الصـــلاحي وضـــايقوهم اشـــد مضـــايقة إلى أن غلبوا عن حفظ البلد فلما كان يوم الجمعة سـابع عشـر جمادى الآخرة من سنة سبع وثمانين وخمسمائة خرج من عكا رجل عوام ومعه كتب من المسـلمين يذكرون

حالهم وما هم فيه وأنهم قد تيقنوا الهلاك ومتى أخذوا البلد عنوة ضــربت رقابهم وأنهم صـــالحوا على أن يسلموا البلد وجميع ما فيه من الآلات والعدة والأسلحة والمراكب ومائتي ألف دينار وخمسمائة اسير مجاهيل ومائة أسير معينين من جهتهم

197 وصـــليب الصـــلبوت على أن يخرجوا بأنفســـهم ســـالمين وما معهم من الأموال والأقمشـــة المختصـة بهم وذراريهم ونسـائهم وضـمنوا للمركيس لأنه كان الواســـطة في هذا الأمر أربعة آلاف دينار ولما وقف السلطان على الكتب المشـار إليها أنكر ذلك إنكاراً عظيماً وعظم عليه هذا الأمر وجمع أهل الرأي من اكابر دولته وشـــاورهم فيما يصـــنع واضــطربت براؤه وتقسم فكره وتشـوش حاله وعزم على أن يكتب في تلك الليلة مع العوام وينكر عليهم المصـــالحة على هـذا الوجـه وهو يتردد في هـذا فلم يشـــعر إلا وقـد ارتفعت أعلام العدو وصـــلبانه وناره وشـــعاره على ســور البلد وذلك في ظهيرة يوم الجمعة ســابع عشــر جمادى الآخرة من الســنة وصــاح الفرنج صـــيحة عظيمة واحدة وعظمت المصيبة على المسلمين واشتد حزنهم ووقع فيهم الصـــياح والعويل والبكاء والنحيب ثم ذكر ابن شـــداد بعد هذا أن الفرنج خرجوا من عكا قاصـــدين عســـقلان ليأخذوها وســـاروا على الســـاحل والســلطان وعســاكره في قبالتهم إلى أن وصــلوا إلى أرســوف فكان بينهما قتال عظيم ونال المســلمين منه

وهن شديد ثم ساروا على تلك الهيئة تتمة عشر منازل من مسـيرهم من عكا فأتى السـلطان الرملة وأتاه من أخبره بـأن القوم على عزم عمـارة يـافـا وتقويتهـا بالرجال والعدد والآلات فأحضـر السـلطان أرباب مشـورته وشـاورهم في أمر عسـقلان وهل الصـواب خرابها أم بقاؤها فاتفقت آراؤهم أن يبقى الملك العادل في قبالة العدو ويتوجه هو بنفسـه ويخربها خوفاً من أن يصـل العدو إليها ويسـتولي عليها وهي عامرة ويأخذ بها القدس وتنقطع بها طريق مصـر وامتنع العسـكر من الدخول وخافوا مما جرى على المسلمين بعكا ورأوا أن حفظ القدس أولى فتعين خرابها من عدة جهات وكان هذا الاجتماع يوم الثلاثاء سـابع عشـر شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة فسار إليها سحرة الأربعاء ثامن عشر الشهر قال ابن شداد وتحدث معي في معنى خرابها بعد أن تحدث

198 مع ولده الملك الأفضل في أمرها ايضاً ثم قال لأن أفقد ولدي جميعهم أحب إلي من أن أهدم منها حجراً ولكن إذا قضى الله تعالى ذلك وكان فيه مصلحة للمسلمين فما الحيلة في ذلك قال ولما اتفق الرأي على إخرابها اوقع الله تعالى في نفسـه ذلك وأن المصـلحة فيه لعجز المسـلمين عن حفظها وشـرع في إخرابها سحرة يوم الخميس التاسع عشر من شعبان من السنة وقسـم السـور على الناس وجعل لكل امير وطائفة من العسـكر بدنة معلومة وبرجاً معيناً يخربونه ودخل

الناس البلد ووقع فيهم الضجيج والبكاء وكان بلداً خفيفاً على القلب محكم الأسوار عظيم البناء مرغوباً في سكنه فلحق الناس على خرابه حزن عظيم وعظم عويل أهل البلد عليه لفراق أوطانهم وشرعوا في بيع ما لا يقدرون على حمله فباعوا ما يساوي عشرة دراهم بدرهم واحد وباعوا اثني عشر طير دجاج بدرهم واحد واختبط البلد وخرج الناس بأهلهم وأولادهم إلى المخيم وتشتتوا فذهب قوم منهم إلى مصر وقوم إلى الشام وجرت عليهم أمور عظيمة واجتهد السلطان وأولاده في خراب البلد كي لا يسمع العدو فيسرع إليه ولا يمكن من إخرابه وبات الناس على اصعب حال وأشد تعب مما قاسوه في خرابها وفي تلك الليلة وصل من جانب الملك العادل من أخبر أن الفرنج تحدثوا معه في الصلح وطلبوا جميع البلاد الساحلية فرأى السلطان أن ذلك مصلحة لما علم من نفس الناس من الضجر من القتال وكثرة ما عليهم من الديون وكتب إليه يأذن له في ذلك وفوض الأمر إلى رايه وأصبح يوم الجمعة العشرين من شعبان وهو مصر على الخراب واستعمل الناس عليه وحثهم على العجلة فيه واباحهم ما في الهري الذي كان مدخراً للميرة خوفاً من هجوم الفرنج والعجز عن نقله وأمر بإحراق البلد فأضرمت النيران في بيوته وكان سورها عظيماً ولم يزل الخراب يعمل في البلد إلى سلخ شعبان من السنة وأصبح يوم الإثنين مستهل شهر

رمضان أمر ولده الملك الأفضل أن يباشر ذلك بنفسه وخواصـــه ولقد رأيته يحمل الخشـــب بنفســـه لأجل الإحراق

199 وفي يوم الأربعاء ثالث شهر رمضان أتى الرملة ثم خرج إلى لد واشـــرف عليها وامر باخرابها وإخراب قلعة الرملة ففعل ذلك وفي يوم السـبت ثالث عشر شهر رمضان تأخر السلطان بالعسكر إلى جهة الجبل ليتمكن الناس من تسـيير دوابهم لإحضـــار ما يحتاجون إليه ودار السلطان حول النطرون وهي قلعة منيعة فأمر باخرابها وشـــرع الناس في ذلك ثم ذكر ابن شـــداد بعد هذا أن الانكتار وهو من أكابر ملوك الفرنج سير رسـوله إلى الملك العادل يطلب الاجتماع به فأجابه إلى ذلك واجتمعا يوم الجمعة ثامن عشـــر شـوال من السـنة وتحادثا معظم ذلك النهار وانفصـلا عن مودة أكيدة والتمس الانكتار من العادل أن يســـأل السـلطان أن يجتمع به فذكر العادل ذلك للسـلطان فاستشـار أكابر دولته في ذلك ووقع الاتفاق على أنه إذا جرى الصـلح بيننا يكون الاجتماع بعد ذلك ثم وصـل رسـول الانكتار وقال إن الملك يقول إني أحب صـداقتك ومودتك وأنت تذكر أنك أعطيت هذه البلاد السـاحلية لأخيك فأريد أن تكون حكماً بيني وبينه وتقسـم البلاد بيني وبينه ولا بد أن يكون لنا علقة بالقدس وأطال الحديث في ذلك فأجابه السـلطان بوعد جميل وأذن له في العود في الحال وتأثر لذلك تأثراً

عظيماً قال ابن شداد وبعد انفصال الرسول قال لي السلطان متى صالحناهم لم تؤمن غائلتهم ولو حدث بي حادث الموت ما كانت تجتمع هذه العساكر وتقوى الفرنج والمصلحة أن لا نزول عن الجهاد حتى نخرجهم من الساحل أو يأتينا الموت هذا كان رأيه وإنما غلب على الصلح قال ابن شداد ثم ترددت الرسل بينهم في الصلح وأطال القول في ذلك فتركته إذ لا حاجة إليه وجرت بعد ذلك وقعات أضربت عن ذكرها لطول الكلام فيها وحاصل الأمر أنه تم الصلح بينهم وكانت الأيمان يوم

200 الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ونادى المنادي بانتظام الصلح وأن البلاد الإسلامية والنصرانية واحدة في الأمن والمسالمة فمن شاء من كل طائفة يتردد إلى بلاد الطائفة الأخرى من غير خوف ولا محذور وكان يوماً مشهوداً نال الطائفتين فيه من المسرة ما لا يعلمه إلا الله تعالى وقد علم الله تعالى أن الصلح لم يكن عن مرضاته وإيثاره ولكنه رأى المصلحة في الصلح لسآمة العسكر ومظاهرتهم بالمخالفة وكان مصلحة في علم الله تعالى فانه اتفقت وفاته بعد الصلح فلو اتفق ذلك في أثناء وقعاته كان الإسلام على خطر ثم أعطى للعساكر الواردة عليه من البلاد البعيدة برسم النجدة دستوراً فساروا عنه وعزم على الحج لما فرغ باله من هذه الجهة وتردد المسلمون إلى بلادهم

وجاءوا هم إلى بلاد المسلمين وحملت البضائع
والمتاجر إلى البلاد وحضر منهم خلق كثير لزيارة
القدس وتوجه السلطان إلى القدس ليتفقد أحوالها
وأخوه الملك العادل إلى الكرك وابنه الملك الظاهر
إلى حلب وابنه الأفضل إلى دمشق واقام السلطان
بالقدس يقطع الناس ويعطيهم دستوراً ويتأهب للمسير
إلى الديار المصرية وانقطع شوقه عن الحج ولم يزل
كذلك إلى أن صح عنده مسير مركب الانكتار متوجهاً
إلى بلاده في مستهل شوال فعند ذلك قوي عزمه أن
يدخل الساحل جريدة يتفقد القلاع البحرية إلى بانياس
ويدخل دمشق ويقيم بها اياماً قلائل ويعود إلى القدس
ومنه إلى الديار المصرية قال شيخنا ابن شداد
وامرني بالمقام في القدس إلى حين عوده لعمارة
مارستان أنشأه به وتكميل المدرسة التي أنشأها فيه
وسار منه ضاحي نهار الخميس السادس من شوال
سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ولما فرغ من افتقاد
أحوال القلاع وإزاحة خللها دخل دمشق بكرة
201 الأربعاء سادس عشر شوال وفيها أولاده
الملك الأفضل والملك الظاهر والملك الظافر مظفر
الدين الخضر المعروف بالمشعر وأولاده الصغار
وكان يحب البلد ويؤثر الإقامة فيه على سائر البلاد
وجلس للناس في بكرة يوم الخميس السابع والعشرين
منه وحضروا عندهم وبلوا شوقهم منه وأنشده
الشعراء ولم يتخلف أحد عنه من الخاص والعام وأقام

ينشـــر جناح عدله يوهطل ســـحاب إنعامه وفضـــله ويكشـــف مظالم الرعايا فلما كان يوم الاثنين مســـتهل ذي القعدة عمل الملك الأفضـــل دعوة للملك الظاهر لأنه لما وصـل إلى دمشـق وبلغه حركة السـلطان اقام بها ليتملى بالنظر إليه ثانياً وكأن نفسه كانت قد أحست بدنو أجله فودعه في تلك الدفعة مراراً متعددة ولما عمل الملك الأفضـــل الدعوة أظهر فيها من الهمم العالية ما يليق بهمته وكأنه أراد بذلك مجازاته ما خدمه به حين وصل إلى بلده وحضر الدعوة المذكورة أرباب الدنيا والآخرة وسأل السلطان الحضور فحضر جبراً لقلبه وكان يوماً مشـــهوداً على ما بلغني ولما تصـفح الملك العادل أحوال الكرك واصـلح ما قصـد إصـلاحه فيه سـار قاصـداً إلى البلاد الفراتية فوصـل إلى دمشـق في يوم الأربعاء سـابع عشـر ذي القعدة وخرج السلطان إلى لقائه وأقام يتصيد حوالي غباغب إلى الكسـوة حتى لقيه وسـارا جميعاً يتصـيدان وكان دخولهما إلى دمشـق آخر نهار يوم الأحد حادي عشـر ذي الحجة سـنة ثمان وثمانين وأقام السـلطان بدمشـق يتصـــيد هو وأخوه وأولاده ويتفرجون في أراضـــي دمشـــق ومواطن الصـــبا وكأنه وجد راحة مما كان به من ملازمة التعب والنصـــب وســـهر الليل وكان ذلك كالوداع لأولاده ومراتع نزهه ونسي عزمه إلى مصر وعرضـــت له أمور أخر وعزمات غير ما تقدم قال ابن شداد ووصلني كتابه إلى القدس يستدعيني لخدمته

وكان شـتاء شـديداً ووحلا عظيماً فخرجت من القدس في يوم الجمعة الثالث والعشرين

202 من المحرم سـنة تسع وثمانين وكان الوصول إلى دمشق في يوم الثلاثاء ثاني عشر صفر من السـنة وركب السلطان لملتقى الحاج يوم الجمعة خامس عشر صفر وكان ذلك آخر ركوبه ولما كان ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً وما تنصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية وكانت في باطنه أكثر منها في ظاهره واصبح يوم السبت متكسلا عليه اثر الحمى ولم يظهر ذلك للناس لكن حضرت عنده أنا والقاضي الفاضل ودخل ولده الملك الأفضل وطال جلوسنا عنده وأخذ يشكو قلقه في الليل وطاب له الحديث إلى قريب الظهر ثم انصرفنا وقلوبنا عنده فتقدم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة ولده الملك الأفضل ولم تكن للقاضي الفاضل في ذلك عادة فانصرف ودخلت إلى الإيوان القبلي وقد مد السماط وابنه الملك الأفضل قد جلس في موضعه فانصرفت وما كانت لي قوة في الجلوس استيحاشاً له وبكى في ذلك اليوم جماعة تفاؤلاً لجلوس ولده في موضعه ثم أخذ المرض يتزيد من حينئذ ونحن نلازم التردد طرفي النهار وندخل إليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مراراً وكان مرضه في رأسه وكان من أمارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذي كان قد عرف مزاجه سفراً وحضرا ورأى الأطباء فصده ففصدوه في الرابع فاشتد مرضه وقلت

رطوبات بدنه وكان يغلب عليه اليبس ولم يزل المرض يتزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن ولم يزل يتزايد ويغيب ذهنه ولما كان التاسع حدثت له غشية وامتنع من تناول المشروب واشتد الخوف في البلد وخاف الناس ونقلوا أقمشتهم من الأسواق وعلا الناس من الكآبة والحزن ما لا تمكن حكايته ولما كان العاشر من مرضه حقن دفعتين وحصل من الحقن بعض الراحة وفرح الناس بذلك ثم اشتد مرضه وأيس منه الأطباء ثم شرع الملك الأفضل في تحليف الناس ثم إنه توفي بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر

203 سنة تسع وثمانين وخمسمائة وكان يوم موته يوماً لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم وغشي القلعة والملك والدنيا وحشة لا يعلمها إلا الله تعالى وبالله لقد كنت أسمع من الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم وكنت أتوهم أن هذا الحديث على ضرب من التجوز والترخص إلى ذلك اليوم فاني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدي بالأنفس ثم جلس ولده الملك الأفضل للعزاء وغسله الدولعي (

391) قلت الدولعي المذكور هو ضياء الدين ابو القاسم عبد الملك بن زيد ابن ياسين بن زيد بن قائد بن جميل التغلبي الأرقمي الدولعي الشافعي خطيب جامع

دمشق توفي في ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وخمسمائة وسئل عن مولده فقال في سنة سبع وخمســـمائة ثم ذكر غير هذا والله أعلم ودفن بمقابر الشـهداء بباب الصـغير قال وأخرج بعد صـلاة الظـهر رحمـه الله في تـابوت مســـجى بثوب فوط فـارتفعت الأصـوات عند مشـاهدته وعظم الضـجيج وأخذ الناس في البكاء والعويل وصـــلوا عليه أرســـالا ثم أعيد إلى الدار التي في البســـتان وهي التي كان متمرضـــا بها ودفن في الصـــفة الغربية منها وكان نزوله في حفرته قريباً من صـلاة العصـر ثم أطال ابن شـداد القول في ذلك فحذفته خوفاً من الملالة وأنشـــد في آخر الســـيرة بيت ابي تمام الطائي وهو (ثم انقضــت تلك الســنون وأهلها * فكأنها وكأنهم أحلام)
204 رحمـه الله تـعالـى وقدس روحـه فلقد كان من محاسـن الدنيا وغرائبها وذكر سـبط ابن الجوزي في تاريخه في سـنة ثمان وسبعين وخمسمائة ما مثاله وفي خامس المحرم خرج صـــلاح الدين من مصـــر فنزل البركة قاصداً الشام وخرج أعيان الدولة لوداعه وأنشـده الشـعراء أبياتاً في الوداع فسمع قائلا يقول في ظاهر الخيمة (تمتع من شــميم عرار نجد * فما بعد العشـــية من عرار) فطلب القـائل فلم يوجد فوجم السلطان وتطير الحـاضرون فكان كما قال فإنه اشتغل ببلاد الشــرق والفرنج ولم يعد بعدها إلى مصــر قلت و هذا البيت من جملة أبيات في الحماســـة في باب

النسيب وذكر شيخنا عز الدين ابن الأثير في تاريخه الكبير هذه القضـــية على صــــورة أخرى فقال ومن عجيب ما يحكى من التطير أنه لما برز عن القاهرة أقام بخيمته حتى تجتمع العســـاكر وعنده أعيان دولته والعلماء وأرباب الآداب فمن بين مودع له وسائر معه وكل واحد منهم يقول شـــيئاً في الوداع والفراق وفي الحاضـــرين معلم لبعض أولاده فأخرج راســه من بين الحاضــرين وأنشــد هذا البيت فانقبض صــلاح الدين وتطير بعد انبســاطه وتنكد المجلس على الحاضــرين فلم يعد إليها إلى أن مات مع طول المدة وذكر ابن شـداد أيضــاً في أوائل السـيرة أنه مات ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضــة إلا ســبعة وأربعين درهماً ناصرية وجرماً واحداً ذهباً صوريا ولم يخلف ملكا لا داراً ولا عقاراً ولا بســتاناً ولا قرية ولا مزرعة وفي ســـاعة موته كتب القاضـــي الفاضـــل إلى ولده الملك الظاهر صـــاحب حلب بطاقة مضـــمونها (^ لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة) الأحزاب

205 (^ إن زلزلة الســاعة شــيء عظيم) الحج

1 كتبت إلى مولانا الســلطان الملك الظاهر أحســن الله عزاءه وجبر مصـــابه وجعل فيه الخلف في الســـاعة المذكورة وقد زلزل المســـلمون زلزالاً شـــديداً وقد حفرت الدموع المحاجر وبلغت القلوب الحناجر وقد ودعت أباك ومخدومي وداعاً لا تلاقي بعده وقد قبلت وجهه عني وعنك وأســـلمته إلى الله تعالى مغلوب

الحيلة ضـعيف القوة راضـياً عن الله ولا حول ولا قوة إلا بالله وبالباب من الجنود المجندة والأســلحة المعدة ما لم يدفع البلاء ولا ملك يرد القضــاء وتدمع العين ويخشع القلب ولا نقول إلا ما يرضي الرب وإنا عليك لمحزونون يا يوســف وأما الوصــايا فما تحتاج إليها والآراء فقد شغلني المصاب عنها وأما لائح الأمر فإنه إن وقع اتفاق فما عدمتم إلا شــخصــه الكريم وإن كان غيره فالمصــائب المســتقبلة أهونها موته وهو الهول العظيم والسلام قلت لله دره فلقد أبدع في هذه الرسالة الوجيزة مع ما تضـمنته من المقاصـد السـديدة في مثل تلك الحالة التي يذهل فيها الإنسان عن نفسه قلت وقد ذكرت كل واحد من أولاده المذكورين وهم الأفضــل والظاهر والعزيز في ترجمة مســتقلة وعينت تاريخ مولده وموته سـوى الملك الظافر المشـهور بالمشـمر فإني لم أذكر له ترجمة مســتقلة وقد ذكرته ها هنا فيحتاج إلى ذكر شيء من أحواله فأقول (392) لقبه مظفر الدين وكنيته أبو الدوام وأبو العباس الخضــر وإنما قيل له المشمر لأن اباه رحمه الله تعالى لما قسم البلاد بين أولاده الكبار قال وأنا مشمر فغلب عليه هذا اللقب وكان مولده بالقاهرة في ســنة ثمان وســتين وخمســمائة في خامس شــعبان وهو شــقيق الملك الأفضل وتوفي في جمادى الأولى سنة سبع وعشرين وســتمائة بحران عند ابن عمه الملك الأشــرف ابن

الملك العادل ولم يكن الأشـــرف يومئذ ملكا وإنما كان مجتازاً بها عند دخوله بلاد الروم لأجل الخوارزمية

206 قال غير ابن شداد ثم إن السلطان صـلاح الدين رحمه الله تعالى بقي مدفوناً بقلعة دمشــق إلى أن بنيت له قبة في شمالي الكلاسة التي هي شمالي جامع دمشـــق ولها بابان أحدهما إلى الكلاســـة والآخر في زقاق غير نافذ وهو مجاور المدرســـة العزيزية قلت ولقد دخلت إلى هذه القبة من الباب الذي في الكلاســـة وقرأت عنده وترحمت عليه وأحضر لي القيم ومتولي القبـة بقجـة فيهـا ملبوس بدنـه وكـان في جملتـه قبـاء أصــفر قصــير وراس كميه بأســود فتبركت به قال ثم نقل من مدفنه بالقلعة إلى هذه القبة في يوم عاشـــوراء وكان الخميس من ســـنة اثنتين وتســـعين وخمســـمائة ورتب عنده القراء ومن يخدم المكان ثم إن ولده الملك العزيز عماد الدين عثمان المقدم ذكره لما أخذ دمشـــق من أخيـه الملك الأفضـــل بنى إلى جـانـب هذه القبـة المدرســـة العزيزيـة ووقف عليهـا وقفاً جيداً وللقبـة المذكورة شـــباك إلى هذه المدرســـة وهي من أعيان مدارس دمشــق وزرت قبره في أول جمعة من شـــهر رمضــان ســنة ثمانين وســتمائة فقرأت على صــندوق قبره بعد تاريخ وفاته ما مثاله اللهم فارض عن تلك الروح وافتح له أبواب الجنة فهي آخر ما كان يرجوه من الفتوح وذكر قيم المكان أن هذا من كلام القاضـــي الفاضـل قلت ولما ملك السـلطان صـلاح الدين الديار

المصـــرية لم يكن بها شـــيء من المدارس فإن الدولة المصـــرية كان مذهبها مذهب الإمامية فلم يكونوا يقولون بهذه الأشـــياء فعمر في القرافة الصـــغرى المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي رضي الله عنه وقد تقدم ذكرها في ترجمة نجم الدين الخبوشـاني وبنى مدرسة بالقاهرة في جوار المشهد المنسوب إلى الحسـين بن علي رضـــي الله عنهما وجعل عليها وقفاً كبيراً وجعل دار سعيد السعداء خادم المصريين خانقاه ووقف عليها وقفاً طائلاً وجعل دار عباس المذكور في ترجمة الظافر العبيدي والعادل ابن الســلار مدرســة للحنفية وعليها وقف جيد أيضاً

207 والمدرســـة التي بمصـــر المعروفة بزين التجار وقفاً على الشـــافعية ووقفها جيد أيضــــاً وبنى بالقاهرة داخل القصـــر مارســـتانا وله وقف جيد وله بالقدس مدرسة أيضاً وقفها كثير وخانقاه بها ايضاً وله بمصـــر مدرســـة للمالكية ولقد فكرت في نفســـي في أمور هذا الرجل وقلت إنه ســـعيد في الدنيا والآخرة فإنه فعل في الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكبيرة وغيرها ورتب هذه الأوقاف العظيمة وليس فيها شـيء منسـوباً إليه في الظاهر فإن المدرسـة التي في القرافة ما يسـميها الناس إلا بالشـافعي والمجاورة للمشـــهد لا يقولون إلا المشـــهد والخانقاه لا يقولون إلا خانقاه ســـعيد الســـعداء والمدرســـة الحنفية لا يقولون ايضاً إلا مدرسة السيوفية والتي بمصر لا يقولون إلا

مدرسة زين التجار والتي بمصر مدرسة المالكية وهذه صدقة السر على الحقيقة والعجب أن له بدمشق في جوار البيمارستان النوري مدرسة يقال لها الصلاحية فهي منسوبة إليه وليس لها وقف وله بها مدرسة للمالكية أيضاً ولا تعرف به وهذه النعم من ألطاف الله تعالى به وكان مع هذه المملكة المتسعة والسلطنة العظيمة كثير التواضع واللطف قريباً من الناس رحيم القلب كثير الاحتمال والمداراة وكان يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحسن إليهم وكان يميل إلى الفضائل ويستحسن الأشعار الجيدة ويرددها في مجالسه حتى قيل إنه كان كثيراً ما ينشد قول ابي منصور محمد بن الحسين بن أحمد بن الحسين بن إسحاق الحميري وقيل إنها لأبي محمد أحمد بن علي بن خيران العامري كان أميراً بالمرية من بلاد الأندلس وكان جده خيران من سبي المنصور بن أبي عامر فنسب إليه والله أعلم وهي هذه (وزارني طيف من أهوى على حذر * من الوشاة وداعي الصبح قد هتفا) (فكدت أوقظ من حولي به فرحاً * وكاد يهتك ستر الحب بي شعفا) (ثم انتبهت وآمالي تخيل لي * نيل المنى فاستحالت غبطتي أسفا) وقيل إنه كان أيضاً يعجبه قول نشؤ الملك أبي الحسن علي بن مفرج 208 المعروف بابن المنجم المعري الأصل المصري الدار والوفاة وهو في خضاب الشيب ولقد أحسن فيه (وما خضب الناس البياض لقبحه * وأقبح

منه حين يظهر ناصله) (ولكنه مات الشباب فسودت * على الرســم من حزن عليه منازله) قالوا فكان إذا قال ولكنه مات الشــباب يمســك كريمته وينظر إليها ويقول أي والله مات الشــباب وذكر العماد الكاتب الأصــبهاني في كتاب الخريدة أن الســلطان صــلاح الدين في أول ملكه كتب إلى بعض أصــحابه بدمشــق هـذين البيتين (أيهـا الغـائبون عنـا وإن كنتم لقلبي بـذكركم جيرانـا) (إنني مـذ فقدتكم لأراكم * بعيون الضـمير عندي عيانا) وأما القصـيدتان اللثات ذكرت أن ســبط ابن التعاويذي أنفذهما إليه من بغداد فإن إحداهما وازن بها قصــيدة صــردر المقدم ذكره وقد ذكرت منهـا أبياتاً في ترجمة الوزير الكندري وأولـها (أكذا يجازى ود كل قرين) وقصــيدة ســبط ابن التعاويذي أولها (إن كان دينك في الصــبابة ديني * فقف المطي برملتي يبرين) (والثم ثرى لو شـارفت بي هضــبة * ايدي المطي لثمته بجفوني) (وانشــد فؤادي في الظباء معرضــاً * فبغير غزلان الصــريم جنوني) (ونشيدتي بين الخيام وإنما * غالطت عنها بـالظبـاء العين) (لولا العدا لم أكن عن ألحـاظهـا * وقدودها بجوازىء وغصون)
209 (لله ما اشــتملت عليه قبابهم * يوم النوى من لؤلؤ مكنون) (من كل تائهة على أترابها * في الحسن غانية عن التحسين) (خود ترى قمر السماء إذا بدت * ما بين ســالفة لها وجبين) (غادين ما

لمعت بروق ثغورهم * إلا استهلت بالدموع شؤوني)
(إن تنكروا نفس الصـــبا فلأنها * مرت بزفرة قلبي
المحزون) (وإذا الركـائـب في الحبـال تلفتـت *
فحنينها لتلفتي وحنيني) (يا سلم إن ضاعت عهودي
عندكم * فأنا الذي اسـتودعت غير أمين) (أو عدت
مغبوناً فما أنا في الهوى * لكم بأول عاشـــق مغبون)
(رفقاً فقد عســـف الفراق بمطلق العبرات في أســـر
الغرام رهين) (ما لي ووصــــل الغانيات أرومه *
ولقد بخلن علي بالماعون) (وعلام أشـــكو والدماء
مطـاحـة * بلحـاظهن إذا لوين ديوني) (هيهـات مـا
للبيض في ود امرىء * أرب وقد أربى على الخمسين
) (ومن البليـة أن تكون مطـالبي * جدوى بخيـل أو
وفاء خؤون) (ليت الضـنين على المحب بوصـلـه *
لقن السـماحة من صـلاح الدين) وأما القصـيدة الثانية
فهي (حتام أرضــى في هواك وتغضــب * وإلى متى
تجني علي وتعتب) (ما كان لي لولا ملالك زلة *
لما مللت زعمت أني مذنب) (خذ في أفانين الصدود
فـإن لي * قلبـاً على العلات لا يتقلـب) (أتظنني
أضـــمرت بعدك ســـلوة * هيهات عطفك من ســـلوي
أقرب) (لي فيك نار جوانح ما تنطفي * حرقاً وماء
مدامع ما تنضـــب) (أنســـيت اياماً لنا ولياليـاً * للهو
فيها والبطالة ملعب) (أيام لا الواشــي يعد ضـلالة *
ولهي عليك ولا العذول يؤنب)

210 (قد كنت تنصـــفني المودة راكباً * في الحب من أخطاره ما أركب) (واليوم أقنع أن يمر بمضـــجعي * في النوم طيف خيالك المتأوب) (ما خلت أن جديد أيام الصـــبا * يبلى ولا ثوب الشـــبيبة يسلب) (حتى انجلى ليل الغواية واهتدى * ساري الدجى وانجاب ذلك الغيهب) (وتنافر البيض الحسان فأعرضت * عني سعاد وأنكرتني زينب) (قالت وريعت من بياض مفارقي * ونحول جسمي بان منك الأطيب) (إن تنقمي سقمي فخصرك ناحل * أو تنكري شيبي فثغرك أشنب) قلت لله دره فلقد أجاد في هذا المعنى كل الإجادة غير أنه قد ظن أن الشـــنب بياض الثغر وعليه بني هذا المعنى حتى تم له مقصوده فانها لما عيرته بالسقم قابلها بنحول الخصر فقال لها إن كنت نحيلا فخصرك أيضاً نحيل فلما أنكرت شيبه قابلها بأن ثغرها أشنب فكأنه قال لها بياض شيبي في مقابلة ثغرك الأشنب وليس الأمر كما أظن فان الشنب في اللغة ليس البياض وإنما هو حدة الأســـنان ويقال بردها وعذوبتها والصـــحيح أنه حدتها وهو دليل على الحداثة لأن الأســـنان في أول طلوعها تكون حادة فإذا مرت عليها السـنون احتكت وذهبت حدتها وهذا المعنى ينظر إلى قول النابغة الذبياني في جملة قصـــيدته المشـــهورة وهو (ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب) وقد تقدم ذكر هذا البيت في ترجمة عروة بن الزبير فيكشـــف هناك

ومثله ايضـــا ما أنشـــدني بهاء الدين زهير بن محمد الكاتب المقدم ذكره لنفسه من جملة أبيات وهو قوله (ما فيه من عيب سوى * فتور عينيه فقط)

211 رجع (يا طالباً بعد المشـيب غضــارة * من عيشــه ذهب الزمـان المذهب) (أتروم بعد الأربعين تعدها * وصــل الدمى هيهات عز المطلب) (ومن الســفاه وقد شــآك طلابة * يفعاً تطلبه وفودك أشيب) (لولا الهوى العذري يا دار الهوى * ما هاج لي طرباً وميض خلب) (كلا ولا اسـتجدبت أخلاف الحيا * وندى صــلاح الدين هام صــيب) وقد مدحه جميع شـعراء عصــره وانتجعوه من البلاد فمنهم العلم الشاتاني واسمه الحسن وقد تقدم ذكره مدحه بقصيدته الرائية التي أولهـا (أرى النصـــر مقرونـاً برايتك الصفرا * فسر واملك الدنيا فأنت بها أحرى) ومدحه المهـذب أبو حفص عمر بن محمد بن علي بن أبي نصـــر المعروف بابن الشـــحنة الموصـــلي الشـــاعر المشـهور بقصيدته التي أولها (سـلام مشوق قد براه التشـــوق * على جيرة الحي الـذين تفرقوا) وعدة أبياتها مائة وثلاثة عشـــر بيتاً وفيها البيتان الســـائران أحدهما (وإني امرؤ أحببتكم لمكارم * ســـمعت بها والأذن كالعين تعشـــق) وقد أخذه من قول بشـــار بن برد المقـدم ذكره وهو (يـا قوم أذني لبعض الحي عاشـــقة * والأذن تعشـــق قبل العين أحيانا) والبيت الثاني من قصيدة ابن الشحنة قوله (وقالت لي الآمال

إن كنت لاحقاً * بأبناء أيوب فأنت الموفق) ومما قيل فيه لبعض أهل المشرق

212 (الله أكبر جاء القوس باريها * ورام أسهم دين الله راميها) (فكم لمصر على الأمصار من شرف * باليوسفين فهل أرض تدانيها) (فإن يعقوب هزت جيدها طربا * وبابن أيوب هزت عطفها تيها) (قل للملوك تخلى عن ممالكها * فقد أتي آخذ الدنيا ومعطيها) فلما أنشدها إياه أعطاه ألف دينار (ومدحه ابن قلاقس وابن الذروي وابن المنجم وابن سناء الملك وابن الساعاتي والبحراني الإربلي وابن دهن الحصى الموصلي ومحمد بن إسماعيل ابن حمدان الحيزاني وغير هؤلاء وقد ذكرت أكثر هذه الجماعه في هذا التاريخ وعذري في تطويل هذه الترجمة قول المتنبي (وقد أطال ثنائي طول لابسه * إن الثناء على التنبال تنبال) التنبال الرجل القصير وهو بكسر التاء المثناة من فوقها وبعدها نون ساكنة وباء موحدة وبعد الألف لام قلت قد تقدم في هذه الترجمة عند ذكر إرسال العاضد إلى صلاح الدين وطلبه إياه ليخلع عليه ويوليه الوزارة ذكر المثل المشهور وهو أردت عمراً وأراد الله خارجة وقد يقف عليه من لا يعرف سبب هذا المثل ولا المراد منه فأحببت أن اشرحه كيلا يحتاج من يقف عليه إلى كشفه من مكان آخر فأقول (393) عمرو المذكور هو عمرو بن العاصي بن وائل بن هاشم بن سعيد بن

سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي القرشي السهمي

213 كنيته أبو عبد الله وقيل ابو محمد أحد الصحابة رضي الله عنهم أسلم سنة ثمان من الهجرة قبل فتح مكة ومكة فتحها رسول الله في شهر رمضان من هذه السنة وقيل بل أسلم بين الحديبية وخيبر والأول أصح وقدم هو وخالد بن الوليد المخزومي وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة القرشي العبدري على رسول الله بالمدينة مسلمين فلما دخلوا عليه ونظر إليهم قال لهم قد رمتكم مكة بأفلاذ كبدها وقال الواقدي قدم عمرو بن العاصي مسلماً على رسول الله قد أسلم عند النجاشي ملك الحبشة وقدم معه عثمان بن طلحة وخالد بن الوليد فقدموا المدينة في صفر سنة ثمان من الهجرة وقيل إنه لم يأت من أرض الحبشة إلا معتقداً الإسلام وذلك أن النجاشي قال له يا عمرو كيف يعزب عنك أمر ابن عمك فوالله إنه لرسول الله حقاً قال أتحقق ذلك قال أي والله فاطعني فخرج من عنده مهاجراً إلى النبي وبعثه رسول الله على سرية إلى الشام يدعو أخوال أبيه إلى الإسلام فبلغ السلاسل من بلاد قضاعة وهو ماء بأرض جذام وبذلك سميت تلك الغزوة ذات السلاسل وكان معه ثلثمائة رجل فخاف عمرو فكتب إلى رسول الله يستمده فأمده بجيش مائتي فارس من المهاجرين والأنصار أهل الشرف فيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وأمر عليهم أبا عبيدة بن

الجراح رضـــــي الله عنـه فلمـا قـدموا علـى عمرو بن العاصـي قال أنا أميركم وإنما أنتم مددي فقال ابو عبيدة بل أنت أمير من معك وأنا أمير من معي فأبى عمرو فقال أبو عبيدة إن رسول الله إلى إذا قدمت على عمرو فتطـاوعا ولا تختلفا فان خـالفتني أطعتك قـال عمرو فإني أخالفك فســـلم إليه ابو عبيدة وصـــــلى خلفه في الجيش كله وكانوا خمســمائة وولى رســول الله عمرو بن العـاصـــــي على عمـان فلم يزل عليهـا حتى قبض رسول الله وفي سنة اثنتي عشرة بعث أبو بكر رضي الله عنه عمرو بن العاصي ويزيد

214 ابن أبي ســـفيـان الأموي وأبـا عبيـدة بن الجراح وشــرحبيل بن حســنـة إلى الشـــام وســـار إليهم خالد بن الوليد رضـــي الله عنه من العراق وأول شـــيء فتحوا من الشام بصرى صلحاً وتوفي أبو بكر رضي الله عنه واستخلف عمر رضي الله عنه فولى أبا عبيدة على الجيش وفتح الله تعالى عليه الشـــام فولى يزيد بن أبي ســفيان على فلســطين وهي كورة قصــبتها الرملة ولما مات أبو عبيدة استخلف معاذ بن جبل ومات معاذ فاســـتخلف يزيد بن أبي ســـفيان ومات يزيد فاســـتخلف أخاه معاوية بن أبي سفيان وكتب إليه عمر رضـــي الله عنه بعهده على ما كان عليه أخوه يزيد وكان موت هؤلاء كلهم في طاعون عمواس في سنة ثماني عشرة للهجرة وعمواس بفتح العين المهملـة والميم وفي آخرها ســـين مهملة وهي قرية بالشـــــام بين نابلس

والرملة وكان الطاعون بها في العام المذكور وقيل بل مات يزيد بن أبي سفيان في ذي الحجة من سنة تسع عشرة بدمشق والله أعلم وذلك بعد فتح قيسارية وكان عمر رضي الله عنه قد ولى عمرو بن العاصي بعد موت يزيد بن أبي سفيان فلسطين والأردن وولى معاوية دمشق وبعلبك والبلقاء وولى سعيد بن عامر بن حذيم حمص ثم جمع الشام كلها لمعاوية وكتب إلى عمرو فسار إلى مصر فافتتحها في سنة عشرين للهجرة فلم يزل عليها والياً حتى مات عمر رضي الله عنه فأقره عثمان رضي الله عنه عليها أربع سنين أو نحوها ثم عزله وولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري وكان اخا عثمان رضي الله عنه من الرضاعة فاعتزل عمرو بن العاصي في ناحية فلسطين وكان يأتي المدينة أحياناً فلما قتل عثمان رضي الله عنه سار إلى معاوية باستجلاب معاوية إياه وشهد صفين مع معاوية وكان منه في صفين وقضية التحكيم ما هو مشهور عند أهل العلم بهذا الفن وكان قد طلب من معاوية أنه إذا تم له الأمر يوليه مصر وكتب إليه في بعض أيام طلبه

215 (معاوي لا أعطيك ديني ولم أنل * به منك دنيا فانظرن كيف تصنع) (فان تعطني مصراً فأربح بصفقة * أخذت بها شيخاً يضر وينفع) ثم ولاه معاوية مصر فلم يزل بها أميراً إلى أن مات يوم عيد الفطر من سنة ثلاث وأربعين للهجرة وقيل سنة

اثنتين وأربعين وقيل سـنة ثمان وأربعين وقيل سـنة إحدى وخمسين والأول اصح وعمره تسعون سنة ودفن بسفح المقطم وصلى عليه ابنه عبد الله ولما رجع صلى بالناس العيد ثم عزل معاوية عبد الله بن عمرو بن العاصي وولى أخاه عتبة بن ابي سفيان فمات عتبة بعد سنة أو نحوها فولى معاوية مسلمة بن مخلد وكان عمرو بن العاصي من فرسان قريش وأبطالهم في الجاهلية وكان من الدهاة في أمور الدنيا المقدمين في الرأي وكان عمر رضي الله عنه إذا استضعف رجلاً في رأيه قال أشهد أن خالقك وخالق عمرو واحد يريد خالق الأضداد وذكر أبو العباس المبرد في كتاب الكامل أن عمرو بن العاصي لما حضرته الوفاة دخل عليه ابن عباس رضي الله عنهما فقال له يا ابا عبد الله كنت أسمعك كثيراً ما تقول وددت لو رأيت رجلاً عاقلاً حضرته الوفاة حتى أسأله عما يجد فكيف تجد فقال أجد كأن السماء مطبقة على الأرض وكأني بينهما وكأنما أتنفس من خرت إبرة ثم قال اللهم خذ مني حتى ترضى فدخل عليه ولده عبد الله فقال له يا ولدي خذ ذلك الصندوق قال لا حاجة لي به فقال إنه مملوء مالا فقال لا حاجة لي به فقال ليته مملوء بعراً ثم رفع يديه وقال اللهم إنك امرت فعصينا ونهيت فارتكبنا فلا بريء فأعتذر ولا قوي فأنتصر ولكن لا إله إلا أنت ثم فاظ قلت يقال فاظ وفاض بالظاء والضاد أي مات قال الشاعر

وأما خارجة المذكور في هذا المثل فانه خارجة بن حذافة بن غانم بن عبد الله بن عوف بن عبيد بن عويج بن عدي بن كعب القرشـــي العدوي شـــهد فتح مصـــر واختط بمصـــر وكان أمير ربع المدد الذين أمد بهم عمر بن الخطاب رضـــي الله عنه عمرو بن العاصـــي في فتح مصر وكان على شرط مصر في إمرة عمرو ابن العاصـــي لمعاوية بن ابي ســـفيان الأموي قتله خارجي بمصـر سـنة أربعين للهجرة وهو يحسـب أنه عمرو بن العاصـــي هكذا قاله ابن يونس في تاريخ مصـــر وذكره في كتاب الاســـتيعاب لابن عبد البر وساق نسبه على هذه الصورة ثم قال يقال إنه كان يعد بألف فارس ذكر بعض أهل النسب والأخبار أن عمرو بن العاصـــي كتب إلى عمر رضـــي الله عنه يســـتمده بثلاثة آلاف فارس فأمده بخارجة بن حذافة والزبير بن العوام والمقداد بن الأســـود الكندي وشـــهد خارجة فتح مصر وقيل إنه كان قاضيا لعمرو بن العاصي بها وقيل إنه كان على شـــرطة عمرو ولم يزل بها إلى أن قتل قتله أحد الخوارج الثلاثة الذين كانوا انتدبوا لقتل علي بن أبي طالب رضـــي الله عنه ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاصي فأراد الخارجي قتل عمرو فقتل خـارجـة هذا وهو يظنـه عمرا وذلـك أنـه كـان اسـتخلفه عمرو بن العاصـي على صـلاة الصـبح ذلك اليوم فلما قتلـه أخذ وأدخل على عمرو فقال من هذا

الذي أدخلتموني عليه فقالوا عمرو بن العاصي فقال ومن قتلت فقالوا خارجة فقال أردت عمرا وأراد الله خارجة وقد قيل إن الخارجي الذي قتله لما أدخل على عمرو قال له عمرو أردت عمرا وأراد الله خارجة والله أعلم من قال ذلك منهما والذي قتل خارجة هذا رجل من بني العنبر بن عمرو بن تميم يقال له داذويه وقيل إنه مولى لبني العنبر وقد قيل إن خارجة الذي قتله الخارجي بمصر

217 على أنه عمرو بن العاصي رجل يسمى خارجة من بني سهم رهط عمرو بن العاصي وليس بشيء انتهى ما قاله صاحب الاستيعاب وقال غيره إن عمرو بن العاصي أصابه شيء في بطنه فتخلف في منزله تلك الليلة وكان خارجة يعشي الناس فضربه الخارجي وكان عمرو يقول ما نفعني بطني قط إلا تلك الليلة قلت فهذا أصل المثل في قولهم أردت عمرا وأراد الله خارجة وإلى هذا أشار أبو محمد عبد المجيد بن عبدون الأندلسي في قصيدته التي رثى بها بني الأفطس ملوك بطليوس وأولها (الدهر يفجع بعد العين بالأثر *) بقوله (وليتها إذ فدت عمرا بخارجة * فدت عليا بمن شاءت من البشر) وهي من غرر القصائد جمعت تاريخا كثيرا وشرحها الأديب أبو مروان عبد الملك بن عبد الله بن بدرون الحضرمي الشلبي شرحا مستوفى وهذا البيت يحتاج إلى شرح أيضا وهو من تتمة الكلام على المثل

المذكور لكني أذكره مختصرا فانه طويل ذكر أهل
علم التاريخ أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما
بويع بالخلافة في اليوم الذي قتل فيه عثمان بن عفان
رضي الله عنه خرج عليه من قاتله في وقعة الجمل
وقد ذكرت طرفا من هذه الوقعة في ترجمة يموت بن
المزرع ساقها الكلام هناك فذكرت المقصود منه ثم
كانت وقعة صفين عند خروج معاوية بن أبي سفيان
الأموي وعمرو بن العاصي على علي بن أبي طالب
رضي الله عنه فتوجه إليهم من العراق وجاءوه من
الشام والتقوا على صفين وهو موضع على شاطىء
الفرات بالقرب من الرحبة وهي واقعة مشهورة
وكانت في سنة سبع وثلاثين من الهجرة ولما غلب
218 أهل الشام طلبوا من علي بن أبي طالب
رضي الله عنه التحكيم فأجابهم إليه بعد معاودات
كثيرة فخرج على علي جماعة من أصحابه وقالوا
حكمت في دين الله ولا حكم إلا لله ورحلوا إلى
النهروان فمضى إليهم وقاتلهم واستأصلهم إلا اليسير
منهم وهي أيضا واقعة مشهورة بقتال الخوارج ولما
طال الأمر في ذلك اجتمعوا وقالوا إن عليا ومعاوية
وعمرو بن العاصي قد أفسدوا امر هذه الأمة فلو
قتلناهم لعاد الأمر إلى حقه فقال عبد الرحمن ابن ملجم
المرادي أنا أقتل عليا قالوا فكيف لك بذلك قال اغتاله
وقال الحجاج بن عبد الله الصريمي أنا أقتل معاوية
ويعرف هذا الصريمي بالبرك وقال داذوية وقيل

زاذويه وقد تقدم الكلام عليه في الكلام على خارجة بن حذافة أنا أقتل عمرا وأجمعوا آراءهم على أن يكون ذلك في ليلة واحدة فدخل ابن ملجم الكوفة وعلي رضي الله عنه بها فاشترى سيفا بألف درهم وسقاه السم حتى لفظه فلما خرج علي لصلاة الصبح كان ابن ملجم قد كمن له فضربه على رأسه وقال الحكم لله يا علي لا لك وقيل إنه ضربه وهو في صلاة الصبح وذلك في صبيحة الجمعة لسبع عشرة ليلة مضت من شهر رمضان من سنة أربعين للهجرة وقيل غير هذا التاريخ وقدم البرك الصريمي على معاوية بدمشق فضربه فجرح أليته وهو في الصلاة ويقال إنه قطع عرق النسل فما أحبل بعدها وأما عمرو فقد سبق الكلام عليه عند قتل خارجة وهذا تفسير المثل والبيت الشعر على سبيل الاختصار والله أعلم

219 847 الموفق بن الخلال الكاتب أبو الحجاج يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال الملقب بالموفق صاحب ديوان الإنشاء بمصر في دولة الحافظ أبي الميمون عبد المجيد العبيدي المقدم ذكره ومن بعده قال عماد الدين الكاتب الأصبهاني في كتاب الخريدة في حقه هو ناظر مصر وإنسان ناظره وجامع مفاخره وكان إليه الإنشاء وله قوة على الترسل يكتب كما يشاء عاش كثيرا وعطل في آخر عمره وأضر ولزم بيته إلى أن تعوض منه القبر وتوفي بعد ملك الملك الناصر مصر بثلاث أو أربع سنين وذكر

له عدة مقاطيع من الشعر نورد شيئا منها بعد هذا إن شاء الله تعالى وذكره ضياء الدين أبو الفتح نصر الله المعروف بابن الأثير الجزري ثم الموصلي المقدم ذكره في الفصل الأول من كتابه الذي سماه الوشي المرقوم في حل المنظوم فقال حدثني القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني رحمه الله تعالى بمدينة دمشق في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وكان إذ ذاك كاتب الدولة الصلاحية فقال كان فن الكتابة بمصر في زمن الدولة العلوية غضا طريا وكان لا يخلوا ديوان المكاتبات من رأس يرأس

220 مكانا وبيانا ويقيم لسلطانه بقلمه سلطانا

وكان من العادة أن كلا من أرباب الدواوين إذا نشأ له ولد وشدا شيئا من علم الأدب أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويرى ويسمع قال فأرسلني والدي وكان إذ ذاك قاضيا بثغر عسقلان إلى الديار المصرية في أيام الحافظ وهو أخذ خلفائها وأمرني بالمصير إلى ديوان المكاتبات وكان الذي يرأس به في تلك الأيام رجلا يقال له ابن الخلال فلما حضرت الديوان ومثلت بين يديه وعرفته من أنا وما طلبتي رحب بي وسهل ثم قال لي ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات فقلت ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة فقال في هذا بلاغ ثم أمرني بملازمته فلما ترددت إليه وتدربت بين يديه أمرني بعد ذلك أن أحل شعر الحماسة فحللته من اوله

إلى آخره ثم أمرني أن أحله مرة ثانية فحللته انتهى ما ذكره ابن الأثير قلت وبعد أن نقلت ما قاله ضياء الدين ابن الأثير على هذه الصورة اجتمع بي من له عناية بالأدب خصوصا هذا الفن وهو من أعرف الناس باحوال القاضي الفاضل وقال لي هذا الذي ذكره ابن الأثير ما يمكن تصحيحه ولعله قد غلط في النقل فإن القاضي الفاضل لم يدخل إلى الديار المصرية إلا في أيام الظافر ابن الحافظ وكان وصوله إليها مع أبيه في أمر يختص بهم ثم إني وجدت في بعض تعاليقي بخطي وما أدري من أين نقلته أن القاضي الأشرف والد القاضي الفاضل كان من أهل عسقلان وكان ينوب في الحكم والنظر بمدينة بيسان فدخل إلى مصر في زمان الظافر بن الحافظ لكلام جرى بينه وبين والي الناحية من أجل كند كبير كان عندهم

221 له قيمة كثيرة فداجى الوالي في حقه وأطلقه فاستدعى الوالي إلى مصر لذلك وطولب بمال طائل فاحتمى ببعض أمراء الدولة وجعلوا الأقاويل في حق القاضي الأشرف فاستدعى وصودر إلى أن لم يبق له شيء ولم يكن معه من الأولاد سوى القاضي الفاضل فحمل على قلبه وتوفي بالقاهرة ليلة الأحد حادي عشر شهر ربيع الأول من سنة ست وأربعين وخمسمائة ودفن بسفح المقطم ثم توجه القاضي الفاضل إلى ثغر الإسكندرية وحضر عند ابن حديد

قاضـــــي البلد وناظره فعرفه بوالده فعرفه بالســـمعة واســتكتبه وأخذ الفرنج عســقلان فحضـــر إخوته إليه وكانت مكاتبات ابن حديد ترد إلى مصـــر بخطه وهي في غاية البلاغة فحسده كتاب الإنشاء بها على فضله وخافوا من تقدمه عليهم فسعوا إلى الظافر به فقالوا إنه قصــــر في المكاتبة وكان صـــاحب ديوان الإنشـــاء القاضــــي الإثير ابن بنان فيحكى أنه دخل على الظافر فقال له تكتب إلى ابن حديد بقطع يد كاتبه فتعصــب له ابن بنان وقال يا مولانا هذا الرجل ما منه تقصـــير وإنما حسده هؤلاء الكتاب فسعوا به ليؤذيه مولانا قال له الظافر فتكتب إلى ابن حديد ليرســله إلينا ويكتب لنا قال ابن بنان وكنت بعد ذلك في مجلس الظافر فرأيت القاضــــي الفاضــل وقد حضـــر وهو قائم بين يديه ثم اســتخدمه والله أعلم وقال العماد في الخريدة أنشــدني مرهف بن أســـامة بن منقذ قال أنشـــدني الموفق بن الخلال لنفسه من قصيدة (عذبت ليال بالعذيب حوالي * وخلت مواقف بالوصال خوالي)

222 (ومضت لذاذات تقضى ذكرها * تصبي الخلي وتســـتهيم الســـالي) (وجلت موردة الخدود فأوثقت * في الصــبوة الخالي بحسـن الخال) (قالوا ســـراة بني هلال أصـــلها * صـــدقوا كذاك البدر فرع هلال) قال العماد في الخريدة أيضا ونقلت من كتاب جنان الجنان ورياض الأذهان قلت وهو تأليف الرشيد بن الزبير المقدم ذكره من شـــعر ابن الخلال قوله (

وأغن سـيف لحاظه * يفري الحسـام بحده) (فضـح الصـــوارم واللدان * بقده وبقده) (عجب الورى لما حييت * وقد منيت ببعده) (وبقاء جســـمي ناحلا * يصـــلى بوقدة صــــده) (كبقاء عنبر خاله * في نار صفحة خده) وقوله (اما اللسـان فقد أخفى وقد كتما * لو أمكن الجفن كف الدمع حين همى) (أصـــبتم بسـهام اللحظ مهجته * فهل يلام إذا أجرى الدموع دما) (قد صار بالسقم من تعذيبكم علما * ولم يبح بالذي من جوركم علما) (فما على صامت أبدى لصدكم * في كل جارحة منه السقام فما) وأورد له في الشمعة (وصـحيحة بيضـاء تطلع في الدجى * صبحا وتشفي الناظرين بدائها)
223 (شــابت ذوائبها أوان شـــبابها * واســود مفرقها أوان فنائها) (كالعين في طبقاتها ودموعها * وســوادها وبياضـــها وضــيائها) وذكر العماد في الخريدة أيضـــا في ترجمة القاضـــي أبي المعالي عبد العزيز بن الحســين بن الجباب أبياتا كتبها ابن الجباب المذكور إلى الرشيد ابن الزبير في نكبة جرت للموفق بن الخلال المذكور وقال العماد كان خاله ولم يذكر أيهما خال الآخر وكان ابن الجباب قد حصل له بسبب نكبة ابن الخلال صداع والأبيات المشار إليها (تسمع مقالي يا ابن الزبير * فأنت خليق بأن تسمعه) (بلينا بذي نســب شــابك * قليل الجدى في زمان الدعه) (إذا ناله الخير لم نرجه * وإن صــفعوه صــفعنا معه)

وهذا من قول حصين بن خصفة السعدي الخارجي يخاطب قطري بن الفجاءة رئيس الخوارج المقدم ذكره (وأنت الذي لا نستطيع فراقه * حياتك لا نفع وموتك ضائر) ثم إني كشفت عن قول العماد كان خاله ولم يبينه فوجدت ابن الخلال المذكور خال ابن الجباب المذكور وذكر العماد أيضا في كتاب السيل والذيل الذي جعله ذيلا على كتاب الخريدة ابن الخلال أيضا وأورد له (وغزال نار وجنته * أذكت النيران في كبدي) (وله طرف لواحظه * نصرت شوقي على جلدي) (قذفت عيني سوالفه * فتوارت منه بالزرد)

224 والبيت الأخير مأخوذ من قول أبي محمد الحسن بن جكينا البغدادي الشاعر المشهور (طرفك يرمي قلبي بأسهمه * فما لخديك تلبس الزردا) وقد روي لغيره أيضا والله أعلم ثم وجدت في كتاب خريدة القصر تأليف عماد الدين الكاتب الأصفهاني لعبد السلام بن الجكر المعروف بابن الصواف الواسطي (لو كان أمري إلي أو بيدي * أعددت لي قبل بينك العددا) (طرفك يرمي قلبي بأسهمه * فما لخديك تلبس الزردا) (ريقته الشهد والدليل على * ذلك نمل بخده صعدا) وذكر أبو الحسن علي بن ظافر الأزدي المصري في كتاب بدائع البداية أن أبا القاسم ابن هانىء الشاعر المتأخر هجا ابن الخلال المذكور وبلغه هجوه فأضمر له حقدا واتفق بعض

المواسم التي جرت عادة ملوك مصر بالحضور فيه لاستماع المدائح فجلس الحافظ أبو الميمون عبد المجيد ملك مصر إذ ذاك فأنشده الشعراء وانتهت النوبة إلى ابن هانىء المذكور فأنشد وأجاد فيما قاله فقال الحافظ للموفق المذكور كيف تسمع فأثنى عليه واستجاد شعره وبالغ في وصفه ثم قال له ولو لم يكن له ما يمت به إلا انتسابه إلى أبي القاسم ابن هانىء شاعر هذه الدولة ومظهر مفاخرها وناظم مآثرها لولا بيت اظهره منه الضجر عند دخوله هذه البلاد فقال له الحافظ ما هو فتحرج من إنشاده فأبى الحافظ إلا أن ينشده وفي أثناء ذلك صنع بيتا وهو

225 (تبا لمصر فقد صارت خلافتها * عظما تنقل من كلب إلى كلب) فعظم ذلك على الحافظ وقطع صلاته وكاد يفرط في عقوبته والله أعلم ولم يزل ابن الخلال بديوان الإنشاء إلى أن طعن في السن وعجز عن الحركة فانقطع في بيته ويقال إن القاضي الفاضل كان يرعى له حق الصحبة والتعليم فكان يجري عليه ما يحتاج إليه إلى أن مات في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ست وستين وخمسمائة رحمه الله تعالى 848 الرمادي الشاعر أبو عمر يوسف بن هارون الكندي المعروف بالرمادي الشاعر المشهور ذكره الحافظ أبو عبد الله الحميدي في كتاب جذوة المقتبس فقال أظن أحد آبائه كان من أهل رمادة موضع بالمغرب شاعر قرطبي كثير

الشـــعر ســـريع القول مشـــهور عند الخاصـــة والعامة هنالك لسـلوكه في فنون من المنظوم مسـالك تنفق عند الكل حتى كان كثير من شـيوخ الأدب في وقته يقولون فتح الشـــعر بكنــدة وختم بكنــدة يعنون امرأ القيس والمتنبي ويوســـف بن هرون وكـانـا متعـاصـــرين واستدللت على ذلك بمدحه أبا علي

226 إســـماعيل بن القاســـم القالي عند دخوله الأندلس بالقصـــيدة التي أولها (من حاكم بيني وبين عذولي * الشـــجو شـــجوي والعويل عويلي) وكان وصـــول أبي علي القالي إلى الأندلس في ســـنة ثلاثين وثلثمائة قلت وقد سبق ذكر ذلك في ترجمته ثم ذكر له الحميدي وقائع وعدة مقاطيع من الشعر وأنه ألف كتابا في الطير وســـجن مدة قلت وقد ذكر أبو منصـــور الثعالبي في كتاب يتيمة الدهر الأبيات التي مدح بها يوســـف بن هرون أبا علي القالي وأورد له بعد البيت المذكور قوله (في أي جـارحـة أصـــون معذبي * سـلمت من التعذيب والتنكيل) (إن قلت في بصـري فثم مدامعي * أو قلت في كبدي فثم غليلي) (وثلاث شيبات نزلن بمفرقي * فعلمت أن نزولهن رحيلي) (طلعـت ثلاثـا في نزول ثلاثـة * واش ووجـه مراقب وثقيـل) (فعزلنني عن صـــبوتي فلئن ذللت * لقد ســـمعت بذلة المعزول) قلت ثم خرج بعد هذا إلى المدح وكان قد وصف الصيد والروض فقال (روض تعاهده السـحاب كأنه * متعاهد من عهد إسماعيل) (

قســـــه إلى الأعراب تعلم أنــه * أولى من الأعراب بالتفضـــــيل) (حازت قبائلهم لغات فرقت * فيهم وحاز لغات كل قبيل) (فالشـــرق خال بعده فكأنما * نزل الخراب بربعه المأهول) وكأنه شـــمس بدت في غربنا * وتغيبت عن شرقهم بأفول)
227 (يا ســـيدي هذا ثنائي لم أقل * زورا ولا عرضـــت بالتنويل) (من كان يأمل نائلا فأنا امرؤ * لم أرج غير القرب في تأميلي) وله في غلام ألثغ من جملة أبيات (لا الراء تطمع في الوصــــال ولا أنا * الهجر يجمعنا فنحن ســـواء) (فاذا خلوت كتبتها في راحتي * وبكيت منتحبا أنا والراء) وله فيه أيضـا (أعد لثغة في الراء لو أن واصــلا * تســمعها ما أسـقط الراء واصل) قلت وهذا واصل هو واصل بن عطاء المقدم ذكره في حرف الواو وقد ذكرت هنـاك هذا الشاعر وشيئا من شعره قلت وذكره ابن بشكوال في كتاب الصـلة فقال يوسـف بن هرون الرمادي الشـاعر من أهل قرطبة يكنى أبا عمر كان شاعر أهل الأندلس المشـــــهور المقدم على الشــــعراء روى عن أبي علي البغدادي يعني القالي كتاب النوادر من تأليفه وقد أخذ عنه أبو عمر ابن عبد البر قطعه من شعره رواها عنه وضمنها بعض تواليفه قال ابن حيان وتوفي سنة ثلاث وأربعمائة يوم العنصـره فقيرا معدما ودفن بمقبرة كلع انتهى كلامه قلت يوم العنصــــرة يوم مشــــهور ببلاد الأندلس وهو موســم للنصــــارى كالميلاد وغيره وهو

اليوم الرابع والعشـرون من حزيران فيه ولد يحيى بن زكريا عليهما السـلام والعنصـرة بفتح العين المهملة وسكون النون وفتح الصاد المهملة والراء وفي آخرها هاء وفي هذا اليوم حبس الله تعالى الشمس على يوشع بن نون عليه السلام حين بعثه موسى عليه الصلاة والسلام وكان

228 يوشـع ابن أخته إلى أريحا لقتال الجبابرة فقتلهم وبقيت منهم بقية فخشي أن يحول الليل بينه وبينهم فسأل الله تعالى أن يحبس عليهم الشمس حتى يفرغ فحبسها بدعائه وقد ذكر الشعراء ذلك في أشعارهم كثيرا فقال أبو تمام الطائي الشاعر المشهور من جملة قصيدة طويلة (فردت علينا الشمس والليل راغم * بشمس لهم من جانب الخدر تطلع) (نضا ضوءها صبغ الدجنة وانطوى * لبهجتها ثوب السماء المجزع) (فوالله ما أدري أأحلام نائم * ألمت بنا أم كان في الركب يوشع) وقال أبو العلاء المعري من جملة قصيدة طويلة أيضا (ويوشع رد بوحا ببعض يوم * وأنت متى سفرت رددت بوحا) وبوح بالباء الموحدة وسكون الواو وبعدها حاء مهملة اسم من أسماء الشمس وكذلك يوح بالياء المثناة من تحتها وأريحا بفتح الهمزة وكسر الراء ثم ياء ساكنة وبعدها حاء مهملة ثم ألف مقصورة بلدة بين القدس والشريعة من أرض الشام وهي قريبة من مدائن لوط عليه السلام والرمادي بفتح الراء والميم وبعد الألف دال

مهملة وبعدها ياء النسب هذه النسبة إلى الرمادة قال ياقوت الحموي في كتابه الذي سماه المشترك وضعا المختلف صعقا في باب الرمادة عشرة مواضع وعدها فقال الثالث رمادة المغرب ينسب إليها

229 يوسف بن هارون الكندي الرمادي الشاعر القرطبي وكلع بفتح الكاف واللام وبعدها عين مهملة وهي مقبرة قرطبة والله أعلم وذكر ابن سعيد في كتاب المغرب في أشعار أهل المغرب أن الرمادي المذكور اكتسب صناعة الأدب من شيخه أبي بكر يحيى بن هذيل الكفيف علم أدباء الأندلس وهو القائل (لا تلمني على الوقوف بدار * أهلها صيروا السقام ضجيعي) (جعلوا لي إلى هواهم سبيلا * ثم سدوا على باب الرجوع) ثم قال وتوفي يحيى بن هذيل المذكور في سنة ست أو خمس وثمانين وثلثمائة وهو ابن ست وثمانين رحمه الله تعالى

230 ابن الدرى يوسف بن درة الشاعر المعروف بابن الدرى الموصلي الأصل كان شاباً ذكياً ذكره ابو شجاع محمد بن علي بن الدهان في تاريخه وقال إنه هلك مع الحاج سنة خمس وأربعين وخمسمائة لما خرجت عليهم زعب وقد ذكره عماد الدين الكاتب الأصبهاني في كتاب خريدة القصر وذكره أبو المعالي سعد بن علي الحظيري المقدم ذكره في كتاب زينة الدهر ومن مشهور شعره قوله في رجل أرجل وقد أحسن فيه (مدور الكعب فاتخذه

* لتل غرس وثل عرش) (لو نظرت عينه الثريا *
أخرجها في بنات نعش) وله غير هذا أشياء حسنة
قال شيخنا الحافظ عز الدين أبو الحسن علي بن محمد
المعروف بابن الأثير الجزري في مختصر كتاب
الحافظ أبي سعد عبد الكريم بن السمعاني الذي عمله
231 في الأنساب ما مثاله قلت الزعبي بكسر
الزاي وسكون العين المهملة وآخره باء موحدة نسبة
إلى زعب بن مالك بن خفاف بن امرىء القيس بن
بهثة بن سليم بطن مشهور من سليم وهذه زعب هي
التي أخذت الحاج سنة خمس وأربعين وخمسمائة
فهلك منهم خلق كثير قتلا وجوعاً وعطشاً ثم إن الله
تعالى رمى زعباً بالقلة والذلة بعده إلى الآن ودره
بضم الدال المهملة والدرى بفتحها وتشديد الراء
وبعدها ألف مقصورة 850&&أبو المحاسن الشواء
ابو المحاسن يوسف بن إسماعيل بن علي بن أحمد بن
الحسين بن إبراهيم المعروف بالشواء الملقب شهاب
الدين الكوفي الأصل الحلبي المولد والمنشأ والوفاة
كان أديباً فاضلا متقناً لعلم العروض والقوافي شاعراً
يقع له في النظم معان بديعة في البيتين والثلاثة وله
ديوان شعر كبير يدخل في أربع مجلدات وكان زيه
على زي الحلبيين الأوائل في اللباس والعمامة
المشقوقة وكان كثير الملازمة لحلقة الشيخ تاج الدين
ابي القاسم أحمد بن هبة الله بن سعد الله بن سعيد بن
سعد بن مقلد المعروف بابن الجبراني الحلبي النحوي

232 اللغوي الفاضـــل وأكثر ما أخذ الأدب عنه وبصـحبته انتفع وعاشـر التاج أبا الفتح مسعود بن أبي الفضل النقاش الحلبي الشاعر المشهور زماناً وتخرج عليه في عمل الشعر وكان بيني وبين الشهاب الشواء مودة أكيدة ومؤانسـة كثيرة ولنا اجتماعات في مجالس نتذاكر فيها الأدب وأنشـدني كثيراً من شـعره وما زال صـاحبي منذ أواخر سـنة ثلاث وثلاثين وسـتمائة إلى حين وفاته وقبل ذلك كنت أراه قاعداً عند ابن الجبراني المذكور في موضـع تصـدره بجامع حلب وكان يكثر التمشـي في الجامع أيضـاً على جاري عادتهم في ذلك كما يعملون في جامع دمشـــق ولم يكن بيننـا إذ ذاك معرفة وكان حسن المحاورة مليح الإيراد مع السكون والتأني وجميل التأتي وأول شـيء أنشـدني من شـعره قوله (هاتيك يا صـاح ربا لعلع * ناشـدتك الله فعرج معي) (وانزل بنا بين بيوت النقا * فقد غدت آهلة المربع) (حتى نطيل اليوم وقفاً على السـاكن أو عطفاً على الموضع)

233 وأنشـدني لنفسـه ايضـاً (ومهفهف عني الزمان بخده * فكسـاه ثوبي ليله ونهاره) (لا مهدت عذري محاســن وجهه * إن غض عندي منه غض عذاره) وأنشــدته يوماً في أثناء مناشــدة جرت بيننا قول شـرف الدين أبي المحاسـن محمد المعروف بابن عنين الدمشقي المقدم ذكره في صدر جهان المعروف بابن مازه البخاري وقيل السـرخسـي (مال ابن مازة

دونه لعفاته * خرط القتادة أو منال الفرقد) (مال لزوم الجمع يمنع صـــرفه * في راحة مثل المنادى المفرد) فقال هذا ليس بجيد فقلت له ولم ذاك فقال ليس من شرط المنادى المفرد أن يكون مضموماً ولا بد فقد يكون المنادى مفرداً ولا يكون مضـــموماً بأن يكون نكرة غير معين كما تقول يا رجلا ولكن أنا أعمل في هذا شيئاً ثم إننا اجتمعنا بعد ذلك في الجامع فقال قد عملت في ذلك المعنى شيئاً فاسمعه ثم أنشد (لنا خليل له خلال * تعرب عن أصـــله الأخس) (أضـــحت له مثل حيث كف * وددت لو أنها كأمس) فقلت له وهذا ايضـــاً فيه كلام فقال وما هو فقلت حيث فيها لغات فمن العرب من يبنيها على الضم ومنهم من يبنيها على الفتح ومنهم من يبنيها على الكســـر وفيها لغات أخر غير هذه وأما أمس فمنهم من يبنيها على الكســـر ومنهم من يقول إنها اســـم معرب لكنه لا ينصرف وأنشدوا على هذه اللغة (لقد رأيت عجباً مذ أمسا * عجائزاً مثل السعالي خمسا)

234 هذا إذا كانت معرفة فأما إذا كانت نكرة فإنها معربة قولا واحداً فسكت وكان كثيراً ما يستعمل العربية في شعره فمن ذلك قوله ولا أدري هل أنشدنيه أم لا فإنه أنشدني شيئاً كثيراً من شعره وما ضبطت كل ما أنشـــدني وكذلك كل شـــيء اذكره بعد هذا لا اتحقق الحال في ســـماعي منه فأورده مهملا فمنه (وكنا خمس عشرة في التئام * على رغم الحسود بغير

آفة) (فقد أصبحت تنويناً وأضحى * حبيبي لا تفارقه الإضافة) وله ايضاً في غلام أرسل أحد صدغيه وعقد الآخر (أرسل صدغاً ولوى قاتلي * صدغاً فأعيا بهما واصفه) (فخلت ذا في خده حية * تسعى وهذا عقرباً واقفه) (ذا ألف ليست لوصل وذا * واو ولكن ليست العاطفة) ومن هذا النمط ما أنشدنيه بهاء الدين زهير بن محمد الكاتب المقدم ذكره رحمه الله تعالى لنفسه من جملة أبيات وهو (عسى عطفة بالوصل يا واو صدغه * علي فإني أعرف الواو تعطف) ولأبي المحاسن الشواء أيضاً قوله (ناديت وهو الشمس في شهرة * والجسم للخفية كالفيء) يا زاهياً أعرف من مضمر * صل واهياً أنكر من شيء) وله في المديح

235 (فتى فاق الورى كرماً وبأساً * عزيز الجار مخضر الجناب) (ترى في السلم منه غيث جود * وفي يوم الكريهة ليث غاب) (إذا ما سل صارمه لحرب * اراك البرق في كف السحاب) وله ايضاً في شخص لا يكتم السر (لي صديق غدا وإن كان لا ينطق إلا بغيبة أو محال) (أشبه الناس بالصدى إن تحدثه حديثاً أعاده في الحال) وله أيضاً (قالوا حبيبك قد تضوع نشره * حتى غدا منه الفضاء معطرا) _ (فأجبتهم والخال يعلو خده * أو ما ترون النار تحرق عنبرا) قلت وقد تقدم في ترجمة يحيى بن نزار المنيجي عدة مقاطيع من شعر العماد المحلي

وغيره وفيها إلمام بهذا المعنى ولأبي المحاسن ايضاً (هواك يا من له اختيال * ما لي على مثله احتيال) (قسمة افعاله لحيني * ثلاثة مالها انتقال) (وعدك مستقبل وصبري * ماض وشوقي إليك حال) وله أيضاً (فديت بنفسي رأس عين ومن فيها * وبيض السواقي حول زرق سواقيها) (إذا راقني منها جواري عيونها * أراق دمي منها عيون جواريها) وله ايضاً (إن كان قد حجبوه عني غيرة * منهم عليه فقد قنعت بذكره)

236 (كالمسك ضاع لنا وضاع مكانه * عنا فأغنى نشره عن نشره) وله في غلام قد ختن (هنأت من اهواه عند ختانه * فرحاً وقلبي قد عراه وجوم) (يفديك من الم الم بك امرؤ * يخشى عليك إذا ثناك نسيم) (أمعذبي كيف استطعت على الأذى * جلداً وأجزع ما يكون الريم) (لو لم تكن هذي الطهارة سنة * قد سنها من قبل إبراهيم) (لفتكت جهدي بالمزين إذ غدا * في كفه موسى وأنت كليم) ومعظم شعره على هذا الأسلوب وقد أوردت منه أنموذجاً فيه كفاية وكان من المغالين في التشيع وأكثر أهل حلب ما كانوا يعرفونه إلا بمحاسن الشواء والصواب فيه هو الذي ذكرته ها هنا وأن اسمه يوسف وكنيته أبو المحاسن وبعد هذا رأيت في كتاب عقود الجمان الذي وضعه صاحبنا الكمال ابن الشعار الموصلي وقد بنى ترجمة المذكور على يوسف وكنيته

أبو المحاسن وكان صاحبه وأخذ عنه كثيراً من شعره وهو من أخبر الناس بحاله وأعلم ذلك في وقته وكان مولده تقديراً في سـنة اثنتين وسـتين وخمسـمائة فإنه كان لا يحقق مولده وتوفي يوم الجمعة تاسـع عشـر المحرم سـنة خمس وثلاثين وسـتمائة بحلب ودفن ظاهرها بمقبرة باب أنطاكية غربي البلد ولم أحضـر الصـلاة عليه لعذر عرض لي في ذلك الوقت رحمه الله تعالى فلقد كان نعم الصاحب

237 (395) وأما شـيخه ابن الجبراني المذكور فهو طائي بحتري وكان من قرية من اعمال عزاز يقال لها جبرين قورسطايا نسب إليها هكذا أخبر عن نفسه وكان متضلعاً من علم الأدب خصوصاً اللغة فإنها كانت غالبة عليه وكان متبحراً فيها وكان له تصـدر في جامع حلب في لمقصـورة الشـرقية على صحن الجامع قبالة المقصورة التي يصلي فيها قضاة حلب يوم الجمعة ولقد كنت يوماً قاعداً في هذه المقصورة عند الدرابزين الذي إلى جهة الصحن وإذا به قد حضر ومعه جماعة من أصحابه وفيهم الشهاب أبو المحاسـن الشـواء المذكور وجلس إلى المحراب الصغير الذي في هذه المقصورة وهو موضع تصدره فجعلت بالي من كلامه وأنا في ذلك الوقت مشـتغل بالأدب فسـمعته يتكلم في قاعدة الأفعال الثلاثية التي أولها واو وهي على فعل بكسـر العين مثل وجل وغيره وأن مضـارعه فيه اربع لغات يوجل وييجل

وياجل وييجل إلا ما شــذ من الأفعال الثمانية التي هي ورم وورث وورع ووري وومق ووثق ووفق وولي فإن مضــارعها أيضــاً بالكسر كماضــيها وشذ من ذلك قولهم وسع يسع ووطىء يطأ وإنما انفتح هذان الفعلان في المضـــــارع لأجل حرفي الحلق وأطال الكلام في ذلك بما لم اقدر على حفظه في ذلك الوقت ولم أســـمع منه غير هذا الفصــل وكان مولده يوم الأربعاء الثاني والعشــرين من شــوال ســنة إحدى وســتين وخمســمائة وتوفي يوم الاثنين سابع رجب من سنة ثمان وعشرين وســتمائة بحلب ودفن في ســفح جبل جوشــن رحمه الله تعالى

238 البياســـي صـــاحب الحماســـة ابو الحجاج

يوســف بن محمد بن إبراهيم الأنصـــاري البياســـي أحد فضـــــلاء الأندلس وحفاظها المتقنين كان أديباً بارعاً فاضلا مطلعاً على اقسام كلام العرب من النظم والنثر وراوياً لوقائعها وحروبها وأيامها بلغني أنه كان يحفظ كتاب الحماسة تأليف أبي تمام الطائي والأشعار الستة وديوان أبي تمام المذكور وديوان أبي الطيب المتنبي وســـــقط الزند ديوان أبي العلاء المعري إلى غير ذلك من الأشــعار من شــعراء الجاهليه والإســلام وتنقل في بلاد الأنــدلس وطــاف بــأكثرهــا ولمــا قــدم من جزيرة الأندلس إلى مدينة تونس جمع للأمير ابي زكريا يحيى بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر صــاحب إفريقيــة رحمهم الله أجمعين كتــابــاً ســـمــاه الإعلام

بالحروب الواقعة في صــدر الإســلام ابتدأ فيه بمقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه وختمه بخروج الوليد بن طريف الشاري على هرون الرشيد ببلاد الجزيرة الفراتية وقد ذكرت ترجمة الوليد المذكور وخبره وما جرى لـه ومقتلـه على يـد يزيـد بن مزيـد بن زائـدة الشــيباني وذكرت يزيد المذكور في ترجمة مســتقلة أيضاً قبل هذا واستوفيت القصة في الترجمتين ورأيت هذا الكتاب وطالعته وهو في مجلدين أجاد في تصنيفه وكلامه فيه كلام عارف بهذا الفن

239 ورأيت له أيضــاً كتاب الحماســة في مجلدين وقد قرئت النسـخة عليه وعليها خطه كتبه في أواخر شــهر ربيع الآخر سـنة خمسـين وسـتمائة وقال في آخر الكتاب وكان الفراغ من تأليفه وترتيبه بمدينة تونس حرسـها الله تعالى في شـوال سـنة ست وأربعين وســتمائة ونقلت من أوله بعد الحمدلة ما مثاله أما بعد فإني قد كنت في أوان حداثتي وزمان شـبيبتي ذا ولوع بالأدب ومحبة في كلام العرب ولم ازل متتبعاً لمعانيه ومفتشــاً عن قواعده ومبانيه إلى أن حصـلت لي جملة منه لا يسـع الطالب المجتهد جهلها ولا يصـلح بالناظر في هذا العلم إلى أن يكون عنده مثلها وحملتني المحبة في ذلك العلم والولوع به على أن جمعت مما اخترته واسـتحسـنته من أشـعار العرب جاهليها ومخضـرميها وإســلاميها ومولدها ومن اشــعار المحدثين من أهل المشـرق والأندلس وغيرهم ما تحسـن به المحاضـرة

وتجمل عليه المناظرة ثم إني رأيت أن بقاءها دون أن تدخل تحت قانون يجمعها وديوان يؤلفها مؤذن بذهابها ومؤد إلى فسادها فرأيت أن اضم مختارها وأجمع مستحسنها تحت ابواب تقيد نافرها وتضم نادرها ونظرت في ذلك فلم أجد اقرب تبويب ولا أحسن ترتيب مما بوبه ورتبه ابو تمام حبيب بن أوس رحمه الله تعالى في كتابه المعروف بكتاب الحماسة وحسن الاقتداء به والتوخي لمذهبه لتقدمه في هذه الصناعة وانفراده منها بأوفر حظ وأنفس بضاعة فاتبعت في ذلك مذهبه ونزعت منزعه وقرنت الشعر بما يجانسه ووصلته بما يناسبه ونقحت ذلك واخترته على قدر استطاعتي وبلوغ جهدي وطاقتي قلت وأطال القول بعد هذا بما لا حاجة بنا إلى ذكره ونقلت منه شيئاً فمن ذلك ما ذكره في باب المراثي قال ابو علي القالي البغدادي أنشدنا أبو بكر ابن دريد قال أنشدنا أبو حاتم السجستاني (ألا في سبيل الله ماذا تضمنت * بطون الثرى واستودع البلد القفر)
240 (بدور إذا الدنيا دجت أشرقت بهم * وإن أجدبت يوماً فايديهم القطر) (فيا شامتاً بالموت لا تشمتن بهم * حياتهم فخر وموتهم ذكر) (حياتهم كانت لأعدائهم عمى * وموتهم للفاخرين بهم فخر) (أقاموا بظهر الأرض فاخضر عودها * وصاروا ببطن الأرض فاستوحش الطهر) ونقلت من باب النسيب قول العباس بن الأحنف المقدم ذكره (تحمل

عظيم الذنب ممن تحبه * وإن كنت مظلوماً فقل أنا ظالم) (فإنك إن لم تغفر الذنب في الهوى * يفارقك من تهوى وأنفك راغم) وقول الوأواء الدمشقي هكذا قال وغالب ظني انها لأبي فراس ابن حمدان والله أعلم (بالله ربكما عوجا على سكني * وعاتباه لعل العتب يعطفه) (وعرضا بي وقولا في حديثكما * ما بال عبدك بالهجران تتلفه) (فإن تبسم قولا في ملاطفة * ما ضر لو بوصال منك تسعفه) (وإن بدا لكما من سيدي غضب * فغالطاه وقولا ليس نعرفه) وقول المجنون (تعلقت ليلى وهي بكر صغيرة * ولم يبد للأتراب من ثديها حجم) (صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا * إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم البهم الصغار من أولاد الضأن الواحدة بهمة بفتح الباء الموحدة

241 وسكون الهاء وهذان البيتان يستدل بهما النجاة على انتصاب الحال من الفاعل والمفعول به معاً بلفظ واحد فان صغيرين انتصب على الحال من التاء في قوله تعلقت وهي فاعلة ومن ليلى وهي مفعولة ومثله قول عنترة العبسي (متى ما تلقني فردين ترجف * روانف أليتيك وتستطارا) نصب فردين على الحال من ضمير الفاعل والمفعول في تلقني ذكره ابن الأنباري في كتاب أسرار العربية في باب الحال وقال الوأواء الدمشقي ايضا ذكره في حماسته البياسي المذكور أيضا (وزائر راع كل

الناس منظره * أحلى من الأمن عند الخائف الوجل) (ألقى على الليل ليلا من ذوائبه * فهابه الصــــبح أن يبدو من الخجل) (أراد بالقتل هجري فاســتجرت به * فاستل بالوصل روحي من يدي أجلي) (فصرت فيه أمير العاشقين فقد * صارت ولاية أهل العشق من قبلي) وقال علي بن عطية البلنســـي ابن الزقاق (ومرتجة الأعطاف أما قوامها * فلدن وأما ردفها فرداح) (ألمت فبات الليل من قصر بها * يطير وما غير الســرور جناح) (وبت وقد زارت بأنعم ليلة * تعانقني حتى الصــــباح صــــباح) (على عاتقي من ساعديها حمائل * وفي خصرها من ساعدي وشاح) وقال أحمد بن الحســين بن خلف المعروف بابن البني اليعمري قلت

242 هو المقدم ذكره في ترجمة يوسف بن عبد المؤمن صـــاحب المغرب وكان قد أخرجه صـــاحب ميورقة وسيره في البحر فساروا يومهم فهبت عليهم الريح فردتهم فقال (أحبتنا الأولى عتبوا علينا * فأقصونا وقد أزف الوداع) (لقد كنتم لنا جذلاً وأنساً * فهل في العيش بعدكم انتفاع) (اقول وقد صـــدرنا بعد يوم * اشـوق بالسـفينة أم نزاع) (إذا طارت بنا حامت عليكم * كأن قلوبنا فيها شـــراع) وقال الواثق بالله وله فيه غناء (ما كنت أعرف ما في البين من حزن * حتى تنادوا بأن قد جيء بالســـفن) (قامت تودعني والدمع يغلبها * فجمجمت بعض ما قالت ولم

تبن) (مالت علي تفديني وترشفني * كما يميل نسيم الريح بالغصـن) (فأعرضـت ثم قالت وهي باكية * يا ليت معرفتي إياك لم تكن) وأورد في باب القرى والأضياف والفخر والمديح قول أبي الحسن جعفر بن إبراهيم بن الحاج اللورقي (عجباً لمن طلب المحامد * وهو يمنع ما لديه) (ولباســـط آماله * للمجد لم يبســـط يديه) (لم لا أحب الضـــيف أو * أرتاح من طرب إليـه) (والضـــيف يـأكل رزقـه * عنـدي ويحمدني عليه) ومما ينســـب إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال حين كف بصره

243 (إن يأخذ الله من عيني نورهما * ففي لســاني وقلبي منهما نور)) (قلبي ذكي وذهني غير ذي دخل * وفي فمي صارم كالسيف مطرور) وذكر في باب الهجاء والعتاب وما يتعلق بهما لأبي العالية أحمد بن مالك الشـــامي (أذم بغداد والمقام بها * من بعد ما خبرة وتجريب) (ما عند أملاكها لمرتقب * رفد ولا فرجة لمكروب) (خلوا سبيل العلى لغيرهم * ونازعوا في الفســـوق والحوب) (يحتاج راجي النجاح عندهم * إلى ثلاث من بعد تقريب) (كنوز قـارون أن تكون لـه * وعمر نوح وصــــبر أيوب) وأنشـد ابو بكر محمد بن يحيى الصـولي لأبي العطاف الكوفي صـــالح بن عبد الرحمن بن نشـــيط (يا ابن الوليد أبن لنـا * إن البيان لـه حدود) (مـالي أراك مســـيباً * اين الســـلاســـل والقيود) (أغلا الحديد

بأرضــــكم * أم ليس يضـــبطك الحديد) قلت إلى هنا نقلت من كتاب الحماســـة المذكور وفيه كفاية إذ كان الغرض إيراد شـــيء من أخبار هذا الرجل ليســتدل به على معرفتـه في الشـــعر وكـان مولـده يوم الخميس الرابع عشر من شـهر ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة وتوفي يوم الأحد الرابع من ذي القعدة سنة ثلاث وخمسين وستمائة بمدينة تونس رحمه الله تعالى والبياسي بفتح الباء الموحدة والياء المشددة المثناة من تحتها هذه النسبة

244 إلى بياســـة وهي مدينة كبيرة بالأندلس معدودة في كورة جيان هكذا قاله ياقوت الحموي في كتابه المشترك وضـعا 852 يونس بن حبيب ابو عبد الرحمن يونس بن حبيـب النحوي قـال أبو عبيـد الله المرزباني في كتابه المقتبس في أخبار النحويين هو مولى ضـــبة وقيل هو مولى بني ليث بن بكر بن عبد منـاة بن كنـانـة وقيـل مولى بلال بن هرمي من بني ضـــبيعة بن بجالة وهو من أهل جبل ومولده ســـنة تســـعين ومات ســـنة اثنتين وثمانين ومائة وكان يقول اذكر موت الحجاج وقيل مولده ســنة ثمانين وأنه رأى الحجاج وعاش مائة ســنة وســـنتين وقيل عاش ثمانيا وتسـعين سـنة وقال غير المرزباني أخذ يونس الأدب عن أبي عمرو بن العلاء وحماد ابن سلمة وكان النحو أغلب عليه وســـمع من العرب وروى ســـيبويه عنه كثيراً وسمع منه الكسائي والفراء وله قياس في النحو

ومذاهب ينفرد بها وكان من الطبقة الخامسة في الأدب وكانت حلقته بالبصرة ينتابها الأدباء وفصحاء العرب وأهل البادية قال أبو عبيدة معمر بن المثنى اختلفت إلى يونس أربعين سنة

245 أملأ كل يوم الواحي من حفظه وقال أبو زيد الأنصـــاري النحوي جلســـت إلى يونس بن حبيب عشـــر ســـنين وجلس إليه قبلي خلف الأحمر عشـــرين سنة وقال يونس قال لي رؤبة بن العجاج حتام تسألني عن هذه البواطل وأزخرفها لك أما ترى الشيب قد بلغ في لحيتك وليونس من الكتب التي صـــنفها كتاب معاني القرآن الكريم وكتاب اللغات وكتاب الأمثال وكتاب النوادر الصـــغير وقال إســـحاق بن إبراهيم الموصـــلي عاش يونس مائة ســـنة وســـتين وقيل عاش ثمانياً وتسعين سنة وقيل ثمانياً وثمانين سنة لم يتزوج ولم يتســـر ولم تكن له همة إلا طلب العلم ومحادثة الرجال وقال يونس لو تمنيت أن أقول الشـــعر لما تمنيت أن اقول إلا مثل قول عدي بن زيد العبادي (أيها الشـــامت المعير بالدهر * أأنت المبرأ الموفور) قلت وهذا البيت من جملة ابيات سائرة بين الأدباء فيها مواعظ وعبر وبعد هذا البيت (أم لديك العهد القديم من الأيام * بل أنت جاهل مغرور) (من رأيت المنون أخلدن أم من * ذا عليه من أن يضام خفير) (أين كسـرى كسـرى الملوك أنو شـروان * أم اين قبله سابور) (وبنو الأصفر الكرام ملوك الروم * لم يبق

منهم مذكور) (وأخو الحضـــر إذ بناه وإذ دجلة * تجنبى إليه والخابور) (شـاده مرمراً وجلله كلسـاً * فللطير في ذراه وكور) (لم يهبه صرف الزمان فباد الملك * عنه فبابه مهجور) (وتفكر رب الخورنق إذا اشرف * يوماً وللهدى تفكير)
246 (ســـره ملكه وكثرة ما يملك * والبحر معرضاً والسدير) (فارعوى قلبه فقال وما غبطة * حي إلى الممات يصــــير) (ثم بعد الفلاح والملك والأمة * وارتهم هناك القبور) (ثم صــــاروا كأنهم ورق جف فألوت * به الصـــبا والدبور) قلت و هذه الأبيات تحتاج إلى تفسير طويل ولو شرعت فيه لطال الكلام وخرجنـا عن المقصـــود فـان أكثرهـا يتعلق بالتاريخ وفيها شـــيء يتعلق بالأدب فاقتصـــرت على الإتيان بالغرض وتركت الباقي خوفاً من الإطالة فلعل الشـــرح يدخل في أربع خمس كراريس وليس هذا موضـــعه وروى محمد بن سـلام الجمحي عن يونس أنه قال ما بكت العرب على شيء في أشعارها كبكائها على الشباب وما بلغت كنهه فاتبع هذا الكلام منصور النمري فقال من جملة قصيدة طويلة يمدح بها هارون الرشـيد بيتاً وهو (ما كنت أوفي شـبابي كنه غرته * حتى انقضـــى فاذا الدنيا له تبع) (وقال يونس تقول العرب فرقة الأحباب سقم الألباب وأنشد (شيئان لو بكت الدماء عليهما * عيناي حتى يؤذنا بذهاب) (لم يبلغا المعشـــار من حقيهما * شـــرخ الشـــباب وفرقة

الأحباب) وقال يونس لم يقل لبيد في الإسلام سوى بيت واحد وهو
247 (الحمد لله إذ لم يأتني أجلي * حتى لبست من الإسلام سربالا) قال أبو عبيدة معمر بن المثنى قدم جعفر بن سليمان العباسي من عند المهدي الخليفة فبعث إلى يونس بن حبيب فقال له أنا وأمير المؤمنين اختلفنا في هذا البيت (والشيب ينهض في السواد كأنه * ليل يصيح بجانبيه نهار) فما الليل والنهار فقال يونس الليل الليل الذي تعرف والنهار النهار الذي تعرف فقال زعم المهدي أن الليل فرخ الكروان والنهار فرخ الحبارى فقال أبو عبيدة القول في البيت ما قاله يونس والذي قاله المهدي معروف في الغريب من اللغة وقال يونس كان جبلة بن عبد الرحمن يخرج إلى طباخه الرقاع يستدعي بها الطعام وفيها الألفاظ الغريبة الحوشية فلا يدري الطباخ ما فيها حتى يمضي بها إلى ابن أبي إسحاق ويحيى بن يعمر وغيرهما يفسرون ما فيها من الألفاظ فاذا عرف الطباخ ما فيها أتاه بما استدعاه فقال له يوماً ويحك إني أصوم معك فقال له الطباخ سهل كلامك حتى يسهل طعامك فيقول يا ابن اللخناء أفأدع عربيتي لعيك وكان يونس من أهل جبل وهي بليدة على دجلة بين بغداد وواسط وكان لا يؤثر أن ينسب إليها فلقيه رجل من بني أبي عمير فقال له يا ابا عبد الرحمن ما تقول في جبل أتنصرف أم لا فشتمه يونس فالتفت العميري

فلم ير أحداً يشـــهده عليه حتى إذا كان من الغد وجلس للناس أتاه العميري فقال يا أبا عبد الرحمن ما تقول في جبل أتنصــرف أم لا فقال له يونس الجواب ما قلته لك أمس

248 وجبل بفتح الجيم وضـــم الباء الموحدة المشـــددة كذا قاله الحافظ ابن الســـمعاني في كتاب الأنساب وهذه جبل منها أبو الخطاب الجبلي الشاعر المشهور ومن شعره قوله (كم جبت نحوك مهمهاً لو لم يعن * شـــوقي عليه لما قدرت أجوبه) (وركبت أخطاراً إليك مخوفة * ولحبذا خطر إليك ركوبه) قال الســـمعاني وتوفي أبو الخطاب المذكور في ذي القعدة ســـنة تســـع وثلاثين وأربعمائة وكان بينه وبين أبي العلاء المعري مشـــاعرة وكتب إليه أبو العلاء قصـــيدته التي أولها (غير مجد في ملتي واعتقادي) قلت و هذا غلط منه بل كتبها أبو العلاء المعري إلى أبي حمزة الحســـن بن عبد الله الفقيه الحنفي قاضـــي منبج كان وقد ذكر ذلك الفقيه القاضـــي كمال الدين عرف باين العديم الحلبي وحبيب اســـم أمه ولهذا لا يصـــرفونه فانه لا يعرف له اب ويقال إنه ولد ملاعنة ويقال إنه اســـم أبيه فينصــرف والله أعلم وكذلك محمد ابن حبيب النســـابة أيضـــاً ودخل يونس المســـجد يوماً وهو يتهادى بين اثنين من الكبر فقال له رجل كان يتهمه في مودته بلغت ما أرى يا ابا عبد الرحمن فقال

249 هو الذي ترى لا بلغته فأخذ هذا المعنى جماعة من الشـــعراء فنظموه وقال ابو الخطاب زياد بن يحيى مثل يونس كمثل كوز ضيق الراس لا يدخله شـــيء إلا بعســـر فاذا دخله لم يخرج منه يعني أنه لا ينســـى شـــيئاً وقد ذكرت تاريخ مولده وموته في أول الترجمة وقيل إنه توفي سنة ثلاث وثمانين وقيل خمس وثمانين وقال عبد الباقي بن قانع ســـنة أربع وثمانين ومائة والله أعلم وقيل إنه عاش ثمانياً وتســـعين ســـنة رحمه الله تعالى 853 يونس بن عبد الأعلى الصـــدفي أبو موسى يونس بن عبد الأعلى بن موسى بن ميسرة بن حفص بن حيان الصدفي المصـري الفقيه الشـافعي أحد أصـحاب الشـافعي رضـي الله عنه والمكثرين في الروايـة عنـه والملازمـة لـه وكـان كثير الورع متين الدين وكان علامة في علم الأخبار والصـحيح والسقيم لم يشـــاركه في زمانه في هذا أحد وقد ســـبق في هذا لكتاب ذكر حفيده أبي سـعيد عبد الرحمن بن أحمد ابن يونس وهو المنجم المشهور صاحب الزيج وكل واحد منهما إمام في فنة

250 وأخذ يونس القراءة عرضـــاً عن ورش وسقلاب بن شيبة ومعلى بن دحية عن نافع وعن علي بن أبي كيســـة عن ســـليم عن حمزة بن حبيب الزيات وســمع ســفيان بن عيينة وعبد الله بن وهب المصـــري وروى القراءة عنه مواس بن ســـهل ومحمد بن الربيع وأسامة بن أحمد ومحمد بن إسحاق بن خزيمة ومحمد

ابن جرير الطبري وغيرهم وكان محدثاً جليلا وذكره
أبو عبد الله القضاعي في كتاب خطط مصر فقال كان
من أفضـــل أهل زمانه وكان من العقلاء يروى عن
الشافعي رضي الله عنه أنه قال ما رأيت بمصر أعقل
من يونس بن عبد الأعلى وصحب الشافعي وأخذ عنه
الحديث والفقه وحدث بهما عنه جماعة وله حبس في
ديوان الحكم وعقب وله دار مشـــهورة في خطة
الصـــدف مكتوب عليها اســمه وتاريخها ســنة خمس
عشـرة ومائتين وكان أحد الشـهود بمصـر أقام شـاهداً
ســتين ســنة وذكر غير القضـــاعي أن يونس بن عبد
الأعلى روى عنه الإمام مســلم بن الحجاج القشـــيري
وابو عبد الرحمن النســـائي وابو عبد الله ابن ماجه
وغيرهم وقال أبو الحسن ابن زولاق في كتاب أخبار
قضاة مصر إن القاضي بكار بن قتيبة لما تولى قضاء
مصـر وتوجه إليها من بغداد لقي في طريقه محمد ابن
الليث قاضي مصر كان قبله بالجفار خارجاً من مصر
إلى العراق مصـــروفاً فقال له بكار أنا رجل غريب
وأنت قد عرفت البلد فدلني على ما أشـــاوره وأســـكن
إليه فقال له عليك برجلين أحدهما عاقل وهو
251 يونس بن عبد الأعلى فاني سـعيت في دمه
فقدر علي فحقن دمي والآخر أبو هارون موســـى بن
عبد الرحمن بن القاســـم فانه رجل زاهد فقال له بكار
صـــف لي الرجلين فقال له أما يونس فرجل طوال
أبيض ووصفه ووصف موسى فلما دخل بكار مصر

ودخل الناس إليه دخل شـــيخ فيه صـــفة يونس فرفعه بكار واقبل يحدثه ويقول يا ابا موســـى في كل حديثه فبينا بكار كذلك إذ قيل له قد جاء يونس فأقبل على الرجل وقال له يا هذا من أنت وما ســكوتك كذا لو افشـــيت إليك ســـراً لي ثم دخل يونس فأكرمه ورفعه وأتاه موســـى بن عبد الرحمن فاختص بهما وأخذ رأيهما وقيل إن موســى المذكور اختص به القاضــي بكار وكان يتبرك به لزهده فقال له يوماً يا أبا هارون من أين المعيشـــة قال من وقف وقفه أبي فقال له بكار أيكفيك قال قد تكفيت به وقد سـألتي القاضــي فأريد أن أسـاله قال سـل قال هل ركب القاضــي دين بالبصــرة حتى تولى بســببه القضـــاء قال لا قال فهل رزق ولداً أحوجه إلى ذلك قال لا ما نكحت قط قال فهل لك عيال كثيرة قال لا قال فهل أجبرك السـلطان وعرض عليك العذاب وخوفك قال لا قال فضـــربت آباط الإبل من البصرة إلى مصر لغير حاجة ولا ضرورة لله علي لا دخلت عليك ابداً فقال يا أبا هارون اقلني أنت بدأت بالمسـألة ولو سـكت لسـكت ثم انصـرف عنه ولم يعد إليه بعدها وقال يونس رأيت في المنام قائلا يقول لي إن اســـم الله الأكبر لا إلـه إلا الله ونقلت من كتـاب المنتظم في أخبار من ســـكن المقطم قال في ترجمة يونس المذكور ومن حكاياته التي حكاها عن غيره أن رجلاً جاء إلى نحاس فقال له أســـلفني ألف دينار إلى

أجل فقال له النحاس من يضـــمن المبلغ قال الله تعالى فأعطاه ألف دينار فسافر بها الرجل
252 يتجر فلما بلغ الأجل أراد الخروج إليه فحبســـه عدم الريح فعمل تابوتاً وجعل فيه ألف دينار وأغلقه وســـمره والقاه في البحر فقال اللهم هذا الذي ضمنته لي فخرج صاحب المال ينتظر قدوم الذي معه المال فرأى ســـواداً في البحر فقال ايتوني بهذا فأتي بالتابوت ففتحه فاذا فيه ألف دينار ثم إن الرجل جمع ألفاً بعد ذلك وطابت الريح فجاء إلى النحاس وســـلم عليه فقال له النحاس من أنت فقال أنا صـــاحب الألف هذه ألفك فقال النحاس لا اقبلها منك حتى تخبرني ما صـــنعت بها فأخبره بالذي صـــنع وأن الريح لم تطب فقال له النحاس قد أدى الله عز وجل عنك الألف ووصـــلت وله أخبار كثيرة وروايات ماثورة وكان يونس يروي للشافعي رضي الله عنه (ما حك جلدك مثل ظفرك * فتول أنت جميع أمرك) (وإذا قصدت لحاجة * فاقصـــد لمعترف بقدرك) وقال يونس قال لي الشافعي رضي الله عنه يا يونس دخلت بغداد قلت لا قال ما رأيت الدنيا ولا رأيت الناس وقال يونس سمعت من الشافعي كلمة لا تسمع إلا من مثله وهي رضى الناس غاية لا تدرك فانظر ما فيه صلاح نفسك في أمر دينك ودنياك فالزمه وقال علي بن قديد كان يونس بن عبد الأعلى يحفظ الحديث ويقوم به وذكره أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسوي فقال هو ثقة

وقال غيره ولد يونس في ذي الحجة سنة سبعين ومائة وتوفي يوم الثلاثاء ليومين

253 بقيا من شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين ومائتين وهي السنة التي مات فيها المزني رحمه الله تعالى وكانت وفاته بمصر ودفن بمقابر الصدف وقبره مشهور بالقرافة (396) وأما أبوه عبد الأعلى فانه يكنى ابا سلمة وكان رجلا صالحاً ومن كلامه من اشترى ما لا يحتاج إليه باع ما يحتاج إليه وقال ولده يونس والأمر عندي كما قال وتوفي عبد الأعلى المذكور في المحرم سنة إحدى ومائتين ومولده سنة إحدى وعشرين ومائة (397) وأما ابنه ابو الحسن أحمد بن يونس والد أبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد صاحب تاريخ مصر فان ابنه أبا سعيد عبد الرحمن بن أحمد ذكر في تاريخه أنه ولد في ذي القعدة سنة أربعين ومائتين وتوفي يوم الجمعة أول يوم من رجب سنة اثنتين وثلثمائة وقال هو عديد للصدف وليس من أنفس الصدف ولا من مواليهم والصدفي بفتح الصاد والدال المهملتين وبعدهما فاء هذه النسبة إلى الصدف بكسر الدال وذكر السهيلي أنه بكسر الدال وفتحها وإنما فتحوا الدال في النسب مع كسرها في غير النسب كي لا يوالوا بين كسرتين قبل ياءين كما قالوا في النسبة إلى النمر نمري وغير ذلك واختلفوا في اسم الصدف فقيل هو مالك بن سهيل بن عمرو بن قيس هكذا قاله القضاعي في كتاب الخطط وزاد

السـمعاني في كتاب الأنسـاب على هذا النسـب فقال الصـدف بن سـهيل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس ابن وائل بن الغوث بن حيدان بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن هميسـع ابن حمير بن سبأ وقال الدارقطني واسم الصدف شهال بن دعمي بن زياد بن حضـرموت وقال الحازمي في كتاب العجالة في النسب هو

254 عمرو بن مالك والله أعلم وقال القضـاعي دعوتهم مع كندة وإنما سـمي الصـدف لأنه صـدف بوجهه عن قومه حين أتاهم سـيل العرم فأجمعوا على ردمه فصـدف عنهم بوجهه تلقاء حضـرموت فسـمي الصـدف وقيل إنما سـمي الصـدف لأنه كان رجلا شـجاعاً لا يذعن لأحد من العرب فبعث إليه بعض ملوك غسـان رسـولا ليقدم به عليه فعدا على الرسـول فقتله وخرج هارباً فبعث الملك إليه رجلاً في خيل عظيمة فكان كلما جاء حياً من أحياء العرب سـأل عن الصدف فيقولون صدف عنا وما رأينا له وجهاً فسمي الصدف من يومئذ ثم لحق بكندة فنزل فيهم قال أرباب علم النسب أكثر الصدف بمصر وبلاد المغرب والله أعلم قلت قد خرجنا عن المقصـود لكنه ما يخلو عن فائدة 854&&رضـي الدين الإربلي أبو الفضـل يونس بن محمد بن منعة بن مالك بن محمد بن سـعد بن سعيد بن عاصم بن عائد بن كعب بن قيس الملقب رضـي الدين الإربلي والد الشـيخين عماد الدين ابي

حامد محمد وكمال الدين أبي الفتح موسى وقد تقدم ذكرهما قلت هكذا وجدت نسبه بخط بعض اصحابنا المتأدبين ولم أعلم من اين له هذه الزيادة والذي أعرفه من نسبه هو الذي ذكرته في ترجمة ولديه والله أعلم كان الشيخ يونس المذكور من اهل إربل ومولده بها وقدم الموصل

255 فتفقه بها على تاج الإسلام أبي عبد الله الحسين بن نصر المعروف بابن خميس الكعبي الجهني المقدم ذكره وسمع عليه كثيراً من كتبه ومسموعاته ثم انحدر إلى بغداد وتفقه بها على الشيخ أبي منصور سعيد بن محمد بن عمر المعروف بابن الرزاز مدرس النظامية ثم أصعد إلى الموصل وتديرها وصادف بها قبولا تاماً عند المتولي بها الأمير زين الدين أبي الحسن علي بن بكتكين والد الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل المقدم ذكره في حرف الكاف وفوض له تدريس مسجده المعروف به وجعل نظره إليه فكان يدرس ويفتي ويناظر وتقصده الطلبة للاشتغال عليه والمباحثة مع ولديه المذكورين ولم يزل على قدم الفتوى والتدريس والمناظرة إلى أن توفي بالموصل يوم الاثنين سادس المحرم سنة ست وسبعين وخمسمائة وسمعت بعض خواصهم يقول توفي سنة خمس وسبعين وأما ولده الشيخ كمال الدين فكان يقول بل توفي سنة ست وسبعين وهو أعلم بذلك ودفن بتربته المجاورة لمسجد

زين الدين المذكور رحمه الله تعالى وكان عمره ثمانياً وستين سنة وقد تقدم ذكر حفيده ايضاً شرف الدين أحمد بن الشيخ كمال الدين موسى بن يونس المذكور رحمهم الله تعالى وعلى الجملة فإنه خرج من بيتهم جماعة من الفضلاء وانتفع بهم أهل تلك البلاد وغيرهم وكانوا مقصودين من بلاد العراق والعجم وغيرها رحمهم الله تعالى أجميعن وله شعر فمن ذلك قوله (لها زورة في كل عام وتارة * تمر شهور الحول لا نتجمع) (وصال وصد لا لشيء سوى انها * على خلق الدنيا تجود وتمنع) وله غير ذلك والله أعلم

256 يونس المخارقي يونس بن يوسف بن مساعد الشيباني ثم المخارقي شيخ الفقراء اليونسية وهم منسوبون إليه ومعروفون به وكان رجلاً صالحاً وسألت جماعة من أصحابه عن شيخه من كان فقالوا لم يكن له شيخ بل كان مجذوباً وهم يسمون من لا شيخ له بالمجذوب يريدون بذلك أنه جذب إلى طريق الخير والصلاح ويذكرون له كرامات أخبرني الشيخ محمد بن أحمد بن عبيد كان قد رآه وهو صغير وذكر أن أباه أحمد كان صاحبه فقال كنا مسافرين والشيخ يونس معنا فنزلنا في الطريق على عين بوار وهي التي يجلب منها الملح البواري وهي بين سنجار وعانة قال وكانت الطريق مخوفة فلم يقدر أحد منا أن ينام من شدة الخوف ونام الشيخ يونس فلما انتبه قلت له

كيف قدرت تنام فقال لي والله ما نمت حتى جاء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وتدرك القفل فلما اصبحنا رحلنا سالمين ببركة الشيخ يونس قال وعزمت مرة على دخول نصيبين وكنت عند الشيخ يونس في قريته فقال إذا دخلت البلد فاشتر لأم مساعد كفناً قال وكانت في عافية وهي أم ولده فقلت له وما بها حتى نشتري لها كفناً فقال ما يضر فذكر أنه لما عاد وجدها قد ماتت وذكر له غير هذا من الأحوال والكرامات

257 وأنشد له مواليا وهو (أنا حميت الحمى وأنا سكنتو فيه * وأنا رميت الخلايق في بحار التيه) (من كان يبغي العطا مني أنا أعطيه * انا فتى ما أداني من به تشبيه) وذكر لي الشيخ محمد المذكور أن الشيخ يونس توفي سنة تسع عشرة وستمائة في قريته وهي القنية من أعمال دارا وهي بضم القاف وفتح النون وتشديد الياء المثناة من تحتها تصغير قناة وقبره مشهور بها يزار وكان قد ناهز تسعين سنة من عمره رحمه الله تعالى

258 قال المصنف ما مثاله نجز الكتاب الذي سميته وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان بحمد الله ومنه وذلك في يوم الاثنين العشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وسبعين وستمائة بالقاهرة المحروسة يقول الفقير إلى الله تعالى أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان مؤلف هذا الكتاب :

إنني كنت قد شــــرعت في هذا الكتاب في التاريخ المذكور في أوله على الصورة التي شرحها هناك مع استغراق الأوقات في فصل القضايا الشرعية والأحكام الدينية بالقاهرة المحروســـــة فلما انتهيت فيه إلى آخر ترجمة يحيى بن خالد ابن برمك حصــــلت لي حركة إلى الشام المحروس في خدمة الركاب العالي المولوي الســـلطاني المجاهدي المرابطي المفاخري المؤيدي المنصـــوري الغيـاثي المنعمي المحســـني الملكي الظاهري ركن الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين أبي الفتح بيبرس قسيم أمير المؤمنين خلد الله سلطانه وشــــيد بدوام دولته قواعد الملك وثبت أركانه وكان الخروج من القاهرة المحروسة يوم الأحد سابع شوال سنة تسع وخمسين وستمائة ودخلنا دمشق يوم الاثنين ســابع ذي القعدة من الســـنة المذكوره وقلدني الأحكام بالبلاد الشامية يوم الخميس ثامن ذي الحجة من السنة المذكورة فتراكمت الأشغال وكثرت الموانع الصارفة عن إتمام هذا الكتاب فاقتصـــرت على ما كنت قد اثبته من ذلك وختمت الكتاب واعتذرت في آخره بهذه الشـــواغل عن إكماله وقلت إن قدر الله تعالى مهلة في الأجل وتســـهيلا في العمل أســـتأنف يكون كتاباً جامعاً لجميع ما تدعو الحاجة إليه في هذا الباب

259 ثم حصـل الانفصـال عن الشـام والرجوع إلى الديار المصــــرية وكان مدة المقام بدمشـــق المحروســـة مدة عشــر ســنين كوامل لا تزيد يوماً ولا

تنقص يوماً فاني دخلتها في التاريخ المذكور وخرجت منها بكرة نهار الخميس ثامن ذي القعدة من سنة تسع وستين وستمائة فلما وصلت إلى القاهرة صادفت بها كتبا كنتً أوثر الوقوف عليها وما كنت أتفرغ لها فلما صرت أفرغ من حجام ساباط بعد أن كنت أشغل من ذات النحيين كما يقال في هذين المثلين طالعت تلك الكتب وأخذت منها حاجتي ثم تصديت لإتمام هذا الكتاب حتى كمل على هذه الصورة وأنا على عزم الشروع في الكتاب الذي وعدت به إن قدر الله تعالى ذلك والله يعين عليه ويسهل الطرق المؤدية إليه فمن وقف على هذا الكتاب من أهل العلم ورأى فيه شيئاً من الخلل فلا يعجل بالمؤاخذة فيه فاني توخيت فيه الصحة حسبما ظهر لي مع أنه كما يقال أبى الله أن يصح إلا كتابه لكن هذا جهل المقل وبذل الاستطاعة وما يكلف الإنسان إلا ما تصل قدرته إليه وفوق كل ذي علم عليم وقد تقدم في اول هذا الكتاب الاعتذار عن الدخول في هذا الأمر والحامل عليه فأغنى عن إعادته ها هنا والله يستر عيوبنا بستر كرمه الضافي ولا يكدر علينا ما منحنا من مشرع أغضائه النمير الصافي إن شاء الله تعالى.